

لِقْسِيرُ الْقَرْآنُ الْعَظِيمُ

للإمام الحافظ تمام الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر
ابن كثير الدمشقي
المُسوِّق سنة ٧٧٤ هـ

وَصَعَ حَوَاشِيهَ وَعَلَوَ عَلَيْهِ
مُحَمَّدُ مُصْرِفُ شَعْرَانُ الدِّين

الجزء الخامس

المحتوى:

من أول سورة الإسراء - إلى آخر سورة المؤمنون

مُنشَرَاتٌ
محمدُ لَيْ بِرْهَنُ
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب
العلمية بيروت - لبنان ويعذر طبع أو تصوير أو ترجمة
أو إعادة تضليل الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات
صوتية إلا موافقة الناشر خطياً.

Copyright © All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

دار الكتب العلمية لبنان - بيروت

العنوان : رمل الظريف، شارع البحيري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٤٢٩٨ - ٣٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٢ (٩٦١ ١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٩٤ - ١١ - بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2221-5

9 0 0 0 0 >



9 782745 122216

<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>
e-mail : baydoun@dm.net.lb

تفسير سورة الإسراء وهي مكية

قال الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : حدثنا آدم بن أبي إياس ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن يزيد ، سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : انهن من العتاق الأول^(١) وهن من تلادي^(٢) . وقال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد بن زيد عن مروان عن أبي لبابة ، سمعت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى يقول ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى يقول ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَرَّكَنَا حَوْلَهُ لِنَرِيهِ مِنْ كَيْنَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، (الذي أسرى عبده) يعني محمداً ﷺ (ليلاً) أي في جنح الليل (من المسجد الحرام) وهو مسجد مكة (إلى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس الذي بإيليا^(٤) معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . قوله تعالى : (الذي باركنا حوله) أي في الزروع والشمار (لنريه) أي محمداً [من آياتنا] أي العظام . كما قال تعالى : (لقد رأى من آيات ربِّهِ الْكَبْرَى) [سورة النجم الآية ١٨] وستذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ ، قوله تعالى : (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أي

(١) العتاق : جمیع عتیق ، وهو القديم ، والعتاق الأول : أي السور التي أنزلت أولاً بمکة ، وأنها أول ما تعلمه ص من القرآن .

(٢) الثالث : القديم . والحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٧ باب ١ . وفضائل القرآن باب ٦ .

(٣) المستند ٦ / ١٨٩ .

(٤) إيليا : القدس وهم اسمان للمدينة التي بها المسجد الأقصى .

السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاماً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

(ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء: رواية أنس بن مالك رضي الله عنه)

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حديثي عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أول لهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمم، فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته^(١) حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولгадيده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب بباباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريده الله به في الأرض حتى يعلمه، يوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه ورد عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرتين يطردان فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذان النيل والفرات عنصرهما.

ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خباء لك ربك.

ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله

(١) لبته: اللبة، بفتح اللام: موضع التحر.

تعالى، فقال موسى : رب لم أظن أن يرفع علي أحدٌ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .

ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : «عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم . فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه : «يا رب خف عننا فإن أمتي لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه ، فلم يزل يرده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخامس فقال : يا محمد والله لقد راودتبني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يتلفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل .

فرفعه عند الخامسة فقال «يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عننا» فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد . قال «لبيك وسعديك» قال : إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك في أم الكتاب ، فكل حسنة بعشر أمثالها فهي حمسون في أم الكتاب ، وهي خمس عليك ، فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال «خفف عننا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى : قد والله راودتني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً . قال رسول الله ﷺ : «يا موسى قد والله استحييت من ربي عز وجل مما أختلف إليه» قال : فاهبط باسم الله .

قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام^(١) .

هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد ، ورواه في صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه أبي بكر عبد الحميد عن سليمان بن بلال . ورواه مسلم عن هارون بن سعيد عن ابن وهب عن سليمان قال فزاد ونقص وقدم وأخر ، وهو كما قال مسلم فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه كما سيأتي بيانه إن شاء الله في الأحاديث الأخرى ، ومنهم من يجعل هذا مناماً توطة لما وقع بعد ذلك والله أعلم .

وقد قال الحافظ أبو بكر البهقي في حديث شريك زيادة تفرد بها ، على مذهب من زعم أنه ^{عليه السلام} رأى الله عز وجل يعني قوله ، «ثم دنا» الجبار رب العزة ^{﴿فتدى﴾} فكان قاب قوسين أو

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥ ، والتوحيد باب ٣٧ ، ومسلم في الإيمان حديث ٢٦٣ .

أدنى^(١). قال وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح، وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبو ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى رأاه» وفي رواية: «رأيت نوراً» أخرجه مسلم^(٢).

وقوله: «ثم دنا فتدلى» إنما هو جبريل عليه السلام، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البغدادي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند متهي طرفه، فركبت فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتناني جبريل بإياء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا فإذا أنا بأدم فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت. قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت قال: جبريل فقيل ومن معك فقال محمد فقيل وقد أرسل له قال قد أرسل له ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بداريس فرحب بي ودعا لي بخير ثم يقول الله تعالى: «ورفعناه مكاناً علينا».

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال جبريل قيل ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل

(١) كتاب الإيمان حديث ٢٩١.

(٢) المسند ١٤٨/٣، ١٤٩.

فقيل من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. فقيل وقد بعث إليه؟ قال قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كاذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيتها من أمر الله ما غشيتها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها.

قال: فأوحى الله إلي ما أوحى، وقد فرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك وإنني قد بلوتبني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت أي رب خف عن أمتي فحط عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال ما فعلت؟ فقلت قد حط عني خمساً فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعلمهها كتبته له حسنة، فإن علمها كتب عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعلمهها لم تكتب، فإن عملها كتب سبعة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت» ورواه مسلم^(١) عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة بهذا السياق، وهو أصح من سياق شريك.

قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المراجح كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس، وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عمر عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مسرجاً ملجمًا ليركبه، فاستصعب عليه فقال له جبريل: ما يحملك على هذا فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه؟ قال: فارفض عرقاً^(٣)، ورواه الترمذى^(٤) عن إسحاق بن منصور عن عبد الرزاق، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال أحمد أيضًا^(٥): حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعيد وعبد الرحمن بن جبير عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي إلى ربي عز وجل

(١) كتاب الإيمان حديث ٢٥٩.

(٢) المسند ١٦٤/٣.

(٣) ارفض عرقاً: أي جرى عرقه وسال.

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٧، باب ٢.

(٥) المسند ٢٢٤/٣.

مررت بقوم لهم أنظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدروهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» وأخرجه أبو داود^(١) من حديث صفوان بن عمرو به، ومن وجه آخر ليس فيه أنس، فالله أعلم، وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن سليمان التيمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على موسى عليه السلام قائماً يصلني في قبره»^(٢).

ورواه مسلم^(٣) من حديث حماد بن سلمة عن سليمان بن طرخان التيمي وثبت البناي، كلاهما عن أنس، قال النسائي: هذا أصح من رواية من قال سليمان عن ثابت عن أنس، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد عن التيمي عن أنس قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ليلة أسري به، مر على موسى وهو يصلني في قبره، وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، حدثنا معتمر عن أبيه قال: سمعت أنساً أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر بموسى وهو يصلني في قبره، قال أنس ذكر أنه حمل على البراق فأوثق الدابة أو قال الفرس. قال أبو بكر: صفتها لي، فقال رسول الله ﷺ: «هي كذلك وهذه» فقال: أشهد أنك رسول الله. وكان أبو بكر رضي الله عنه قد رأها.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام فوكر بين كتفني فقمت إلى شجرة فيها كوكري الطير، فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر، فسمت وارتقت حتى سدت الخافقين، وأنا أقلب طرفي ولو شئت أن أمس السماء لمست، فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاط^(٤) فعرفت فضل علمه بالله علي، وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت وأوحى إلي ما شاء الله أن يوحى» ثم قال ولا نعلم روى هذا الحديث إلا أنس ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة.

ورواه الحافظ البيهقي في الدلائل عن أبي بكر القاضي عن أبي جعفر محمد بن علي بن دحيم عن محمد بن الحسين بن أبي الحسين، عن سعيد بن منصور فذكره بسنده مثله ثم قال وقال غيره في هذا الحديث في آخره ولط دوني، أو قال دون الحجاب رفرف الدر والياقوت، ثم قال هكذا رواه الحارث بن عبيد ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن

(١) كتاب الأدب باب ٣٥.

(٢) آخرجه أحمد في المسند ١٢٠/٣.

(٣) كتاب الفضائل حديث ١٦٤.

(٤) الجلس، بكسر فسكون: الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت نقاب، ولط بالأمر ياطه لطاً: لزمه.

عمير بن عطارد، أن النبي ﷺ كان في ملأ من أصحابه فجاءه جبريل فنكت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكري الطير، فقعد في أحدهما وقعد جبريل في الآخر فشأت بنا حتى بلغت الأفق، فلو بسطت يدي إلى السماء لتنتها فدللي بسبب وهبط إلى التور فوق جبريل مغشياً عليه كأنه حلس، فعرفت فضل خشيته على خشيتي فأوحى إلي نبياً ملكاً أو نبياً عبداً وإلى الجنة ما أنت، فأوّما إلى جبريل وهو مضطجع أن تواضع قال قلت لا بل نبياً عبداً.

قلت : وهذا إن صح يقتضي أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس ولا الصعود إلى السماء فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم وقال البزار أيضاً : حدثنا عمرو بن عيسى حدثنا أبو بحر ، حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس أن محمداً ﷺ رأى ربه عز وجل ، وهذا غريب .

وقال أبو جعفر بن جرير^(١) : حدثنا يونس ، حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس بن مالك قال : لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكانها حركت ذنبها ، فقال لها جبريل له يا براق فوالله ما ركبك مثله ، وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجز على جانب الطريق فقال : «ما هذه يا جبريل؟» قال : سر يا محمد ، قال فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شيء يدعوه متنيحاً عن الطريق فقال هل يا محمد ، فقال له جبريل : سر يا محمد فسار ما شاء الله أن يسير ، قال فلقيه خلق من خلق الله فقالوا السلام عليك [يا أول] ، السلام عليك [يا آخر] ، السلام عليك يا حاضر ، فقال له جبريل اردد السلام يا محمد فرد السلام ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى ثم الثالثة كذلك ، حتى انتهى إلى بيت المقدس فعرض عليه الخمر والماء واللبن فتناول رسول الله ﷺ اللبن ، فقال له جبريل أصبت الفطرة ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغوست ولغوت أمتك ، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة . ثم قال له جبريل : أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز . وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه ، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن وهب . وفي بعض ألفاظه نكارة وغراوة .

[طريق أخرى] عن أنس بن مالك ، وفيها غرابة ونكارة جداً وهي في سنن النسائي والمجتبى^(٢) ولم أرها في الكبير قال : حدثنا عمرو بن هشام ، حدثنا مخلد هو ابن الحسين عن سعيد بن عبد العزيز ، حدثنا يزيد بن أبي مالك حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند منتهى طرفيها ، فركبت ومعي جبريل عليه

(١) تفسير الطبرى ٧/٨ .

(٢) كتاب الصلاة باب ١ .

السلام فسرت فقال انزل فصلّ فصليت فقال أتدري أين صليت؟ صليت بطيبة وإليها المهاجرة، ثم قال انزل فصل فصليت فقال أتدري أين صليت؟ صليت بطور سيناء حيث كلام الله موسى، ثم قال انزل فصل فصليت، فقال أتدري أين صليت؟ صليت بيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل عليه السلام حتى أمتهن ثم صعد بي إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويعيى عليهما السلام، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام.

ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام، ثم صعد بي فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى فغشيتني ضبابة فخررت ساجداً فقيل لي إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك فرجعت بذلك حتى أمر بموسى عليه السلام، فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة، قال فإنك لا تستطيع أن تقوم بها لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فرجعت إلى ربى فخفف عنى عشرأً، ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع فرجعت فخفف عنى عشرأً، ثم ردت إلى خمس صلوات، قال فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنه فرض علىبني إسرائيل صلاتين بما قاموا بهما، فرجعت إلى ربى عز وجل فسألته التخفيف، فقال إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك، قال فعرفت أنها من الله عز وجل صرّى فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال ارجع فعرفت أنها من الله عز وجل صرّى - يقول أي حتم - فلم أرجع».

[طريق أخرى] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان ليلة أسرى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها ينتهي طفها، فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يقال له باب محمد ﷺ أتى إلى الحجر الذي ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فتبه، ثم ربطها ثم صعد فلما استويا في صرحة المسجد قال جبريل يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ فقال «نعم» فقال فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة، قال: «فأتيهن فسلمت عليهن فرددن علي السلام فقلت من أنت؟ فقلن: نحن خيرات حسان نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا. وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا، قال ثم انصرفت فلم ألب إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال فقمنا صفوفاً ننتظر من

يؤمنا فأخذ بيدي جبريل عليه السلام فقد مني فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل : يا محمد أتدرى من صلى خلفك ؟ - قال - قلت لا - قال صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل .

قال : ثم أخذ بيدي جبريل فصعد بي إلى السماء ، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا من أنت ؟ قال أنا جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم - قال - ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك - قال - فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم ، فقال لي جبريل يا محمد ألا تسلم على أبيك آدم - قال - قلت بلـى ، فأتيته فسلمت عليه فرد علي وقال مرحباً ببني الصالح والنبي الصالح - قال - ثم عرج بي إلى السماء الثانية ، فاستفتح فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ، قال نعم ، ففتحوا له وقال مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام ، - قال - ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قالوا من أنت ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم ، ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك ، فإذا فيها يوسف عليه السلام ، ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح قالوا من أنت ؟ قال جبريل ، فقالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم - قال - ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها إدريس عليه السلام - قال - فخرج بي إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم - قال - ففتحوا وقالوا مرحباً بك وبمن معك وإذا فيها هارون عليه السلام .

ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت ، قال جبريل ، قالوا ومن معك ، قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم - قال - ففتحوا وقالوا مرحباً بك وبمن معك ، وإذا فيها موسى عليه السلام ، ثم عرج بي إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل فقالوا من أنت ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها إبراهيم عليه السلام فقال جبريل يا محمد ألا تسلم على أبيك إبراهيم ؟ قلت بلـى ، فأتيته فسلمت عليه فرد علي السلام وقال مرحباً ببني الصالح والنبي الصالح ، ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة حتى انتهى بي إلى نهر عليه خدام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وعليه طير أحضر أنعم طير رأيت ، فقلت يا جبريل إن هذا الطير لناعم قال يا محمد أكله أنعم منه ، ثم قال يا محمد أتدرى أي نهر هذا - قال - قلت لا ، قال هذا الكوثر الذي أعطاك الله أيامه ، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمرد ما وله أشد بياضاً من اللبن - قال - فأخذت من آنية من الذهب ، فاغترفت من ذلك الماء فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك .

ثم انطلق بي حتى انتهيت إلى الشجرة فعشيشتي سحابة فيها من كل لون [فرضني] جبريل وخررت ساجداً لله عز وجل فقال الله لي : يا محمد إني يوم خلقت السموات والأرض افترضت

عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك - قال - ثم انجلت عني السحابة فأخذ بيدي جبريل فانصرفت سريعاً، فأتيت على إبراهيم فلم يقل شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال ما صنعت يا محمد؟ فقلت فرض ربى علي وعلى أمتي خمسين صلاة. قال فلن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك، فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة فغشيتني السحابة ورفضني جبريل وخررت ساجداً وقلت ربى إنك فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة ولن أستطيعها أنا ولا أمتي فخفف عننا، قال قد وضعتم عنكم عشراً - قال - ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريل - قال - فانصرفت سريعاً حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال لي ما صنعت يا محمد؟ فقلت وضع عنني ربى عشراً قال فأربعون صلاة لن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم. فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات وخمس بخمسين ثم أمره موسى أن يرجع فيسأله التخفيف فقال، «إني استحييت منه تعالى».

قال ثم انحدر فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما لي لم آت أهل سماء إلا رحوباً بي وضحكوا لي غير رجل واحد فسلمت عليه فرد عليه السلام ورحب بي ولم يضحك لي» قال: يا محمد ذاك مالك، خازن جهنم، لم يضحك منذ خلق ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك، قال ثم ركب منصراً فينا هو في بعض الطريق من بعير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غراراتان سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالغير نفرت منه واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عمما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبو بكر فقالوا يا أبو بكر هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ورجع في ليلته، فقال أبو بكر رضي الله عنه إن كان قاله فقد صدق وإنما لصدقه فيما هو أبعد من هذا لصدقه على خبر السماء فقال المشركون لرسول الله ﷺ ما علامة ما تقول قال مرت بعير لقريش وهي في مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غراراتان سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما قدمت العير سألهوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق سألهو و قالوا هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى؟ قال نعم قالوا فصفهم لنا قال: «أما موسى فرجل أدم كأنه من رجال أزد عمان، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان»^(١). هذا سياق فيه غرائب عجيبة.

رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال: «بينما أنا في الحطيم

- وربما قال قتادة في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت ، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة - قال - فأتأني فقد - سمعت قتادة يقول فشق - ما بين هذه إلى هذه» وقال قتادة فقلت للجارود وهو إلى جنبي : ما يعني ؟ قال : من ثغرة نحره إلى شعرته ، وقد سمعته يقول من قصته إلى شعرته قال : «فاستخرج قلبي - قال - فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشى ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» قال فقال الجارود : هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه .

قال : «فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقيل : مرحباً به ولنعم المجيء عليه - قال - ففتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام ، قال هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا ؟ فقال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء قال ففتح لنا ، فلما خلصت فإذا عيسى وبهذا يحيى وهما ابنا الخالة ، قال هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما - قال - فسلمت عليهم فردا السلام ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل من هذا ؟ فقال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء - قال - قال ففتح لنا ، فلما خلصت فإذا يوسف عليه السلام قال هذا يوسف - قال - فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء - قال ففتح لنا فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام قال هذا إدريس ، قال هذا إدريس ، قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح .

- قال - ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء ، ففتح لنا فلما خلصت فإذا هارون عليه السلام قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح - قال - فلما تجاوزته بكى قيل له : ما يبكيك ؟

- قال - ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء ، ففتح لنا فلما خلصت فإذا بموسى عليه السلام قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح - قال - فلما تجاوزته بكى قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي .

قال ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح فقيل من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل أو قد بعث إليه؟ قال نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام فقال هذا إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح - قال - ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال هذه سدرة المنتهى، قال وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات - قال - ثم رفع إلى البيت المعمور».

قال قتادة: وحدثنا الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه.

ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». - قال - فأخذت اللبن قال هذه الفطرة أنت عليها وأمتك - قال - ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم - قال - فنزلت حتى أتيت موسى، فقال ما فرض ربك على أمتك؟ قال فقلت خمسين صلاة كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإنني خبرت الناس بذلك، وعالجتبني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك - قال - فرجعت فوضععني عشرأ - قال - فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت؟ قلت بأربعين صلاة كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنني قد خبرت الناس بذلك وعالجتبني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

- قال - فرجعت فوضععني عشرأ آخر، فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت؟ فقلت أمرت بثلاثين صلاة، قال إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإنني قد خبرت الناس بذلك وعالجتبني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك - قال - فرجعت فوضععني عشرأ آخر، فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت؟ فقلت أمرت بعشرين صلاة كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم، وإنني قد خبرت الناس بذلك وعالجتبني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

- قال - فرجعت فوضععني عشرأ آخر، فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت؟ فقلت أمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإنني قد خبرت الناس بذلك وعالجتبني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك - قال - فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال بما أمرت قال أمرت بخمس صلوات كل يوم فقال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإنني قد خبرت الناس بذلك وعالجتبني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك - قال - قلت قد

سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضي وأسلم، فنفدت فنادي مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي^(١) وأخر جاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه.

رواية أنس عن أبي ذر

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بکير، حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل فرق صدرى ثم غسله بماء زمم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدرى، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم فلما فتح علينا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسوده وعلى يساره أسوده، إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها افتح، فقال له خازنها مثل ما قاله الأول، ففتح» قال أنس فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل والنبي ﷺ بيادريس.

قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: إدريس، ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم. قال الزهري: فأخبرني ابن حزم عن أن ابن عباس هو وأبا حبة الأنصارى كانوا يقولان: قال النبي ﷺ «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام».

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق

(١) آخر جه البخاري في بدء الحلقة باب ٦، ومناقب الأنصار باب ٤٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٥٩.

ذلك، فرجعت فوضع شطراها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدلي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت: قد استحييت من ربى، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المتهى فغشيتها ألوان لا أدرى ما هي، ثم دخلت الجنة، فإذا فيها جبال اللؤلؤ، وإذا ترابها من المسك^(١) وهذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، ورواه في ذكربني إسرائيل وفي الحج وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى عن يونس به، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان منه عن حرملة عن ابن وهب عن يونس به نحوه.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عفان، حدثنا همام عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إنني قد سأله، فقال: قد رأيته نوراً أنى رأاه^(٣) هكذا قد وقع في روایة الإمام أحمد، وأخرجه مسلم^(٤) في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى رأاه». وعن محمد بن بشار عن معاذ بن هشام: حدثنا أبي عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: رأيت نوراً^(٥).

رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد المسيبي، حدثنا أنس بن عياض، حدثنا يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبي بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرق صدره ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطبست من ذهب ممتليء حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدره، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء فلما جاء السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسوده، وعن يساره أسوده، فإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ١، والأنبياء باب ٥، والتوحيد باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث .٢٦٣

(٢) المسند ١٤٧/٥.

(٣) كتاب الإيمان حديث .٢٩١

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث .٢٩٢

نسم بنيه، فأهل يمينه هم أهل الجنة، والأسودية التي عن شماله هم أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى - قال - ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا، ففتح له» قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وإبراهيم وعيسى، ولم يثبت لي كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم عليه السلام في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ بإدريس قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قال «قلت من هذا يا جبريل؟» قال: هذا إدريس - قال ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت من هذا؟ قال: موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم - قال - ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم».

قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا جبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ «فرض الله على أمتي خمسين صلاة»، قال: فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة فقال لي موسى: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى، قال: فرجعت إلى موسى، فقال، راجع ربك فقلت: قد استحييت من ربي، قال: ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى، قال: فغشتها ألوان ما أدرى ما هي، قال: ثم دخلت الجنة، فإذا فيها جبال المؤلؤ، وإذا ترابها المسك» هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسنده أبيه^(١)، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس عن الزهري، عن أنس عن أبي ذر مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم.

رواية بريدة بن الحصيب الإسلامي

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن الم توكل ويعقوب بن إبراهيم واللفظ له، قال: حدثنا أبو نميلة، حدثنا الزبير بن جنادة عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «لما كان ليلة أسرى بي - قال - فأتى جبريل الصخرة التي بيت المقدس - قال - فوضع أصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق» ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا

أبو نميلة، ولا نعلم هذا الحديث إلا عن بريدة، وقد رواه الترمذى^(١) في التفسير من جامعه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى به، وقال غريب.

رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»^(٣) أخر جاه في الصحيحين من طرق عن حديث الزهرى به.

وقال البيهقي: حدثنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وأنه أتى بقدحين: قدح من لبن وقدح من خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن، فقال جبريل: أصبت هديت للفطرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسرى به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه.

وقال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز، أو كلمة نحوها، ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فبها سمي أبو بكر الصديق.

قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

رواية حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا أبو النضر، حدثنا سليمان عن شيبان، عن عاصم، عن زر بن

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٧، باب ٢.

(٢) المستند ٣٧٧/٣.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٧، باب ٣، ومسلم في الإيمان حديث ٢٧٦.

(٤) المستند ٣٩٢، ٣٨٧/٥.

حبش قال: أتت على حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وهو يحدث عن ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: فانطلقا حتى أتينا بيت المقدس فلم يدخلاه، قال: قلت: بل دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً وصلى فيه، قال: ما اسمك يا أصلع؟ فإني أعرف وجهك، ولا أدرى ما اسمك، قال: قلت أنا زر بن حبش، قال: فما علمك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فيه ليلاً؟ قال: قلت القرآن يخبرني بذلك، قال: فمن تكلم بالقرآن فلज اقرأ، قال: فقلت: ﴿سبحان الذي أسرى بيده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ قال: يا أصلع، هل تجد صلی فيه؟ قلت: لا.

قال: والله ما صلی فيه رسول الله ليلاً، لو صلی فيه لكتب عليكم صلاة فيه كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق، والله ما زايل البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما، قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه. قال: ويحدثونه أنه ربطة لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة، قلت: يا عبد الله، أي دابة البراق؟ قال: دابة أبيض طويل، هكذا خطوه مد البصر^(١). ورواه أبو داود الطيالسي عن حماد بن سلمة، عن عاصم به. ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث عاصم وهو ابن أبي النجود به. وقال الترمذى: حسن، وهذا الذى قاله حذيفة رضي الله عنه وما أثبته غيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربط الدابة بالحلقة، ومن الصلاة بيت المقدس مما سبق وما سيأتي مقدم على قوله، والله أعلم بالصواب.

رواية أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة: حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو محمد راشد الحمانى عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له أصحابه: يا رسول الله، أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها. قال: قال الله عز وجل ﴿سبحان الذي أسرى بيده ليلاً﴾ الآية: قال: فأخبرهم، قال: «فَيَنِمَا أَنَا نَائِمٌ عَشَاءْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِذْ أَتَانِي أَتَ فَأَيْقُظْنِي، فَاسْتِيقْظَتْ فِلْمَ أَرْ شَيْئًا، إِذَا أَنَا بِكَهْيَةِ خَيْالٍ فَأَتَبْعَثُهُ بَصَرِي حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَإِذَا أَنَا بِدَابَّةٍ أَدْنَى شَبَهًا بِدَوَابِكُمْ هَذِهِ، بَغَالَكُمْ هَذِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ مُضْطَرِبٌ الْأَذْنَيْنِ يُقَالُ لَهُ الْبَرَاقُ، وَكَانَ الْأَنْبِيَاءُ تَرْكَبُهُ قَبْلِي، يَقْعُدُ حَافِرَهُ عَنْدَ مَدْبُصَرِهِ، فَرَكِبَتِهِ، فَيَنِمَا أَنَا أَبْسِرُ عَلَيْهِ إِذْ دَعَانِي دَاعٌ مِنْ يَمِينِي: يَا مُحَمَّدَ انْظُرْنِي أَسْأَلُكَ، يَا مُحَمَّدَ انْظُرْنِي أَسْأَلُكَ، يَا مُحَمَّدَ انْظُرْنِي أَسْأَلُكَ، فَلَمْ أَجِهْ وَلَمْ أَقْمِ عَلَيْهِ،

(١) آخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٧ ، باب ١٧ .

في بينما أنا أسيء عليه إذ دعاني داع عن يسارني : يا محمد انظرني أسألك ، فلم أجبه ولم أقم عليه ، في بينما أنا أسيء إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله ، فقالت : يا محمد ، انظرني أسألك ، فلم ألتقط إليها ولم أقم عليها حتى أتيت بيت المقدس ، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء توثقها بها .

ثمأتاني جبريل عليه السلام بإثنين : أحدهما خمر والآخر لبن ، فشربت اللبن وأبكيت الخمر ، فقال جبريل : أصبت الفطرة ، أما إنك لوأخذت الخمر غوت أمتك ، فقلت : الله أكبر الله أكبر ، فقال جبريل : ما أریت في وجهك هذا ؟ قال : فقلت بينما أنا أسيء إذا دعاني داع عن يميني : يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه ، قال ذاك داعي اليهود ، أما إنك لو أجبته أو وفقت عليه لتهودت أمتك - قال - في بينما أنا أسيء إذا دعاني داع عن يسارني قال : يا محمد انظرني أسألك فلم ألتقط ولم أقم عليه ، قال : ذاك داعي النصارى أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك - قال - في بينما أنا أسيء إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها الله تقول : يا محمد انظرني أسألك فلم أجبها ولم أقم عليها ، قال : تلك الدنيا ، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

قال : ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منا ركعتين ، ثم أتيت بالمعراج الذي كانت ترعرع عليه أرواح بنى آدم فلم ير الخلائق أحسن من المعراج أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء ، فإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عجبه بالمعراج ، قال : فصعدت أنا وجبريل ، فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك .

قال : قال الله عز وجل : «**وَمَا يَعْلَمُ جِنْدُوكَ إِلَّا هُوَ**» [المدثر : ٣١] قال : فاستفتح جبريل بباب السماء ، قيل : من هذا ؟ قال جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : نعم ، فإذا أنا بأدَم كهيته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار ، فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين ، فمضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال .

قال : ثم مضيت هنيهة ، فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، قال : فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ، ثم يخرج من أسفلهم فسمعوا يضاجون إلى الله عز وجل فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء من أمتك **«الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً»** [النساء : ١٠] قال : ثم مضيت هنيهة ، فإذا أنا بنساء تعلقن

بَثِيْهِنَ، فَسَمِعْتُهُنَ يَضْجُجُنَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَلْتَ: يَا جَبْرِيلَ مِنْ هُؤُلَاءِ النِّسَاءِ؟ قَالَ: هُؤُلَاءِ الزِّنَادَةِ مِنْ أَمْتَكَ. قَالَ: ثُمَّ مَضِيْتَ هَنِيْهَةً، فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامَ بَطْوَنَهُمْ أَمْثَالَ الْبَيْوَاتِ كَلْمَا نَهَضَ أَحَدُهُمْ خَرَّ فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَقْرُمَ السَّاعَةَ. قَالَ: وَهُمْ عَلَى سَابِلَةِ آلِ فَرْعَوْنَ، قَالَ: فَتَجْجِيْءُ السَّابِلَةَ فَطَوْهُمْ، قَالَ فَسَمِعْتُهُمْ يَضْجُجُونَ إِلَى اللَّهِ - قَالَ - قَلْتَ يَا جَبْرِيلَ مِنْ هُؤُلَاءِ؟ قَالَ: هُؤُلَاءِ مِنْ أَمْتَكَ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَّا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخْبَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قَالَ: ثُمَّ مَضِيْتَ هَنِيْهَةً، فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامَ يَقْطَعُ مِنْ جَنُوْبِهِمُ الْلَّحْمَ فَيَقْتُمُونَهُ، فَيَقَالُ لَهُ: كُلْ كَمَا كُنْتَ تَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ أَخِيكَ، قَلْتَ: يَا جَبْرِيلَ مِنْ هُؤُلَاءِ؟ قَالَ: هُؤُلَاءِ الْهَمَازُونَ مِنْ أَمْتَكَ الْلَّمَازُونَ.

قَالَ: ثُمَّ صَدَعْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلِ أَحْسَنِ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَضَلَ النَّاسَ فِي الْحَسْنِ كَالْقَمَرِ لِيَلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، قَلْتَ: يَا جَبْرِيلَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخْوَكَ يُوسُفَ وَمَعَهُ نَفْرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ فَرْدٌ عَلَيْيَ.

ثُمَّ صَدَعْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، وَاسْتَفْتَحْ فَإِذَا أَنَا بِيَحِيَّ وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمَعَهُمَا نَفْرٌ مِنْ قَوْمِهِمَا، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ صَدَعْنَا إِلَى السَّمَاءِ الْرَّابِعَةِ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسِ قَدْ رَفَعَهُ اللَّهُ مَكَانًا عَلَيْأَيْ، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ.

قَالَ: ثُمَّ صَدَعْنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ وَنَصْفَ لَحْيَتِهِ بِيَضَاءِ وَنَصْفَهَا سُودَاءِ تَكَادُ لَحْيَتِهِ تَصِيبُ سُرُّهُ مِنْ طُولِهِ، قَلْتَ: يَا جَبْرِيلَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْمَحْبُوبُ فِي قَوْمِهِ، هَذَا هَارُونَ بْنُ عُمَرَانَ وَمَعَهُ نَفْرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ.

ثُمَّ صَدَعْتُ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى بْنِ عُمَرَانَ رَجُلَ آدَمَ، كَثِيرُ الشِّعْرِ، لَوْ كَانَ عَلَيْهِ قَمِيْصَانَ لَنَفَذَ شَعْرُهُ دُونَ الْقَمِيْصِ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: يَزَعُمُ النَّاسُ أَنِّي أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا، بَلْ هَذَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنِّي. قَالَ: قَلْتَ يَا جَبْرِيلَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخْوَكَ مُوسَى بْنُ عُمَرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَهُ نَفْرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ.

ثُمَّ صَدَعْتُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَإِذَا أَنَا بِأَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، سَانَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ كَأَحْسَنِ الرِّجَالِ، قَلْتَ: يَا جَبْرِيلَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَهُ نَفْرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ. وَإِذَا أَنَا بِأَمْتَيِّ شَطَرِيْنِ: شَطَرِ عَلَيْهِمْ ثِيَابَ بِيَضِّ كَانَهَا الْقَرَاطِيسِ، وَشَطَرِ عَلَيْهِمْ ثِيَابَ سُودَ قَالَ - فَدَخَلَتِ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، وَدَخَلَ مَعِيَ الْذِينَ عَلَيْهِمْ ثِيَابَ الْبِيَضِ وَحَجَبَ الْآخِرُونَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ ثِيَابَ السُّودِ وَهُمْ عَلَى خَيْرٍ، فَصَلَّيْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِيَ فِي الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ خَرَجْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِيَ.

قَالَ وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَصْلِي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: ثُمَّ رَفَعْتُ إِلَى سَدْرَةِ الْمُتَهَيِّئِ، فَإِذَا كُلَّ وَرْقَةٍ مِنْهَا تَكَادُ تَغْطِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِذَا فِيهَا عَيْنٌ

تجري يقال لها سلسيل فينشق منها نهران [أحدهما] الكوثر [والآخر] يقال له نهر الرحمة، فاغتسلت فيه فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر.

قال إني رفعت إلى الجنة فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لزيد بن حارثة، وإذا بأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كالدلاء عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختكم هذه، فقال عندها بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - قال - ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمه، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ثم أغلاقت دوني.

ثم إني رفعت إلى سدرة المنتهى فتعشاني فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى. قال وينزل على كل ورقة منها ملك من الملائكة - قال - وفرضت علي خمسون صلاة، وقال لك بكل حسنة عشر، فإذا همممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشرة، وإذا همممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء، فإن عملتها كتبت عليك سيئة واحدة.

ثم رجعت إلى موسى فقال فيم أمرك ربك؟ فقلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، ومتى لا تطيقه تكفر، فرجعت إلى ربى فقلت: يا رب خف عن أمتي، فإنها أضعف الأمم، فوضع عني عشرةً وجعلها أربعين، فما زلت أختلف بين موسى وربى كلما أتيت عليه قال لي مثل مقالته، حتى رجعت إليه، فقال لي: بم أمرت؟ فقلت أمرت بعشر صلوات. قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت إلى ربى فقلت أي رب خف عن أمتي فإنها أضعف الأمم فيوضع عني خمساً وجعلها خمساً فناداني ملك عندها تمنت فريضي وخففت عن عبادي وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فإنه لا يؤوده شيء، فاسأله التخفيف لأمتك، فقلت: رجعت إلى ربى حتى استحييت. ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: إني أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء، ورأيت كذا وكذا، فقال أبو جهل يعني ابن هشام: لا تعجبون مما قال محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فيما وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهراً ومقفلة شهراً، فهذه مسيرة شهرين في ليلة واحدة، قال: فأخبرتهم بغير لقريش لما كنت في مصعدى رأيتها في مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت وجدتها عند العقبة، وأخبرهم بكل رجل وبغيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا، فقال أبو جهل: يخبرنا بأشياء، فقال رجل منهم: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه وهيئته، وكيف قربه من الجبل، فإن يك محمد صادقاً فسأخبركم وإن يك كاذباً فسأخبركم، فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس فأخبرني: كيف بناؤه، وكيف هيئته، وكيف قربه من الجبل؟ قال فرفع لرسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بيت المقدس من

مقدده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته، قال: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا، فقال الآخر: صدقت، فرجع إليهم فقال: صدق محمد فيما قال أو نحوه من هذا الكلام.

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير^(١) بطوله عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور عن معاذ عن أبي هارون العبدى، وعن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق عن معاذ، عن أبي هارون العبدى به. ورواه أيضاً من حديث ابن إسحاق حدثني روح بن القاسم عن أبي هارون به نحو سياقه المتقدم، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أحمدر بن عبدة، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري، فذكره بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره على غرابته وما فيه من النكارة. ثم ذكره البهقى أيضاً من روایة نوح بن قيس الحданى وهشيم ومعاذ عن أبي هارون العبدى واسمه عمارة بن جوين وهو مضعنف عند الأئمة، وإنما سقنا حديثه هنا لما فيه من الشواهد لغيره، ولما رواه البهقى: أخبرنا الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أبناه أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزار، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبي حكيم قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له سفيان الثوري لا بأس به. فقال رسول الله «لا بأس به» حدثنا عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري عنك يا رسول الله ليلة أسرى بك، قلت رأيت في السماء، فحدثته بالحديث فقال لي «نعم» فقلت له: يا رسول الله إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في السرى بعجائب؟ قال لي «ذلك حديث القصاص». .

رواية شداد بن أوس

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى حدثنا إسحاق بن عبد الله بن العلاء بن الضحاك الزبيدي حدثنا عمرو بن الحارث عن عبد الله بن سالم الأشعري عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي حدثنا الوليد بن عبد الرحمن عن جبير بن نفير حدثنا شداد بن أوس قال: قلنا يا رسول الله كيف أسرى بك؟ قال «صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض أو قال بيضاء فوق الحمار ودون البغل فقال اركب فاستصعب عليّ فرازها بأذنها ثم حملني عليها فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث انتهت طرفها حتى بلغنا أرضًا ذات نخل فأنزلني فقال صل فصليل ثم ركبت فقال أتدرى أين صللت؟ قلت الله أعلم، قال صللت بشرب صللت بطيبة.

فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها عند متهى طرفها ثم بلغنا أرضاً قال انزل ثم قال صل فصليت ثم ركينا فقال أتدرى أين صليت؟ قلت الله أعلم، قال صليت بمدين عند شجرة موسى، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور فقال انزل فنزلت فقال صل فصليت ثم ركينا فقال أتدرى أين صليت؟ قلت الله أعلم، قال صليت بيبيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر فصليت من المسجد حيث شاء الله وأخذني من العطش أشد ما أخذني فأتيت بإثنين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إلي بهما جميعاً فعدلت بينهما ثم هداي الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني وبين يدي شيخ متكم على مثواه له فقال أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى.

ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي قلت يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال وجدتها مثل الحمة السخنة ثم انصرف بي فمررتا بغير لقرنיש بمكان كذا وكذا قد أضلوا بغيراً لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة فأتاني أبو بكر رضي الله عنه فقال يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمسك في مظانك، فقال علمت أنني أتيت من بيت المقدس الليلة، فقال يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي، قال ففتح لي صراط كأني إليه لا يسألني عن شيء إلا أنباءه به، فقال أبو بكر أشهد أنك لرسول الله، وقال المشركون انتظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، قال فقال إن من آية ما أقول لكم أني مررت بغير لكم في مكان كذا وكذا وقد أضلوا بغيراً لهم فجمعه فلان وإن مسيراً هم ينزلون بهذا ثم بهذا ويأتونكم يوم هذا وكذا يقدمهم جمل أدم عليه مسح أسود وغرارثان سوداوان.

فلما كان ذلك اليوم قد أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار حتى أقبلت العبر يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ. هكذا رواه البيهقي من طريقين عن أبي إسماعيل الترمذى به ثم قال بعد تمامه هذا إسناد صحيح، وروي ذلك مفرقاً من أحاديث غيره ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث، وقد روی هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره عن أبيه عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي به، ولا شك أن هذا الحديث أعني الحديث المروي عن شداد بن أوس مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي ومنها ما هو منكر كالصلاحة في بيت لحم. وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس وغير ذلك والله أعلم.

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهمَا

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه قال: حدثنا ابن عباس قال: ليلة أسرى برسول الله ﷺ، دخل الجنة فسمع في جانبها وخشاً فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال المؤذن، فقال النبي ﷺ حين جاء إلى الناس «قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا» قال: فلقيه موسى عليه السلام، فرحب به قال: مرحباً بالنبي الأمي، قال: وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقيهما، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى، قال: فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه، وكلهم يسلم عليه، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم - قال - ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة - قال - فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى، قام يصلي فإذا النبيون أجمعون يصلون معه، فلما انصرف جيء بقدحين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: أصبحت الفطرة، إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

[طريق أخرى] - قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثني عكرمة عن ابن عباس قال: أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال الناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول، فارتدوا كفاراً فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فتقموا^(٣)، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام وعيسي وموسى وإبراهيم، وسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال «رأيته فيلمانياً^(٤) أقمر هجاناً^(٥)، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى عليه السلام أبيب، جعد الرأس^(٦) حديد البصر، ومبطن الخلق^(٧)، ورأيت موسى عليه السلام أسمح آدم^(٨)، كثير الشعر، شديد الخلق، ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى

(١) المستند ٢٥٧/١.

(٢) المستند ٣٧٤/١.

(٣) تترقا آءى كلوا.

(٤) الفيلم: العظيم الجثة، والفيليماني: منسوب إليه بزيادة الألف والتون للمبالغة.

(٥) الأقمر: الشديد البياض، والهجان: الأبيض أيضاً.

(٦) جعد الرأس: أي جعد الشعر، والجعد: ضد السبط المسترسل.

(٧) مبطن الخلق: أي الصامر البطن.

(٨) الأسمح: الأسود، والأدم أيضاً.

إرب^(١) منه إلا نظرت إليه مني حتى كأنه صاحبكم، قال جبريل: سلم على مالك، فسلمت عليه» ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت عن هلال، وهو ابن خباب به، وهو إسناد صحيح.

[طريق أخرى] قال البيهقي: أئننا أبو عبد الله الحافظ، أئننا أبو بكر الشافعى، أئننا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان عن قتادة عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جداً، كأنه من رجال شنوة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس» وأرى مالكاً حازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله إياه، قال: «فلا تكن في مരية من لقائه» [هود: ١٠٩] فكان قتادة يفسرها أننبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد لقي موسى عليه السلام «وجعلناه هدى لبني إسرائيل» [الإسراء: ٢] قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل^(٢)، رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد عن يونس بن محمد، عن شيبان، وأخرجه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً.

[طريق أخرى] وقال البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أئننا أحمد بن عبيد الصفار، ثنا دليس المعدل، ثنا عفان قال: ثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لما أسرى بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط المشط من يدها فقالت: باسم الله، فقالت بنت فرعون أبي، قالت ربى وربك ورب أبيك، قالت أولك رب غير أبي؟ قالت نعم ربى ورب أبيك الله.. قال: فدعها، فقال: ألك رب غيري؟ قالت نعم ربى وربك الله عز وجل. قال فأمر بتنرة من نحاس، فأحmitt ثم أمر بها أن تلقى فيها، قالت: إن لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظم ولدي في موضع، قال: ذاك لك لما لك علينا من الحق، قال: فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه قعي ولا تقاعسي، فإنك على الحق، قال: وتتكلم أربعة في المهد وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم عليه السلام. إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد^(٣) أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وروح بن المعين قالا: حدثنا عوف عن زراره بن أوفى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لما كان ليلة أسرى بي، فأصبحت بمكة فظعت وعرفت أن الناس مكذبٍ» فقعد معتزلاً حزيناً، فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الإرب: العضو.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٧، ومسلم في الإيمان حديث ٢٦٧.

(٣) المستند ١/٣٠٩.

«نعم» قال: وما هو؟ قال: «إنني أُسْرِي بِاللَّيْلَةِ»، قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرينا؟ قال «نعم»، قال فلم ير أن يكتبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحديثهم بما حدثني؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم» فقال: يا عشر بنى كعب بن لؤي.

قال: فانفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إلَيْهِما، قال: حدث قومك بما حدثني، فقال رسول الله ﷺ: «إنني أُسْرِي بِاللَّيْلَةِ» فقالوا: إلى أين؟ قال «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرينا؟ قال «نعم». قال فمن بين مصفق ومن بين واضح يده على رأسه متعجبًا للكذب، قالوا: و تستطيع أن تنتع لـنـا المسـجـد؟ وفيـهـمـ منـ قدـ سـافـرـ إـلـىـ ذـلـكـ الـبـلـدـ وـرـأـيـ الـمـسـجـدـ، فـقـالـ رسـوـلـ اللهـ ﷺـ «فـمـاـ زـلتـ أـنـعـتـ حـتـىـ التـبـسـ عـلـيـ بـعـضـ النـعـتـ قـالـ فـجـيـءـ بـالـمـسـجـدـ وـأـنـاـ أـنـظـرـ إـلـيـهـ حـتـىـ وـضـعـ دـوـنـ دـارـ عـقـيلـ أـوـ عـقـالـ فـنـعـتـهـ وـأـنـظـرـ إـلـيـهـ قـالـ وـكـانـ مـعـ هـذـاـ نـعـتـ لـمـ أـحـفـظـهـ قـالـ فـقـالـ الـقـوـمـ: أـمـاـ النـعـتـ فـوـالـلـهـ لـقـدـ أـصـابـ فـيـهـ» وـأـخـرـجـهـ النـسـائـيـ مـنـ حـدـيـثـ عـوـفـ بـنـ أـبـيـ جـمـيـلـةـ وـهـوـ الـأـعـرـابـيـ بـهـ، وـرـوـاهـ الـبـيـهـقـيـ مـنـ حـدـيـثـ النـضـرـ بـنـ شـمـيـلـ وـهـوـذـةـ عـوـفـ وـهـوـ اـبـنـ أـبـيـ جـمـيـلـةـ الـأـعـرـابـيـ أـحـدـ الـأـئـمـةـ الـثـقـاتـ.

رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

قال الحافظ أبو بكر البهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب ، حدثنا السري بن خزيمة ، حدثنا يوسف بن بهلول ، حدثنا عبد الله بن نمير عن مالك بن مغول عن الزبير بن عدي عن طلحة بن مصرف عن مرة الهمданى ، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْتَهَى إِلَى سَدْرَةِ الْمُتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَصْدُعُ بِهِ حَتَّى يَقْبَضَ مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنْ فَوْقَهَا حَتَّى يَقْبَضَ 『إِذْ يَغْشِي السَّدْرَةَ مَا يَغْشِي』 [النجم: ١٦] قال: غشىها فراش من ذهب ، وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقدمات يعني الكبار .

ورواه مسلم^(١) في صحيحه عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب ، كلاهما عن عبد الله بن نمير به ، ثم قال البهقي وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المراجـ، وقد رواه أنس بن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ ، ثم عن أبي ذر عن النبي ﷺ ، ثم رواه مرة مرسلـاً من دون ذكرهما ، ثم إن البهـقـيـ سـاقـ الأـحـادـيـثـ الـثـلـاثـةـ كـمـاـ تـقـدـمـ .

قلت: وقد روي عن ابن مسعود ببسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور: حدثنا مروان بن معاوية عن قتادة بن عبد الله التميمي، حدثنا أبو ظبيان الجنبي قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة بن عبد الله يعني ابن مسعود، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص وهما جالسان، فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسرى بمحمد عليه السلام، فقال أبو عبيدة: لا بل حدثنا أنت عن أبيك، فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت، قال فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعني عن أبيه كما سئل.

قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلامه: «أتاني جبريل عليه السلام بدابة فوق الحمار دون البغل، فحملني عليه ثم انطلق يهوي بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم كأنه من رجال أزد شنوة، فيرفع صوته يقول أكرمه وفضله، قال: فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال، من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا أحمـد، قال مرحباً بالنبي الأمي العربي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، قال ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل؟ قال هذا موسى بن عمران. قال قلت ومن يعاتب؟ قال يعاتب ربه فيك، قلت: ويرفع صوته على ربه؟ قال: إن الله قد عرف له حذته.

قال: ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السرج^(١)، تحتها شيخ وعياله، قال: فقال لي جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم، فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك أحمـد، قال: فصال مرحباً بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، يابني إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها في أمتك فافعل.

قال: ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربط الدابة في الحقلة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء تربط بها، ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، قال: ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن، فأخذت اللبن فشربت، فضرب جبريل عليه السلام منكبي وقال: أصبت الفطرة ورب محمد، قال: «ثم أقيمت الصلاة فأمّتهم، ثم انصرنا فأقبلنا».

إسناد غريب، ولم يخرجوه، فيه من الغرائب سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه، والمشهور في الصحاح كما تقدم أن جبريل كان يعلمهم أولاً ليس لهم سلام معرفة، وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى، وال الصحيح أنه إنما اجتمع بهم في السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه. وصلى بهم فيه، ثم أنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، والله أعلم.

(١) السرج جمع سراج، وهو الذي يسرج بالليل.

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد^(١): حدثنا هشيم، حدثنا العوام عن جبلة بن سحيم عن مؤثر بن عفازة، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتقذروا أمر الساعة، قال: فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: ما أوحيتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج، قال: ومعي قضيبان فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رأني حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم.

قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينزلون فيطأون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجري الأرض من نتن ريحهم، أي تتن، قال: فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، فيما عهد إلى ربى أن ذلك كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً.

وآخرجه ابن ماجه^(٢) عن بندار عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب.

رواية عبد الرحمن بن قرظ أخي عبد الله بن قرظ الشمالي

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثني عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرظ أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من بين زمزم والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير، سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات من ذوي العلو بما علا سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى. ونذكر هنا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة ﴿تسبح له السموات السبع﴾ [الإسراء: ٤٤] الآية.

رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان، عن

(١) المستند ٢٧١/٥.

(٢) كتاب الفتنة باب ٣٣.

(٣) المستند ٣٨/١.

عبد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالجایة، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان عن عبيد بن آدم، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لکعب: أین ترى أن أصلی؟ فقال: إن أخذت عنی صلیت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ضاھیت اليهودیة، ولكن أصلی حيث صلی رسول الله ﷺ، فتقدّم إلى القبلة فصلی، ثم جاء فبسط رداءه وکنس الکناسة في رداءه، وکنس الناس، فلم يعظم الصخرة تعظیماً يصلی وراءها وهي بين يديه كما أشار کعب الأخبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم، ولكن من الله عليه بالإسلام فھدی إلى الحق، ولھذا لما أشار بذلك، قال له أمیر المؤمنین عمر: ضاھیت اليهودیة ولا أھانها إهانة النصاری الذين كانوا قد جعلوها مذبحة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط عنها الأذى وکنس عنها الکناسة برداءه. وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوی قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»^(١).

رواية أبي هريرة وهي مطولة جداً وفيها غرابة

قال الإمام أبو جعفر بن جرير^(٢) في تفسير سورة سبھان: حدثنا علي بن سهل، ثنا حجاج ثنا أبو جعفر الرازی عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرياحی عن أبي هريرة أو غيره، شك أبو جعفر، في قول الله عز وجل **﴿سبھان الذي أسرى بعده ليلاً﴾ الآية**، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ومعه میکائیل، فقال جبریل لمیکائیل: اثنی بسطت من ماء زمزم کیما أطھر له قلبه وأشار له صدره، قال: فشق عن بطنه فغسله ثلاثة مرات، واختلف إليه میکائیل بثلاث طسas من ماء زمزم، فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غل، وملأه علمًا وحلمًا وإيماناً ويقيناً وإسلامًا، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة، ثم أتاه بفرس فحمله عليه كل خطوة منه متھی بصره أو أقصى بصره.

قال: فسار وسار معه جبریل عليهم السلام، قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبي ﷺ «يا جبریل ما هذا؟» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين، ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال «ما هؤلاء يا جبریل؟» قال: هؤلاء الذين تتقاتل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

(١) أخرجه مسلم في الجنائز حديث ٩٧، ٩٨.

(٢) تفسیر الطبری ٧/٨ - ١٢.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والنعمر، ويأكلون الضريح^(١) والزقوم ورصف جهنم وحجارتها، قال «فما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئاً، وما الله بظلم للعبد ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحام آخر نيء في قدر خيست، فجعلوا يأكلون من اللحم النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» فقال هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فإذا هي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح.

قال: ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته، قال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا مثل أقوام أمتك يقدعون على الطريق فيقطعنها، ثم تلا «ولا تقدعوا بكل صراط توعدون وتصدون» [الأعراف: ٨٦] الآية، قال: ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات للناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها، ثم أتى على قوم تفرض أسلتهم وشفاههم بمقاريف من حديد، كلما قرضا عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: هؤلاء خطباء الفتنة، ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، يجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها.

ثم أتى على وادٍ فوجد ريحًا طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتاً، فقال يا جبريل «ما هذه الريح الطيبة الباردة، وما هذا المسك، وما هذا الصوت؟» قال: هذا صوت الجنة تقول: يا رب ائتي بما وعدتني فقد كثرت غرفتي واستبرقي، وحريري وسندسي، وعقبري ولؤلؤي، ومرجاني وفضتي وذهبتي، وأكوابي وصحافي وأباريقي أكتؤسي، وعلسي ومائي ولبني وخمري، فائتني بما وعدتني، فقال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي ويرسلني وعمل صالحًا ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليّ كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون تبارك الله أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت.

قال: ثم أتى على وادٍ فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحًا خبيثة، فقال: «ما هذا يا جبريل وما هذا الصوت؟» فقال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب ائتي بما وعدتني فقد كثرت سلاسلني، وأغلالي وسعيري، وحميمي، وضربيعي وغسافي وعدابي، وقد بعد قوري واشتدت

(١) الضريح: نبت له شوك.

حري ، فائتني بما وعدتني ، قال: لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت: قد رضيت .

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة ، ثم دخل فصلى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة قالوا ، يا جبريل من هذا معك ؟ قال: محمد ﷺ ، قالوا: أوقف أرسل إليه فقال: نعم ، قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ، ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء . قال: ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم عليه السلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً ، وأعطاني ملكاً عظيماً ، وجعلني أمة قانتاً يؤتمن بي ، وأنقذني من النار وجعلها علي بردًا وسلاماً ، ثم إن موسى عليه السلام أثني على ربه فقال: الحمد لله الذي كلامني تكليماً ، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي ، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون ، ثم إن داود عليه السلام أثني على ربه ، فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً ، وعلمني الزبور ، وألان لي الحديد ، وسخر لي الجبال يسبحن والطير ، وأعطاني الحكم وفصل الخطاب .

ثم إن سليمان عليه السلام أثني على ربه ، فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محارب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وعلمني منطق الطير ، وأتاني من كل شيء فضلاً ، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير ، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين ، وأتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي ، وجعل ملكي طيباً ليس فيه حساب .

ثم إن عيسى عليه السلام أثني على ربه عز وجل ، فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته ، وجعل مثلي كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأتفاخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وجعلني أبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، ورفعني وطهرني ، وأعادني وأمي من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

قال: ثم إن محمد ﷺ أثني على ربه عز وجل ، فقال: «كلكم أثني على ربه ، وإنني منش على ربي ، فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل علي الفرقان فيه بيان لكل شيء وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتي أمة وسطاً وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون ، وشرح لي صدرى ووضع عنى وزري ، ورفع لي ذكري ، وجعلني فاتحاً وخاتماً» فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد ﷺ .

قال أبو جعفر الرازي: خاتم بالنبوة فاتح بالشفاعة يوم القيمة ، ثم أتي بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها ، فأتى بآنية منها فيه ماء ، فقيل له: اشرب ، فشرب منه يسيراً ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه

لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روى، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب، فقال: لا أريده قد رويت، فقال له جبريل: أما إنها سترحم على أمتك ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا القليل.

قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريل؟ فقال: محمد، فقالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياء الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء، فدخل فإذا بمنزلة تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء، كما ينقص من خلق الناس، عن يمينه بباب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله بباب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذي عن شماله بكى وحزن، قلت: يا جبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذي لم ينقص من خلقه شيء، وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم، وهذا الباب الذي عن يمينه بباب الجنة، فإذا نظر إلى من يدخل الجنة من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله بباب جهنم، إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول الله، فقالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياء الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو بشابين، فقال: يا جبريل من هذان الشابان؟ قال: هذا عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا أبنا الخالة عليهما السلام.

قال: فصعد به إلى السماء الثالثة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياء الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: من هذا يا جبريل الذي قد فضل على الناس في الحسن؟ قال: هذا أخوك يوسف عليه السلام.

قال: ثم صعد به إلى السماء الرابعة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياء الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: من هذا يا جبريل، ومن هؤلاء حوله؟ قال: هذا هارون المحبب.

وهو لاء بنو إسرائيل.

قال: صعد به إلى السماء السادسة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل جالس فجاوزه بكى الرجل، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: موسى، قال: بما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أنني أكرمبني آدم على الله عز وجل، وهذا رجل منبني آدم قد خلفني في دنيا وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال ولكن مع كلنبي أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل أشمتجالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس، يبيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجاؤوا وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم، أول من شmet على وجه الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجه، فقوم لم يلبسو إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا قتاب الله عليهم، وأما الأنهار، فأولها رحمة الله، والثاني نعمة الله، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السدرة، فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمة كلها، قال: فغشيتها نور الخلاق عز وجل، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة، من حب الرب تبارك وتعالى، قالوا: فكلمه الله عند ذلك فقال له: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً وأعطيت داود ملكاً عظيماً وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل،

فقال له الرب عز وجل: وقد اخذتك خليلاً - وهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمن - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا ذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتكم أول النبئين خلقاً وأخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسمهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصلة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً خاتماً، فقال النبي ﷺ: «فضلني ربِّي بست: أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه، وجواجم الحديث، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقدف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض كلها طهوراً ومسجدًا»، قال: وفرض عليه خمسين صلاة.

فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمد؟ قال: بخمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه عز وجل فسألة التخفيف، فوضع عنه عشرأً ثم رجع إلى موسى فقال له: بكم أمرت؟ قال بأربعين قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، ولقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه، فسألة التخفيف، فوضع عنه عشرأً، فرجع إلى موسى، فقال: بكم أمرت: قال أمرت بثلاثين، فقال له موسى ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، فرجع النبي ﷺ إلى ربه عز وجل فسألة التخفيف، فوضع عنه عشرأً فرجع إلى موسى فقال له: بكم أمرت؟ قال: بعشرين.

قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه عز وجل فسألة التخفيف، فوضع عنه عشرأً فرجع إلى موسى عليه السلام، فقال له: بكم أمرت؟ قال: بأربعين، قال: أرجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: قد رجعت إلى ربِّي حتى استحبَّيت، فما أنا براجِع إليه، فيل: أما إنك كما صبرت نفسك خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها، قال: فرضي محمد ﷺ كل الرضا، قال: وكان موسى عليه السلام من

أشدهم عليه حين مربه وخيرهم له حين رجع إليه.

ثم رواه ابن جرير^(١) عن محمد بن عبيد الله عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره، شك أبو جعفر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه، وقد رواه الحافظ أبو بكر البهقي عن أبي سعيد المالكي، عن ابن عدي، عن محمد بن الحسن السكوني البالسي بالرملية، حدثنا علي بن سهل فذكر مثل ما رواه ابن جرير عنه، وذكر البهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراوي عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيري، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان يعني أبا جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا يونس بن بكير حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره، شك عيسى، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في قوله تعالى:

قلت وأبو جعفر الرازي: قال: فيه الحافظ أبو زرعة الرازي: يهم في الحديث كثيراً، وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والظاهر أنه سيء الحفظ، ففيما تفرد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونکارة شديدة، وفيه شيء من حديث المنام من روایة سمرة بن جندب في المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، والله أعلم.

وقد روی البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا معاشر عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «حين أسرى بي، لقيت موسى عليه السلام - فنعته، فإذا رجل حسبته قال - مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوة، قال: ولقيت عيسى - فنعته النبي ﷺ قال - ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني حمام، قال - ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بذئبدين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة - أو أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت خمراً غوت أمتك»^(٢) وأخر جاه من وجه آخر عن الزهري به نحوه.

(١) تفسير الطبراني ١٢/٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٧، والأنبياء باب ٤٨، ٢٤، ومسلم في الإيمان حديث ٢٧٢ والترمذى في الأنبياء باب ٢٤، وأحمد في المسند ٢/٢٨٢.

وفي صحيح مسلم^(١) عن محمد بن رافع عن الحجج بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لقد رأيتني في الحجر وقرיש تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلى أنظر إليه ما سألوني عن شيء إلا أبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهًا به عمرو بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهًا به صاحبكم - يعني نفسه - فحان الصلاة فأتمتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبدأني السلام».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بي لما انتهيت إلى السماء السابعة، فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق، قال: وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلوا الriba، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعينبني آدم لا يفكرون في ملكوت السموات والأرض، ولو لا ذلك لرأوا العجائب»^(٢) ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاماً عن حماد بن سلمة به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد به.

عن أبيه بحسب أسلوبه من أقواله في الحديث

قال الحافظ البيهقي: حدثنا أبو عبد الله يعني الحاكم، حدثنا عبد الله بن زيد بن يعقوب الدقاد الهمداني، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزارى، حدثنا عمر بن سعد النضرى من بني نصر بن قعين، حدثنى عبد العزيز وليث بن أبي سليم، وسلامان الأعمش وعطاء بن السائب، بعضهم يزيد في الحديث على بعض، عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس ومحمد بن إسحاق بن يسار عن حدثه عن ابن عباس، وعن سليم بن مسلم العقيلي عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن مسعود وجوير عن الضحاك بن مزاحم، قالوا: كان رسول الله ﷺ في بيت أم هانىء راقداً وقد صلى العشاء الآخرة، قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ، وذكر الحديث، فكتبته المتن من نسخة

(١) كتاب الإيمان حديث ٢٧٨.

(٢) آخرجه ابن ماجه في التجارات باب ٥٨، وأحمد في المستند ٣٥٣/٣، ٣٦٣.

مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله إن صحت الرواية. قال البيهقي فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبدى في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق. (قلت) وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين رحمة الله عليهم أجمعين.

رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها

قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثني إبراهيم بن الهيثم البكري، حدثني محمد بن كثير الصنعاني، حدثنا عمر بن راشد عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت: لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك فارتدى ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال نعم إنما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحه، فلذلك سمي أبو بكر الصديق.

رواية أم هانىء بنت أبي طالب

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح باذان عن أم هانىء بنت أبي طالب في مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيته نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبا رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: «يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين»^(١).

الكلبي متزوك بمرة ساقط، لكن رواه أبو يعلى في مسنده عن محمد بن إسماعيل الانصاري عن ضمرة بن ربيعة، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن أبي صالح، عن أم هانىء بأبسط من هذا السياق، فليكتب هنها.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المساور عن عكرمة، عن أم هانىء قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أسرى به في بيته، ففقدته من الليل، فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش، فقال رسول الله ﷺ: «إن جبريل عليه السلام أتاني

(١) انظر تفسير الطبرى ٨/٤، وسيرة ابن هشام ١/٤٠٢.

فأخذ بيدي فأخرجنني ، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار ، فحملتني عليها ثم انطلق حتى أتي بي إلى بيت المقدس ، فأراني إبراهيم عليه السلام يشبه خلقه خلقي ويشبه خلقه خلقه ، وأراني موسى آدم طويلاً سبط الشعر ، شبهته برجال أزد شنوة ، وأراني عيسى ابن مريم ربعة أبيض يضرب إلى الحمرة ، شبهته بعروة بن مسعود الثقفي ، وأراني الدجال ممسوح العين اليمني ، شبهته بقطن بن عبد العزى - قال - وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت» فأخذت بشوبه قلت : إني أذكرك الله إنك تأتي قومك يكذبوك وينكرون مقالتك ، فأخاف أن يسطوا بك ، قالت : فضرب ثوبه من يدي ثم خرج إليهم ، فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم ما أخبرني .

فقام جبير بن مطعم فقال يا محمد لو كنت شاباً كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا . فقال رجل من القوم : يا محمد هل مررت بابل لنا في مكان كذا كذا ؟ قال : «نعم والله قد وجدتهم قد أضلوا بعيراً لهم فهم في طلبه» قال : هل مررت بابل لبني فلان ؟ قال : نعم وجدتهم في مكان كذا وكذا وقد انكسرت لهم ناقة حمراء ، وعندهم قصعة من ماء فشربت ما فيها» قالوا : فأخبرنا عدتها ، من الرعاة ؟ قال «قد كنت عن عدتها مشغولاً» فنام فأوتي بابل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ، ثم أتى قريشاً فقال لهم «سألتموني عن إيلبني فلان فهي كذا وكذا ، وفيها من الرعاة فلان وفلان ، وسألتموني عن إيلبني فلان ، فهي كذا وكذا ، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان ، وهي تصبحكم بالغداة على الشية» .

قال : فقعدوا على الشية ينظرون أصدقهم ما قال ، فاستقبلوا الإبل فسألوهم : هل ضل لكم بعير ؟ فقالوا : نعم ، فسألوا الآخر ، هل انكسرت لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فهل كانت عندكم قصعة ؟ قال أبو بكر : أنا والله وضعتها فيما شربها أحد ولا أهرقوه في الأرض ، فصدقه أبو بكر وآمن به ، فسمى يومئذ الصديق .

[فصل] وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها ، فحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة ، وإن اختللت عبارات الرواية في أدائه ، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام ، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب .

وقد صرخ بعضهم من المتأخرین بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات ، وهذا بعيد جداً ، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد ، لأنّه النبي ﷺ به أمته ، ولنقله الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة الزهرى: كان الإسراء قبل الهجرة بستة، وكذا قال عروة. وقال السدى: بستة عشر شهراً، والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبنته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاء من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما عليهما السلام وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن؛ ورأى سدرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغضيشتها الملائكة ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرفاً أحضر قدس الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مستند ظهره إليه، لأن الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتبعدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيمة. ورأى الجنة والنار فرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإن كانوا من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم، وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وه هنا، لأن كالضيافة للقادم، والله أعلم، ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء بيده عليه السلام وروحه، أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى بيده وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله عليه السلام رأى قبل ذلك مناماً ثم رأه بعد يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بَعْدَهُ لِيَلَّا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَنَا حِلَلَهُ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند

الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم.

وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقال تعالى: ﴿وَمَا جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء: ٦٠] قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧] والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون بل أسرى برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده، قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: حدثني يعقوب بن عبيدة بن المغيرة بن الأخفش أن معاوية بن أبي سفيان، كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة. وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسرى بروحه.

قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها لقول الحسن إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء: ٦٠] ولقول الله في الخبر عن إبراهيم «إنني أرى في المنام أنني أذبحك فانتظر ماذا ترى» [الصافات: ١٠٢] قال: ثم مضى على ذلك، فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظاً ونیاماً، فكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عيني وقلبي يقطنان» والله أعلم، أي ذلك كان قد جاءه وعاين من الله فيه ما عاين على أي حالاته كان نائماً أو يقطناناً، كل ذاك حق وصدق، انتهى كلام ابن إسحاق^(٢). وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتثنية بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم، والله أعلم.

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال عن عمرو بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي، قال: بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيسر، فذكر وروده عليه وقدومه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعي من الشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي

كتاب التفسير تفسير سورة ١٧ ، باب ٩ .

انظر سيرة ابن هشام ١ / ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحرر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما معنني من أن أقول عليه قوله أسلقه من عينه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به، قال: فقلت أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟

قال: وما هو؟ قال: قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا، أرض الحرم، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيليا، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال، وبطريق إيليا عند رأس قيصر، فقال بطريق إيليا: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إنني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته، فغلبني فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلًا، فدعوت إليه الناجحة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فنتظر من أين أتى.

قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط دابة، قال: فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على النبي، وقد صلي الليلة في مسجدنا، وذكر تمام الحديث.

[فائدة] قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه [التنوير في مولد السراج المنير] وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وأم هانىء، وعائشة وأسماء ابتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحدث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون **﴿يَرِيدُونَ لِيظْفُئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مِنْ نُورٍ وَّلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ﴾** [الصف: ٨].

وَإِنَّا مَوَسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِ إِسْرَائِيلَ أَلَا تَنَحَّذُوا مِنْ دُونِ وَصْكِيلًا ۚ ذُرِّيَّةٌ مَّنْ حَمَلَنَا مَعَ ثُوَجٍ إِنَّمَا كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۚ

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعده محمد ﷺ عطف بذلك موسى عبده ورسوله وكلمه أيضاً فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر

التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء «وآتينا موسى الكتاب» يعني التوراة «وجعلناه» أي الكتاب «هدي» أي هادياً «لبني إسرائيل لا تخذلوا» أي لثلا تخذلوا «من دوني وكيلًا» أي ولية ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كلنبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: «ذرية من حملنا مع نوح» تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهيج وتنبيه على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم «إنه كان عبداً شكوراً» فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحًا عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه و شأنه كلها، فلهذا سمي عبداً شكوراً. قال الطبراني: حدثني علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن أبي حصين، عن عبد الله بن سنان عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً، لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبوأسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»^(٢) وهكذا رواه مسلم والترمذى والنمسائى من طريق أبيأسامة به. وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال وقد ذكر البخارى^(٣) هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيمة - بطولة، وفيه - فإذا تون نوحًا فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكلامه.

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَئِيلَ فِي الْكِتَابِ لِتُفْسَدُّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَكُلُّنَّ عَلَوْا كَبِيرًاٌ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِنَّهُمْ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَئِنَّهُمْ شَدِيدُونَ فَجَاءُوكُمْ حَلَلَ الدِّيَارُ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًاٌ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًاٌ فَإِنَّ أَحَسَنَتُمْ أَحَسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهُمَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْتَغْفِرُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةً وَلِيُتَبَرِّأُوا مَا عَلَوْا تَبَرِّأً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرَهُمْ كُمْ وَإِنْ عَذَّمْتُمْ عَذَّمْنَا وَحَلَّنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًاٌ

يخبر تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علوًّا كبيراً، أي يتجررون ويطغون

(١) المسند ١١٧/٣.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٨٩، والترمذى في الأطعمة باب ١٨.

(٣) أخرجه البخارى في الأنبياء باب ٣، وتفسير سورة ١٧، باب ٩.

ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأُمْرَ أَنْ دَابِرَ هُؤُلَاءِ مَقْطُوْعٌ مُصْبِحِينَ» [الحجر: ٦٦] أي تقدمنا إليه، وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به. قوله ﷺ: «أَيُّ سُلْطَنٍ عَلَيْكُمْ جَنْدًا مِّنْ خَلْقِنَا أَوْ لِلْإِفْسَادِيْنَ؟ أَيْ قُوَّةٍ وَعِدَّةٍ وَسُلْطَنَةٍ شَدِيدَةٍ؟ أَيْ تَمْلِكُوا بِلَادَكُمْ وَسَلَكُوا خَلَالَ بَيْوَتِكُمْ، أَيْ بَيْنَهَا وَوْسِطُهَا، وَانْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ لَا يَخْافُونَ أَحَدًا وَكَانُوا مَعْفُولًا».

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلمين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزمي وجندوه، سلط عليهم أولًا ثم أديلوه عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت، وللهذا قال ﷺ: «أَنَّمَا يَعْلَمُ أَنَّكُمْ أَكْبَرُ مِنْ أَنْتُمْ»^(١) الآية، وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنجاريب وجندوه. وعن أبي أيضًا وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال إلى أنه ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقيداً ضعيفاً يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقاً كثيراً منبني إسرائيل، وقد روى ابن جرير^(٢) في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالته قدره وإمامته، وقد صرحت علينا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو موضوع ومن وضع بعض زنادقهم، ومنها ما قد يتحمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنية عنها، والله الحمد. وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يوح لنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهراهم جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير^(٣): حدثني يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخراب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم، ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم

^(١) انظر تفسير الطبرى ٢٩/٨.

^(٢) تفسير الطبرى ٢١/٨.

^(٣) تفسير الطبرى ٢٨/٨.

سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن، وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿أَيُّ الْكُرَمَ إِذَا أَفْسَدْتُمُ الْكُرْنَةَ الْأُخْرَى وَجَاءَ أَعْدَاؤُكُمْ أَيْ يَهِينُوكُمْ وَيَقْهِرُوكُمْ، أَيْ بَيْتَ الْمَقْدِسَ إِذَا أَنْهَيْتُمُ الْمُحْرَمَ، أَيْ فِي الْأَنْوَارِ إِذَا جَاهَكُمْ أَيْ مَا ظَهَرَوا عَلَيْهِ أَيْ يَدْمِرُونَهُمْ وَيُخْرِبُونَهُمْ أَيْ مَا نَذَرْتُكُمْ إِذَا أَنْهَيْتُمُ الْمُحْرَمَ، أَيْ مَتَى عَدْتُمْ إِلَى الْإِنْفَادِ إِذَا أَنْهَيْتُكُمْ إِلَى الْإِدَالَةِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا نَذَرْتُكُمْ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَلَهُذَا قَالَ: حَسِيرًا أَيْ سَجَنًا، أَيْ مُسْتَقْرًا وَمُحَصَّرًا وَسَجَنًا لَا مُحِيدٌ لَهُمْ عَنْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَسِيرًا أَيْ سَجَنًا، وَقَالَ مجَاهِدٌ: يَحْصُرُونَ فِيهَا، وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: فَرَاشًا وَمَهَادًا، وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ عَادَ بْنُ إِسْرَائِيلَ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْحَيْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ، يَأْخُذُونَ مِنْهُمُ الْجُزِيَّةَ عَنْ بَدْوِهِمْ صَاغِرُونَ^(١).

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوام الطرق وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه، أي يوم القيمة، أي يوم القيمة، أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيمة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ [آل عمران: ٢١].

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له رب لهلك بدعائه، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ يَعْجِلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ [يونس: ١١] الآية، وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقادة، وقد تقدم في الحديث «لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة

يستجيب فيها»^(١) وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: «وكان الإنسان عجولاً» وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس هنا قصة آدم عليه السلام حين هم بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده، جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع، وقال: يا رب عجل قبل الليل^(٢).

وَجَعَلْنَا أَيْلَلَ وَالنَّهَارَ إِيَّاهُ أَيْلَلَ وَجَعَلْنَا إِيَّاهُ النَّهَارَ مُبَصِّرَةً لَتَبَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ
وَلَتَعْلَمُوا عَكْدَ الْيَتَيْنِ وَالْحِسَابَ وَلَكُمْ شَئُونَ فَضْلَانَهُ تَغْيِيْلًا

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعاش والصناع، والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجرارات وغير ذلك، ولهذا قال: «لتبغوا فضلاً من ربكم» أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك، «ولتعلموا عدد السنين والحساب» فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك.

كما قال تعالى: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرماً إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلأ تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرماً إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلأ تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبغوا من فضله ولعلكم تشکرون» [القصص: ٧١ - ٧٣] وقال تعالى: «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً» [الفرقان: ٦١ - ٦٢] وقال تعالى: «وله اختلاف الليل والنهار» [المؤمنون: ٨٠] وقال: «يکور الليل على النهار ويکور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار» [الزمّر: ٥] وقال تعالى: «فالق الإاصلاح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم» [الأنعام: ٩٦] وقال تعالى: «وآية لهم الليل نسلح منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم» [يس: ٣٧ - ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل للليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهر علامة وهي النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاؤت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٧٤، وأبو داود في الوتر باب ٢٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٥ / ٨.

من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدْرَهُ مَنَازِلُ لَتَعْلَمُوا عَدْدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ - إلى قوله - ﴿الآيَاتُ لِقَوْمٍ يَتَقَوَّنُ﴾ [يوس: ٥ - ٦] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩] الآية.

قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليلة وسفد النهار^(١). وقال ابن جرير عن مجاهد: الشمس آية النهار والقمر آية الليل، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ الْلَّيلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، فمحونا آية الليل السواد الذي في القمر. وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة أن ابن الكواء سأله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ القرآن؟ فقال: فمحونا آية الليل فهو محوه. وقال قتادة في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ الْلَّيلِ﴾ كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم، وقال ابن أبي نجيح عن ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله عز وجل^(٢).

وَكُلَّ إِنْسَنٍ أَلْرَمْنَهُ طَتَّبَرُ فِي عَنْقِهِ وَنَجَّحُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَبَأَ يَقْنَهُ مَسْتُورًا ﴿٣﴾ أَفَرَأَ كَتَبَكَ كَفَى
بِتَقْسِيكَ الْيَوْمِ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٤﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمالبني آدم: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْرَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عَنْقِهِ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما، من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] وقال تعالى: ﴿عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدَ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لِدِيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ - ١٨] وقال: ﴿وَإِنْ عَلِيكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٤] وقال: ﴿إِنَّمَا تَجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وقال ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُعْذَبْ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] الآية، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لطائر كل إنسان في عنقه» قال ابن لهيعة: يعني الطيرة، وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث غريب جداً، والله أعلم.

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٦/٨.

(٢) انظر هذا الأثر والأثار التي قبله في تفسير الطبرى ٤٦، ٤٥، ٤٧.

(٣) المستند ٣٦٠/٣.

وقوله: **أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطيه يوم القيمة إما ييمينه إن كان سعيداً أو بشماله إن كان شقياً، منشوراً أي مفتوراً يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره** «**ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره**» [القيمة: ١٣ - ١٥] ولهذا قال تعالى: **أي إنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي.** قوله: **إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر.** [مجزوء الكامل]

اذهب بها اذهب بها طوق الحمام^(١)

قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة، وكل إنسان ألزمته طائره في عنقه» كذا رواه ابن جرير^(٢)، وقد رواه الإمام عبد بن حميد في مستنه متصلًا، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «طير كل عبد في عنقه».

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثني يزيد أن أبي الخير حدثه أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه، يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه فإذا مرض المؤمن قال الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسه، فيقول رب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت» إسناده جيد قوي، ولم يخرجوه.

وقال معمر عن قتادة: **قال عمله ينبع من عنقه** قال: **نخرج ذلك العمل** **قال معمر، وتلا الحسن البصري** **عن اليمين وعن الشمال قعيد** [ق: ١٧] يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيمة كتاباً تلقاه منشوراً، أقرأ كتابك الآية، فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك^(٤)، هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله.

(١) البيت لأبي أحمد بن جحش في سيرة ابن هشام ١/٥٠٠.

تفسير الطبرى ٨/٤٧.

المستند ٤/١٤٦.

انظر تفسير الطبرى ٨/٤٩.

يُخبر تعالى أن واتِّعَ الْحَقَّ، وَاقْتَفِ أَثْرَ النَّبُوَةِ، فَإِنَّمَا يَحْصُلُ عَاقِبَةً ذَلِكَ الْحَمِيدَةُ لِنَفْسِهِ، أَيْ عَنِ الْحَقِّ، وَزَاغَ عَنْ سَبِيلِ الرِّشادِ، فَإِنَّمَا يَجِدُنِي عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبِالِّذِكْرِ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيْ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ، وَلَا يَجِدُنِي جَانِ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِنْ تَدْعُ مِثْقَلَةً إِلَى حَمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهَا شَيْءٌ» [فاطر: ۱۸] وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» [الْعِنكَبُوتُ: ۱۳]، وَقَوْلِهِ: «وَمَنْ أَوزَّرَ الَّذِينَ يَضْلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» [النَّحْلُ: ۲۵] فَإِنَّ الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ إِثْمٌ ضَلَالُهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ، وَإِثْمٌ أَخْرٌ بِسَبِبِ مَا أَضْلَلُوا مِنْ أَضْلَلُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ، وَلَا يَحْمِلُ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ.

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: إِخْبَارُ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يَعْذِبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدِ قِيَامِ الْحَجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ، كَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كُلُّمَا أَلْقَيْتِ فِيهَا فُوجَ سَأْلَهُمْ خَزْنَتِهَا أَلْمَ يَأْتُكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلِّي قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ» [الْمُلْكُ: ۹ - ۸] وَكَذَا قَوْلُهُ: «وَسِيقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمْ زَمِرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزْنَتِهَا أَلْمَ يَأْتُكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتَلوُنُ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَبِّكُمْ وَيَنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلِّي وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعِذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» [الْزُّمُرُ: ۷۱] وَقَالَ تَعَالَى: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرَجَنَا نَعْمَلُ صَالِحًا غَيْرَ الذِّي كَنَا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَلْ كُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» [فاطر: ۳۷] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَدْخُلُ أَحَدًا النَّارَ إِلَّا بَعْدِ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ.

وَمِنْ ثُمَّ طَعَنَ جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ فِي الْفَظْلَةِ الَّتِي جَاءَتْ مَعِجمَةُ فِي صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنْ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» [الْأَعْرَافُ: ۵۶] حَدَثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ، حَدَثَنَا يَعْقُوبُ، حَدَثَنَا أَبِي عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانِ عَنِ الْأَعْرَجِ يَاسِنَادُهُ إِلَى أَبِي هَرِيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اخْتَصَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ» فَذَكَرَ الْحَدِيثُ إِلَى أَنَّ قَالَ «وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَإِنَّهُ يَنْشِئُ لِلنَّارِ خَلْقًا فَيَلْقَوْنَ فِيهَا، فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مُزِيدٍ؟ ثَلَاثًا»^(۱) وَذَكَرَ تَامَّ الْحَدِيثِ.

فَهَذَا إِنَّمَا جَاءَ فِي الْجَنَّةِ، لَأَنَّهَا دَارَ فَضْلٌ، وَأَمَّا النَّارُ فَإِنَّهَا دَارَ عَدْلٌ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ إِلَّا بِالْإِعْذَارِ إِلَيْهِ وَقِيَامِ الْحَجَّةِ عَلَيْهِ. وَقَدْ تَكَلَّمَ جَمَاعَةُ الْحَفَاظِ فِي هَذِهِ الْفَظْلَةِ، وَقَالُوا: لَعْلَهُ

انقلب على الراوي بدليل ما أخر جاه في الصحيحين ، واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق عن عمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : «تحاجت الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال : «فأما النار فلا تمتليء حتى يضع فيها قدمه ، فتقول : قط قط ، فهناك تمتليء وينزوي بعضها إلى بعض . ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشيء لها خلقاً»^(١) .

بقي هنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً ، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباءهم كفار : ماذا حكمهم ؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة ؟ وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا ذكرها لك بعون الله وتوفيقه ، ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان .

[فالحديث الأول] عن الأسود بن سريع . قال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي عن قتادة عن الأحنف بن قيس . عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال : «أربعة يحتاجون يوم القيمة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الأصم فيقول : رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : رب قد جاء الإسلام والصبيان يقذفوني بالبعير ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني لك رسول . فيأخذ موائدهم ليطيعنه ، فيرسل إليهم أندخلوا النار ، فوالذي نفس محمد بيده ، لو دخلوها لكانوا عليهم برداً وسلاماً» . وبالإسناد عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مثله ، غير أنه قال في آخره : « فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها يسحب إليها» .

وكذا رواه إسحاق بن راهويه عن معاذ بن هشام ، ورواه البهقي في كتاب الاعتقاد من حديث أحمد بن إسحاق عن علي بن عبد الله المديني به ، وقال : هذا إسناد صحيح ، وكذا رواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «أربعة كلهم يدلني على الله بحجة» فذكر نحوه ، ورواه ابن جرير^(٣) من حديث عمر عن همام عن أبي هريرة ، فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم ﴿وَمَا كنَا مُعذِّبِينْ حَتَّى نُبَثِّ رَسُولاً﴾ وكذا رواه عمر عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفاً .

[الحديث الثاني] عن أنس بن مالك قال أبو داود الطيالسي : حدثنا الريبع عن يزيد بن أبان قال : قلنا لأنس : يا أبا حمزة ما تقول في أطفال المشركين ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : «لم

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٠ ، باب ١ ، ومسلم في الجنة حديث ٣٦ .

(٢) المسند ٤/٢٤ .

(٣) تفسير الطبرى ٨/٥٠ .

يُكَلِّنُ لَهُمْ سِيَّئَاتٍ فَيَعْذِبُوْهَا، فَيَكُونُوْهَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٍ فَيَجَازِيُّهُمْ بِهَا، فَيَكُونُوْهَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

[الحديث الثالث] عن أنس أيضاً. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير عن ليث عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «يُؤْتَى بِأَرْبِيعَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: بِالْمُولُودِ، وَالْمُعْتُوْهِ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ، وَالشَّيْخُ الْفَانِي الْهَرَمُ كُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُ بِحُجَّتِهِ» فيقول الرب تبارك وتعالى: لعنة من النار ابرز، ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإنني رسول نفسي إليكم ادخلوا هذه، قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أنني ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتصر فيها مسرعاً، فقال: فيقول الله تعالى: أنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار، وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد بإسناده مثله.

[الحديث الرابع] عن البراء بن عازب رضي الله عنه. قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله يعني ابن داود عن عمر بن ذر عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين، قال: «هُمْ مَعَ أَبَائِهِمْ» وسئل عن أولاد المشركين، فقال: «هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ» فقيل: يا رسول الله ما يعملون؟ قال: «الله أعلم بهم» ورواه عمر بن ذر عن يزيد بن أمية عن رجل عن البراء عن عائشة، فذكره.

[الحديث الخامس] عن ثوبان. قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور عن أيوب، عن أبي قلابة عن أبي أسماء، عن ثوبان أن النبي ﷺ عَظِيمُ شَأنِ الْمَسَأَةِ قال «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَاءَ أَهْلُ الْجَاهْلِيَّةِ يَحْمِلُونَ أَوزَارَهُمْ عَلَى ظَهُورِهِمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبُّنَا لَمْ تَرْسُلْ إِلَيْنَا رَسُولًا، وَلَمْ يَأْتِنَا لَكَ أَمْرًا، وَلَوْ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا لَكُنَا أَطْعُونَ عَبَادَكَ، فَيَقُولُ لَهُمْ رَبُّهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَمْرَتُكُمْ بِأَمْرٍ تَطْبِعُونِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَعْدُوا إِلَى جَهَنَّمِ فِي دُخُولِهَا، فَيَنْتَلِقُونَ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَجَدُوا لَهَا تَغْيِيْطاً وَزَفِيرَاً، فَرَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ، فَيَقُولُونَ: رَبُّنَا أَخْرَجَنَا أَوْ أَجْرَنَا مِنْهَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: أَلَمْ تَرْعُمُوا أَنِّي إِنْ أَمْرَتُكُمْ بِأَمْرٍ تَطْبِعُونِي فَيَأْخُذُ عَلَى ذَلِكَ مَوَاثِيقَهُمْ، فَيَقُولُ: اعْدُوا إِلَيْهَا فَادْخُلُوهَا، فَيَنْتَلِقُونَ حَتَّى إِذَا رَأَوْهَا فَرَقُوا مِنْهَا وَرَجَعُوا وَقَالُوا: رَبُّنَا فَرَقَنَا مِنْهَا وَلَا نُسْتَطِعُ أَنْ نَدْخُلَهَا، فَيَقُولُ: ادْخُلُوهَا دَاخِرِينَ «فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: لَوْ دَخَلُوهَا أَوْلَ مَرَّةٍ كَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَاماً» ثم قال البزار: ومن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد.

قلت: وقد ذكره ابن حيان في ثقاته، وقال يحيى بن معين والنسائي: لا بأس به، ولم يرو عنه أبو داود، وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتاج به.

[الحديث السادس] عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى. قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا سعيد بن سليمان عن فضيل بن مرزوق عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الهالك في الفترة والمعتوه والمولود، يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب، ويقول المعtooه: رب لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً، ويقول المولود: رب لم أدرك العقل، فترفع لهم نار، فيقال لهم: ردوها، قال: فيردها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل، ويسرك عنها من كان في علم الله شيئاً لو أدرك العمل، فيقول: إباهي عصيتم، فكيف لو أن رسلي أتكم؟!» وكذا رواه البزار عن محمد بن عمر بن هياج الكوفي عن عبيد الله بن موسى عن فضيل بن مرزوق به، ثم قال: لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه عن عطية عنه، وقال في آخره «فيقول الله إباهي عصيتم، فكيف برسلي بالغيب؟».

[الحديث السابع] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصوري: حدثنا عمرو بن واقد عن يونس بن حلبي عن أبي إدريس الخوارناني، عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «يؤتي يوم القيمة بالمسوخ عقلاً وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيراً، فيقول المسوخ: يا رب لو آتتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد مني» وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك «فيقول الرب عز وجل: إبني أمركم بأمر فتطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار، قال: ولو دخلوها ما ضررهم، فخرج عليهم قوابض فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيءٍ فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم ثانية، فيرجعون كذلك، فيقول الرب عز وجل: قبل أن أخلفكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتكم، وإلى علمي تصيرون، ضميمهم، فتأخذهم النار».

[الحديث الثامن] عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه. قد تقدم روایته مندرجة مع روایة الأسود بن سريع رضي الله عنه وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جماء، هل تحسون فيها من جداع؟»^(١) وفي روایة قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٢).

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت عن عطاء بن قرة عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما أعلم - شك موسى -

أخرجه البخاري في الجنائز باب ٧٩، ٩٢، وتفسير سورة ٣٠، باب ١، والقدر باب ٣، ومسلم في القدر حديث ٢٢، ٢٤، وأبو داود في السنة باب ١٧، ومالك في الجنائز حديث ٥٣، وأحمد في المسند ٣٩٢، ٣٤٧، ٣١٥، ٢٧٥، ٢٣٣/٢.

أخرجه مسلم في القدر حديث ٢٣.
المستند ٣٢٦/٢.

قال: «ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام» وفي صحيح مسلم^(١) عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال «إني خلقت عبادي حنفاء»، وفي رواية لغيره «مسلمين».

[ال الحديث التاسع] عن سمرة رضي الله عنه. رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي. عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة» فناداه الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين». وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم الضبي عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور عن أبي رجاء، عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين، فقال: «هم خدم أهل الجنة».

[ال الحديث العاشر] عن عم حسناء قال أحمد^(٢): حدثنا روح، حدثنا عوف عن حسناء بنت معاوية، من بني صريم قالت: حدثني عمي قال: قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ قال «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة». فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «نعم وأولاد المشركين» ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم» ومنهم من ذهب إلى أنهم [يتحدون يوم القيمة في العرصات]، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف على الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله به بسابق الشقاوة.

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة الشاهد بعضها البعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققى العلماء والحافظ والنقاد. وقد ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها، لأن الآخرة دار جراء وليست بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يتكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين والله لا يكلف نفساً إلا وسعها؟.

[والجواب] عما قال إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير

(١) كتاب الجنة حديث ٦٣، وأخرجه أحمد في المسند ٤ / ١٦٢ .

(٢) المسند ٥ / ٥٨ .

من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها. وأما قوله إن الدار الآخرة دار جزاء، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكَشَّفُ عَنِ سَاقِيهِمْ وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٢]. الآية.

وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيمة، وأن المتفق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً كلما أراد السجود خر لقفاه^(١). وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويذكر ذلك مراراً ويقول الله تعالى: يا ابن آدم ما أدركك، ثم يأذن له في دخول الجنة^(٢)، وأما قوله: فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم، فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيمة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح وكأجaoيد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي ومنهم من يحبون حبواً ومنهم المكدوش على وجهه في النار^(٣)، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أظم وأعظم.

وأيضاً فقد أثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذاك، وأيضاً فإن الله تعالى أمربني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فقتل بعضهم بعضًا حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه، وهم في عمامة غمامه أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقارض عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

[فصل] إذا تقرر هذا فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال [أحدها] أنهم في الجنة. واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين، وبما تقدم في رواية أحمد عن حسناء عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «والمولود في الجنة» وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه. فمن علم الله

(١) أخرجه بنحو، البخاري في تفسير سورة ٦٨، باب ٢، والتوحيد باب ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، ويروى المكدوش بدل المكدوش.

منه أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة، ومن علم منه أنه لا يجيب، فأمره إلى الله تعالى يوم القيمة يكون في النار، كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعري عن أهل السنة، ثم إن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة منهم من جعلهم مستقلين فيها، ومنهم من جعلهم خدماً لهم، كما جاء في حديث علي بن زيد عن أنس عند أبي داود الطيالسي وهو ضعيف، والله أعلم.

[والقول الثاني] أنهم مع آبائهم في النار. واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل^(١) عن أبي المغيرة: حدثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب، حدثني عبد الله بن أبي قيس مولى غطيف أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم» فقلت: يا رسول الله بلا أعمال؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» وأخرجه أبو داود^(٢) من حديث محمد بن حرب عن محمد بن زياد الألهاني، سمعت عبد الله بن أبي قيس، سمعت عائشة تقول: سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المؤمنين، قال: «هم مع آبائهم» قلت: فذراري المشركين؟ قال: «هم مع آبائهم» فقلت بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» ورواه أحمد^(٣) أيضاً عن وكيع عن أبي عقيل يعني بن المتوك وهو متزوج عن مولاته بهية عن عائشة أنها ذكرت أطفال المشركين لرسول الله ﷺ فقال: «إن شئت أسمعتك تصاغيهم^(٤) في النار».

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن فضيل بن غزوان، عن محمد بن عثمان عن زاذان عن علي رضي الله عنه قال: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال: «هما في النار» قال: فلمارأي الكراهية في وجهها فقال لها: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما» قالت: فولدي منك؟ قال: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار - ثم قرأ - «والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم باليمان أحقنا بهم ذريتهم»^(٥) [الطور: ٢١] وهذا حديث غريب، فإن في إسناده محمد بن عثمان مجھول الحال، وشيخه زاذان لم يدركه علياً، والله أعلم.

وروى أبو داود^(٦) من حديث ابن أبي زائدة عن أبيه عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والمؤودة في النار» ثم قال الشعبي: حدثني به علقة عن أبي وائل عن ابن مسعود، وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي عن علقة عن سلمة بن قيس الأشجعي

(١) المستند ٦/٨٤.

(٢) كتاب السنة باب ١٧.

(٣) المستند ٦/٢٠٨.

(٤) تصاغيهم: أي صياغهم وبكاءهم.

(٥) أخرجه أحمد في المستند ١/١٣٤، ١٣٥.

(٦) كتاب السنة باب ١٧.

قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمّنا ماتت في الجاهلية، وكانت تقرى الضيف، وتصلّي الرحم، وإنها وأدت أختاً لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: «الوائدة المؤودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم» وهذا إسناد حسن.

[والقول الثالث] التوقف فيهم. واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين» وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» وكذلك هو في الصحيحين من حديث الزهري عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنّهم من أهل الجنة، لأنّ الأعراف ليس دار قرار ومال أهلها الجنة، كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف، والله أعلم.

[فصل] ولنعلم أنّ هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل، فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن بعض العلماء أنّهم توافقوا في ذلك وأنّ الولدان كلّهم تحت المشيئة، قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث، منهم حماد بن زيد وحمد بن سلمة وابن المبارك وإسحاق بن راهويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطنه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه، وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أنّ المتأخرین من أصحابه ذهبوا إلى أنّ أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة، انتهى كلامه، وهو غريب جداً، وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب التذكرة نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

وقد ذكروا في ذلك أيضاً حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعملسوء ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم. وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»^(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روى ذلك عن ابن عباس والقاسم بن

(١) أخرجه مسلم في القدر حديث ٣١، وأبو داود في السنة باب ١٧، والنسائي في الجنائز باب ٥٨، وابن ماجه في المقدمة باب ١٠، وأحمد في المستند ٤١/٦، ٢٠٨.

محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد ابن الحنفية وغيرهم، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو مقارباً ما لم يتكلموا في الوالدان والقدر» قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين، وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء عن ابن عباس موقفاً.

اختلاف القراء في قراءة قوله فالمشهور قراءة التخفيف، وخالف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا متوفياً ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: «أَتَاهَا أُمْرَنَا لِيَلَّا أَوْ نَهَارًا» [يونس: ٢٤] فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، رواه ابن جريج عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضاً. وقال ابن جرير^(١): يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء، قلت إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ **أَتَاهَا أُمْرَنَا لِيَلَّا أَوْ نَهَارًا**، قال علي بن طلحة عن ابن عباس قوله: **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا** فإذا فعلوا ذلك أهلوكم الله بالعذاب، وهو قوله: **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا** [الأనعام: ١٢٣] الآية، وكذا قال أبو العالية ومجاحد والربيع بن أنس.

وقال العوفي عن ابن عباس **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا** يقول، أكثرنا عددهم^(٢)، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة. وعن مالك، عن الزهري أكثرنا، وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٣)، حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعيم العدوبي عن مسلم بن بديل، عن إيساف بن زهير، عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال «خير مال أمرىء له مهرة مأمورة، أو سكة مأمورة» قال الإمام أبو عبد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه الغريب: «المأمورة كثيرة النسل، والسلكة الطريقة المصطفة من النخل، والمأمورة من التأثير» وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً لقوله «مأزورات غير مأجورات».

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأنه قد أهلك من المكذبين

(١) تفسير الطبرى ٥١ / ٨.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥٢ / ٨.

(٣) المسند ٥ / ١٧٠.

للرسل من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلق، فعقوبتكم أولى وأحرى. قوله: «وكفى بربك بذنوب عباده خيراً بصيراً» أي هو عالم جميع أعمالهم: خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

مَنْ كَانَ رُبِّيْدَ الْعَاجِلَةَ عَجَلَنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ لَمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلَنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْنَعُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝
وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَمَا نَسْعَيْهُمْ مَشْكُورًا ۝

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: «عجلنا له فيما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم» أي في الدار الآخرة (يصلها) أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه (مدحوراً) أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنعيه، إذ اختار الفاني على الباقي (مدحوراً) معداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً.

روى الإمام أحمد^(١): حدثنا حسين، حدثنا رويد عن أبي إسحاق، عن زرعة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». قوله: «ومن أراد الآخرة» أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور «وسعى لها سعيها» أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ «وهو مؤمن» أي قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء «فأولئك كان سعيهم مشكوراً».

كُلَّا نُنْهِيْهَوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءَ رَبِّكَ مَحظُورًا ۝ اُنْظِرْ كَيْفَ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتِنَا وَأَكْبَرُ تَقْصِيلَا ۝

يقول تعالى: «كلاً» أي كل واحد من الفريقين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه «من عطاء ربك» أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاماً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد، ولهذا قال «وما كان عطاء ربك محظوراً» أي لا يمنعه أحد، ولا يرده راد. قال قتادة «وما كان عطاء ربك محظوراً» أي منقوصاً^(٢)، وقال الحسن وغيره: أي ممنوعاً.

ثم قال تعالى: «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض» أي في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً

(١) المستند ٧١/٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥٦/٨.

كبيراً، وبين ذلك «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً» أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلامتها وأغاللها، ومنهم من يكون في الدرجات العليا ونعمتها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون في ما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل علين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»^(١) ولهذا قال تعالى: «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً» وفي الطبراني من رواية زادان عن سلمان مرفوعاً «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفاع، إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها» ثم قرأ «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً».

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَى فَتَقْعُدْ مَذْمُومًا مَحْذُولًا

يقول تعالى، والمراد المكفلون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك، له شريكاً «فتقد مذموماً» أي على إشراكك به «محذولاً» لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وقد قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان عن سيار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً وإما غنى عاجلاً»^(٣) رواه أبو داود والترمذى من حديث بشير بن سلمان به، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب .

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنَا إِنَّمَا يُنْهَى عَنِ الدِّينِ كَبَرْ أَهْدَهُمَا أَوْ كَلَّاهُمَا فَلَا تَنْهَى عَنِ الْمُحْسِنِهِنَّ وَلَا تَنْهَى هُنَّا وَقُلْ لَهُمَا قُوَّلَا كَسْرَيْمَا وَلَا حُنْصَ لَهُمَا بِحَاجَةِ الدُّلُّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ الْأَحْمَمِهِنَّ كَمَرَيْكَ صَعِيلَكَ

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء هنا بمعنى الأمر، قال مجاهد «قضى» يعني وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين، فقال: «وبالوالدين إحساناً» أي وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى «أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير» [لقمان: ٤٠].

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، والرفاق باب ٥١، ومسلم في الجنة حديث ١١.

(٢) المستند / ٤٠٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٨، والترمذى في الزهد باب ١٨.

وقوله **أي لا تسمعهما قوله** **أي لا تتألف** حتى **أي لا يصدر منك** إلَيْهِما فعل قبيح، كما قال عطاء بن رياح في قوله **أي لا تنفض يدك عليهما**^(١)، ولما نهَا عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول والفعل الحسن، فقال: **أي ليتنا طيباً حسناً بتأدب وتقدير وتعظيم**، أي في كبرهما وعند وفاتهما، قال ابن عباس: ثم أنزل الله **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾** [التوبة: ١١٣] الآية^(٢).

وقد جاء في برق الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمين آمين آمين» قيل يا رسول الله علام أمنت؟ قال: «أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنه فلم يصل عليك، قل: آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل: آمين، فقلت آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل: آمين، فقلت آمين»^(٣).

[حديث آخر] قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا هشيم، حدثنا علي بن زيد أخبرنا زراراً بن أوفى عن مالك بن الحارث، عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من ضم يتيمًا من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه، وجبت له الجنة البتة، ومن اعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار يجزي بكل عضو منه عضواً منه» ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت علي بن زيد ذكر معناه، إلا أنه قال عن رجل من قومه يقال له مالك أو ابن مالك، وزاد «ومن أدرك والديه أو أحدهما، فدخل النار فأبعده الله».

[حديث آخر] قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا عفان عن حماد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد عن زراراً بن أبي أوفى عن مالك بن عمرو القشيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اعتق رقبة مسلمة فهي فداه من النار، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل، ومن ضم يتيمًا من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنه الله وجبت له الجنة».

(١) انظر تفسير الطبرى / ٨ / ٦٠.

(٢) انظر تفسير الطبرى / ٨ / ٦٣.

(٣) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ١٠٠، وأحمد في المسند ٢٥٤ / ٢، ٣٤٦.

(٤) المسند ٤ / ٣٤٤، ٥ / ٢٩.

(٥) المسند ٤ / ٣٤٤.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(١): حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة عن قتادة، سمعت زراة بن أبي أوفى يحدث عن أبي مالك القشيري قال: قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُ»، ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة به، وفيه زيادات أخرى.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال «رغم أنف، ثم رغم أنف ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة» صحيح من هذا الوجه، ولم يخرجوه، سوى مسلم^(٣) من حديث أبي عوانة وجرير وسلميـان بن بلال عن سهيل به.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا ربعي بن إبراهيم، قال أـحمد وهو أخو إسماعيل بن عـلية وكان يفضل على أخيه، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىـه، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم يدخله الجنة» قال ربعي : ولا أعلمـه إلا قال «أو أحدهما». ورواه الترمذـي^(٥) عن أـحمد بن إبراهيم الدورـقي عن ربعي بن إبراهـيم، ثم قال: غـريبـ من هذا الوجه.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٦): حدثـنا يونـسـ بنـ مـحمدـ، حدـثـنا عبدـ الرـحـمـنـ بنـ الغـسـيلـ، حدـثـنا أـسـيدـ بنـ عـلـيـ عنـ أـبـيهـ عـلـيـ بنـ عـيـدـ، عـنـ أـبـيـ أـسـيلـ وـهـ مـالـكـ بنـ رـبـيعـةـ السـاعـدـيـ قالـ: بـيـنـمـاـ أـنـاـ جـالـسـ عـنـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ، إـذـ جـاءـهـ رـجـلـ مـنـ الـأـنـصـارـ فـقـالـ: يـاـ رـسـولـ اللهـ هـلـ بـقـيـ عـلـيـ مـنـ بـرـ أـبـويـ شـيـءـ بـعـدـ مـوـتـهـمـاـ أـبـرـهـمـاـ بـهـ؟ـ قـالـ: نـعـمـ خـصـالـ أـرـبـعـ: الـصـلـاـةـ عـلـيـهـمـاـ، وـالـاسـتـفـارـ لـهـمـاـ، وـإـنـفـاذـ عـهـدـهـمـاـ، وـإـكـرـامـ صـدـيقـهـمـاـ، وـصـلـةـ الـرـحـمـ الـتـيـ لـاـ رـحـمـ لـكـ إـلـاـ مـنـ قـبـلـهـمـاـ، فـهـوـ الـذـيـ بـقـيـ عـلـيـكـ مـنـ بـرـهـمـاـ بـعـدـ مـوـتـهـمـاـ»^(٧) وـرـوـاهـ أـبـوـ دـاـودـ وـابـنـ مـاجـهـ مـنـ حـدـيـثـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بنـ سـلـيـمانـ وـهـ اـبـنـ الغـسـيلـ بـهـ.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٨): حدـثـنا رـوحـ، حدـثـنا اـبـنـ جـريـجـ، أـخـبـرـنـيـ مـحـمـدـ بنـ

(١) المسند /٤ ، ٣٤٤ /٥ . ٢٩

(٢) المسند /٢ . ٣٤٦

(٣) كتاب البر حديث ٨.

(٤) المسند /٢ . ٢٥٤

(٥) كتاب الدعوات باب ١٠٠ .

(٦) المسند /٣ ، ٤٩٧ /٤ . ٤٩٨

(٧) أـخـرـجـهـ أـبـوـ دـاـودـ فـيـ الـأـدـبـ بـابـ ١٢٠ـ ، وـابـنـ مـاجـهـ فـيـ الـأـدـبـ بـابـ ٢ـ .

(٨) المسند /٣ . ٤٢٩

طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن عن معاوية بن جاهمة السلمي أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال: «فهل لك من أم» قال نعم قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها» ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول^(١)، ورواه النسائي وأبن ماجه من حديث ابن جريج به.

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا خلف بن الوليد حدثنا ابن عياش عن يحيى بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معديكرب عن النبي ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بأبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب» وأخرجه ابن ماجه^(٣) من حديث عبد الله بن عياش به.

[حديث آخر] قال أحمد^(٤): حدثنا يونس، حدثنا أبو عوانة عن أشعث بن سليم عن أبيه، عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك».

[حديث آخر] قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عبد الخالق البزار في مستنده: حدثنا إبراهيم بن المستمر العروقي، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبي جعفر عن ليث بن أبي سليم عن علقة بن مرثد، عن سليمان بن بريد عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاماً أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ: هل أديت حقها؟ قال «لا ولا بزفة واحدة» أو كما قال، ثم قال البزار: لا نعلمه يروي إلا من هذا الوجه. قلت: والحسن بن أبي جعفر ضعيف، والله أعلم.

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَابِينَ غَفُورًا

قال سعيد بن جير: هو الرجل تكون منه البدارة إلى أبيه، وفي بيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: «ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين»^(٥). قوله: «فإنه كان للأوابين غفوراً» قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المسيحيين، وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين، وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى. وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في قوله: «فإنه كان للأوابين غفوراً» قال: الذين يصيرون الذنب ثم

(١) آخرجه النسائي في الجهاد باب ٦.

(٢) المسند ٤ / ١٣٢.

(٣) كتاب الأدب باب ١.

(٤) المسند ٤ / ٦٤ ، ٦٥.

(٥) انظر تفسير الطبرى ٨ / ٦٣.

يتوبون، ويصيرون الذنب ثم يتوبون^(١)، وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري ومعمر عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب بنحوه، وكذا رواه الليث وابن جرير عن ابن المسيب به.

وقال عطاء بن يسار بن جبير ومجاحد: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد في ذلك. وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير في قوله: «فإنه كان للأوابين غنوراً» قال: كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: «إن إلينا إياهم» [الغاشية: ٢٥] وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيوب تائبون، عابدون لربنا حامدون»^(٢).

وَأَتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَأَنَّ السَّبِيلَ وَلَا تَبْدِرْ تَبْدِيرًا إِنَّ الْمُبَدِّرَ إِنْ كَانُوا إِخْرَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ زَرِيعًا كَوْرًا وَإِمَّا تُعْرِضَ عَنْهُمْ أَتْعَاهَ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَتُنَذَّلُ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث «أمك وأباك ثم أدناك أدناك» وفي رواية «ثم الأقرب فالأقرب»^(٣)، وفي الحديث «من أحب أن ييسط له في رزقه وينسا له في أجله، فليصل رحمه»^(٤) وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد قال: لما نزلت «وَأَتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ» دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطها فدك، ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التميمي وحميد بن حماد بن أبي الخوار، وهذا الحديث مشكل لو صاح إسناده، لأن الآية مكية، وقدك إنما فتحت مع خير سنة سبع من الهجرة، فكيف يلائم هذا مع هذا؟ فهو إذاً حديث منكر، والأشبه أنه من وضع الرافضة، والله أعلم، وقد تقدم الكلام على المساكين وأبناء السبيل في سورة براءة بما أغني عن إعادته ههنا.

وقوله «وَلَا تَبْدِرْ تَبْدِيرًا» لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرُفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا» [الفرقان: ٦٧] الآية، ثم قال منفراً

(١) انظر تفسير الطبراني ٦٥ / ٨.

(٢) أخرجه البخاري في العمرة باب ١٢، ومسلم في الحجج حديث ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٢٩، وأبو داود في الجهاد باب ٧٢، وأحمد في المسند ١ / ٥٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤ / ٦٤، ٦٥.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع باب ١٣، ومسلم في البر حديث ٢١، ٢٠.

عن التبذير والسرف **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾**. قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد حاضرة، فأخبرني كيف أنفق، وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك إن كان، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين» فقال: يا رسول الله أقل لي؟ **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** فقال: حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها ولك أجراها، وإنما على من بدلها».

وقوله: **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** أي في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقل على معصيته ومخالفته. قوله: **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** الآية، أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، أعرضت عنهم لفقد النفقة **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** أي عدهم وعداً بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** بالوعد، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد.

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾**. أي لا تكن بخيلاً متوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله - **﴿يَدَ اللَّهِ مَغْلُولَة﴾** [المائدة: ٦٤] أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدير الكريمية الوهاب، قوله **﴿إِنَّمَا يُنْهَا عَنِ الْحَقِّ أَيُّ أَشْباهُهُمْ فِي ذَلِكَ﴾** أي ولا تصرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك فتتعد ملوماً محسوراً، وهذا من باب اللف والنشر، أي فتتعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغفرون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمي في المعلقة: **«الظويل»**.

ومن كان ذا مال فيدخل بماله على قومه يستغن عنده ويذمّم^(١)

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تتفقه، ف تكون كالحسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال «فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير» [المملوك: ٤] أي كليل عن أن يرى شيئاً، هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف: ابن عباس والحسن وقتادة وابن جرير وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنافق كمثل رجلين عليهما جيتان من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنافق فلا ينفق إلا سبعة أو وفرت على جلده حتى تخفي بناته وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تسع»^(٢) هذا لفظ البخاري في الزكاة.

وفي الصحيحين من طريق هشام بن عمرو عن زوجته فاطمة بنت المتندر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا ولا توخي فيواعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك»^(٣). وفي لفظ «ولا تحصي فيحصي الله عليك»^(٤). وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق عن عمر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي: أنفق، أنفق عليك»^(٥) وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يتزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلها»^(٦).

وروى مسلم عن قتيبة بن إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً «ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً أفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله»^(٧) وفي حديث أبي كثیر عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم

(١) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمي ص ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٢٨، ومسلم في الزكاة حديث ٧٦، ٧٧.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الزكاة باب ٢١، وأبو داود في الزكاة باب ٤٦، والترمذى في البر باب ٤٠، والنمسائى في الزكاة باب ٦٢، وأحمد في المستند ٦/٢١٤، ٢٥٤.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الزكاة باب ٢١، والهبة باب ١٥، ومسلم في الزكاة حديث ٨٨، ٨٩.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٣٦، ٣٧.

(٦) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٢٧، ومسلم في الزكاة حديث ٥٧.

(٧) أخرجه مسلم في البر حديث ٦٩.

بالبخل فخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(١). وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر عن أبي معاوية عن الأعمش، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطاناً».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد».

وقوله: «إِنْ رَبِّكَ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُقْدِرُ» إخباراً أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيعني من يشاء، ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: «إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا» أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، كما جاء في الحديث «إِنَّمَا يَنْهَا اللَّهُ عَنِ الْمُحْسِنِينَ مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَا أَغْنِيَهُ إِلَّا عَلَيْهِ دِينُهُ» وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عيادةً بالله من هذا وهذا.

وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقًا تُخْنَى نَرْزُقُهُمْ وَلَيَأْكُلُ إِنَّ قَاتِلَهُمْ كَانَ حَاطِئًا كَيْدًا

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عليه، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال «وَلَا تقتلوا أُولادكم خشية إِمْلَاقٍ» أي خوف أن تفتقرن في ثاني حال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: «نحن نرزقهم وإياكم» وفي الأنعام «وَلَا تقتلوا أُولادكم مِنْ إِمْلَاقٍ» أي من فقر «نحن نرزقكم وإياهم» [الأنعام: ١٥١]. وقوله «إِنْ قَاتَلْتُمْ كَانَ حَاطِئًا كَيْدًا» أي ذنبًا عظيمًا، وقرأ بعضهم: كان خطأً كبيراً وهو بمعناه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم: قال «إِنْ تَجْعَلَ اللَّهُ نَذَارًا وَهُوَ خَلْقُكَ - قلت: ثم أي؟ - قال: إِنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ - قلت: ثم أي؟ - قال: إِنْ تَزَانِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»^(٣).

وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَيِّلًا

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودعائيه «وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٥٦.

(٢) المسند ٤٤٧ / ١.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢ باب ٣، وسورة ٢٥، باب ٢، والأدب باب ٢٠، والحدود باب ٢٠، والديات باب ١، والتوحيد باب ٤٠، ٤٦، ومسلم في الإيمان حديث ١٤١، ١٤٢.

كان فاحشة» أي ذنباً عظيماً «وساء سبيلاً» أي بئس طريقاً ومسلكاً.

وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير حدثنا سليم بن عامر عن أبي أمامة أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزحروه، وقالوا: مه مه، فقال «ادنه» فدنا منه قريباً، فقال «اجلس» فجلس، فقال «أتحبه لأمك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: «أفتحبه لأنختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال فوضع يده عليه، وقال «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحسن فرجه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يتفت إلى شيء، وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي، عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له».

وَلَا نَقْتُلُ الْفَقْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ فَلَلْ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيَّهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِيفُ إِلَيْهِ
الْمُقْتَلُ إِلَّمَ كَانَ مَصْوِرًا

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني الممحضن، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٢). وفي السنن «الزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم»^(٣).

وقوله: «وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيَّهُ سُلْطَانًا» أي سلطة على القاتل، فإنه بال الخيار فيه إن شاء قتلته قوداً، وإن شاء عفا عنه على الديمة، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولالية معاوية السلطنة أنه سيملك لأنه كان ولی عثمان، وقد قتل مظلوماً رضي الله عنه، وكان معاوية يطالبه علياً رضي الله عنه أن يسلمه قتلته حتى يقتض منهم، لأنه أموي، وكان علي رضي الله عنه يستمهله

(١) المستند ٣٥٦، ٣٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في الدييات باب ٦، ومسلم في القسامية حديث ٢٥، ٢٦، وأبو داود في الحدود باب ١، والترمذى في الدييات باب ١٠، ١٥، والنمسائى في القسامية باب ٦، ٨، وابن ماجه في الحدود باب ١، والدارمى في السير باب ١١.

(٣) أخرجه الترمذى في الدييات باب ٧، وابن ماجه في الدييات باب ١، والنمسائى في التحرير باب ٢.

في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فأبى معاوية ذلك، حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يباع علىًّا هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكّن معاوية وصار الأمر إليه، كما قال ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجب.

وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال: حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمرة بن ربيعة عن ابن شوذب عن مطر الوراق، عن زهد الجرمي قال: كنا في سمر ابن عباس فقال: إني محدثكم بحديث ليس بسر ولا علانية، إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان يعني عثمان، قلت لعلي: اعترض فلو كنت في جحر طبت حتى تستخرج فعصانى، وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله يقول: * ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل* الآية، وليحملنكم قريش على سنة فارس والروم، ولقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يعرف نجا، ومن ترك - وأنتم تاركون - كنتم كقرن من القرون هلك فمن هلك وقوله: * فلا يسرف في القتل* قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتضي من غير القاتل. وقوله: * إنه كان مصوراً* أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالباً قدرأ.

وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا
وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَرِزْقًا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

يقول تعالى: **﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَهُ﴾** أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة **﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غُنْيًا فَلِيَسْتَعْفِفُ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلِيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوف﴾** [النساء: ٦] وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإنني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال اليتيم»^(١) وقوله **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾** أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه **﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا﴾** أي عنه.

وقوله: **﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ﴾** أي من غير توظيف ولا تخسوا الناس أشياءهم، **﴿وَرِزْقًا بِالْقِسْطَاسِ﴾** قريء بضم القاف وكسرها، كالقرطاس، وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية^(٢). وقوله: **﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾** أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب **﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾** أي لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال **﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾** أي مالاً ومنقلباً في آخرتكم، قال سعيد عن قتادة **﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾** أي خير ثواباً وأحسن عاقبة. وابن عباس كان يقول: يا معاشر الموالي إنكم وليتكم أمرین بهما هلك الناس قبلكم، هذا المكيال،

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧٩/٨.

وهذا الميزان، قال: وذكر لنا أن نبي الله عليه الصلاة والسلام كان يقول «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك».

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لا تقل. وقال العوفي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله^(١)، ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهם والخيال، كما قال تعالى: «اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم» [الحجرات: ١٢] وفي الحديث «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(٢). وفي سنن أبي داود «بئس مطية الرجل زعموا»^(٣) وفي الحديث الآخر «إن أفرى الفرى أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا»^(٤). وفي الصحيح «من تحلم حلماً كلف يوم القيمة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل»^(٥).

وقوله: «كل أولئك» أي هذه الصفات من السمع والبصر والفواد «كان عنه مسؤولاً» أي سيسأل العبد عنها يوم القيمة، وتسأل عنه عما عمل فيها، ويصبح استعمال أولئك مكان تلك، كما قال الشاعر: [الكامل]

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزَلَةِ اللَّوِيْ وَالْعِيشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الْأَيَّامِ

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكُنْ تَسْعَ الْجَبَالَ طُولًا

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئًا عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا

(١) انظر تفسير الطبرى /٨ .٨٠

(٢) أخرجه البخاري في النكاح باب ٤٥ ، والوصايا باب ٨ ، والفرائض باب ٢ ، والأدب باب ٥٧ ، ومسلم في البر حديث ٢٨ .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٧٢ ، وأحمد في المسند ٤/٥ ، ١١٩ .٤٠١

(٤) أخرجه البخاري في التعير باب ٤٥ ، وأحمد في المسند ٢/٢ ، ٩٦ .١١٩

(٥) أخرجه البخاري في التعير باب ٤٥ ، وأبو داود في الأدب باب ٨٨ ، والترمذى في الرؤيا باب ٨ ، وابن ماجه في الرؤيا باب ٨ ، وأحمد في المسند ١/٢١٦ ، ٢٤٦ ، ٣٥٩ .٥٠٤/٢

(٦) البيت لجرين في ديوانه ص ٩٩٠ ، وفيه «الأقوام» بدل «ال أيام» ، وتخليص الشواهد ص ١٢٣ ، وخزانة الأدب ٥/٤٣٠ ، وشرح التصريح ١/١٢٨ ، وشرح شواهد الشافية ص ١٦٧ ، وشرح المفصل ٩/١٢٩ ، ولسان العرب (أولى) ، والمقاصد النحوية ١/٤٠٨ ، وتفسير الطبرى ٨/٤٠٨ ، وبلا نسبة في أوضاع المسالك ١/١٣٤ ، وشرح الأشموني ١/٦٣ ، وشرح ابن عقيل ص ٧٢ ، والمتنصب ١/١٨٥ .

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتباختر في المشية «ولَا تمش في الأرض مرحًا» أي متباخترًا متمايلاً مشي الجبارين «إِنك لَن تُخْرِقَ الْأَرْضَ» أي لن تقطع بمشيك، قاله ابن جرير^(١)، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج: [رجز]

وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِي الْمُخْتَرِقِ^(٢)

وقوله: «ولَن تُبْلِغَ الْجَبَالَ طَوْلًا» أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بتقيض قصده، كما ثبت في الصحيح «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَعَلَيْهِ بُرْدَانٌ يَتَبَخَّرُ فِيهِمَا، إِذَا خَسَفَ بِهِ الْأَرْضُ فَهُوَ يَتَجَلَّجُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣) وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زيته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث «مِنْ تَوَاضُّعِ اللَّهِ رَفِعَهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ، وَمِنْ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ حَقِيرٌ، حَتَّى لَهُ أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَلْبِ وَالْخَنْزِيرِ»^(٤).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب الخمول والتواضع: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد عن أبي بكر الهمذاني قال بينما نحن مع الحسن إذ مر عليه ابن الأهييم يريد المنصور، وعليه جباب خز قد نتصد بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشي ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أَفْ أَنْتَ شامخٌ بِأَنْفِكَ، ثانٍ عَطْفَهُ، مَصْرُورٌ خَدَهُ، يَنْظُرُ فِي عَطْفِيهِ، أَيْ حَمِيقٌ يَنْظُرُ فِي عَطْفِهِ فِي نَعْمٍ غَيْرِ مَشْكُورَةٍ وَلَا مَذْكُورَةٍ، غَيْرِ الْمَأْخُوذِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهَا، وَلَا الْمَؤْدِي حَقَّ اللَّهِ مِنْهَا، وَاللَّهُ أَنْ يَمْشِي أَحَدُهُمْ طَبِيعَتِهِ يَتَجَلَّجُ تَلَجَّجُ الْمَجْنُونُ فِي كُلِّ عَضُوٍّ مِنْهُ نَعْمَةٌ، وَلِلشَّيْطَانِ بِهِ لَعْنَةٌ، فَسَمِعَهُ إِبْرَاهِيمُ فَرَجَعَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَعْتَذِرْ إِلَيَّ وَتَبِ إِلَيَّ رَبِّكَ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: «لَوْلَا تَمَشَ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَن تُخْرِقَ الْأَرْضَ».

(١) تفسير الطبرى ٨/٨

(٢) بعده:

مُشَبِّهُ الْأَعْلَامِ لِمَاعِ الْخَفَّ

والرجز لرؤبة في ديوانه ص ١٠٤، والأغاني ١٥٨/١٠، وجمهرة اللغة ص ٤٠٨، ٦١٤، ٩٤١، وخزانة الأدب ٢٥، ٢٥/١٠، والخصائص ٢٢٨/٢، وشرح أبيات سيبويه ٣٥٣/٢، ومقاييس اللغة ٢/٢، ١٧٢/٥، ٨٥/٥، ولسان العرب (خفف)، (عمق)، (غلا)، وبلا نسبة في الخصائص ٢/٢، ٢٦٠، ٣٢٠، وسر صناعة الإعراب ٤٩٣/٢، ٥٠٢، ٦٣٩، وشرح ابن عقيل ص ٣٧٢، والعقد الفريد ٥٠٦/٥، والكتاب ١١٠/٤، وكتاب العين ١٨٨/١.

(٣) أخرجه مسلم فيibus حديث ٤٩، وأحمد في المسند ٢/٢٢٢، ٢٦٧، ٣١٥.

(٤) أخرجه القسم الأول من الحديث مسلم في البر حديث ٦٩، والترمذى في البر باب ٨٢، والدارمى في الزكاة باب ٣٤، ومالك في الصدقة حديث ١٢، وأحمد في المسند ٢/٣٨٦.

ورأى البختري العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركتها ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً. وقال خالد بن معدان: إياكم والخطر، فإن الرجل يده من سائر جسده، رواهما ابن أبي الدنيا، وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا حماد بن زيد عن يحيى عن سعيد عن محسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشيت أمتني المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم، سلط بعضهم على بعض».

وقوله: «كل ذلك كان سُيئَةٌ عند ربك مكروراً» أما من قرأ سيئة، أي فاحشة فمعناه عنده كل هذا الذي نهيه عنه من قوله: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق» [الإسراء: ٣١] إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكرروه عند الله لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ سيئة على الإضافة فمعناه عنده كل هذا الذي ذكرناه من قوله: «وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه» [الإسراء: ٢٣] إلى هنا فسيئة أي فقيحه مكرروه عند الله، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله.

ذَلِكَ مِنَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَآءَ أَخْرَ فَتَلَقَّى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، «ولا تجعل مع الله إلهاء آخر فلتلقى في جهنم ملوماً» أي تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، «مدحوراً» أي مبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً^(١)، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلمه عليه معصوم .

أَفَأَصَفَنُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَلَا خَذَنَ مِنَ الْمَلِئَةِ إِنَّهُ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الراعنين، عليهم لعائن الله: أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم «أفاصفاكم ربكم بالبنين» أي خصصكم بالذكر «واتخذ من الملائكة إناثاً» أي واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: «إنكم لتقولون قولًا عظيماً» أي في زعمكم أن الله ولد، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن باللاؤاد، فتلك إداً قسمة ضيزي، وقال تعالى: «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تقاد السموات يتغطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمٰن ولداً وما ينبغي للرحمٰن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتىه يوم القيمة

(١) انظر تفسير الطبرى ٨٣/٨

فردأً [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُنَورًا ﴿١﴾

يقول تعالى: «ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل» أي صرفنا فيه من الوعيد عليهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواضع، فينجزروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، «وما يزيدهم» أي الطالمين منهم «إلا نوراً» أي عن الحق وبعداً منه.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُمْ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَتَغَيَّرُ إِلَى ذِي الْعِزْمٍ سَيِّلَكُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعْلَمَ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٢﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكًا من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إلىه وتشفع لديه، لكن أولئك المعبدون يعبدونه ويقتربون إليه ويتبعون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبد يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسالته وأنبائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال: «سبحانه وتعالى عما يقولون» أي هؤلاء المشركين المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى «علواً كبيراً» أي تعالىً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

شَيْخُهُ لِهِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَيِّعُ بِهِمْ وَلَكِنْ لَا تَنْفَهُنَّ سَيِّحُهُمْ إِنَّمَا كَانُ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٣﴾

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتتزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركين، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته: [المتقارب]

فِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدْلِي عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

كما قال تعالى: «نَكَادِ السَّمَوَاتِ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُ الجَبَالُ هَذَا أَنْ دَعَوْنَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا» [مريم: ٩٠] وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثنا عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى، كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا حتى بلغ السموات السبع. فلما رجع قال: «سمعت تسيحًا في السموات العلي مع تسيح كثير سبحت السموات العلي، من ذي

(١) البيت لأبي العتاهية في ديوانه ص ١٠٤، وtag العروس (عنه).

المهابة مشفقات لذى العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى».

وقوله: «إِنْ مَنْ شَيْءَ إِلَّا يُسْبِحُ بِحَمْدِهِ» أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله «وَلَكُنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل^(١). وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وهو حديث مشهور في المسانيد وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زيان عن سهل بن معاذ عن ابن أنس، عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم «اركبواها سالمة ودعوها سالمة، ولا تخذلواها كراسى لأحاديثكم في الطرق والأسوق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله منه».

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال «نقيقها تسبيح». وقال قتادة عن عبد الله بن أبي عن عبد الله بن عمرو أن الرجل إذا قال لا إله إلا الله، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها، وإذا قال: الحمد لله، فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: الله أكبر، فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: سبحان الله، فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاوة والتسبيح. وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: أسلم عبدي واستسلم.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت مصعب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبي ﷺ أعرابي عليه جبة من طيالسة مكفوفة بدبياج، أو مزورة بدبياج، فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع ويضع كل رأس ابن رأس، فقام إليه النبي ﷺ مغضباً، فأخذ بمجامع جبهه فاجتبه فقال: «لَا أَرِيْ عَلَيْكَ ثِيَابَ مَنْ لَا يَعْقُلُ» ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس، فقال: «إِنْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَتِهِ الْوَفَاءُ دَعَا ابْنِيهِ فَقَالَ: إِنِّي قَاصِدُكُمَا الْوَصِيَّةَ أَمْرَكُمَا بِاثْنَيْنِ، وَأَنْهَا كَمَا عَنِ اثْنَيْنِ، أَنْهَا كَمَا عَنِ الشَّرِكَ بِاللَّهِ وَالْكُبْرَ، وَأَمْرَكُمَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وَضَعْتُ فِي كَفَةِ الْمِيزَانِ وَوَضَعْتُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكَفَةِ الْآخِرَى كَانَتْ أَرْجَحُ وَلَوْ أَنِّي وَضَعَتِ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتْ حَلْقَةً فَوَضَعْتُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِمَا، لَقْصَمْتُهُمَا أَوْ لَفَصَمْتُهُمَا، وَأَمْرَكُمَا بِسَبْحَانِ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ وَبِهَا يَرْزُقُ كُلُّ شَيْءٍ» ورواه الإمام

(١) أخرجه البخاري في المناقب بباب ٢٥ ، والدارمي في المقدمة بباب ٥ ، وأحمد في المسند ٤٦٠ / ١.

(٢) المسند ٤٣٩ / ٣ .

(٣) المسند ٢٢٥ / ٢ .

أحمد^(١) أيضاً عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن مصعب بن زهير به أطول من هذا وتفرد به .

وقال ابن جرير^(٢): حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا محمد بن يعلى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء امر به نوح ابنه؟ إن نوحًا عليه السلام قال لابنه: يا بني أمرك أن تقول: سبحان الله، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يزرق الخلق» قال الله تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» إسناده فيه ضعف، فإن الأودي ضعيف عند الأكثرين . وقال عكرمة في قوله تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» قال الأسطوانة تسبح والشجرة تسبح - الأسطوانة - السارية وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه وخرير الماء تسبيحه قال الله تعالى «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال: الطعام يسبح، ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج، وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح، يعنيون من حيوان ونبات .

قال قتادة في قوله: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» قال: كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه، وقال الحسن والضحاك في قوله «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» قالا: كل شيء فيه الروح . وقال ابن جرير^(٣): حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب، قالا: حدثنا جرير أبو الخطاب، قال كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبح هذا الخوان؟ فقال: كان يسبح مرة .

قلت: الخوان هو المائدة من الخشب - فكان الحسن رحمة الله، ذهب إلى أنه لما كان حياً فيه خضرة كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه، وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ من بقرين فقال «إنهما لعنبان وما يعنban في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتره من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال «لعله يخف عنهما ما لم يبسا»^(٤) آخر جاه في الصحيحين ، قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال ما لم يبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة ، فإذا بيسا انقطع تسبيحهما ، والله أعلم .

(١) المسند ١٦٩/٢ ، ١٧٠ .

(٢) تفسير الطبرى ٨/٨٤ .

(٣) تفسير الطبرى ٨/٨٤ ، ٨٥ .

(٤) أخرجه بلفظ «يستتره من البول» مسلم في الطهارة حديث ١١١ ، وأخرجه بلفظ «يستتر من بوله» البخاري في الموضوع باب ٥٥ ، والجنازات باب ٨١ ، وأخرجه بلفظ «يستبرئ من بوله» البخاري في الموضوع باب

وقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وع纳ه أخذته أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلَتْهُ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرِي وَهِيَ ظَالِمَة﴾ [هود: ١٠٢] الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَأْيَنِ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَة﴾ [الحج: ٤٨] الآية، وقال ﴿كَأْيَنِ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَا هَا وَهِيَ ظَالِمَة﴾ [الحج: ٤٥] الآيتين، ومن أفلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله تاب إليه وتاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾ [النساء: ١١٠] الآية، وقال هنـا ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاً وَلَئِنْ زَالتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذَ اللَّهُ النَّاسَ﴾ [فاطر: ٤٥] إلى آخر السورة.

**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الدِّينِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۚ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكْتَهَهُ
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذِنِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَعْلَمْ أَدِبْرَهُمْ فَقُورًا ۚ**

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً. قال قتادة وابن زيد: هو الأكتمة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قَلُوبُنَا فِي أَكْتَنَةٍ مَا تَدْعُنَا إِلَيْهِ وَفِي آذِنَهُمْ وَقْرًا وَمِنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ حِجَابٍ﴾ [فصلت: ٥] أي مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء. قوله ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ بمعنى ساتر كميومون ومشروم بمعنى يامن وشائم، لأنهم من يمنهم وشؤمهم، وقيل: مستوراً عن الأ بصار فلا تراه وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، وما إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلـي: حدثنا أبو موسى الهرـوي إسحـاق بن إبرـاهـيم، حدثـنا سـفيـانـ عنـ الـولـيدـ بنـ كـثـيرـ، عنـ يـزـيدـ بنـ تـدـرسـ، عنـ أـسـمـاءـ بـنـتـ أـبـيـ بـكـرـ رـضـيـ اللـهـ عـالـيـ عـنـهـ قـالـتـ: لـمـا نـزـلـتـ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المـسـدـ: ١] جاءـتـ العـورـاءـ أـمـ جـمـيلـ وـلـهـ وـلـوـلـهـ وـفـيـ يـدـهاـ فـهـرـ وـهـيـ تـقـوـلـ: مـذـمـمـاـ أـتـيـناـ - أـوـ أـبـيـناـ - فـقـالـ أـبـوـ مـوـسـىـ: الشـكـ مـنـيـ، وـدـيـنـهـ قـلـيـنـاـ، وـأـمـرـهـ عـصـيـنـاـ، وـرـسـوـلـ اللـهـ ﷺ جـالـسـ وـأـبـوـ بـكـرـ إـلـىـ جـنـبـهـ فـقـالـ أـبـوـ بـكـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ: لـقـدـ أـقـبـلـتـ هـذـهـ وـأـنـاـ أـخـافـ أـنـ تـرـاـكـ، فـقـالـ إـنـهـ لـنـ تـرـاـنـيـ وـقـرـأـ قـرـآنـاـ اـعـتـصـمـ بـهـ مـنـهـ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الدِّينِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ قال: فجاءـتـ حـتـىـ قـامـتـ عـلـىـ أـبـيـ بـكـرـ فـلـمـ بـيـنـكـ وـبـيـنـ الـدـيـنـ فـقـالـتـ: يـاـ أـبـيـ بـكـرـ، بـلـغـنـيـ أـنـ صـاحـبـ هـجـانـيـ، فـقـالـ أـبـوـ بـكـرـ: لـاـ وـرـبـ هـذـاـ الـبـيـتـ ماـ هـجـاكـ، قـالـ: فـاـنـصـرـتـ وـهـيـ تـقـوـلـ: لـقـدـ عـلـمـتـ قـرـيـشـ أـنـيـ بـنـتـ سـيـدهـاـ.

وقـوـلـهـ: ﴿وَجَعَلْنـاـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ أـكـتـهـهـ﴾ وـهـيـ جـمـعـ كـنـانـ الـذـيـ يـغـشـيـ الـقـلـبـ ﴿أـنـ يـفـقـهـوـهـ﴾ أـيـ لـهـ لـاـ يـفـهـمـوـاـ الـقـرـآنـ ﴿وـفـيـ آذـنـهـمـ وـقـرـأـ﴾ وـهـوـ الشـقـلـ الـذـيـ مـنـعـهـمـ مـنـ سـمـاعـ الـقـرـآنـ سـمـاعـاـ يـنـفـعـهـمـ

ويهتدون به . قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي إذا وحدت الله في تلاوتك ، وقلت لا إله إلا الله ، ﴿وَلَوْا﴾ أي أدبروا راجعين ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَفْرَأً﴾ ونفور جمـع نافـر ، وكـعود جـمع قـاعد ، ويـجوز أن يكون مـصدرـاً من غـير الفـعل ، وـالله أعلم .

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ وَحْدَهُ اشْمَأَزْتَ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] الآية ، قال قتادة في قوله ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية ، إن المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله ، أنكر ذلك المشركون ، كبرت عليهم وضاقـها إبليس وجـنودـه ، فأبـى الله إلا أن يـمضيـها وـيعـليـها وـيـنصرـها وـيـظـهـرـها عـلـىـ منـ نـاوـأـها ، إنـهاـ كـلمـةـ منـ خـاصـصـ بهاـ فـلـجـ ، وـمـنـ قـاتـلـ بهاـ نـصـرـ ، إنـماـ يـعـرـفـهاـ أـهـلـ هـذـهـ الـجـرـيـزةـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ الـتـيـ يـقـطـعـهاـ الرـاكـبـ فـيـ لـيـالـ قـلـائـلـ ، وـيـسـيرـ الـدـهـرـ فـيـ قـيـامـ مـنـ النـاسـ لـاـ يـعـرـفـونـهاـ وـلـاـ يـقـرـونـ بهاـ^(١) .

[قول آخر في الآية]

روى ابن جرير^(٢) : حدثني الحسين بن محمد الذراع ، حدثنا روح بن المسيب أبو رباء الكلبي ، حدثنا عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَفْرَأً﴾ هـمـ الشـياـطـينـ ، وـهـذاـ غـرـيبـ جـداـ فـيـ تـفسـيرـهاـ ، إـلـاـ فـالـشـياـطـينـ إـذـ قـرـيـءـ الـقـرـآنـ أـوـ نـوـدـيـ بـالـأـذـانـ أـوـ ذـكـرـ اللهـ اـنـصـرـفـواـ .

نَهْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ يَهُدِي إِذَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجُوئَ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَبَعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا

يخبر تعالى نبيه ﷺ بما يتـاجـيـ بهـ رـؤـسـاءـ قـريـشـ حـينـ جـاؤـواـ يـسـتمـعـونـ قـراءـتـهـ سـرـاـ منـ قـوـمـهـ بـمـاـ قـالـواـ مـنـ أـنـهـ رـجـلـ مـسـحـورـ مـنـ السـحـرـ عـلـىـ المشـهـورـ ، أـوـ مـنـ السـحـرـ وـهـوـ الرـئـةـ ، أـيـ إنـتـبـاعـونـ إـنـ اـتـبـعـمـ مـحـمـداـ إـلـاـ بـشـراـ يـأـكـلـ ، كـماـ قـالـ الشـاعـرـ : [الـطـوـيلـ]

فـإـنـ تـسـأـلـنـاـ فـيـمـ نـحـنـ فـإـنـاـ عـصـافـيرـ مـنـ هـذـاـ الـأـنـامـ الـمـسـحـرـ^(٣)

وقـالـ الـراـجـزـ : [الـواـفـرـ]

(١) انظر تفسير الطبرى / ٨/ ٨٦.

(٢) تفسير الطبرى / ٨/ ٨٧.

(٣) البيت للبيهى بن ربيعة في ديوانه ص ٥٦ ، ولسان العرب (سحر) ، وتهذيب اللغة ٤/ ٢٩٢ ، وديوان الأدب ٣/ ٣٥٣ ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٥١١ ، ومقاييس اللغة ٣/ ١٣٨ ، ومجمل اللغة ٣/ ١٢٢ ، وكتاب العين ٣/ ١٣٥ ، والمخصص ١/ ٢٧ .

* ونسحر بالطعام وبالشراب^(١) *

أي يغذى، وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر لأنهم أرادوا هنها أنه مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر. ومنهم من قال: كاهن. ومنهم من قال: مجنون. ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال تعالى: «انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً» أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه ملخصاً.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رأكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم البعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا تربح حتى تتعاهد لا تعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمتنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتي ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه^(٢).

(١) صدره:

أَرَانَا مَوْضِعَيْنِ لِأَمْرٍ غَيْبٍ

والبيت من الواffer وليس من الرجز كما قال المؤلف وهو لامرئ القيس في ديوانه ص ٩٧، ولسان العرب (سحر)، والتثنية والإيضاح ١٣١/٢، وكتاب العين ١٣٥/٣، وجمهرة اللغة ص ٥١١، وتاج العروس (سحر)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٤/٢٩٣.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٣١٥، ٣١٦.

وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عَظِيمًا وَرَفَنَا إِنَّا لَمْ بَعُثُونَ حَلْقًا جَدِيدًا ﴿١﴾ قُلْ كُنُّوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٢﴾ أَوْ حَلْقًا مَمَّا يَكْتُبُ فِي صُدُورِكُمْ فَسِيقُولُونَ مِنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً فَسِينَغْضُونَ إِلَيْكُمْ رُؤُسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَّ هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ فَرِيَّا ﴿٣﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَسَتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظْلَمُونَ إِنْ لَيَشْتَهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك «أئنذا كنا عظاماً ورفاتاً» أي تراباً، قاله مجاهد^(١). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: غباراً، «أئننا لمبعوثون خلقاً جديداً» أي يوم القيمة بعدما بلينا وصرنا عندما لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر «يقولون أئننا لمردودون في الحافرة أئنذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذا كرها خاسرة» [النازعات: ١٠ - ١٢]. وقوله تعالى: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِي خَلْقَهُ» [يس: ٧٩ - ٧٨] الآيتين، فأمر الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: «قُلْ كُنُّوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٢﴾ إِذْ هُمْ أَشَدُ امْتِنَاعًا مِنَ الْعَظَامِ وَالرُّفَاتِ ﴿٣﴾ أَوْ حَلْقًا مَمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴿٤﴾» قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك، فقال: هو الموت، وروى عطيه عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كتمت موتي لأحييكم، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياءكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده.

وقد ذكر ابن جرير^(٢) هنا حديثاً «ي جاء بالموت يوم القيمة وكأنه كبس أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، ثم يقال: يا أهل النار أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت» وقال مجاهد «أو حَلْقًا مَمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴿٤﴾ يعني السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم، وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك عن الزهرى في قوله: «أَوْ حَلْقًا مَمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴿٤﴾» قال النبي ﷺ: قال مالك ويقولون هو الموت.

وقوله تعالى: «فَسِيقُولُونَ مِنْ يُعِيدُنَا» أي من يعيدهنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو حلقاً آخر شديداً «قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً» أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تتشربون، فإنه قادر على إعادة تكميلكم ولو صرتم إلى أي حال «وَهُوَ الَّذِي يَدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ» [الروم: ٢٧] الآية، وقوله تعالى: «فَسِينَغْضُونَ إِلَيْكُمْ رُؤُسُهُمْ» قال ابن عباس

(١) انظر تفسير الطبرى ٨/٨٨.

(٢) تفسير الطبرى ٨/٩٠.

وقتادة: يحركونها استهزاء، وهذا الذي قاله هو الذي تعرفه العرب من لغاتها، لأن الانفاس هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم وهو ولد النعامة نغضاً، لأنه إذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه، ويقال: نغضت سُنُّه إذا تحركت وارتقت من منبتها وقال الراجز: [مشطور الرجز]

ونغضت من هرم أسنائهما^(١)

وقوله: «ويقولون متى هو» إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: «ويقولون متى هذا الوعد إن كتم صادقين» [الملك: ٢٥] وقال تعالى: «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها» [الشوري: ١٨]. قوله: «قل عسى أن يكون قريباً» أي احذروا ذلك، فإنه قريب سيأتكم لا محالة، فكل ما هو آت آت. قوله تعالى: «يوم يدعوكم» أي الرب تبارك تعالى: «إذا دعاكم دعوة من الأرض إذ أنتم تخرجون» [الروم: ٢٥] أي إذا أمركم بالخروج منها، فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: «وما أمرنا إلا واحدة كل ملح بالبصر» [القمر: ٥٠] «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» [النحل: ٤٠]. قوله «فإنما هي زمرة واحدة فإذا هم بالساهرة» [النازعات: ١٣ - ١٤] أي إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده» أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فستجيبون بحمده، أي بأمره، وكذا قال ابن جريج: وقال قتادة بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده» أي وله الحمد في كل حال. وقد جاء في الحديث «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأنى بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله إلا الله» وفي رواية يقولون «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» [فاطر: ٣٤] وسيأتي في سورة فاطر. قوله تعالى: «وتظنون» أي يوم تقومون من قبوركم «إن لم يلبثتم» أي في الدار الدنيا «إلا قليلاً»، وقوله تعالى: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: «يوم ينفح في الصور ونحضر المجرمين يومئذ زرقاً يتخافون بيهم إن لم يلبثتم إلا عشراناً نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لم يلبثتم إلا يوماً» [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: «و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون» [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: «قال كم لبست كثيرون عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسأل العادين قال إن لم يلبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون» [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

(١) الرجز بلا نسبة في تفسير الطبرى ٤١/٨، وتفسير البحر المحيط ٤٣/٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٧٥/١٠.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا أَلَّا هِيَ أَحْسَنٌ إِنَّ الشَّيْطَنَ يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَنَ كَانَ لِإِلَيْسِنَ عَدُوًّا مُّبِينًا

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاومة والمقاتلة، فإنه عدو لأدم وذراته من حين امتنع عن السجود لأدم، وعداوه ظاهرة بيته، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده أي فربما أصابه بها.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشieren أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»^(٢) آخر جاه من حديث عبد الرزاق. وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عفان، حدثنا حماد، أئبأنا علي بن زيد عن الحسن قال: حدثني رجل من بني سليط قال: أتيت النبي ﷺ وهو في أزفلة من الناس فسمعته يقول «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ه هنا» قال حماد: وقال بيده إلى صدره «وما توارد رجالان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدث أحدهما، المحدث شر والمحدث شر والمحدث شر».

رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَاءُ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يَعْذِبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَلَّنَا بَعْضَ الْيَتَيْعَنَ عَلَى بَعْضٍ وَءَابَنَا دَارِدَ زَبُورًا

يقول تعالى: «ربكم أعلم بكم» أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهدایة ومن لا يستحق «إن يشاير حكمكم» بأن يوفلكم لطاعته والإبانة إليه «أو إن يشاير عذبكم وما أرسلناك» - يا محمد - «عليهم وكيلًا» أي إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. قوله «وربك أعلم بمن في السموات والأرض» أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية «ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض» وكما قال تعالى «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلام الله ورفع بعضهم درجات» [البقرة: ٢٥٣] وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»^(٤) فإن المراد من ذاك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية لا بمقتضى الدليل فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه.

ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة

(١) المسند .٣١٧ / ٢

(٢) أخرجه البخاري في الفتنة باب ٧، ومسلم في البر حديث ١٢٦ .

(٣) المسند .٧١ / ٥

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٣٥، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٩ .

المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب «وَإِذْ أَخْذَنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِثَاقَهُمْ وَمِنْكُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ» [الأحزاب: ٧] وفي الشورى قوله: «شَرَعْ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» [الشورى: ١٣] ولا خلاف أنَّ مُحَمَّداً صلوات الله عليه أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدِهِ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْمُشْهُورِ، وَقَدْ بَسْطَنَا بَدْلَتَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَآتَيْنَا دَاوِدَ زَبُورًا» تَبَيَّنَهُ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرْفِهِ. قَالَ الْبَخَارِيُّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ نَصْرٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَاقَ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَامٍ عَنْ أَبِي هَرِيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه قَالَ: «خَفَّ عَلَى دَاوِدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بَدَابَتَهُ فَتَسْرِجُ، فَكَانَ يَقْرُئُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْغُرَ»^(١) (يعني القرآن).

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمُوكُمْ مِنْ دُونِنِي فَلَا يَمْلِكُوكُنَّ كَشْفَ الْضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿١﴾ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بَيْتَنَعْوُنَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةُ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ حَدُودًا** ﴿٢﴾

يقول تعالى: «قُلْ» يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله «ادعوا الذين زعمتم من دونه» من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم «ف» إنهم «لا يملكون كشف الضر عنكم» أي بالكلية «ولا تحويلًا» أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال العوفي عن ابن عباس في قوله: «قُل ادعوا الذين زعمتم» الآية، قال: كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيزًا، وهم الذين يدعون يعني في الملائكة والمسيح وعزيزًا^(٢).

وقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» الآية، روى الْبَخَارِيُّ^(٣) من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بَيْتَنَعْوُنَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةِ» قال: ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا، وفي رواية: قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتسلك هؤلاء بدينهem، وقال قتادة عن معد بن عبد الله الزماني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن مسعود في قوله «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» الآية، قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنون والانسان الذين كانوا يعبدونهم، لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية، وفي رواية عن ابن مسعود كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره.

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بَيْتَنَعْوُنَ إِلَى رَبِّهِمْ

(١) أخرجه الْبَخَارِيُّ في تفسير سورة ١٧، باب ٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٩٤/٨.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٧، باب ٦.

الوسيلة أقرب﴿ قال: عيسى وأمه وعزيز، وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى وعزيز والشمس والقمر. وقال مجاهد: عيسى والعزيز والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله ﴿يتبعون إلى ربهم الوسيلة﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزيز والملائكة، وقال الوسيلة هي القرابة، كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿أيهم أقرب﴾. قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُون رَحْمَتِنَا وَيَخَافُونَ عَذَابَنَا﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فالخوف ينکف عن المناهي، وبالرجاء يکثر من الطاعات. قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويختلف من وقوعه وحصوله، عيادةً بالله منه.

وَإِنْ مَنْ فَرَّيَهُ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوْهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عذابًا شديدا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنباتهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين ﴿وَمَا ظلمَنَاهُمْ وَلَكُنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿فَذَاقُتْ وَبَالْ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خَسْرًا﴾ [الطلاق: ٩] وقال ﴿وَكَأْيُنْ مَنْ قَرِيبَةٌ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ﴾ [الطلاق: ٨] الآيات.

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْنَا إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِلَيْنَا تُمُدَّ النَّاسَةُ مُبِيرَةً فَطَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ
إِلَيْنَا إِلَّا تُخَوِّفُنَا

قال سنيد عن حماد بن زيد عن أليوب، عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون: يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه: إني قد سمعت الذي قالوا فإن شئت أن نفعل الذي قالوا فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن تستأني بقومك استأني بهم. قال: «يا رب استأني بهم»^(١) وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما.

وروى الإمام أحمد^(٢): حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير عن الأعمش عن جعفر بن إيواس، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سأله أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم

(١) تفسير الطبرى ٩٨/٨.

(٢) المستند ٢٥٨/١.

الذي سألاه وإن كفروا هلكوا، كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. وقال «لا، بل استأن بهم» وأنزل الله تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأُولَوْنَ» الآية، ورواه النسائي وأبن جرير به.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن حكيم، عن ابن عباس، قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا فأنانا جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا يذهب أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: «بل بباب التوبة والرحمة».

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خلف بن تميم المصيصي عن عبد الجبار بن عمر الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم عن جدته أم عطاء مولاً الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول لما نزلت «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس «يَا آلَ عَبْدِ مَنَافِ إِنِّي نَذِيرٌ» فجاءته قريش فخذلهم وأنذلهم، فقالوا: تزعم أنكنبي يوحى إليك، وإن سليمان سخر له الريح والجبال، وإن موسى سخر له البحر، وإن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله أن يسیر عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً، فتخذلها محارث فنزوع ونأكل، وإن فادع الله أن يحيي لنا موتنا لنكلمهم ويكملونا، وإن فادع الله أن يصيّر لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فتنفتح منها وتغينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيتهم.

وقال: فيينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سرّي عنه، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهِ، لَقَدْ أَعْطَانِي مَا سَأَلْتُمْ وَلَوْ شَئْتُ لَكُانَ، وَلَكُنْهُ خَيْرٌ لِّي بَيْنَ أَنْ تَدْخُلُوا بَابَ الرَّحْمَةِ فِيؤْمِنُ مَؤْمِنُكُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يَكْلُمُوكُمْ إِلَى مَا اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَتَضْلُلُوا عَنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، فَلَا يَؤْمِنُ مَنْكُمْ أَحَدٌ، فَاخْتَرْتُ بَابَ الرَّحْمَةِ فِيؤْمِنُ مَؤْمِنُكُمْ، وَأَخْبَرْتُنِي أَنَّهُ إِنْ أَعْطَاكُمْ ذَلِكَ ثُمَّ كَفَرْتُمْ أَنْ يَعْذِبْكُمْ عَذَاباً لَا يَعْذِبْهُ أَحَدٌ مِّنَ الْعَالَمِينَ» ونزلت «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأُولَوْنَ» وقرأ ثلاثة آيات ونزلت «وَلَوْ أَنْ قَرَآنًا سَيِّرَتْ بِهِ الْجَبَالُ أَوْ قَطَعْتَ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلَمْ بِهِ الْمَوْتَى» [الرعد: ٣١] الآية.

ولهذا قال تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ» أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأله قومك منك فإنه سهل علينا يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت ستتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مِنْ لَهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرُ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعْذِبُهُ عَذَابًا لَا أَعْذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] وَقَالَ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ حِينَ سَأَلُوا أَيَّةً نَاقَةً تَخْرُجُ مِنْ صَخْرَةٍ عَيْنُوهَا، فَدَعَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبِّهِ فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةً عَلَى مَا سَأَلُوهُ، فَلَمَّا ظَلَّمُوا بَهَا أَيَّ كَفَرُوا بِمَنْ خَلَقَهَا وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ وَعَقَرُوهَا، فَقَالَ ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةً أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ مَكْذُوبٌ﴾ [هُودٌ: ٦٥]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مِبْصَرَةً فَظَلَّمُوا بَهَا﴾ أَيْ دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مِنْ خَلْقِهَا وَصَدَقَ رَسُولُهُ الَّذِي أَجَبَ دُعَاؤِهِ فِيهَا ﴿فَظَلَّمُوا بَهَا﴾ أَيْ كَفَرُوا بِهَا وَمَنَعُوهَا شَرِبَهَا وَقَتَلُوهَا، فَأَبَادُهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَأَنْتَمْ مِنْهُمْ أَخْذَهُمْ أَخْذُ عَزِيزٍ مُقتَدِرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَرْسَلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قَالَ قَاتِدَةُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْوِفُ النَّاسَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْآيَاتِ لِعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ وَيَذَكُرُونَ وَيَرْجِعُونَ، ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْكُوفَةَ وَجَفَّتْ عَلَى عَهْدِ ابْنِ مُسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ يَسْتَعْتَبُكُمْ فَأَعْتَبُهُمْ^(١)، وَهَذَا رَوْيٌ أَنَّ الْمَدِينَةَ زَلَّتْ عَلَى عَهْدِ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَاتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: أَحَدُّتُمْ وَاللَّهُ لَئِنْ عَادْتُ لِأَفْعُلُنَّ وَلَا فَعْلَنَّ. وَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَفَقُ عَلَيْهِ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ أَيَّتَانٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكِسُفَانَ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاةِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخْوِفُ بِهِمَا عَبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزِعُو إِلَى ذَكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتَغْفَارِهِ - ثُمَّ قَالَ - يَا أَمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهُ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِي عَبْدَهُ أَوْ تَرْزِنِي أُمَّتِهِ، يَا أَمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لِضَحْكِكُمْ قَلِيلًا وَلِبَكْتِيمَ كَثِيرًا»^(٢).

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا شَنَّةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْبَاءِ إِنَّ وَخْوِفُهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طَعِينَاهُ كَيْكِيَّا

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُحْرِضًا عَلَى إِبْلَاغِ رَسَالَتِهِ مُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلْبَتِهِ. وَقَالَ مجَاهِدٌ وَعُرْوَةُ بْنُ الزَّبِيرِ وَالْحَسْنَ وَقَاتِدَةُ وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أَيْ عَصَمَكُمْ مِنْهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا شَنَّةً لِلنَّاسِ﴾ الآيَةُ، قَالَ الْبَخَارِيُّ^(٣): حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سَفِيَانُ عَنْ عُمَرٍ عَنْ عَكْرَمَةَ، عَنْ أَبْنِ عَبَاسٍ ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا شَنَّةً لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنِ أَرِيَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَلَّةَ أُسْرَى بِهِ، ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي

(١) انظر تفسير الطبراني ٩٩/٨، ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الكسوف بباب ١، ٦، ١٣، ١٥، ومسلم في الكسوف حديث ٦، ١٧، ١٠، ٢١، ٢٢، ٢٩، وأبي ماجة في الإقامة بباب ١٥٢، وأحمد في المسند ٦/٨٧، ١٦٨.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٧، باب ٩.

القرآن》 شجرة الزقوم، وكذا رواه أحمد^(١) وعبد الرزاق وغيرهما عن سفيان بن عيينة به. وكذا رواه العوفي عن ابن عباس.

وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد، وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستوفاة والله الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعد ما كانوا على الحق، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً ويتيناً لآخرين، ولهذا قال «إلا فتنة» أي اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائض الله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول: تزقمو فلا نعلم الزقوم غير هذا^(٢)، حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن البصري وغير واحد، وكل من قال إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم. وقيل: المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية، وهو غريب ضعيف.

وقال ابن جرير^(٣): حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي عن جدي قال: رأى رسول الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ بنى فلان يتزرون على منبره نزو القرود، فسأله ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات، قال: وأنزل الله في ذلك «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس» الآية، وهذا السند ضعيف جداً فإن محمد بن الحسن بن زبالة متورك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية، ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة، قوله: «ونخوفهم» أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال، «فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً» أي تماديًّا فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ إِنَّمَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا فَقَالَ أَرَئَيْنَاكَ هَذَا الَّذِي كَرَمْتَ عَلَيْنَا إِنْ أَخْرَتْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا حَتَّى كَنْ ذُرِّيَّتْهُ إِلَّا قَلِيلًا

يذكر تبارك وتعالي عداوة إبليس لعن الله وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً له «قال أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا» كما قال في الآية الأخرى «أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ

(١) المسند ٢٢١ / ١ ، ٣٧٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٧٤ / ١ .

(٣) تفسير الطبرى ١٠٣ / ٨ .

نار وخلقته من طين》 [الأعراف: ١٢] وقال أيضاً أرأيتك يقول للرب جراءة وكفراً والرب يحمل وينظر {قال أرأيتك هذا الذي كرمت علىي} الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول لاستولين على ذريته إلا قليلاً وقال مجاهد لاحتويش وقال ابن زيد لأضلنهم وكلها متقاربة والمعنى أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته علي لأن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

فَالَّذِي هُبَطَ فِي مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَأَكُمْ جَرَأَوْكُمْ مَوْفُورًا ﴿٣٧﴾ **وَاسْتَفْزِرُوكُمْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكُمْ**
وَأَجْلِبُ عَنْهُمْ بِخَيْلَكُمْ وَرِجْلَكُمْ وَشَارِكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُوْلَادِ وَعَدُوكُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٣٨﴾ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكَيْلًا**

لما سأل إبليس النظرة قال الله له «اذهب» فقد أنظرتك كما قال في الآية الأخرى قال: «فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» [الحجر: ٣٧-٣٨] ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم «قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جراوكم» أي على أعمالكم «جزاء موفوراً» قال مجاهد وافراً، وقال قتادة موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه. قوله تعالى: « واستفز من استطعت منهم بصوتك» قيل هو الغناء قال مجاهد بالله والغناء أي استخفهم بذلك وقال ابن عباس في قوله « واستفز من استطعت منهم بصوتك» قال كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل وقال قتادة واختاره ابن جرير^(١).

وقوله تعالى: « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» يقول واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصاحب جمع صاحب ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه وهذا أمر قدرى كقوله تعالى «ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزوا» [مريم: ٨٣] أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً وقال ابن عباس ومجاهد في قوله « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» قال كل راكب وماش في معصية الله وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطیعونه تقول العرب أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب ومنه استفاق الجلبة وهي ارتفاع الأصوات.

وقوله تعالى: « وشاركم في الأموال والأولاد» قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله، وقال عطاء: هو الربا، وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام، وكذا قال قتادة، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم يعني من البحائر والسوائب ونحوها وكذا قال الضحاك وقتادة وقال ابن جرير^(٢) والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله.

(١) تفسير الطبرى / ٨٠٨.

(٢) تفسير الطبرى / ١١١.

وقوله «والأولاد» قال العوفي عن ابن عباس ومجاحد والضحاك يعني أولاد الزنا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو ما كانوا قتلوا من أولادهم سفهًا بغير علم، وقال قتادة والحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا على غير صبغة الإسلام، وجزئوا أموالهم جزءاً للشيطان، وكذا قال قتادة سواء، وقال أبو صالح عن ابن عباس هو تسميتهم أولادهم عبد الحارس عبد الشمس عبد فلان قال ابن جرير وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أثني عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو يأدخله في غير الدين الذي ارتضاه الله أو بالزنا بأمه أو بقتله أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه لأن الله لم يخصص بقوله «وشاركهم في الأموال والأولاد» معنى دون معنى فكل ما عصي الله فيه أو به أطاع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة.

وهذا الذي قاله متوجه وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركه فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أححلت لهم»^(١) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»^(٢).

وقوله تعالى: «وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً» [الإسراء: ٦٤] كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذ حصص الحق يوم يقضى بالحق «إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» [إبراهيم: ٢٢] قوله تعالى «إن عبادي ليس لك عليه سلطان» إخبار بتائيده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى «وكفى بربك وكيلًا» أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً، وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا قبية حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيده في السفر» ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره.

رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَتَبَغُّوْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّمَا كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

ويخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لابتعائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ولهذا قال: «إنه كان بكم رحيمًا» أي إنما فعل هذا بكم في فضله عليكم ورحمته بكم.

(١) آخرجه مسلم في الجنة حديث ٦٣.

(٢) آخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١١، ومسلم في الطلاق حديث ٦.

(٣) المسند / ٢. ٣٨٠

وَإِذَا مَسَكْمُ الْصَّرْفِ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَاهُ لَمَّا جَهَنَّمَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَنُ كُفُورًا

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيin إلـيـه مخلصـين له الدين ولـهـذا قال تعالى: «وإذا مسكم الصر في البحر ضل من تدعون إلا إيه» أي ذهب عن قلوبكم كل ما تبعدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هارباً فركب في البحر يدخل الحبشة فجاءتهم ربيع عاصف فقال القوم بعضهم بعض إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده فقال عكرمة في نفسه والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره اللهم لك على عهد لأن أخرجتني منه لأذهبن فلا ينفعن يدي في يد محمد فلأجدهن رؤوفاً رحيمًا، فخرجو من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه. قوله تعالى «فلما نجاكـم إلى البر أعرضـتم» [الإسراء: ٦٧] أي نسيـتم ما عـرفـتم من تـوحـيدـه وأـعـرـضـتم عن دـعـائـه وـحدـه لا شـرـيكـ له «وكان الإـنسـانـ كـفـورـاً» أي سـجيـتهـ هـذـاـ يـنـسـيـ النـعـمـ وـيـجـحـدـهاـ إـلاـ منـ عـصـمـ اللهـ.

أَفَأَمْنَتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرِسِّلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبَاتٍ لَا تَجِدُونَ لِكُنْزٍ كَيْلًا

يقول تعالى أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتـم من انتقامـه وعـذـابـهـ أـنـ يـخـسـفـ بـكـمـ جـانـبـ البرـ أوـ يـرـسـلـ عـلـيـكـمـ حـاصـبـاـ وـهـ المـطـرـ الـذـيـ فـيـ حـجـارـةـ قـالـ مجـاهـدـ وـغـيرـ وـاحـدـ كـمـ قـالـ تعالى «إـنـاـ أـرـسـلـنـاـ عـلـيـهـمـ حـاصـبـاـ إـلـاـ آـلـ لـوـطـ نـجـيـبـ اـهـمـ بـسـحـرـ نـعـمـةـ مـنـ عـنـدـنـاـ» [القمر: ٣٤] وقد قال في الآية الأخرى «وـأـمـطـرـنـاـ عـلـيـهـمـ حـجـارـةـ مـنـ طـيـنـ» [هـود: ٨٢] وـقـالـ «أـمـنـتـمـ مـنـ فـيـ السـمـاءـ أـنـ يـخـسـفـ بـكـمـ الـأـرـضـ إـلـاـ ذـيـ هـيـ تـمـورـ أـمـ أـمـتـمـ مـنـ فـيـ السـمـاءـ أـنـ يـرـسـلـ عـلـيـكـمـ حـاصـبـاـ فـسـتـعـلـمـونـ كـيـفـ نـذـيرـ» [الملك: ١٦ - ١٧] وـقـولـهـ «ثـمـ لـاـ تـجـدـوـ لـكـمـ وـكـيـلـاـ» أي نـاصـراـ يـرـدـ ذـلـكـ عـنـكـمـ وـيـنـقـذـكـمـ مـنـهـ.

أَمْ أَمْنَتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرِسِّلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الْرِّيحِ فَيُغَرِّقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونَ لِكُنْزٍ عَلَيْنَا بِهِ تَبَعَّا

يقول تبارك وتعالى «أـمـ أـمـتـمـ» أيـهاـ المـعـرـضـونـ عـناـ بـعـدـماـ اـعـتـرـفـواـ بـتوـحـيدـناـ فـيـ الـبـرـ وـخـرـجـواـ إـلـىـ الـبـرـ «أـنـ يـعـيـدـكـمـ» فـيـ الـبـرـ مـرـةـ ثـانـيـةـ «فـيـرـسـلـ عـلـيـكـمـ قـاـصـفـاـ مـنـ الـرـيـحـ» أيـ يـقـصـفـ الصـوـارـيـ وـيـغـرقـ الـمـرـاـكـبـ قـالـ ابنـ عـبـاسـ وـغـيرـهـ: القـاـصـفـ رـيـحـ الـبـحـارـ الـتـيـ تـكـسـرـ الـمـرـاـكـبـ وـتـغـرقـهـاـ وـقـولـهـ: «فـيـغـرقـكـمـ بـمـاـ كـفـرـتـمـ» أيـ بـسـبـبـ كـفـرـكـمـ وـإـعـرـاضـكـمـ عـنـ اللهـ تـعـالـىـ وـقـولـهـ: «ثـمـ لـاـ تـجـدـوـ لـكـمـ عـلـيـنـاـ بـهـ تـبـعـاـ» قـالـ ابنـ عـبـاسـ نـصـيـرـاـ وـقـالـ مجـاهـدـ نـصـيـرـاـ ثـائـرـاـ أيـ يـأـخـذـ بـثـأـرـكـ بـعـدـكـ. وـقـالـ قـاتـادـةـ وـلـاـ نـخـافـ أـحـدـاـ يـتـبعـاـ بـشـيءـ مـنـ ذـلـكـ.

﴿ وَلَقَدْ كَرَمَنَا بَنَى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيْبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا ﴾

ويخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» [التين: ٤] أي يمشي قائماً متتصباً على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ويتتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخصوصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية «وحملناهم في البر» أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار «ورزقناهم من الطيبات» أي من زروع ثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذية والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا ﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة. قال عبد الرزاق: أخبرنا عمر عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بني آدم الدين ياكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطتنا الآخرة فقال الله تعالى «وَعَزَّتِي وَجَلَّتِي لَا أَجُلُ صَالِحَ ذَرِيَّةٍ مِّنْ خَلْقِتَ بِيَدِي كَمْنَ قَلْتَ كَنْ فَكَانَ» وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روی من وجه آخر متصلأ.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت يا ربنا أعطيت بني آدم الدين ياكلون فيها ويسربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان».

وقد روی ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثني عثمان بن حصن عن عبيدة بن علاق سمعت عروة بن رويم اللخمي حدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: قال «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَوْا إِنَّا بَرَبُّنَا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ طِينٍ فَاجْعَلْنَا مِنْ ذَرِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ» وقوله تعالى «وَلَقَدْ كَرَمَنَا بَنَى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيْبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا» فما ذكره في الحديث من خلقهم بآدم ينافي ما ذكره في القرآن من خلقهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات فما ذكره في الحديث من خلقهم بآدم ينافي ما ذكره في القرآن من خلقهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات.

وقال الطبراني : حدثنا عبдан بن أحمد حدثنا عمر بن سهل حدثنا عبد الله بن تمام عن خالد الحذاء عن بشر بن شغاف عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ «ما شيء أكرم على الله يوم القيمة من ابن آدم» قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر» وهذا حديث غريب جداً.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنْاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوقِنَ كَتَبَتِهِ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَيِّلًا

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيمة أنه يحاسب كل أمة بإيمانهم، وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة أي نبيهم وهذا كقوله تعالى «ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط» [يونس: ٤٧] الآية وقال بعض السلف هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ وقال ابن زيد بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع واختاره ابن جرير وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : بكتابهم^(١) فيحتمل أن يكون أراد هذا وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله «يوم ندعوك كل أنس بإيمانهم» أي بكتاب أعمالهم وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين» [يس: ١٢] وقال تعالى : «ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه» [الكهف: ٤٩] الآية ويحتمل أن المراد بإيمانهم أي كل قوم بمن يؤمنون به فأهل الإيمان اثموا بالأنبياء عليهم السلام وأهل الكفر اثموا بأئمتهم كما قال «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار» [القصص: ٤١] وفي الصحيحين «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع ما كان يعبد الطواغيت»^(٢) الحديث.

وقال تعالى «وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» [الجاثية: ٢٨ - ٢٩] وهذا لا ينافي أن ي جاء بالنبي إذا حكم الله بين أمهاته فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمهاته بأعمالها كقوله تعالى «وأشرت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء» [الزمر: ٦٩] و قوله تعالى : «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على مؤلاء شهيداً» [النساء: ٤١] ولكن المراد هنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولذا قال تعالى : «يوم ندعوك كل أنس بإيمانهم فمن أورتي كتابه بيمنيه فأولئك يقرؤون كتابهم» أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرأه ويحب قراءته كقوله : «فأما من أورتي كتابه بيمنيه فيقول هاؤم أقرؤوا كتابه» - إلى قوله - «وأما من أورتي كتابه بشماله» [الحقة: ١٩ - ٢٦] الآيات ، قوله تعالى «ولا يظلمون فتيلًا»

(١) انظر تفسير الطبرى ١١٦/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤ ، والرقاق باب ٥٢ ، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٩ ، وأحمد في المسند ٢/٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٥٣٤ .

قد تقدم أن الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة.

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن يعمر و Mohammad bin عثمان بن كرامة قالا: حدثنا عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن النبي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: «يُوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنْاسٍ بِإِمَامِهِمْ» قال: «يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابَهُ بِيْمِينِهِ وَيُمْدَدُ لَهُ فِي جَسْمِهِ وَيُبَيْضُ وَجْهُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِّنْ لَوْلَةٍ يَتَلَلَّا فَيُنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فِيْرُونَهُ مِنْ بَعْدِ فَيُقَوْلُونَ اللَّهُمَّ أَتَنَا بِهَذَا وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا فِيَّا تِهِمْ فَيُقَوْلُ لَهُمْ أَبْشِرُوا فَإِنَّ كُلَّ رَجُلٍ مِّنْكُمْ مُّثُلُ هَذَا، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُسُودُ وَجْهُهُ وَيُمْدَدُ لَهُ جَسْمُهُ وَيُرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيُقَوْلُونَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ هَذَا أَوْ مِنْ شَرِّ هَذَا اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ فِيَّا تِهِمْ فَيُقَوْلُونَ اللَّهُمَّ أَخْرُهُ فَيُقَوْلُ أَبْعَدْكُمُ اللَّهُ فَإِنَّ كُلَّ رَجُلٍ مِّنْكُمْ مُّثُلُ هَذَا» ثُمَّ قَالَ الْبَزَارُ لَا يَرَوْيُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وقوله تعالى: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أُعْمَى» الآية، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ» أي في الحياة الدنيا «أُعْمَى» أي عن حجة الله وأياته وبيناته «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أُعْمَى» أي كذلك يكون «وَأَضَلَّ سَبِيلًا» أي وأضل منه كما كان في الدنيا عيادةً بالله من ذلك.

وَإِنْ كَادُوا لِيَقْتُلُوكُمْ عَنَّ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ لِنَفْرَى عَيْنَتَانِ عَيْنَاهُمْ وَإِذَا لَأَنْتُمْ نُوكُ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتَنَاكُمْ لَقَدْ كِدْتُ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذْفَنْتُكُمْ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَحَاجَاتِ ثُمَّ لَأَنْهِمْ لَكُمْ عَيْنَتَانِ نَصِيرًا

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلمه، وتشييه وعصمه وسلمته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره مؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالقه وناوأه في مشارق الأرض وغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَغْرِيُوكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكُمْ مِّنْهَا وَإِذَا لَأَيْبَثُوكُمْ خَلْفَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَسُنْنَةً مَّنْ قَدَّرْتُنَا قَبْلَكُمْ مِّنْ رُسُلِنَا وَلَا يَحْدُدُ لِسْتِنَا تَحْوِيلًا

قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكة وسكنى المدينة بعد ذلك، وقيل: إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر. روى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يonus بن بکیر عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنكنبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدق ما قالوا فغزا تبوك لا يريد

إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورةبني إسرائيل بعد ما ختمت السورة « وإن كادوا ل يستفزو نك من الأرض ليخرجوك منها ». إلى قوله - « تحريلًا » فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال : فيها محياك ومماتك ومنه تبعث .

وفي هذا الإسناد نظر ، والأظاهر أن هذا ليس بصحيح ، فإن النبي لم يغز تبوك عن قول اليهود ، وإنما غزاها امتنالاً لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذي يلونكم من الكفار » [التوبه : ١٢٣] ولقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » [التوبه : ٢٩] وغزاها ليقتص ويتقم من قتل أهل مؤة من أصحابه ، والله أعلم .

ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم عن عفیر بن معدان ، عن سليم بن عامر عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُنْزِلَ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثَةِ أَمْكَنَةٍ : مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةَ، وَالشَّامَ » قال الوليد : يعني بيت المقدس ، وتفسير الشام بتبوك أحسن ، مما قال الوليد إنه بيت المقدس ، والله أعلم . وقيل نزلت في كفار قريش ، هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتدا بهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه بدر على غير ميعاد ، فامكنه منهم سلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم وبسي ذرائهم ، ولهذا قال تعالى : « سَنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ آيَةً، أَيْ هَذَا عَادَتْنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَسْلَنَا وَأَذْوَاهُمْ بِخُرُوجِ الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِ أَذْوَاهُمْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ، وَلَوْلَا أَنَّهُ صَلَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آدَمَ وَسَلَّمَ رَسُولُ الرَّحْمَةِ لِجَاءُهُمْ مِّنَ النَّعْمَانِ فِي الدُّنْيَا مَا لَا قَبْلَهُ لَأَحَدٌ بَعْدَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » [الأనفال : ٣٣] الآية .

أَقِيرُ الصَّلَوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسْقَ أَيَّلِ وَفَرْمَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قَرْمَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا [٤] **وَمَنْ أَيَّلِ فَتَهَجَّدَ بِهِ تَأْفِلَةً لَّكَ عَسْقَ أَنْ يَبْعَثَنَكَ رَبُّكَ مَقَامًا شَفَعَ مُؤْمِنًا** [٥]

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها « أقم الصلاة لدلوكة الشمس » قيل لغروبها ، قاله ابن مسعود ومجاحد وابن زيد . وقال هشيم عن مغيرة ، عن الشعبي عن ابن عباس : دلوکها زوالها ، ورواه نافع عن ابن عمر ، ورواه مالك في تفسيره عن الزهري عن ابن عمر ، وقاله أبو بربعة الإسلامي وهو روایة أيضاً عن ابن مسعود ومجاحد ، وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة ، واختاره ابن جرير ، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد عن الحكم بن بشير : حدثنا عمرو بن قيس عن ابن أبي ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله قال : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : « اخرج يا أبا بكر ، فهذا حين دلکت

(١) الشمس».

ثم رواه عن سهل بن بكار عن أبي عوانة عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنزي عن جابر عن رسول الله ﷺ نحوه، فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله: «لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسْقِ اللَّيْلِ» وهو ظلامه، وقيل غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقوله: «وَقَرْآنُ الْفَجْرِ» يعني صلاة الفجر، وقد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً من سلف وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، والله الحمد. «إِنَّ قَرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً» قال الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود، وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ في هذه الآية «وَقَرْآنُ الْفَجْرِ إِنَّ قَرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً» قال: «تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار.

وقال البخاري^(٢): حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عمر عن الزهري عن أبي سلمة، وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» يقول أبو هريرة: «اقرؤا إن شئتم» «وَقَرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قَرْآنَ النَّجْرِ كَانَ مَشْهُوداً».

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: «وَقَرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قَرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً» قال: «تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار»^(٤). ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، ثلاثتهم عن عبيد بن أسباط بن محمد عن أبيه به، وقال الترمذى: حسن صحيح وفي لفظ في الصحيحين من طريق مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(٥) وقال عبد الله بن مسعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء، وكذا قال إبراهيم النخعى ومجاحد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية.

(١) انظر تفسير الطبرى ١٢٥/٨.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٧، باب ١٠.

(٣) المستدر ٤٧٤/٢.

(٤) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٧، باب ٥، وابن ماجه في الصلاة باب ٢، والجنازى باب ٦٥.

(٥) أخرجه البخارى في المواقف باب ١٦، ومسلم في المساجد حديث ٢١٠.

وأما الحديث الذي رواه ابن جرير^(١) هنا من حديث الليث بن سعد عن زيادة عن محمد بن كعب القرطي عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ فذكر حديث النزول، وأنه تعالى يقول: من يستغفرني أغفر له، من يسألني أعطيه، من يدعني فأستجيب له حتى يطلع الفجر، فلذلك يقول: «وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً» فيشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار، فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث في سنن أبي داود.

وقوله تعالى: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك» أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم^(٢) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أن سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال «صلاحة الليل»، ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد النوم. قاله عالقمة والأسود وإبراهيم التخعي وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، كما هو مبسوط في موضعه، والله الحمد والمنة.

وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء ويحمل على ما كان بعد النوم، واختلف في معنى قوله تعالى: «نافلة لك» فقيل معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحده، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة، رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعى رحمه الله، واختاره ابن جرير، وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على المخصوص، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه. قاله مجاهد: وهو في المسند^(٣) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

وقوله: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً مموداً» أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيمة مقاماً مموداً، يحمدك في الخلائق كلهم وحالاتهم تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقوم به محمد ﷺ يوم القيمة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

[ذكر من قال ذلك]

حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفة عراة كما

(١) تفسير الطبرى ١٢٧/٨.

(٢) كتاب الصيام حديث ٢٠١.

(٣) مستند أحمد بن حنبل ٢٥٥/٥، ٢٥٦.

خلقوا، قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادي: يا محمد، فيقول: «لبيك وسعديك، والخير في يديك والشر ليس إليك، والمهدى من هديث، وعبدك بين يديك، ومنك وإليك لا منجي ولا ملجأ منك إلا إليك، تبارك وتعالى سبحانك رب البيت» فهذا المقام المحمود الذى ذكره الله عز وجل^(١).

ثم رواه عن بندار، عن غندر عن شعبة، عن أبي إسحاق به، وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق به، وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقاله الحسن البصري.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيمة وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً مهماً» قلت لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيمة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلقين، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول «أنا لها أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم.

وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول دخل إليها، وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة، شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب السيرة في باب الخصائص، والله الحمد والمنة.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبإذن المستعان. قال البخاري^(٢): حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي ، سمعت ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيمة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً مهماً. ورواه حمزة بن عبد الله عن أبيه،

(١) انظر تفسير الطبرى ١٣١/٨.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٧، باب ١١.

عن النبي ﷺ .

قال ابن جرير^(١): حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شعيب بن الليث، ثنا الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر، أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فيينما هم كذلك استغاثوا بأدم فـيقول: لست بصاحب ذلك؛ ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فـيشعـب بين الخلـق فـيمشي حتـى يأخذ بحلقة بـاب الجنة، فـيومئذ يـبعـثـه الله مقاماً مـحـمـودـاً». وهـكـذا رـوـاه البـخـارـي فـي الرـكـاـة عـن يـحيـيـ بن بـكـير وـلـعـقـمة عـن عبد الله بن صالح، كـلاـهـما عـن الليـث بن سـعـد بـهـ، وزـادـ. فـيـومـئـذ يـبعـثـه الله مقاماً مـحـمـودـاً، يـحـمـدـهـ أـهـلـالـجـمـعـ كلـهـمـ^(٢).

قال البـخـارـي^(٣): حدثـنا عـلـيـ بن عـيـاشـ، حدـثـنا شـعـيبـ بن أـبـي حـمـزـةـ عـن مـحـمـدـ بنـ المـنـكـدـرـ، عـن جـابـرـ بنـ عـبـدـ اللهـ أـنـ رـوـسـلـهـ قـالـ: «مـنـ قـالـ حـيـنـ يـسـمـعـ النـدـاءـ: اللـهـمـ رـبـ هـذـهـ الدـعـوـةـ التـامـةـ وـالـصـلـاـةـ الـقـائـمـةـ، آـتـ مـحـمـداًـ الـوـسـيـلـةـ وـالـفـضـيـلـةـ، وـابـعـثـهـ مـقـاماًـ مـحـمـودـاًـ الـذـيـ وـعـدـتـ، حـلتـ لـهـ شـفـاعـتـيـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ» اـنـفـرـدـ بـهـ دـوـنـ مـسـلـمـ.

[حديث أبي بن كعب]

قال الإمام أحمد^(٤): حدـثـنا أـبـو عـامـرـ الـأـزـدـيـ، حدـثـنا زـهـيرـ بنـ مـحـمـدـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بنـ مـحـمـدـ بنـ عـقـيلـ، عـنـ الطـفـيلـ بنـ أـبـي كـعبـ، عـنـ أـبـيهـ، عـنـ النـبـيـ ﷺـ قـالـ: «إـذـاـ كـانـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ، كـنـتـ إـمامـ الـأـنـبـيـاءـ وـخـطـبـهـمـ وـصـاحـبـ شـفـاعـتـهـمـ غـيرـ فـخـرـ»^(٥)ـ، وـأـخـرـجـهـ التـرمـذـيـ مـنـ حـدـيـثـ أـبـي عـامـرـ عـبـدـ الـمـلـكـ بنـ عـمـرـ الـعـقـدـيـ، وـقـالـ: حـسـنـ صـحـيـحـ، وـابـنـ مـاجـهـ مـنـ حـدـيـثـ عـبـدـ اللهـ بنـ مـحـمـدـ بنـ عـقـيلـ بـهـ، وـقـدـ قـدـمـنـاـ فـيـ حـدـيـثـ أـبـيـ بنـ كـعبـ فـيـ قـرـاءـةـ الـقـرـآنـ عـلـىـ سـبـعـةـ أـحـرـفـ، قـالـ ﷺـ فـيـ آـخـرـهـ: «فـقـلـتـ اللـهـمـ اـغـفـرـ لـأـمـتـيـ، اللـهـمـ اـغـفـرـ لـأـمـتـيـ، وـأـخـرـتـ الثـالـثـةـ لـيـوـمـ يـرـغـبـ إـلـيـ فـيـ الـخـلـقـ حتـىـ إـبـرـاهـيـمـ عـلـيـهـ السـلـامـ»^(٦).

[حديث أنس بن مالك]

قال الإمام أحمد^(٧): حدـثـنا يـحـيـيـ بنـ سـعـيدـ، حدـثـنا سـعـيدـ بنـ أـبـي عـرـوـبـةـ، حدـثـنا قـتـادـةـ عـنـ

(١) تفسير الطبرى ١٣٣/٨ .

(٢) آخره البخاري في الزكاة باب ٥٢ .

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٧، باب ١١ .

(٤) المستند ١٣٧/٥ .

(٥) آخره الترمذى في المناقب باب ١ ، وابن ماجه في الزهد باب ٣٧ .

(٦) المستند ١٢٧/٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٧) المستند ١١٦/٣ .

أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيمة فيلهمون ذلك، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحتنا من مكاننا هذا، فيأتون أدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فأشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم أدم: لست هناكم ويدرك ذنبه الذي أصاب فيستحيي ربه عز وجل من ذلك، ويقول: ولكن اتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم ويدرك خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتونه فيقول: لست هناكم، لكن اتوا موسى عبداً كلامه الله وأعطاه التوراة».

فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويدرك لهم النفس التي قتل بغیر نفس، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن اتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف - فأقوم فأشمي بين سماطين المؤمنين - قال أنس - حتى أستاذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربِّي فيدعني ما شاء الله أن يدعني - قال - ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واسفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فادخلهم الجنة، قال: ثم أعود إليه ثانية فإذا رأيت ربي وقعت له أو خررت ساجداً لربِّي فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واسفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فادخلهم الجنة.

قال: ثم أعود الثالثة فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربِّي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واسفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فادخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن، فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»^(١)، أخرجه من حديث سعيد به.

وهكذا رواه الإمام أحمد^(٢) عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطلوه.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٣، والتوحيد باب ١٩، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٦.

(٢) المستند ٢٤٤ / ٣.

(٣) المستند ١٧٨ / ٣.

الأنصاري عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثني نبي الله ﷺ قال: «إنِّي لِقَائِمٌ أَنْتَظِرُ أُمَّتِي تَعْبُرُ الصِّرَاطَ، إِذَا جَاءَنِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: هَذِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَدْ جَاءَتِكَ يَا مُحَمَّدًا يَسْأَلُونَ - أَوْ قَالَ: يَجْتَمِعُونَ إِلَيْكَ - وَيَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُفْرِقَ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِلَى حِيثُ يَشَاءُ اللَّهُ لِغَمِّ مَا هُمْ فِيهِ، فَالْخُلُقُ مُلْجَمُونَ بِالْعَرْقِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ عَلَيْهِ كَالْزَكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُغَشَّاهُ الْمَوْتُ، فَقَالَ: انتَظِرْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ، فَذَهَبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَلَقِيَ مَا لَمْ يُلْقِ مَلِكُ مَصْطَفَى وَلَا نَبِيُّ مَرْسَلٍ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جَبَرِيلَ أَنْ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَقَالَ لَهُ ارْفِعْ رَأْسَكَ سَلْطَنَةً وَاسْفَعْ تَشْفُعَ، فَشَفَعَتْ فِي أُمَّتِي أَنْ أَخْرُجَ مِنْ كُلِّ تَسْعَةِ وَتَسْعِينَ إِنْسَانًا وَاحِدًا، فَمَا زَلَتْ أَرْتَدَدَ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا أَقُولُ مِنْهُ مَقَامًا إِلَّا شَفَعَتْ حَتَّى أَعْطَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدًا أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمًا وَاحِدًا مُخْلِصًا وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ».

[حديث بريدة رضي الله عنه]

قال الإمام أحمد بن حنبل^(١): حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسrael عن العارث بن حصيرة، عن ابن بريدة، عن أبيه أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية تأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، وهو يرى أنه يتكلم بمثل ما قال الآخر، فقال بريدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيمة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة»، قال: فترجوها أنت يا معاوية ولا يرجوها علي رضي الله عنه».

الحديث ابن مسعود] - قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البناي عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مليكة إلى النبي ﷺ فقلما: إن أمنا تكرم الزوج وتعطف على الولد، قال: وذكرها الضيف غير أنها كانت وأدت في الجاهلية، فقال «أمكما في النار» قال: فأدبوا والسوء يرى في وجوههما، فأمر بهما فردا فرجعا والسرور يرى في وجوههما رجاء أن يكون قد حدث شيء، فقال «أمي مع أمكما» فقال رجل من المنافقين: وما يعني هذا عن أمه شيئاً ونحن نطا عقيبه. فقال رجل من الأنصار: ولم أر رجلاً قط أكثر سؤالاً منه يا رسول الله، هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟ قال: فظن أنه من شيء قد سمعه، فقال: «ما سأله ربى وما أطمعني فيه، وإنِّي لأقوم المقام المحمود يوم القيمة».

فقال الأنصاري: يا رسول الله وما ذاك المقام المحمود؟ قال: ذاك إذا جيء بكم حفة

(١) المسند ٣٤٧/٥

(٢) المسند ٣٩٨، ٣٩٩

عراة غرلاً، فيكون أول من يكسي إبراهيم عليه السلام، فيقول: اكسوا خليلي فيؤتى بربطتين بيضاوين فيلبسهما، ثم يقعده مستقبلاً العرش، ثم أوتى بكسوتي فألبسها فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطني فيه الأولون والآخرون» قال: ويفتح لهم من الكوثر إلى الحوض، فقال المنافق: إنه ما جرى ماء قط إلا على حال أو رضاض، فقال رسول الله ﷺ: «حاله المسك، ورضاضه اللؤلؤ» فقال المنافق: لم أسمع كاليلوم، فإنه قلماً جرى ماء على حال أو رضاض إلا كان له نبت؟ فقال الأنصاري، يا رسول الله هل له نبت؟ فقال: «نعم قضبان الذهب» قال المنافق لم أسمع كاليلوم، فإنه قلماً ينت قضيب إلا أورق وإن كان له ثمر، وقال الأنصاري: يا رسول الله هل له ثمرة؟ قال: «نعم ألوان الجوهر، وماهه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، من شرب منه شرباً لا يظماً بعده، ومن حرمه لم يرو بعده».

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه عن أبي الزعراء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله عز وجل في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله ثم يقوم عيسى أو موسى، قال أبو الزعراء: لا أدرى أيهما، قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذي قال الله عز وجل: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً».

[حديث كعب بن مالك رضي الله عنه]

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدي عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيمة فأكون أنا وأمي على تل، ويكسوني ربى عز وجل حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود».

[حديث أبي الدرداء رضي الله عنه]

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيمة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك» فقال رجل: يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غر

(١) المستند ٤٥٦/٣.

(٢) المستند ١٩٩٩/٥.

محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم».

[حديث أبي هريرة رضي الله عنه]

قال الإمام أحمد^(١) رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حيان، حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـلحم، فرفع إليه الدراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيمة، وهل تدرؤن مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتندنو الشمس فيبلغ من الغم والكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنت في مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بـآدم، فـيأتـونـ آدمـ عليهـ السـلامـ فيـقـولـونـ ياـ آدمـ أـنتـ أـبـوـ الـبـشـرـ خـلـقـكـ اللهـ بـيـدـهـ وـنـفـخـ فـيـكـ مـنـ رـوـحـهـ، وـأـمـرـ المـلـائـكـةـ فـسـجـدـواـ لـكـ، فـاـشـفـعـ لـنـاـ إـلـىـ رـبـكـ أـلـاـ تـرـىـ مـاـ نـحـنـ فـيـهـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ قـدـ بـلـغـنـاـ؟ـ فـيـقـولـ آدمـ إـنـ رـبـيـ قـدـ غـضـبـ الـيـوـمـ غـضـبـاـ لـمـ يـغـضـبـ قـبـلـهـ مـثـلـهـ وـلـنـ يـغـضـبـ بـعـدـهـ مـثـلـهـ، وـإـنـ قـدـ نـهـانـيـ عـنـ الشـجـرـةـ فـعـصـيـتـ، نـفـسـيـ نـفـسـيـ نـفـسـيـ، اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ غـيرـيـ اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ نـوـحـ .ـ

ـفـيـأـتـونـ نـوـحـاـ فـيـقـولـونـ: يـاـ نـوـحـ أـنـتـ أـوـلـ الرـسـلـ إـلـىـ أـهـلـ الـأـرـضـ، وـقـدـ سـمـاـكـ اللهـ عـبـدـاـ شـكـورـاـ، اـشـفـعـ لـنـاـ إـلـىـ رـبـكـ أـلـاـ تـرـىـ مـاـ نـحـنـ فـيـهـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ قـدـ بـلـغـنـاـ؟ـ فـيـقـولـ نـوـحـ: إـنـ رـبـيـ قـدـ غـضـبـ الـيـوـمـ غـضـبـاـ لـمـ يـغـضـبـ قـبـلـهـ مـثـلـهـ، وـلـنـ يـغـضـبـ بـعـدـهـ مـثـلـهـ قـطـ، وـإـنـ قـدـ كـانـتـ لـيـ دـعـوـةـ دـعـوـتـهـ عـلـىـ قـوـمـيـ نـفـسـيـ نـفـسـيـ، اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ غـيرـيـ اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ إـبـرـاهـيمـ .ـ

ـفـيـأـتـونـ إـبـرـاهـيمـ فـيـقـولـونـ: يـاـ إـبـرـاهـيمـ أـنـتـ نـبـيـ اللهـ وـخـلـيلـهـ مـنـ أـهـلـ الـأـرـضـ، اـشـفـعـ لـنـاـ إـلـىـ رـبـكـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ نـحـنـ فـيـهـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ قـدـ بـلـغـنـاـ؟ـ فـيـقـولـ: إـنـ رـبـيـ قـدـ غـضـبـ الـيـوـمـ غـضـبـاـ لـمـ يـغـضـبـ قـبـلـهـ مـثـلـهـ، وـلـنـ يـغـضـبـ بـعـدـهـ مـثـلـهـ قـطـ، فـذـكـرـ كـذـبـاتـهـ، نـفـسـيـ نـفـسـيـ نـفـسـيـ، اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ غـيرـيـ، اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ مـوـسـىـ، فـيـأـتـونـ مـوـسـىـ عـلـىـ السـلامـ فـيـقـولـونـ: يـاـ مـوـسـىـ أـنـتـ رـسـوـلـ اللهـ اـصـطـفـاـكـ اللهـ بـرـسـالـاتـهـ وـبـكـلامـهـ عـلـىـ النـاسـ، اـشـفـعـ لـنـاـ إـلـىـ رـبـكـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ نـحـنـ فـيـهـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ قـدـ بـلـغـنـاـ؟ـ فـيـقـولـ لـهـمـ مـوـسـىـ، إـنـ رـبـيـ قـدـ غـضـبـ غـضـبـاـ لـمـ يـغـضـبـ قـبـلـهـ مـثـلـهـ، وـلـنـ يـغـضـبـ بـعـدـهـ مـثـلـهـ، وـإـنـيـ قـدـ قـتـلـتـ نـفـسـاـ لـمـ أـوـرـ بـقـتـلـهـ، نـفـسـيـ نـفـسـيـ نـفـسـيـ، اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ غـيرـيـ، اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ عـيـسـىـ .ـ

ـفـيـأـتـونـ عـيـسـىـ فـيـقـولـونـ: يـاـ عـيـسـىـ أـنـتـ رـسـوـلـ اللهـ وـكـلـمـتـهـ أـلـقـاـهـاـ إـلـىـ مـرـيـمـ وـرـوـحـ مـنـهـ، وـكـلـمـتـ النـاسـ فـيـ الـمـهـدـ صـيـباـ، فـاـشـفـعـ لـنـاـ إـلـىـ رـبـكـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ نـحـنـ فـيـهـ، أـلـاـ تـرـىـ مـاـ قـدـ بـلـغـنـاـ؟ـ

فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضباليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فاتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربى عز وجل، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محادمه وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسلم تعطه، واسفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتى يا رب، أمتى يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصارعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى، أخر جاه في الصحيحين^(١).

وقال مسلم^(٢) رحمة الله: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا عقل بن زياد عن الأوزاعي، حدثني أبو عمارة، حدثني عبد الله بن فروخ، حدثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيمة، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيمة، وأول شافع وأول مشفع». وقال ابن جرير^(٣): حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع عن داود بن يزيد الزعافري عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً مموداً» سئل عنها فقال: «هي الشفاعة» رواه الإمام أحمد عن وكيع ومحمد بن عبيد عن داود عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً مموداً» قال «هو المقام الذي أشفع لأمتى فيه»^(٤).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري، عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيمة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه - قال النبي ﷺ - فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن تبارك وتعالى والله ما رأه قبلها، فأقول: أي رب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي، فيقول الله عز وجل، صدق، ثم أشفع فأقول: يا رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض، قال: فهو المقام المحمود» وهذا حديث مرسل.

وَقُلْ رَبِّيْ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صَدِيقٍ وَآخَرِجْنِيْ مُخْرَجَ صَدِيقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٧، باب ٥، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٧.

(٢) كتاب الفضائل حديث ٣.

(٣) تفسير الطبرى ١٣٣/٨.

(٤) المستند ٤٤١/٢، ٥٢٨.

الْحَقُّ وَزَهْقُ الْبَاطِلِ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ رَهْوًا

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله ﷺ **﴿وَقُلْ رَبُّ أَدْخِلْنِي مَدْخُلَ صَدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرُجَ صَدْقًا﴾** وقل رب أدخلني مدخل صدق وآخر جنبي مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً^(٢) قال الترمذى: حسن صحيح، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوا أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله عز وجل: **﴿وَقُلْ رَبُّ أَدْخِلْنِي مَدْخُلَ صَدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرُجَ صَدْقًا﴾** الآية^(٣).

وقال قتادة **﴿وَقُلْ رَبُّ أَدْخِلْنِي مَدْخُلَ صَدْقٍ﴾** يعني المدينة **﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرُجَ صَدْقًا﴾** يعني مكة^(٤)، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول هو أشهر الأقوال. وقال العوفي عن ابن عباس **﴿أَدْخِلْنِي مَدْخُلَ صَدْقٍ﴾** يعني الموت **﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرُجَ صَدْقًا﴾** يعني الحياة بعد الموت، وقيل غير ذلك من الأقوال، والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله **﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لِدْنِكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾** قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه ليترعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولو لا ذلك لأنهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم^(٤)، قال مجاهد **﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾** حجة بيته، واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاده وناداه، ولهذا يقول تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًاٍٗ بِالْبَيِّنَاتِ﴾** - إلى قوله - **﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾** [ال الحديد: ٢٥] الآية. وفي الحديث «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهْقُ الْبَاطِلِ﴾** الآية، تهديد ووعيد لكافار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي اض محل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء **﴿بَلْ نَذْفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾** [الأنياء: ١٨]. وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، عن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود قال: دخل

(١) المسند ١/ ٢٢٣.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٨/ ١٣٥.

(٣) تفسير الطبرى ٨/ ١٣٥.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٨/ ١٣٧.

النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: « جاء الحق وذهب الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يدري الباطل وما يعيده »^(١) وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم والترمذى والنمسائى كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به، وكذا رواه عبد الرزاق عن ابن أبي نجيح به.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً تعبد من دون الله. فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها، وقال: « جاء الحق وذهب الباطل إن الباطل كان زهوقاً ».

وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا^(٢)

يقول تعالى مخبرأً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيف وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله ، وهو أيسار رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه ، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك ، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وكفرًا ، والآفة من الكافر لا من القرآن ، كقوله تعالى: « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » [فصلت: ٤٤] ، وقال تعالى: « وإذا ما أنزلت سورة فعنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] والآيات في ذلك كثيرة. قال قتادة في قوله: « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعييه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين^(٢).

وَإِذَا أَعْنَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ كَانَ يَقُولُ سَيِّئًا قُلْ كُلُّ يَعْمَلٌ عَلَى شَاكِرٍ وَلَا يَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَيِّئًا^(٣)

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغضب باب ٣٢، وتفسير سورة ١٧، باب ١٢ ، ومسلم في الجهاد حديث ٨٧، ٨٤، والترمذى في تفسير سورة ١٧ ، باب ٨ ، وأحمد في المستد ١ / ٣٧٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٣٩ / ٨.

طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه . قال مجاهد: بعد عنا، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلِمَا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرَهُ مِنْ كَأْنَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسْهٍ﴾ [يونس: ١٢] وقوله: ﴿فَلِمَا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب، والحوادث والنوايب ﴿كَانَ يُؤْوِسًا﴾ أي قسط أن يعود فيحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِنَ رَحْمَةِ ثُمَّ نَزَّعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُورَ وَلَئِنْ أَذْقَنَاهُ نِعَمًا بَعْدَ ضَرَّاءِ مُسْتَهْ لِيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرَحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩ - ١١]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: على تاحيته . وقال مجاهد: على حدته وطبيعته . وقال قتادة: على نيته . وقال ابن زيد: دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٢] الآية، ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدِي سَبِيلًا﴾ أي منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفي عليه خافية .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقة، عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة، وهو متوكٍ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسأله . قال فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكلاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال: فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسأله . وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به .

ولفظ البخاري عند تفسيره هذه الآية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متوكٍ على عسيب، إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه . فقالوا سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ لِرُوحٍ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الآية^(٢) . وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله

(١) المسند / ١، ٣٨٩، ٤١٠، ٤٤٥.

(٢) آخرجه البخاري في تفسير سورة ١٧، باب ١٣، والتوحيد باب ٢٨، ومسلم في صفات المنافقين حديث

اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو نزل عليه الوحي بأن يجيئهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿وَيُسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوح﴾.

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا قبية، حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت ﴿وَيُسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوح﴾ قل الروح من أمر ربي وما أتيتكم من العلم إلا قليلاً قالوا: أتينا علماً كثيراً، أتينا التوراة، ومن أتي التوراة فقد أتيتني خيراً كثيراً، قال: وأنزل الله ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلْمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية.

وقد روى ابن جرير^(٢) عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى، عن داود عن عكرمة قال: سأله أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله ﴿وَيُسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوح﴾ الآية، فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أتينا التوراة وهي الحكمة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال: فنزلت ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةِ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِه سَبْعَةَ أَبْحَرٍ﴾ [للمان: ٢٧] الآية، قال ما أتيتكم من علم فنجاكم الله به من النار، فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وَمَا أُوتِيَتِ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا: يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول ﴿وَمَا أُوتِيَتِ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفعينتنا أم عينت قومك، فقال «كلاً قد عينت» فقالوا: إنك تتلو أنا أتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم» وأنزل الله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةِ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِه سَبْعَةَ أَبْحَرٍ مَا نَفَدَتْ كَلْمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣) [للمان: ٢٧].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح هنا على أقوال [أحددها] أن المراد أرواحبني آدم. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوح﴾ الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحر إليهم شيئاً، فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ

(١) المسند ١/ ٢٥٥.

(٢) تفسير الطبرى ١٤١/ ٨، ١٤٢.

(٣) انظر تفسير الطبرى ١٤٣/ ٨.

ربِّيْ وَمَا أُوتِيْتُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» فَأَخْبَرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالُوا: مَنْ جَاءَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: جَاءَنِي بِهِ جَبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالُوا لَهُ: وَاللَّهِ مَا قَالَهُ لَكَ إِلَّا عَدُونَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ ذِيْجَلَى قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَلَ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ» [البقرة: ٩٧] وَقَيْلُ: الْمَرَادُ بِالرُّوحِ هُنْهَا جَبْرِيلُ، وَقَالَ قَنَادَةُ: وَكَانَ ابْنَ عَبَّاسَ يَكْتُمُهُ، وَقَيْلُ الْمَرَادُ بِهِ هُنْهَا مَلَكٌ عَظِيمٌ بِقُدْرَةِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: «وَيُسَأَلُونَكُمْ عَنِ الرُّوحِ» يَقُولُ: الرُّوحُ مَلَكٌ. وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَرْسِ الْمَصْرِيِّ، حَدَثَنَا وَهْبُ بْنُ رَوْقَةَ بْنِ هَبِيرَةَ، حَدَثَنَا بَشْرُ بْنُ بَكْرٍ، حَدَثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، حَدَثَنَا عَطَاءُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ مَلِكًا لَوْ قَيْلَ لَهُ التَّقْمِ السَّمُوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضِينَ بِلَقْمَةٍ وَاحِدَةٍ لِفَعْلٍ» تَسْبِيحُهُ سَبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ» وَهَذَا حَدِيثُ غَرِيبٍ بِلِّمَنْكَرٍ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرُ بْنُ جَرِيرٍ رَحْمَهُ اللَّهُ. حَدَثَنِي عَلِيُّ، حَدَثَنِي عَبْدُ اللَّهِ، حَدَثَنِي أَبُو مُرْوَانَ يَزِيدَ بْنَ سَمْرَةَ صَاحِبَ قِيسَارِيَّةِ عَمِّنْ حَدَثَهُ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: «وَيُسَأَلُونَكُمْ عَنِ الرُّوحِ» قَالَ: هُوَ مَلَكُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ وَجْهٍ، لَكُلِّ وَجْهٍ مِنْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ لِسَانًا، لَكُلِّ لِسَانٍ مِنْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ لِغَةً، يَسْبِحُ اللَّهُ تَعَالَى بِتِلْكَ الْلُّغَاتِ كُلِّهَا، يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ تَسْبِيحَةٍ مَلِكًا يُطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا أَثْرُ غَرِيبٍ عَجِيبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ السَّهِيْلِيُّ: رَوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ مَلَكُ لَهُ مَائَةُ أَلْفِ رَأْسٍ، لَكُلِّ رَأْسٍ مَائَةُ أَلْفٍ وَجْهٍ، فِي كُلِّ وَجْهٍ مَائَةُ أَلْفٍ لِسَانٍ، يَسْبِحُ اللَّهُ تَعَالَى بِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. قَالَ السَّهِيْلِيُّ: وَقَيْلُ الْمَرَادُ بِذَلِكَ طَائِفَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى صُورِ بَنِي آدَمَ، وَقَيْلُ: طَائِفَةُ بِرُونَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا تَرَاهُمْ، فَهُمْ لِلْمَلَائِكَةِ كَالْمَلَائِكَةِ لَبَنِي آدَمَ.

وَقَوْلُهُ: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ» أَيْ مِنْ شَأنِهِ وَمِمَّا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ دُونَكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَا أُوتِيْتُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» أَيْ وَمَا أَطْلَعْتُكُمْ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ، فَإِنَّهُ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ تَبَارِكَ وَتَعَالَى، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَلَمَكُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلًا، وَهَذَا الَّذِي تَسْأَلُونَ عَنْهُ أَمْرُ الرُّوحِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ تَعَالَى وَلَمْ يَطْلَعْكُمْ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَطْلَعْكُمْ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ عِلْمِهِ تَعَالَى، وَسِيَّاْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي قَصْدَةِ مُوسَى وَالْخَضْرُ أَنَّ الْخَضْرَ نَظَرٌ إِلَى عَصْفُورٍ وَقَعَ عَلَى حَافَةِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، أَيْ شَرَبَ مِنْهُ بِمِنْقَارِهِ، فَقَالَ: يَا مُوسَى مَا عَلِمْتُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَخْذَ هَذَا الْعَصْفُورَ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ، أَوْ كَمَا قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أُوتِيْتُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» وَقَالَ السَّهِيْلِيُّ: قَالَ بَعْضُ النَّاسِ لَمْ يَجْهِمُهُمْ عَمَّا سَأَلُوا، لَأَنَّهُمْ سَأَلُوا عَلَى وَجْهِ التَّعْتُنَّ، وَقَيْلُ: أَجَابُهُمْ. وَعَوْلَ السَّهِيْلِيُّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ» أَيْ مِنْ شَرْعِهِ، أَيْ فَادْخُلُوهُ فِيْهِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ، لَأَنَّهُ لَا سَبِيلٌ إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا مِنْ طَبِيعَةِ وَلَا فَلْسَفَةِ، وَإِنَّمَا يَنْالُ مِنْ جَهَةِ الشَّرْعِ، وَفِي

هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر، والله أعلم.

ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء، كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسمًا خاصًا، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مصطاراً^(١) أو خمراً، ولا يقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز، وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا التحوّل، وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه، فحاصل ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتاباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في الروح.

وَلَئِنْ شَئْنَا لَنَذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا ثُمَّ لَا يَمْدُدُ لَكَ بِهِ، عَيْنَنَا وَكَيْلًا لِلأَرَحَمَةِ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَيْرًا قُلْ لَئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسَانُونَ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَأَنَّ كَانَ بَعْضُهُمْ لِعَضٍ ظَهِيرًا وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَنْ لِي فَابْنَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

يدرك تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يطرق الناس ريح حمرة، يعني في آخر الزمان من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود ﴿ولَئِنْ شَئْنَا لَنَذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية^(٢).

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتوظفروا فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشيه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له، وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا له: إنا نأريك بمثل ما جئتني به، فأنزل الله هذه الآية، وفي هذا نظر، لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة، فالله أعلم. قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا

(١) المصطار: الخمر الحديثة المتغيرة الطعم والريح، وقيل: المصtar: من أسماء الخمر.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٤٤/٨.

للناس» الآية، أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحتنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً أي جحوداً للحق ورداً للصواب.

وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجُزْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوْعًا ﴿٤﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةً مِنْ تَخْيِيلِ وَعِنْبِ فَلْفَجَرِ
الْأَنْهَرِ جَنَّدَهَا تَفْعِيْرًا ﴿٥﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كَسَّانًا أَوْ تَأْتِي بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ
قِيَالًا ﴿٦﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ رُحْبَرٍ أَوْ تَرْقَ في السَّمَاءِ وَكَنْ تُؤْمِنَ لِرُقْبَاتِ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كَذَبَانًا قَرْفَرَوْمَ
قُلْ سَبَّحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا شَوْلَا ﴿٧﴾

قال ابن جرير^(١): حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة، عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجالاً من بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنها أبني الحجاج السهميين، اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: أبعوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تغدوا فيه^(٢).

فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء^(٣)، وكان عليهم حريراً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم^(٤) حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إننا قد بعثنا إليك لنغدر فيك، وإن الله ما نعلم رجالاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئت به فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثراً مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فيما سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكتناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - و كانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك بذلك أموالنا في طلب الطلب حتى نبرئك منه أو نغدر فيك.

فقال رسول الله ﷺ ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله يعني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في

(١) تفسير الطبرى ١٤٩/٨، ١٥٠، ١٥١.

(٢) حتى تغدوا فيه: أي حتى تقدموا العذر فيه، فلا تلامون بعد ذلك على ما يكون بينكم وبينه.

(٣) أي ظهر لهم مالم يكن معروفاً قبلأ.

(٤) العنت: ما يشق على المرء فعله.

الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال رسول الله ﷺ تسلیمًا، فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضتنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادًا ولا أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا، فسأل لنا رب الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عننا هذه الجبال التي قد ضيقتك علينا، وليحيط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، ولبيث لنا من مضى من آبائنا، ول يكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيئاً صدوقاً، فسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألك وصدقوك صدقناك وعرفنا به متزلك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

قال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويعينك بها عما نراك تتبعني، فإنك تقوم بالأسواق وتلتزم المعاش كما نلتزمه، حتى نعرف فضل متزلك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

قال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإذا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك» فقالوا: يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإن الله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبلاً.

فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عليهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألكم لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها متزلك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألكم أن تعجل لهم ما تخوفهم به من عذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تأخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لوفعلت بذلك لظننت أنني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفًاً لما فاته مما كان

طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

وهيكترا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطالبون ذلك كفراً وعناداً له، فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهما ما سألهما، فإن كفروا عذبتم عذاباً لا أعزبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة؟ فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة، كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَّا نَعْلَمُ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأُولَئِنَّ وَآتَيْنَا ثَمَودَ النَّاقَةَ مَبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نَرْسَلْنَا بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَهُذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِّنْ عِنْدِنَا أَوْ يَلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا تَعْبُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوكُمْ فَلَا يَسْتَطِعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكُمْ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ قَصْرًا بَلْ كَذَبُوكُمْ كَذَبًا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لَمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧ - ١١].

وقوله تعالى ﴿حَتَّى تُفْجِرَ لَنَا فِي الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ اليهود: العين الجارية، سألهوا أن يجري لهم عيوناً معيناً في أرض الحجاز هبنا وهبنا وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله والأجابهم إلى جميع ما سألهوا وطلبوها ولكن علم أنهم لا يهتدون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلْمَةَ رَبِّكُمْ لَا يَؤْمِنُونَ وَلَا جَاءُهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يوحنا: ٩٦ - ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَمْبَمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأనعام: ١١١] الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيمة تنشق فيه السماء وتهوي وتتدلى أطرافها، فاجعل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفماً، أي قطعاً كقوله ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عَنْكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا ﴿أَسْقَطْ عَلَيْنَا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم، وأماماً نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظرارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زَرْفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاحد وقتادة: هو الذهب، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: أو يكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيقٍ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفه هذا كتاب من الله لفلان تصبح موضوعة عند رأسه. قوله تعالى: ﴿قُلْ سَبَّحَانَ رَبِّيْ هَلْ كَنْتَ إِلَّا بِشَرَّاً رَسُولًا﴾ أي سبحانه وتعالى وتقديس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكته، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألكم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربكم وأنصح لكم وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألكم إلى الله عز وجل.

قال الإمام أحمد بن حنبل^(١): حدثنا علي بن اسحاق ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد ، عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربّي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أشيء يوماً وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» ورواه الترمذى^(٢) في الزهد عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به ، وقال: هذا حديث حسن ، وعلى بن يزيد يضعف في الحديث.

وَمَا مِنَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿فُلْتُو كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكِيَّةً يَمْشُونَ مُطْمِئِنِينَ لَذَلِكَ عَلَيْهِمْ بَيْنَ السَّمَاءِ مَلَكَارَسُولًا﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا مِنَ النَّاسَ أَيْ أَكْثُرُهُمْ﴾ أي آمنوا ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجبهم من بعثة البشر رسلأ ، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أُوحِيَنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبِشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدْ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] ، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ تَأْتِيهِمْ رَسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُدُونَا﴾ [التغابن: ٦] الآية . وقال فرعون وملؤه ﴿أَنَّهُمْ لَبَشَرٌ مِّنْ أَنْهُمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وكذلك قالت الأمم لرسلهم ﴿إِنَّكُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّنْ أَنْهُمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بَعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبه: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ

(١) المستند ٥/٢٥٤.

(٢) كتاب الزهد بباب ٣٥.

ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشکروا لي ولا تکفرون» [البقرة: ١٥٢ - ١٥١] ولهذا قال هنـا «قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين» أي كما أنتم فيها «لنزـلنا عليهم من السماء ملـكاً رسـولاً» أي من جنسهم . ولما كـتم أنتـم بـشـراً بـعـثـنـا فـيـکـم رسـلـنـا مـنـکـم لـطـفـاً وـرـحـمةـ.

قُلْ كَفَّرُوا بِإِلَهٍ شَهِيدٍ بِأَيْمَنٍ وَإِنَّهُ كَانَ يُعبَدُوا، خَيْرًا بَصِيرًا

يقول تعالى مرشدـاً نـيـهـا إلى الحـجـة على قـوـمهـ في صـدـقـ ما جاءـهـمـ بهـ: إنه شـاهـدـ عـلـيـ وـعـلـيـکـمـ، عـالـمـ بـمـا جـتـکـمـ بـهـ، فـلـوـ كـنـتـ كـادـبـاً عـلـيـهـ لـاـ تـنـقـمـ مـنـيـ أـشـدـ الـانتـقامـ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: «ولـوـ تـقـولـ عـلـيـنـا بـعـضـ الـأـقاـوـيلـ لـأـخـذـنـا مـنـهـ بـالـيمـينـ ثـمـ لـقـطـعـنـا مـنـهـ الـوـتـينـ» [الـحـاقـةـ: ٤٤ - ٤٦]. وـقـوـلـهـ: «إـنـهـ كـانـ بـعـبـادـهـ خـيـرـاً بـصـيـرـاً» أي عـلـيـمـاً بـهـمـ بـمـنـ يـسـتـحـقـ الـإـنـعـامـ وـالـإـحـسـانـ وـالـهـدـاـيـةـ مـمـنـ يـسـتـحـقـ الشـقـاءـ وـالـإـضـلـالـ وـالـإـزـاغـةـ، وـلـهـذاـ قـالـ:

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهَتَّدُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ يَجِدْ لَهُمْ أَوْلَيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَإِنْ شَرَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عَيْنَ وَبَكَّا وَاصْنَعَ مَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَيَّرَ زَدَتِ الْمُسَعِّرَاتِ

يـقـولـ تـعـالـىـ مـخـبـرـاً عـنـ تـصـرـفـهـ فـيـ خـلـقـهـ وـنـفـوذـ حـكـمـهـ وـأـنـهـ لـاـ مـعـقـبـ لـهـ بـأـنـهـ مـنـ يـهـدـهـ فـلـاـ مـضـلـلـ لـهـ، وـمـنـ يـضـلـلـ فـلـنـ تـجـدـ لـهـ أـوـلـيـاءـ مـنـ دـوـنـهـ، كـمـاـ قـالـ: «مـنـ يـهـدـ اللـهـ فـهـوـ الـمـهـدـ وـمـنـ يـضـلـلـ فـلـنـ تـجـدـ لـهـ وـلـيـاً مـرـشـداً» [الـكـهـفـ: ١٧] وـقـوـلـهـ: «وـنـحـشـرـهـمـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ عـلـىـ وـجـوـهـهـمـ» قال الإمام أـحـمـدـ^(١)، حدـثـنـا ابنـ نـمـيرـ، حدـثـنـا إـسـمـاعـيلـ عـنـ نـفـيـعـ قـالـ: سـمـعـتـ أـنـسـ بـنـ مـالـكـ يـقـولـ: قـيـلـ: يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ كـيـفـ يـحـشـرـ النـاسـ عـلـىـ وـجـوـهـهـمـ؟ قـالـ: «الـذـيـ أـمـشـاـهـمـ عـلـىـ أـرـجـلـهـمـ قـادـرـ عـلـىـ أـنـ يـمـشـيـهـمـ عـلـىـ وـجـوـهـهـمـ»^(٢)، وـأـخـرـجـاهـ فـيـ الصـحـيـحـيـنـ.

وقـالـ الإمام أـحـمـدـ^(٣) أـيـضاًـ: حدـثـنـا الـوـلـيـدـ بـنـ جـمـيعـ الـقـرـشـيـ عـنـ أـبـيـ الطـفـيلـ عـامـرـ بـنـ وـاثـلـةـ، عـنـ حـذـيـفةـ بـنـ أـسـيدـ قـالـ: قـامـ أـبـوـ ذـرـ فـقـالـ: يـاـ بـنـيـ غـفارـ، قـولـواـ وـلـاـ تـحـلـفـواـ، فـإـنـ الصـادـقـ الـمـصـدـقـ حـدـثـيـ أـنـ النـاسـ يـحـشـرـونـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ أـفـوـاجـ: فـوـجـ رـاكـبـيـنـ طـاعـمـيـنـ كـاسـيـنـ، وـفـوـجـ يـمـشـوـنـ وـيـسـعـوـنـ، وـفـوـجـ تـسـبـبـهـمـ الـمـلـائـكـةـ عـلـىـ وـجـوـهـهـمـ وـتـحـشـرـهـمـ إـلـىـ النـارـ، فـقـالـ قـائلـ مـنـهـمـ: هـذـاـ قـدـ عـرـفـنـاهـمـاـ، فـمـاـ بـالـذـيـنـ يـمـشـوـنـ وـيـسـعـوـنـ؟ قـالـ «يـلـقـيـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ الـآـفـةـ عـلـىـ الـظـهـرـ حـتـىـ لـاـ يـبـقـيـ ظـهـرـ، حـتـىـ إـنـ الرـجـلـ لـتـكـونـ لـهـ الـحـدـيـقـةـ الـمـعـجـبـةـ فـيـعـطـيـهـاـ بـالـشـارـفـ»^(٤) ذاتـ القـتـبـ^(٥) فـلـاـ يـقـدـرـ عـلـيـهـاـ.

(١) المستند ١٦٧ / ٣.

(٢) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ تـفـسـيرـ سـوـرـةـ ٢٥ـ، بـابـ ١ـ، وـمـسـلـمـ فـيـ الـمـنـافـقـيـنـ حـدـيـثـ ٥٤ـ.

(٣) المستند ١٦٤ / ٥ـ، ١٦٥ـ.

(٤) الشـارـفـ: الـنـاقـةـ الـمـسـنـةـ.

(٥) الـقـتـبـ لـلـبـعـيرـ: شـبـهـ الرـحـلـ.

وقوله: «عَمِيًّا» أي لا يبصرون، «وَبِحَسْمًا» يعني لا ينطقون، «وَصَمِّاً» لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعماً وصماً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه «مُأْوَاهُمْ» أي منقلبهم ومصيرهم «جَهَنَّمْ كُلَّمَا خَبَتْ» قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد طفت، «زَدَنَاهُمْ سَعِيرًا» أي لهاهاً وهجاً وجمراً، كما قال: «فَذَوْقُوا فَلنْ نَرِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا» [النَّبَا: ٣٠].

ذَلِكَ جَرَأْوُهُمْ بِإِنْهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِنَّا نَذَّاعِظُكُمْ وَرَفِقَنَا أَنَا نَمْبَعُونَ حَتَّىَ جَدِيدًا ۝ ۝ ۝ أَوْلَمْ يَرَوَا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَدْ أَنْتُمْ عَنْ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَبَّ فِيهِ فَأَنَّكُمْ تَكُونُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝ ۝ ۝

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به منبعث على العمى والبكم والصمم جراوهم الذي يستحقونه، لأنهم كنبوا «بِآياتِنَا» أي بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوعبعث «وقالوا أئذنا كنا عظاماً ورفاتاً» أي بالية نخرة «أَنَا نَمْبَعُونَ حَتَّىَ جَدِيدًا» أي بعد ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟ فاحتاج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: «لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ» [غافر: ٥٧] وقال: «أَوْ لَمْ يَرَوَا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ» [الاحقاف: ٣٣] الآية، وقال «أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلِّي وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [يس: ٨٢-٨١] إلى آخر السورة.

وقال هنا «أَوْ لَمْ يَرَوَا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» أي يوم القيمة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم. قوله: «وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَبَّ فِيهِ» أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انتصافها، كما قال تعالى: «وَمَا نَؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ» [هود: ١٠٤]. وقوله: «فَأَبْيَ الظَّالِمُونَ» أي بعد قيام الحجة عليهم «إِلَّا كُفُورًا» إلا تماديًّا في باطلهم وضلالهم.

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكُمْ إِذَا لَمْ أَمْسِكْتُمْ حَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَنُورًا ۝ ۝ ۝

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر^(١)، خشية أن تذهبوا مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً، لأن هذا من طباعكم وسجايكم، ولهذا قال: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا» قال ابن عباس وقتادة: أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنْ

(١) انظر تفسير الطبرى / ٨ / ١٥٤.

الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً» [النساء: ٥٣] أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: «إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصليين» [المعارج: ١٩ - ٢٢] ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويidel هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين «يد الله ملأى لا يغيبها نفقة سحاء الليل والنهار،رأيت ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه»^(١).

وَلَقَدْ أَئْتَنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بِّيَنَتْ فَسْعَلَ بَيْنَهُ إِسْرَئِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظْنُكَ يَنْهَا مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَمِّتْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَصَابِرُ وَإِنِّي لَأَظْنُكَ يَنْفَرَعُونَ مَشْبُورًا فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْرِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنْهَا إِسْرَئِيلَ أَسْكَنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَهُ وَعْدُ الْآخِرَةِ جَنَّاتٍ كَمَا لَيَقِنًا

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسعة آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عنمن أرسله إلى فرعون، وهي العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، قاله ابن عباس^(٢). وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا، والخمس في الأعراف والطمسة والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاحد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة، وعنده أن التاسعة هي تلتف العصا ما يأفكون «فاستكروا و كانوا قوماً مجرمين» [الأعراف: ١٣٣] أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها واستيقنوا أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم: فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألهوا، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبعوا إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات «وإني لأشنك يا موسى مسحوراً» قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأنتمة هي المراد هنا، وهي المعنية في قوله تعالى: «وَأَلْقَ عَصَاكَ فَلِمَا رَأَاهَا تَهْزَزْ كَأْنَهَا جَانَ وَلَى مَدْبِراً وَلَمْ يَعْقِبْ يَا مُوسَى لَا تَخْفِ» - إلى قوله - «في تسعة آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين» [التبل: ١٠ - ١٢] فذكر هاتين الآيتين العصا واليد وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها. وقد أوثق موسى عليه

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٢، والتوحيد باب ١٩، ٢٢، ومسلم في الزكاة حدث ٣٧، والترمذ في تفسير سورة ٥، باب ٣، وأحمد في المستند ٣١٣/٢، ٥٠٠.

(٢) تفسير الطبراني ١٥٥/٨.

السلام آيات آخر كثيرة، منها ضربة الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمam وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أورته بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هنا التسع الآيات التي شاهدتها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

فاما الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسألـه عن هذه الآية ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بيتات﴾ فقال: لا تقل لهنبي، فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين، فسألـه، فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزدواجوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحرـوا، ولا تأكلـوا الربـا، ولا تمـشوـبـريـءـاـ إلى ذـي سـلـطـانـ لـيـقـتـلـهـ، ولا تـقـذـفـواـ مـحـصـنـةـ» - أو قال لا تـفـرـواـ مـنـ الزـحـفـ شـعـبـةـ الشـاكـ - وأـتـمـ ياـ يـهـودـ عـلـيـكـمـ خـاصـةـ أـنـ لـاـ تـعـدـواـ فـيـ السـبـتـ» فـقـبـلاـ يـدـيـهـ وـرـجـلـيـهـ، وـقـالـ: نـشـهـدـ أـنـكـ نـبـيـ . وـإـنـاـ نـخـشـيـ إـنـ أـسـلـمـنـاـ أـنـ تـقـتـلـنـاـ يـهـودـ^(٢) . فـهـذـاـ عـلـيـ السـلـامـ دـعـاـ أـنـ لـاـ يـزـالـ مـنـ ذـرـيـتـهـ نـبـيـ ، وـإـنـاـ نـخـشـيـ إـنـ تـقـتـلـنـاـ يـهـودـ^(٢) . فـهـذـاـ الـحـدـيـثـ رـوـاهـ هـكـذـاـ التـرـمـذـيـ وـالـنـسـائـيـ وـابـنـ مـاجـهـ وـابـنـ جـرـيرـ فـيـ تـفـسـيرـهـ مـنـ طـرـقـ عـنـ شـعـبـةـ بـنـ الـحـجـاجـ بـهـ ، وـقـالـ التـرـمـذـيـ: حـسـنـ صـحـيـحـ . وـهـوـ حـدـيـثـ مـشـكـلـ ، وـعـبـدـ اللهـ بـنـ سـلـمـةـ فـيـ حـفـظـهـ شـيـءـ ، وـقـدـ تـكـلـمـواـ فـيـهـ ، وـلـعـلـهـ اـشـتـبـهـ عـلـيـهـ التـسـعـ آـيـاتـ بـالـعـشـرـ الـكـلـمـاتـ فـإـنـهـ وـصـاـيـاـ فـيـ التـوـرـةـ لـاـ تـعـلـقـ لـهـ بـقـيـاـ الـحـجـةـ عـلـىـ فـرـعـونـ ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ .

ولهذا قال موسى لفرعون ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي حججاً وأدلة على صدق ما جئتكم به ﴿ وإنـيـ لأـضـنـكـ يـاـ فـرـعـونـ مـثـبـرـأـ﴾ أي هالـكاـ ، قالـهـ مجـاهـدـ وـقـتـادـ ، وـقـالـ اـبـنـ عـبـاسـ: مـلـعـونـاـ ، وـقـالـ أـيـضاـ هوـ وـالـضـحـاكـ ﴿مـثـبـرـأـ﴾ أي مـغـلوـبـاـ ، وـالـهـالـكـ كـمـاـ قـالـ مجـاهـدـ يـشـمـلـ هـذـاـ كـلـهـ ، قـالـ الشـاعـرـ عـبـدـ اللهـ بـنـ الزـبـرـيـ: [الـخـفـيفـ]

إـذـ أـجـارـيـ الشـيـطـانـ فـيـ سـنـنـ الغـيـرـيـ وـمـنـ مـالـ مـيـلـهـ مـثـبـرـ^(٣)

وـقـرـأـ بـعـضـهـ بـرـفـعـ التـاءـ مـنـ قـوـلـهـ عـلـمـتـ ، وـرـوـيـ ذـلـكـ عـنـ أـبـيـ طـالـبـ ، وـلـكـ قـرـاءـةـ الـجـمـهـورـ بـفـتـحـ التـاءـ عـلـىـ الـخـطـابـ لـفـرـعـونـ ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: ﴿فـلـمـ جـاتـهـمـ آـيـاتـنـاـ مـبـصـرـةـ قـالـوـاـ هـذـاـ سـحـرـ مـبـينـ وـجـحدـوـاـ بـهـ وـاستـيقـنـتـهـ أـنـفـسـهـمـ ظـلـمـاـ وـعـلـوـاـ﴾ [الـنـمـلـ: ١٤] الآيةـ ، فـهـذـاـ كـلـهـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـمـرـادـ بـالـتـسـعـ آـيـاتـ إـنـمـاـ هـيـ مـاـ تـقـدـمـ ذـكـرـهـ مـنـ الـعـصـاـ وـالـيـدـ وـالـسـنـينـ وـنـقـصـ مـنـ

(١) المستند ٤/٢٣٩.

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٧، باب ١٥، والنمسائي في التحرير باب ١٨.

(٣) البيت لابن الزبوري في تفسير البحر المحيط ٦/٦٧، والجامع لأحكام القرآن ١٠/٣٣٨، وسيرة ابن هشام ٤١٩/٢، وتفسير الطبرى ٨/١٥٩.

الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى وجود الفاعل المختار الذي أرسله، وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاءهم هذا الوهم إلا من قبل عبد الله بن سلمة، فإن له بعض ما ينكر، والله أعلم. ولعل ذيتك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات فاشتبه على الرواية بالتسعة الآيات فحصل لهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله: «فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ» أي يخليلهم منها ويزيلهم عنها، «فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِنْ مَعِهِ جَمِيعًا وَقَلَّنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبْنَيْ إِسْرَائِيلَ اسْكَنَنَا الْأَرْضَ» وفي هذا بشارات لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك فإن أهل مكة هم بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: «وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفِزُوكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكُمْ مِنْهَا» الآيتين، ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهراً أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال «كذلك وأورثناها بنى إسرائيل» [الشعراء: ٥٩]، وقال هنها «وَقَلَّنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبْنَيْ إِسْرَائِيلَ اسْكَنَنَا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جَئْنَا بِكُمْ لِنَزِيلًا» أي جميعكم أنتم وعدوكم، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: لفيماً أي جميعاً.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقَرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى الْمَنَاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزِيلًا تَنْزِيلًا

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد أنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: «لَكُنَّ اللَّهُ يَشَهِدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشَهِدُونَ» [النساء: ١٦٦] أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه. قوله «وبالحق نزل» أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروضاً لم يشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المطاع في الملا الأعلى. قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ» أي يا محمد «إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: «وَقَرَأَنَا فَرَقْنَاهُ» أما قراءة من قرأ بالخفيف فمعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجماً على الواقع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: فرقناه بالتشديد، أي أنزلناه آية آية مبيناً ومفسراً، ولهذا قال: «لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ» أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم، أي «على مكت» أي مهل «وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا» أي شيئاً بعد شيء.

قُلْ إِمْنَةً بِهِ أَوْ لَا تُؤْسِنَا إِنَّ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُشَكَّنُ عَيْنِهِمْ يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سُجْدًا ۝ وَيَقُولُونَ
سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمْفَعُولاً ۝ وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَسْكُونُكَ وَيَزِيدُهُمْ خَشْوَعًا ۝

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم (آمنوا به أو لا تؤمنوا) أي سواء آمنت به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوه بذلك في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسle، ولهذا قال: «إن الذين أتوا العلم من قبله» أي من صالحـي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابـهم ويقيـمونـه ولم يـدلـوه ولا حـرفـوه (إذا يـتـلى عليهم) هذا القرآن (يـخـرون لـلـأـذـقـانـ) جـمـعـ ذـقـنـ وـهـوـ أـسـفـلـ الـوـجـهـ (سـجـدـاً) أي الله عـزـ وـجـلـ شـكـراًـ عـلـىـ ماـ أـنـعـمـ بـهـ عـلـىـ عـلـيـهـمـ مـنـ جـعـلـهـ إـيـاهـمـ أـهـلـاًـ أـنـ أـدـرـكـواـ هـذـاـ الرـسـوـلـ الـذـيـ أـنـزـلـ عـلـيـهـ هـذـاـ الكـتـابـ،ـ وـلـهـذـاـ يـقـولـونـ (سـبـحـانـ رـبـنـاـ)ـ أيـ تعـظـيمـاـ وـتـوـقـيرـاـ عـلـىـ قـدـرـتـهـ التـامـ وـأـنـهـ لـاـ يـخـلـفـ المـيـعـادـ الـذـيـ وـعـدـهـ عـلـىـ أـلـسـنـةـ الـأـنـبـيـاءـ الـمـتـقـدـمـينـ عـنـ بـعـثـةـ مـحـمـدـ ﷺـ وـلـهـذـاـ قـالـوـاـ (سـبـحـانـ رـبـنـاـ إـنـ كـانـ وـعـدـ رـبـنـاـ لـمـفـعـولـاـ)ـ وـقـولـهـ:ـ (وـيـخـرـونـ لـلـأـذـقـانـ يـسـكـونـ)ـ أيـ خـضـوعـاـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ وـإـيمـانـاـ وـتـصـدـيقـاـ بـكـتابـهـ وـرـسـوـلـهـ (وـيـزـيـدـهـمـ خـشـوـعـاـ)ـ أيـ إـيمـانـاـ وـتـسـلـيمـاـ،ـ كـمـاـ قـالـ:ـ (وـالـذـينـ اـهـتـدـوـاـ زـادـهـمـ هـدـىـ وـأـتـاهـمـ تـقـوـاهـمـ)ـ [محمد: ١٧].ـ وـقـولـهـ:ـ (وـيـخـرـونـ)ـ عـطـفـ صـفـةـ عـلـىـ صـفـةـ
لـاـ عـطـفـ السـجـودـ عـلـىـ السـجـودـ،ـ كـمـاـ قـالـ الشـاعـرـ:ـ [الـمـتـقـارـبـ]

إـلـىـ الـمـلـكـ الـقـرـمـ وـابـنـ الـهـمـامـ وـلـيـثـ الـكـتـيـةـ فـيـ الـمـزـدـحـمـ^(١)

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيَّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ وَلَا تَحْمِرْ بِصَلَائِكَ وَلَا تَخَافْتْ بِهَا وَأَبْتَغِ
بَيْنَ ذَلِكَ سَيِّلًا ۝ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلْعَذْ وَلَمْ يَرْكَنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الْأَذْلَىٰ
وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ نَكِيرٌ ۝

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركـينـ المنـكريـنـ صـفـةـ الـرـحـمـةـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ،ـ المـانـعـينـ منـ تـسـميـتـهـ بـالـرـحـمـنـ (ادـعـواـ الـرـحـمـنـ أـيـاماـ تـدـعـواـ فـلـهـ الـأـسـمـاءـ الـحـسـنـىـ)ـ أيـ لاـ فـرقـ بينـ دـعـائـكـمـ لـهـ بـاسـمـ الـرـحـمـنـ،ـ فـإـنـهـ ذـوـ الـأـسـمـاءـ الـحـسـنـىـ،ـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ:ـ (هـوـ اللـهـ الـذـيـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ هوـ عـالـمـ الـغـيـبـ وـالـشـهـادـةـ هوـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ)ـ -ـ إـلـىـ أـنـ قـالـ -ـ (لـهـ الـأـسـمـاءـ الـحـسـنـىـ
يـسـبـحـ لـهـ مـاـ فـيـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ)ـ [الـحـشـرـ:ـ ٢٤ـ ـ ٢٢ـ]ـ الآـيـةـ،ـ وـقـدـ روـيـ مـكـحـولـ أـنـ رـجـلاـ مـنـ
الـمـشـرـكـينـ سـمـعـ النـبـيـ ﷺـ وـهـوـ يـقـولـ فـيـ سـجـودـهـ:ـ (يـاـ رـحـمـنـ يـاـ رـحـيمـ)ـ فـقـالـ:ـ إـنـهـ يـزـعـمـ أـنـ يـدـعـوـ
وـاحـداـ وـهـوـ يـدـعـوـ اـثـنـيـنـ،ـ فـأـنـزـلـ اللـهـ هـذـهـ الـآـيـةـ،ـ وـكـذـارـوـيـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ،ـ رـوـاهـمـاـبـنـ جـرـيرـ.

(١) الـبـلـاـ نـسـبـةـ فـيـ الـإـنـصـافـ ٤٦٩ـ /ـ ٢ـ،ـ وـخـزـانـةـ الـأـدـبـ ٤٥١ـ /ـ ١ـ،ـ ١٠٧ـ /ـ ٥ـ،ـ ٩١ـ /ـ ٦ـ،ـ وـشـرـحـ قـطـرـ النـدىـ
صـ ٢٩٥ـ

وقوله: ﴿وَلَا تجهر بصلاتك﴾ الآية قال الإمام أحمد^(١): حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متواً بمكة، ﴿وَلَا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تخافت بها﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتُغْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إدیاس به، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس، وزاد: فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك يفعل أي ذلك شاء.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهّر بالقرآن وهو يصلّي تفوقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلّي استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ﴿وَلَا تجهر بصلاتك﴾ فيتفرقوا عنه ﴿وَلَا تخافت بها﴾ فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرجع إلى بعض ما يسمع فينتفع به، ﴿وَابْتُغْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٣) وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة، وقال شعبة عن الأشعث بن أبي سليم عن الأسود بن هلال عن ابن مسعود لم يخافت بها من أسمع أذنيه.

قال ابن حجر^(٤): حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عليّ عن سلمة بن علقمة^(٥) عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبي بكر كان إذا صلّى فقرأ خفّض صوته وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربّي عزّوجلّ وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقف الوستان، قيل: أحسنت، فلما نزلت ﴿وَلَا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفّض شيئاً، وقال أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس: نزلت في الدعاء^(٦)،

(١) المسند / ١، ٢٣، ٢١٥.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢، ٣٤، ٤٤، ٥٢، ومسلم في الصلاة حديث ١٤٥، ١٤٦.

(٣) انظر تفسير الطبرى ١٦٨/٨، ١٦٩.

(٤) تفسير الطبرى ١٦٨/٨.

(٥) في الطبرى: عن سلمة عن علقمة.

(٦) انظر تفسير الطبرى ١٦٦/٨.

وهكذا روى الثوري ومالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في الدعاء، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير. وقال الثوري عن ابن عياش العامري عن عبد الله بن شداد قال: كان أعرابي من بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قال: «اللهم ارزقنا إبلاً ولداً» قال: فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تجهر بصلاتك وَلَا تخافت بِهَا﴾.

[قول آخر] قال ابن جرير^(١): حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية في التشهد ﴿وَلَا تجهر بصلاتك وَلَا تخافت بِهَا﴾، وبه قال حفص عن أشعث بن سوار عن محمد بن سيرين مثله.

[قول آخر] قال علي بن طلحة عن أبي عباس في قوله ﴿وَلَا تجهر بصلاتك وَلَا تخافت بِهَا﴾ قال: لا تصل مراءة للناس ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثوري عن منصور عن الحسن البصري ﴿وَلَا تجهر بصلاتك وَلَا تخافت بِهَا﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسيء سريرتها، وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن الحسن به، وحسيم عن عوف عنه به، وسعيد عن قتادة عنه كذلك.

[قول آخر] قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَابْتَغُ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون ثم يجهرون أحدهم بالحرف، فيصبح به ويصيرون هم به وراءه، فنهاء أن يصبح كما يصبح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿وَقَلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَخَذْ وَلَدًا﴾ لما ثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائض فقال: ﴿وَقَلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَخَذْ وَلَدًا﴾ ولم يكن له شريك في الملك^{﴿بِلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾] ولم يكن له ولد من الذل^{﴿أَيْ لَيْسَ بِدَلِيلٍ فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشَيرٌ، بِلْ هُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُدَبِّرُهَا وَمَقْدِرُهَا وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾] قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذل﴾ لم يخالف أحدٌ ولم يتبغ نصر أحدٌ ^{﴿وَكَبِرَهُ تَكْبِيرًا﴾} أي عظمه وأجله عمما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.}}

قال ابن جرير^(٢): حدثني يونس، أبناؤنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر عن القرطبي أنه كان يقول في هذه الآية ^{﴿وَقَلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَخَذْ وَلَدًا﴾} الآية، قال إن اليهود والنصارى يقولون اتخاذ الله ولداً، وقالت العرب: ليك لا شريك لك إلا شريكاكاً هو لك تملكه وما ملك و قال الصابئون والمجوس: لو لا أولياء الله لذل، فأنزل الله هذه الآية ^{﴿وَقَلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ}

(١) تفسير الطبرى . ١٧٠ / ٨

(٢) تفسير الطبرى . ١٧٢ / ٨

يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولد من الذل وكبره تكبيراً» وقال أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية «الحمد لله الذي لم يتتخذ ولداً» الآية، الصغير من أهله والكبير. قلت وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية آية العز، وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيته في ليلة فيصيبيه سرق أو آفة، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى بن عبيدة الزبيدي عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال: خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي، أو يدي في يده، فأتى على رجل رث الهيئة فقال: «أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟» قال: السقم والضر يا رسول الله، قال: «ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر؟» قال: لا، قال: ما يسرني بها أن شهدت معك بدرأً أو أحداً، قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال: «وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع؟» قال: فقال أبو هريرة: يا رسول الله إباهي فعلمني، قال: «فقل يا أبا هريرة توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولد من الذل، وكبره تكبيراً» قال: فأتى علي رسول الله وقد حسنت حاله قال: فقال لي «مهيم»^(١) قال: قلت يا رسول الله لم أزل أقول الكلمات التي علمتني، إسناده ضعيف، وفي متنه نكارة، والله أعلم. آخر تفسير سورة سبحان. والله الحمد والمنة.

(١) مهيم: كلمة يمنية، تعني ما شألك وأمرك، وما بك.

سورة الكهف

وهي مكية

[ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال]

قال الإمام أحمد^(١): حديثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «قرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن»^(٢) أخر جاه في الصحيحين من حديث شعبة به، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير كما تقدم في تفسير سورة البقرة.

وقال الإمام أحمد^(٣): حديثنا يزيد، أخبرنا هشام بن يحيى عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»^(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذى من حديث قتادة به، ولنفط الترمذى «من حفظ ثلاثة آيات من أول الكهف»^(٥) وقال: حسن صحيح.

[طريق أخرى] - قال الإمام أحمد^(٦): حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن قتادة، سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» ورواه مسلم^(٧) أيضاً والنسائي من حديث قتادة به، وفي لفظ النسائي «من قرأ عشر آيات من الكهف» فذكره (حديث آخر) وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد عن شعبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه

(١) المستند ٢٨١ / ٤.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥، وفضائل القرآن باب ١١، ومسلم في المسافرين حديث ٢٤٠ . ٤٤١.

(٣) المستند ١٩٦ / ٥.

(٤) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ٢٥٧ ، وأبو داود في الملاحم باب ١٤ .
(٥) أخرجه الترمذى في ثواب القرآن باب ٦ . ولنفط الترمذى: «من قرأ ثلاثة آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال».

(٦) المستند ٤٤٦ / ٦.

(٧) كتاب المسافرين حديث ٢٥٧ .

عصمة له من الدجال» فيحتمل أن سالماً سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء.

وقال أَحْمَدُ^(١): حَدَّثَنَا حَسِينٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيَعَةَ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ فَاِيدٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ مَعَاذِ بْنِ أَنْسٍ الْجَهْنَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ أَوْلَ سُورَةَ الْكَهْفِ وَآخِرَهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا مِّنْ قَدْمِهِ إِلَى رَأْسِهِ، وَمَنْ قَرَأَهَا كَلَّهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» اَنْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ وَلَمْ يُخْرِجْهُ، وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرَ بْنَ مَرْدُوِيَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادٍ لِهِ غَرِيبٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرِيمٍ، عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ أَوْلَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجَمْعَةِ سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِّنْ تَحْتِ قَدْمِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاوَاتِ يُضَيِّعُ لَهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَغَفَرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجَمْعَتَيْنِ» وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي رُفْعَهُ نَظَرٌ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ الْوَقْفُ.

وهكذا روى الإمام سعيد بن منصور في سنته عن هشيم بن بشير عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق. هكذا وقع موقوفاً، وكذا رواه الشوري عن أبي هاشم به من حديث أبي سعيد الخدري وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضيل بن محمد الشعراوي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هشيم، حدثنا أبو هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين» ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخر جاه.

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البهقي في سننه عن الحكم، ثم قال البهقي: ورواه يحيى بن كثير عن شعبة عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما نزلت، كانت له نوراً يوم القيمة» وفي المختار للحافظ الضياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب عن منظور بن زيد بن خالد الجهنمي، عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعاً: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتب ولم يجعل لغير عوجاً فَيَسِّرْ
المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنَا مَنْكِثُونَ فِيهِ أَبْدَارٌ وَيُنْذِرُ الَّذِينَ
فَالْأُخْزَانُ لِلَّهِ وَلَدَاهُ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآبِيهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَغْرُّ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه

المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إِنْزَالِه كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زين، بل يهدى إلى صراط مستقيم واضحأً بيناً جلياً نذيراً للكافرين، بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: «ولم يجعل له عوجاً» أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال: «قِيمَاً» أي مستقيماً «لينذر بأساً شديداً من لدنه» أي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وأجلة في الأخرى «من لدنه» أي من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد «ويبشر المؤمنين» أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح «أن لهم أجرًا حسناً» أي مثوبة عند الله جميلة «ما كثيرون فيه» في ثوابهم عند الله، وهو الجنة خالدين فيه «أبداً» دائمًا لا زوال له ولا انقضاء.

وقوله: «وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً» قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قوله نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله «ما لهم به من علم» أي بهذا القول الذي افتروه واثنفوكوه «ولا لأباءهم» أي لآسلافهم «كبرت كلمة» نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه كلمة. وقيل: على التعجب تقديره أعظم بكلمتهن كلمة، كما تقول: أكرم بزيد رجالاً، قاله بعض البصريين، وقرأ ذلك بعض قراء مكة: كبرت كلمة، كما يقال عظم قولك وكبر شأنك، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر، فإن هذا تبشير لمقاتلهم واستعظام لإفکهم، ولهذا قال: «كبرت كلمة تخرج من أفواههم» أي ليس لها مستند سوى قوله، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراضهم، ولهذا قال: «إن يقولون إلا كذباً» وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النصر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أخبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفتة وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى أتيا المدينة فسألوا أخبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفووا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالوا لهم سلوه عن ثلاثة نامركم بهن، فإن أخبركم بهن فهونبي مرسل، وإنما فرجل متقول تروا فيه رأيكם: سلوه عن فتية ذهبا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب؟ سلوه عن رجل طاف بلغ مشارق الأرض وغاربها ما كان نبوء، سلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهونبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أخبار يهود أن نسألهم عن أمور فأخبروه بهما، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما

أمر وهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَخْبِرْكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ» ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبه إيهاه على حزنه عليهم وخبر ما سأله عنده من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل «وَيَسَّأَلُوكُمْ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَنْزَلْنَا» الآية.

فَلَعْلَكَ بَخْعَ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ۝ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِتَبْلُو هُرَيْمَ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝ وَإِنَّا لَجَاعلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزاً ۝

يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى: «فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ» [فاطر ٨] وقال: «وَلَا تَحْزُنْ عَلَيْهِمْ» [النحل: ١٢٧] وقال: «لَعْلَكَ بَاخْعَ نَفْسَكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [الشعراء: .٣]

باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: «فَلَعْلَكَ بَاخْعَ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ» يعني القرآن «أسفاً» يقول: لا تهلك نفسك أسفًا. قال قتادة: قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم، وقال مجاهد: جزعاً^(١)، والممعن متقارب، أي لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: «إِنَا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِتَبْلُو هُرَيْمَ أَحْسَنَ عَمَلاً».

قال قتادة عن أبي نصرة عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حَلْوةٌ خَضْرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أُولَئِكَ فِتْنَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٢)، ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها، فقال تعالى: «وَإِنَّا لَجَاعلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزاً» أي وإنما لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً صعيدياً جرزاً لا ينبت ولا يتتفع به.

كما قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَإِنَّا لَجَاعلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزاً» يقول: يهلك كل شيء عليها وبيده. وقال مجاهد: صعيدياً جرزاً بلقعاً، وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات، وقال ابن زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء، إلا

(١) انظر تفسير الطبرى ١٧٧/٨.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٩٩، وأحمد في المسند ٣/٢٢.

ترى إلى قوله تعالى: «أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلًا يصررون» وقال محمد بن إسحاق: «إنا لجاعلون ما عليهما صعيداً جرزاً» يعني الأرض وأن ما عليها لفان وبائد، وأن المرجع إلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى.

أَمْ حَسِبَتْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ كَانُوا مِنْ عَبْدَاتِنَا عَمَّا
رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيَّئْنَا لَنَا مِنْ آثَارَنَا رَشَدًا
فَصَرَّبَكَا عَلَىٰ عَادَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِينَتَيْنِ
عَدَدًا ثُمَّ بَعْثَثَنَاهُمْ لِنَعْمَلْ أَحْصَنَ لِمَا إِلْسَوْا أَمْدَادًا

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: «أَمْ حَسِبَتْ» يعني يا محمد «أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» أي ليس أمرهم عجيبة في قدرتنا وسلطاناً فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أصحاب الكهف، كما قال ابن جريج عن مجاهد «أَمْ حَسِبَتْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وقال العوفي عن ابن عباس «أَمْ حَسِبَتْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم^(١)، وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة، وكذا قال عطية العوفي وقتادة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي، والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد: الرقيم كان بينائهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله الرقيم: كان يزعم كعب أنها القرية، وقال ابن جريج عن ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف، وقال ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس^(٢)، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران. وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حناناً والأواه والرقيم. وقال ابن جريج:

(١) انظر تفسير الطبرى ٨/١٨٠.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٨/١٨١.

أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدرى ما الرقيم؟ كتاب أم بنيان. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرقيم الكتاب. وقال سعيد بن جبیر: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه فصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ: كتاب مرقوم. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير، قال: الرقيم فعل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول قتيل، وللمجروح جريح، والله أعلم.

قوله: «إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدًا» يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لثلا يفتونهم عنه فهربوا منهم فلجلأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم «ربنا آتنا من لدنك رحمة» أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا «وهيء لنا من أمرنا رشدًا» أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشدًا أي اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا» وفي المسند من حديث بسر بن أرطاء عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»^(١).

قوله: «ف Prismنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً» أي أقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة، «ثم بعثناهم» أي من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: «ثم بعثناهم لتعلم أي الحزبين» أي المختلفين فيهم «أحصى لما لبتوه أمداً» قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية، قوله: [البسيط]

سبق الجواب إذا استولى على الأمد^(٢)

مَنْ نَقْصَنَ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْعَيْنِ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ أَمَّا مَا بِرَبِّهِمْ وَرَدَنَّهُمْ هُدَىٰ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنَّ دَعْوَاهُ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطَّا هَذِهِلَاءَ قَوْمَنَا أَخْحَذُوا مِنْ دُونِهِ مَا لَهُ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ بَيْنَ فَمَهُ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذَا أَعْزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأُولَئِكُمْ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْبِطُ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٨١.

(٢) صدره:

إلا لم تملك أو من أنت سابقـ

والبيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٢١، ولسان العرب (أمد)، (سواء)، (ولي)، وجمهرة اللغة ص ٦٥٩، وتهذيب اللغة ١٤/٢٢٢، ٤٥٤/١٥، وتأج العروس (أمد)، (سند)، وتفسير الطبرى ١٨٧/٨.

لَكُمْ مِنْ امْرِكُمْ مَرْفِقًا

من هنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسو في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً، وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني الحق، فألههم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فامنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو «وزدناهم هدى» استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره من ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: «وزدناهم هدى» كما قال: «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم» [محمد: ١٧] وقال «فاما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون» [التوبه: ١٢٤] وقال: «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» [الفتح: ٤٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم، فإنه أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمبايعتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله «وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض» يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومقارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانت يعبدون الأصنام والطواحيت، وينذبون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس، . وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظرروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا الله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية.

فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر وجاء الآخر،

ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان.

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنة، فما تعارف منها اختلف وما تناكر منها اختلف»^(١) وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

والناس يقولون: الجنسية علة الضم، والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم بأمره، فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: «وربطنَا على قلوبهم إذ قاتلوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهًا» ولن لبني التأييد أي لا يقع منا هذا أبداً، لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلأً، ولهذا قال عنهم: «لقد قلنا إذا شططاً أي باطلأً وكذباً وبهتاناً».

﴿هؤلاء قوماً اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بين﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً» يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، وأمر بتنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتنة في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتنة»^(٢) وفي هذه الحال تشريع العزلة عن الناس ولا تشريع فيما عادها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجماع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله: «وإذ اعتزلتهم وهم وما يعبدون إلا الله» أي وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، «فأرموا إلى الكهف يبشر لكم ويذكركم من رحمته»

(١) آخرجه البخاري في الأنبياء باب ٢، ومسلم في البر حديث ١٥٩، ١٦٠.

(٢) آخرجه أبو داود في الفتنة باب ٤، وأحمد في المسند ٣٠ / ٣.

أي يسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم **﴿وَيَهْبِطُ إِلَيْكُم مِّنْ أَمْرِنَا﴾** الذي أنتم فيه **﴿مِنْ رَّفِيقاً﴾** أي أمراً ترتفعون به، فعند ذلك خرجوا هرابة إلى الكهف فألووا إليه، فقدتهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك، فيقال أنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد **ﷺ**، وصاحب الصديق حين لجا إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندما قال النبي **ﷺ** حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدكم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١) وقد قال تعالى: **«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزِنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوهَا وَجَعَلَ كَلْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلْمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلِيَا وَاللَّهُ أَعْزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [التوبه: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف، وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم، فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك، وفي هذا نظر، والله أعلم، فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشياً، كما قال تعالى:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَّعَنَتْ تَرَوُرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ إِذَا غَرَبَتْ تَغْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَائِلِ وَهُمْ فِي فَجُوَّهِ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ أَيَّدَتِ اللَّهُ مِنْ يَهْدِ اللَّهَ فَهُوَ أَمْهَدُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْسَلاً﴾

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال، لأن الله تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه **﴿ذات اليمين﴾** أي يتقلص الفيء يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة **﴿تزاور﴾** أي تميل^(٢)، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يقي منها شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: **﴿وَنَحْنُ عَلَيْهِمْ بَشِّرُونَا﴾** تقرضهم ذات الشمال^(٣) أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكوكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلع بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، والله الحمد.

وقال ابن عباس ومجاحد وقتادة: تقرضهم تركهم^(٤)، وقد أخبر الله تعالى بذلك، وأراد هنا

(١) آخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ٩، وأحمد في المستند ٤/١.

(٢) انظر تفسير الطبراني ١٩٢/٨.

(٣) انظر تفسير الطبراني ١٩٣/٨.

فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، وقد تكفل بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: بلاد البلقاء، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمنكم به» فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوِرُ عَنْ كَهْفِهِمْ» قال مالك عن زيد بن أسلم: تميل **﴿ذَاتِ اليمَنِ وَإِذَا خَيَّبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَاءِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾** أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياه والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾**، ثم قال: **﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمَهْدَى﴾** الآية، أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهدایة من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضلله فلا هادي له.

وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُفَودٌ وَنَقْلَبُهُمْ ذَاتَ اليمَنِ وَذَاتَ الشَّمَاءِ وَكَلِّبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوْلَيْتَ مِنْهُمْ فِي رَأْيِكَ وَلَمْ يَلْمِسْكَ مِنْهُمْ رَعْبًا

ذكر بعض أهل العلم أنهم على آذانهم بالنوم، لم تنطبق ثلاثة يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، ولهذا قال تعالى: **﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾** وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر: [الطوبل]

ينام بإحدى مقليتيه ويُتَقَيِّي بآخرى الرزايا فهو يقطان نائم^(١)

وقوله: تعالى: **﴿وَنَقْلَبُهُمْ ذَاتَ اليمَنِ وَذَاتَ الشَّمَاءِ﴾** قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين. قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض. قوله **﴿وَكَلِّبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾** قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: الوصيد الفناء، وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد وهو التراب، وال الصحيح أنه بالفناء وهو الباب، ومنه قوله تعالى: **﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ**

(١) يروى عجر البيت:

بآخرى الأعادى فهو يقطان هاجعُ

والبيت لحميد بن ثور في ديوانه ص ١٠٥، وأمالي المرتضى ٢١٣/٢، وخزانة الأدب ٤، ٢٩٢/٤، والشعر ٣٩٨/١، والمقاصد النحوية ٥٦٢/١، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص ٢١٤، وشرح الأشموني ١٠٦/١، وشرح ابن عقيل ص ١٣٢.

﴿الْهَمْزَةُ﴾ [الهمزة: ٨] أي مطبقة مغلقة، ويقال: وصيد وأصيد، ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب، لأن الملائكة لا تدخل بيته في كلب، كما ورد في الصحيح: «ولا صورة ولا جنب ولا كافر»^(١)، كما ورد به الحديث الحسن، وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخبار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كلب طباخ الملك، وقد كان واقفهم على الدين وصحبه كلبه، فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة همام بن الوليد الدمشقي: حدثنا صدقة بن عمر الغساني، حدثنا عبد المنقري، سمعت الحسن البصري يقول: كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير، واسم هدهد سليمان عليه السلام عنقر، واسم كلب أصحاب الكهف قطمير، واسم عجلبني إسرائيل الذي عبدوه بهموم، وهبط آدم عليه السلام بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحياة بأصفهان، وقد تقدم عن شعيب الجبائي أنه سماه حمران، واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستنداً رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ اطَّلَعْتُ عَلَيْهِمْ لَوْلَيْتُ مِنْهُمْ نَارًا وَلَمَّا شَرَّتْ مِنْهُمْ رُعَا﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوه من المهابة والذعر، ثلاثة يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكم والحكمة والحكمة الواسعة.

وَكَذَلِكَ يَعْتَهِمْ يَسْأَلُهُمْ قَالَ قَبِيلٌ لَهُمْ يَسْتَكْمِمُونَ لَمَّا دَخَلُوكُمْ فَإِذَا جَاءَكُمْ يَوْمًا أَوْ تَعْصِيْمًا
رِبَّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا يَأْتِيْمُ فَبَعْثَوْا إِلَيْهِمْ كُلُّمُّهُمْ يَوْمًا حَسَرَةً إِلَيْهِمْ فَلَمَّا حَسَرَهُمْ
فَيَأْتِيْكُمْ بِرْزَقٍ مُّسْهَدٍ وَلَا يَسْتَطُفُ وَلَا يَسْعُونَ يَسْتَكْمِمُونَ حَسَرَةً يَوْمًا يَنْهَا وَلَا يَنْهَى
أَوْ يُعِيدُونَكُمْ فِي مِنْتَهِمْ وَلَا يَنْهَا وَلَا يَنْهَى إِلَيْهِمْ

يقول تعالى كما أرقناهم بعثتهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهياطهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تسألهم لوبيهم **كم ينتهيكم** أيكم رقتكم؟ قالوا شئنا يوماً أو بعض يوم **لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار** واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا: **أو ينتهي يوم قاتلوا ربكم** أعني بما

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ٨٩، واللباس باب ١٢٩، والنسيائي في الطهارة باب ١٦٧، والدارمي في الاستذان باب ٣٤، وأحمد في المستند ١/٨٠، ٨٢، ١٠٧، ١٣٩، ١٥٠.

لبثتمْ أَيَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَمْرِكُمْ، وَكَانَهُ حَصَلَ لَهُمْ نَوْعٌ تَرْدُدٌ فِي كُثْرَةِ نُومِهِمْ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الْأَهْمَمِ فِي أَمْرِهِمْ إِذَا ذَاكَ، وَهُوَ احْتِياجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَقَالُوا: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوْرَقَكُمْ» أَيْ فَضْكُمْ هَذَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ اسْتَصْبَحُوا مَعْهُمْ دِرَاهِمٌ مِنْ مَنَازِلِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، فَتَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبِقِيَّةِ مِنْهَا، فَلَهُذَا قَالُوا: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوْرَقَكُمْ هَذَا إِلَى الْمَدِينَةِ» أَيْ مَدِيَّتِكُمْ الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا، وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ لِلْعَهْدِ.

﴿فَلَيَنْظُرْ أَيْهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ أَيْ أَطْيَبْ طَعَاماً. كَوْلَهُ: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبْدَأً» [النور: ٣١] وَقَوْلُهُ: «قَدْ أَفْلَحَ مِنْ تَزْكَى» [الأعلى: ١٤] وَمِنْهُ الزَّكَاةُ الَّتِي تَطْبِيْبُ الْمَالَ وَتَطْهِيرُهُ، وَقَيْلُ: أَكْثَرُ طَعَاماً، وَمِنْهُ زَكَاةُ الزَّرْعِ إِذَا كَثُرَ، قَالَ الشَّاعِرُ: [الطَّوَيْل]

قبائلنَا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلَاثَةُ^(١) والسَّبْعُ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ

وَالصَّحِّيْحُ الْأَوَّلُ، لَأَنَّ مَقْصُودَهُمْ إِنَّمَا هُوَ الطَّيْبُ الْحَالَلُ سَوَاءٌ كَانَ كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا. وَقَوْلُهُ: «وَلَيَتَلْطِفَ» أَيْ فِي خَرْوَجِهِ وَذَهَابِهِ وَشَرَائِهِ وَإِيَابِهِ، يَقُولُونَ: وَلِيَخْتَفِ كُلُّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ (ولا يَشْعُرُنَّ) أَيْ وَلَا يَعْلَمُنَّ «بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ» أَيْ إِنْ عَلَمُوا بِمَكَانِكُمْ «يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يَعِيدُوكُمْ فِي مَلَتِهِمْ» يَعْنُونَ أَصْحَابَ دِقِيانُوسَ يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ يَعْذِبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يَعِيدُوهُمْ فِي مَلَتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، أَوْ يَمُوتُوْا، وَإِنْ وَفَقْتُمُوهُمْ عَلَى الْعُودِ فِي الدِّينِ فَلَا فَلَاحُ لَكُمْ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَهُذَا قَالَ: «وَلَوْلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبْدَأُ».

وَكَذَلِكَ أَعْتَرَنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذَا يَتَرَزَّعُونَ بِنَهَمْ أَمْرِهِمْ فَقَالُوا أَبْنَا عَلَيْهِمْ بَنِينَا رَبِّهِمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ عَلَيْهَا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخَذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا

يَقُولُ تَعَالَى: «وَكَذَلِكَ أَعْتَرَنَا عَلَيْهِمْ» أَيْ أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمِ النَّاسَ «لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا» ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلْفِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَصَلَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ شَكٌ فِي الْبَعْثَ وَفِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ عَكْرَمَةُ: كَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ قَالُوا تَبَعُّثُ الْأَرْوَاحُ وَلَا تَبَعُّثُ الْأَجْسَادُ، فَبَعَثَ اللَّهُ أَهْلَ الْكَهْفَ حَجَةً وَدَلَالَةً وَآيَةً عَلَى ذَلِكَ، وَذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمْ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شَرَاءٍ لِهِمْ لِيَأْكُلُوهُ، تَنَكَّرُ وَخَرَجَ يَمْشِي فِي غَيْرِ الْجَادَةِ حَتَّى انتَهَى

(١) يَرْوِيُ الْبَيْتُ:

قبائلنَا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلَاثَةُ^(١) وَلِلْسَّبْعِ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَكْثَرُ وَهُوَ لِلْقَتَالِ الْكَلَابِيِّ فِي دِيْوَانِهِ صِ ٥٠، وَالْإِنْصَافِ ٧٧٢/٢، وَشَرْحُ أَيَّاتِ سَيِّدِيْهِ ٣٧٠/٢، وَالْكِتَابِ ٥٦٥، وَالْبَيْتِ بِرَوَايَةِ ابْنِ كَثِيرٍ بِلَا نَسْبَةٍ فِي تَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ ٢٠٤/٨.

إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقوس، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر: [الطويل]

أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحي غير رجاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها: لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنوناً أو مساً أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من هنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل من يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رأها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا وجده كثراً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة، لعله وجدها من كثرة ومتمن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولی أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، وهو متخير في حاله وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهی بهم إلى الكهف فقال لهم: دعوني حتى أتقدكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال إنهم لا يدركون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال بل دخلوا عليهم ورأواهم، وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه تيدوسيس، ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عز وجل، فالله أعلم.

قال قنادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف، فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثة سنة، رواه ابن جرير^(١).

وقوله: «وكذلك أعزتنا عليهم» أي كما أرقناهم وأيقظناهم بهياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان «ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ ينتازون بينهم أمرهم» أي في أمر القيامة، فمن ثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم «فقالوا ابنا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم» أي سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم «قال الذين غلبو على أمرهم لتخذن عليهم مسجداً» حکى ابن جرير في القائلين ذلك قولين [أحدهما] أنهم المسلمون منهم. [والثاني] أهل الشرك منهم، فالله أعلم.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والتفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟

فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنيائهم وصالحهم مساجد»^(١) يحذر ما فعلوا، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْهُمْ كُلَّهُمْ وَيَقُولُونَ حَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُلَّهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُلَّهُمْ قُلْ رَبِّ أَعْمَمْ بِعِدَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِرُهُمْ إِلَّا مَرَأَ ظَهِيرًا وَلَا سَتَقْتَلُهُمْ مِنْهُمْ أَحَدًا

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله: «رجمًا بالغيب» أي قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد. ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قوله: «وَثَامِنُهُمْ كُلَّهُمْ» فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: «قُلْ رَبِّ أَعْلَمْ بِعِدَتِهِمْ» إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا.

وقوله: «مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ» أي من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراساني عنه أنه كان يقول أنا من استثنى الله عز وجل ويقول عدتهم سبعة، وقال ابن جرير^(٢): حدثنا ابن يسار حدثنا عبد الرحمن حدثنا إسرائيل عن سماعك عن عكرمة عن ابن عباس «مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ» قال أنا من القليل كانوا سبعة وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال: لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداة سنّه وضع الورق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك لي لهم ونهارهم في عبادة الله يبكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مسلمينا وكان أكبرهم وهو الذي كلام الملك عنهم، وت مليخا ومرطونس وكسطونس وبيرونوس ودينيموس ويطونس و قالوش، هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل أن هذا من كلام ابن إسحاق أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية، وقد تقدم عن شعيب الجبائي أن اسم كلهم حمران، وفي تسميتهم بهذه الأسماء باسم كلهم نظر في صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٩٦، ومسلم في المساجد حديث ١٩، ٢٠، ٢١.

(٢) تفسير الطبرى ٢٠٦/٨.

متلقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَمْرِنُهُمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿تَسْتَعْلِمُونَهُمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

وَلَا تَقُولُنَّ لِشَائِعٍ يَقِنُ فَاعْلُمْ ذَلِكَ غَدَاءً ﴿إِلَّا أَنْ شَاءَ اللَّهُ وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ وَقُلْ عَسَيْ أَنْ
يَهْدِيَنَّ رَبِّيْ لِأَغْرِبَ مِنْ هَذَا إِشْدَادًا﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل، علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية: تسعين امرأة، وفي رواية: مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، فطااف بهم فلم يلد منها إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لم يحيث، وكان دركاً لحاجته» وفي رواية «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعين»^(١) وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف «غداً أجبيكم» فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ﴾ قيل معناه إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عن ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن البصري، وقال هشيم عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في الرجل يحلف قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ﴾ ذلك، قيل للأعمش: سمعته عن مجاهد؟ فقال: حدثني به ليث بن أبي سليم يرى ذهب كسائي هذا، ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية عن الأعمش به. ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة، أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير رحمه الله، ونص على ذلك لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، وهو الألائق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة ﴿وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ﴾ إذا غضبت وهذا تفسير باللازم. وقال الطبراني:

(١) أخرجه البخاري في الأيمان باب ٣، والكافرات باب ٩، ومسلم في الإيمان حديث ٢٣، ٢٤.

حدثنا محمد بن الحارث الجبلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد العزيز بن حصين، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَا تَقُولنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعْلَمُ بِذَلِكَ غَدَّاً إِلَّا أَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ﴾ أَنْ تَقُولَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَرَوْيَ الطَّبَرَانِي أَيْضًاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ﴾ الْأَسْتِنَاءُ فَاسْتَشِنْ إِذَا ذَكَرْتَ، وَقَالَ: هِيَ خَاصَّةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِّنْ أَنْ يَسْتَشِنْ إِلَّا فِي صَلَةٍ مِّنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: انْفَرِدْ بِهِ الْوَلِيدُ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْحَصِينِ، وَيَحْتَمِلُ فِي الْآيَةِ وَجْهَ أَخْرَى وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَرْشَدَ مِنْ نَسِيْ الشَّيْءِ فِي كَلَامِهِ إِلَى ذَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ النَّسِيَانَ مَنْشُؤَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، كَمَا قَالَ فِي مُوسَى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْهُ﴾ [الْكَهْفُ: ٦٣] وَذَكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يُطْرُدُ الشَّيْطَانَ فَإِذَا ذَهَبَ الشَّيْطَانُ ذَهَبَ النَّسِيَانُ، فَذَكْرُ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبُ الْذَّكْرِ، وَلَهُذَا قَالَ: ﴿وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَقْرَبْ مِنْ هَذَا رَشْدًا﴾ أَيْ إِذَا سَئَلْتَ عَنْ شَيْءٍ لَا تَعْلَمُهُ، فَاسْأَلْ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ، وَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوفِّقَكَ لِلصَّوَابِ وَالرَّشْدِ فِي ذَلِكَ، وَقَلِيلٌ فِي تَفْسِيرِهِ غَيْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝ قُلِّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْشُوا لَهُ غَيْبُ الْمَسْمُوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَيْضًا ۝ وَأَسْمَعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُنْتَهِي فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ ۝

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدتهم إلى أن بعثهم الله وأعشر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثة عشر سنة تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي الثلاثة عشر سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاثة سنين، فلهذا قال: بعد الثلاثة عشر سنة وازدادوا تسعًا. وقوله: «قل الله أعلم بما لبتو» أي إذا سئلت عن لبئهم وليس عندك علم في ذلك وتوقف من الله تعالى فلا تقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿الله أعلم بما لبتو له غيب السموات والأرض﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قنادة في قوله: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَةَ سِنِينَ﴾ الآية، هذا قول أهل الكتاب، وقد ردّه الله تعالى بقوله: ﴿قُلِّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْشُوا﴾ قال: وفي قراءة عبد الله وقالوا: ﴿وَلَيْسُوا﴾، يعني أنه قاله الناس^(١)، وهكذا قال كما قال قنادة مطرف بن عبد الله، وفي هذا الذي زعمه قنادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لم يلبوا ثلاثة عشر سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: وازدادوا تسعًا، والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، ورواية قنادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم

هي شادة بالنسبة إلى قراءة الجمهور، فلا يحتاج بها، والله أعلم.

وقوله: «أبصر به وأسمع» أي أنه لبصیر بهم سمع لهم، قال ابن جریر^(١): وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأویل الكلام ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روى عن قتادة في قوله: «أبصر به وأسمع» فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زید: «أبصر به وأسمع» يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سمعاً بصيراً. وقوله: «ما لهم من دونه من ولی ولا يشرك في حكمه أحداً» أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقديس.

وَاتَّلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلْمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَحَدِّداً ^{٢٧} وَاصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفَدَوْةِ وَالْعِشَيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدِ عَيْنَكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِيَّهَهُ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ^{٢٨} وَلَا تُطِعِ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هُونَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فِرْطًا ^{٢٩}

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس «لا مبدل لكلماته» أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل. وقوله: «ولن تجد من دونه ملتحداً» عن مجاهد ملتحداً قال: ملحاً. وعن قتادة: ولياً ولا مولي. قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملحاً لك من الله، كما قال تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس» [المائدة: ٦٧] وقال: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» [القصص: ٨٥] أي سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

وقوله: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعِشَيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ» أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكررونه ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، أو ضعفاء يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوها من النبي ﷺ أن يجلس معهم، وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرب أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: «وَلَا تطردَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعِشَيِّ» الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعِشَيِّ» [الأنعام: ٥٢] الآية.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن إسرائيل عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد هو ابن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر

فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجتربون علينا قال: و كنت أنا و ابن مسعود و رجل من هذيل وبلال، و رجال نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما يشاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تطرد الَّذِينَ يدعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشِيِّ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ انفرد بإخراجه مسلم^(١) دون البخاري.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبي التياح قال: سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص فامسك، فقال رسول الله ﷺ «قص»، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحاب إلي من أن أعتق أربع رقاب». وقال الإمام أحمد^(٣) أيضاً: حدثنا هاشم: حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت كردوس بن قيس، وكان قاص العامة بالكوفة، يقول: أخبرني رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحاب إلي من أن أعتق أربع رقاب» قال شعبة: فقلت أي مجلس؟ قال: كان قاصاً.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحاب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن ذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحاب إلي من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً» فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين ألفاً ونهانا من يقول أربعة من ولد إسماعيل، والله ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم وهو الكوفي أن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبي ﷺ سكت، فقال النبي ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»، هكذا رواه أبو أحمد عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر مرسلًا. وحدثنا يحيى بن المعلى عن المنصور، حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، قالا: جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر، أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم».

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون المرئي، حدثنا ميمون بن سياد

(١) كتاب فضائل الصحابة حديث ٤٦.

(٢) المسند ٥/٢٦١.

(٣) المسند ٣/٤٧٣.

(٤) المسند ٣/١٤٢.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلتم سيناتكم حسناً» تفرد به أحمد رحمة الله. وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب عن أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهِمْ بِالْغَدَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية، فخرج يتلمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد، فلما رأهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم» عبد الرحمن هذا، ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سادات الصحابة رضي الله عنهم.

وقوله ﴿وَلَا تَعْدِ عِبَادَكَ عَنْهُمْ تَرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿وَلَا تَطْعَ مِنْ أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذَكْرِنَا﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فَرِطٌ﴾ أي أعماله وأفعاله سفة وتفريط وضياع، ولا تكن مطيناً ولا محبأً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمْدُنْ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتَنْهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وَقُلِّ الْحَقُّ مِنْ رَيْحَةِ فَمِنْ شَاءَ فَلَيَؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلَيَكْفُرْ إِنَّا أَعْنَدْنَا لِلْكَافِرِمِنْ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقَهَا وَإِنْ يَسْتَعْيِشُوا يَعْلَمُو إِيمَانَ كَالْمُهَلَّ كَلْمُهَلَّ يَشْوِي الْوَحْوَهُ يَئِسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقَاهُ

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿لَسْنَ شَاءَ فَلَيَؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلَيَكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْنَدْنَا﴾ أي أرصدنا ﴿لِلنَّاطِلِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقَهَا﴾ أي سورها. قال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة» وأخرجه^(٢) الترمذى في صفة النار، وابن جرير^(٣) في تفسيره، من حديث دراج أبي السمح به.

وقال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقَهَا﴾ قال: حائط من نار. قال ابن جرير^(٤): حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم عن عبد الله بن

(١) المسند ٢٩/٣.

(٢) كتاب صفة جهنم باب ٤.

(٣) تفسير الطبرى ٢١٨/٨.

(٤) تفسير الطبرى ٢١٨/٨.

أمية، حديثي محمد بن حبي بن يعلى عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم» قال: فقيل له كيف ذلك؟ فتلا هذه الآية، أوقرأ هذه الآية: «ناراً أحاط بهم سرادقها» ثم قال: «والله لا أدخلها أبداً أو ما دمت حياً لا تصيبني منها قطرة».

وقوله ﴿وَإِن يَسْتَغْيِثُوا بِمَاء كَالْمَهْلِ يَشْوِي الْوِجْهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل: الماء الغليظ مثل دردي الزيت^(١)، وقال مجاهد: هو كالدم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حرمه. وقال آخرون: هو كل شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد، قال: هذا أشبه شيء بالمهل. وقال الصحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود متمن غليظ حار، ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوِجْهَ﴾ أي من حرمه، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٢) بإسناده المتقدم في سرادق النار عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل - قال - كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه» وهكذا رواه الترمذى^(٣) في صفة النار من جامعه من حديث رشدين بن سعد عن عمرو بن العمارث، عن دراج به، ثم قال: لا نعرف إلا من حديث رشدين، وقد تكلم فيه من قبل حفظه هكذا، قال: وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن دراج، والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك وبقية بن الوليد: عن صفوان بن عمرو، عن عبد الله بن بسر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيسْقَى مِنْ مَاء صَدِيدٍ يَتَجْرِعُه﴾، قال: «يقرب إليه فيتذكره، فإذا قرب منه شوى وجهه ووّقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه»، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغْيِثُوا بِمَاء كَالْمَهْلِ يَشْوِي الْوِجْهَ بِئْسَ الْشَّرَاب﴾^(٤). وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا، فأغاثوا بشجرة الزقوم فـيأكلون منها، فاختلت جلود وجوههم، فلو أن مارأوا بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حرمه، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حرمه لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ولهذا قال تعالى بعد وصفه لهذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بِئْسَ الشَّرَاب﴾ أي بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَسَقَوْا مَاء حَمِيمًا فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُم﴾ [محمد: ١٥] وقال تعالى: ﴿تَسْقَى مِنْ عَيْنَ آنِيَة﴾

(١) تفسير الطبرى ٢١٩/٨.

(٢) المسند ٧٠، ٣/٧١.

(٣) كتاب صفة جهنم باب ٤.

(٤) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٧٠، وأحمد فى المسند ٥/٢٦٥.

[الغاشية: ٥] أي حارة، كما قال تعالى: «وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنَّ» [الرحمن: ٤٤] «وَسَاعَتْ مُرْتَفِقًا» أي وساعت النار متزلاً ومقيلاً مجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى «إِنَّهَا سَاعَةَ مُسْتَقْرًا وَمَقَامًا» [الفرقان: ٦٦].

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا
مِنْ هُنْمِمُ الْأَنْهَارِ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيُلْبِسُونَ ثِيَابًا حُصْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٌ مُتَكَبِّرٌ فِيهَا عَلَىٰ
الْأَرَائِيكِ نَعْمَلُ الثَّوَابَ وَحَسِنَتْ مُرْتَفِقًا

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمر لهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن: الإقامة، «تجري من تحتهم الأنهر» أي من تحت غرفهم ومنازلهم، قال فرعون «وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» [الزخرف: ٥١] الآية، «يُحَلَّوْنَ» أي من الحلية «فِيهَا مِنْ ذَهَبٍ» وقال في المكان الآخر «وَلَؤْلَؤًا وَلِبَاسِهِمْ فِيهَا حَرِيرٌ» [فاطر: ٣٣] وفصله هنا، فقال «وَيُلْبِسُونَ ثِيَابًا حُصْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٌ» فالسندس ثياب رفاق كالقمصان وما جرى مجرها. وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: «مُتَكَبِّرٌ فِيهَا عَلَىٰ الْأَرَائِيكِ» الاتكاء قيل الاضطجاع، وقيل التربع في الجلوس وهو أشبه بالمراد هنا، ومنه الحديث الصحيح «أَمَا أَنَا فَلَا أَكُلُ مُتَكَبِّرًا»^(١)، فيه القولان: والأرائك جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخانة، والله أعلم. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة «عَلَىٰ الْأَرَائِيكِ» قال: هي الحجال، قال معمر وقال غيره: السرر في الحجال.

وقوله: «نعم الشواب وحسنت مرتقاً» أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت مرتقاً، أي حسنة متزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار «بَئْسَ الشَّرَابُ وَسَاعَةَ مُرْتَفِقًا» وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: «إِنَّهَا سَاعَةَ مُسْتَقْرًا وَمَقَامًا» [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين، فقال «أُولَئِكَ يَجْزُونُ الْغَرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحْيَةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسِنَتْ مُسْتَقْرًا وَمَقَامًا» [الفرقان: ٧٥ - ٧٦].

وَأَضَرْتُ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَاحَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَّنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهَا زَرْعًا كُلَّتَا
الْجَنَاحَيْنِ عَانَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَطْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خَلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُمْ نَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ

(١) أخرج البخاري في الأطعمة باب ١٣، وأبو داود في الأطعمة باب ١٦، والترمذني في الأطعمة باب ٢٨، وابن ماجه في الأطعمة باب ٦، والدارمي في الأطعمة باب ٣١، وأحمد في المسند ٣٠٨/٤.

أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعْزَزُ نَفْرَا^{٢٧} وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ طَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَطْنَانُ أَنْ تَبَدَّلَ هَذِهِ أَبْدًا^{٢٨}
وَمَا أَطْنَانُ السَّاعَةِ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُوَدْتِ إِلَى رَقِّ الْأَجْدَنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا^{٢٩}

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخرروا عليهم بأموالهم وأصحابهم، فضرب لهم مثلاً برحيلين جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب، محفوفتين بالتخيل، المحمدقة في جنباتها وفي خلالهما الزورع، وكل من الأشجار والزروع مشمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: «كتنا الجنتين آتت أكلها» أي أخرجت ثمرها، «ولم نظلم سنه شيئاً» أي ولم تنقص منه شيئاً، «وفجرنا علائهما نهرأ» أي والأنهار متفرقة فيما ه هنا وه هنا، «وكان له ثمر» قيل: المراد به المال، روي عن ابن عباس ومجاحد وقتادة. وقيل: الشمار، وهو أظهر هنا ويؤيده القراءة الأخرى «وكان له ثمر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب. وقرأ آخرون ثمر بفتح الثاء والميم، فقال أي صاحب هاتين الجنتين لصاحب وهو يحاوره، أي يجادله، ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعْزَزُ نَفْرَا» أي أكثر خدماً وحشماً ولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال وعز النفر.

وقوله: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ طَالِمٌ لِنَفْسِهِ» أي بكفره وتمرده وتكبره وتجربه وإنكار المعاد «قَالَ مَا أَطْنَانُ أَنْ تَبَدَّلَ هَذِهِ أَبْدًا» وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والشمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تنفع ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، ذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزيتها، وكفره بالأخرة، ولهذا قال: «وَمَا أَطْنَانُ السَّاعَةِ قَائِمَةً» أي كائنة «وَلَئِنْ رُوَدْتِ إِلَى رَقِّ الْأَجْدَنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا» أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى، ولو لا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى «وَلَئِنْ رَجَعْتِ إِلَى رَبِّي إِنْ لَيْ عَنْهُ لِلْحَسْنَى» [فصلت: ٥٠] وقال «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا» [مريم: ٧٧] أي في الدار الآخرة تألى على الله عز وجل. وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكملان.

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا^{٣٠} لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبُّ وَلَا أَشْرُكُ بِرَبِّي أَحَدًا^{٣١} وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنَّ أَنَا أَقْلَى مِنْكَ مَالًا وَلَدًا^{٣٢} فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُوَزِّنَ حَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَرَسِيلًا عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيبًا زَلَّاتًا^{٣٣} أَفَيْ يُصْبِحُ مَا فِيهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَبَّا^{٣٤}

يقول تعالى مخبراً بما أجابه به صاحبه المؤمن، واعطاً له وزاجراً بما هو فيه من الكفر بالله والاغترار «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تُرَابٍ» الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود

ربه الذي خلقه، وابتداً خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمَوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] الآية، أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً، ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابةه، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن ﴿لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقاتلك بل أُعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَوْنَ أَنَا أَقْلَى مِنْكُمْ مَا لَأَوْلَدَمَا﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حمدت الله ما أنعم به عليك وأعطيك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع، أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا جراح بن مخلد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زرار عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت» وكان يتأول هذه الآية ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرار عن أنس لا يصح حديثه.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثني شعبة عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله» تفرد به أحمد. وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا بكر بن عيسى، حدثنا أبو عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال: قلت نعم فداك أبي وأمي. قال: «أن تقول لا قوة إلا بالله» قال أبو بلج: وأحسب أنه قال فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم» قال فقلت لعمرو: قال أبو بلج: قال عمرو: قلت لأبي هريرة لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: لا إنها في سورة الكهف ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

(١) المستند ٤٦٩/٢.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٥١، ومسلم في الذكر حديث ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(٣) المستند ٣٣٥/٢.

وقوله: «فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِينِي خَيْرًا مِّنْ جِنْتِكَ» أي في الدار الآخرة (وَيُرْسَلُ عَلَيْهَا) أي على جنتك في الدنيا التي ظنت أنها لا تبدي ولا تفني (حَسِبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ) قال ابن عباس والضحاك وقادة ومالك عن الزهرى: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها، وللهذا قال: «فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلْقاً» أي بلقاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: كالجزء الذي لا ينبع شيئاً قوله: «أَوْ يَصْبِحُ مَا وَهَا غُورًا» أي غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَا وَهَا غُورًا فَمَنْ يَتَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ» [الملك: ٣٠] أي جار وسائح، وقال ههنا: «أَوْ يَصْبِحُ مَا وَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَلْبًا» والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر: [المتقارب]

ظَلَلَ جِيَادَهُ نَوْحَاءُ عَلَيْهِ
تَقْلِيدَهُ أَعْتَهَا صَفَوْفَا^(١)
بِمَعْنَى نَائِحَاتٍ عَلَيْهِ.

وَاحْبَطَ يَثْمَرُهُ فَأَصْبَحَ يُقْبَلُ كَتَبَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَهُ عَلَى عُرُوشَهَا وَيَقُولُ يَلِينَتِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَدًا^٢ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا^٣ هَذَا لِكَ الْوَلَيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرُ ثَوَابِاً
وَخَيْرُ عُقَبَى^٤

يقول تعالى: «وَاحْبَطَ بَشَرَهُ» بأمواله أو بثماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحدُر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحساب على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عز وجل «فَأَصْبَحَ يُقْبَلُ كَتَبَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا» وقال قادة: يصف كفيفه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها (ويقول يا ليتني لم أشرك ربِّي أحداً ولم تكن له فتنة) أي عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز (يصررونَه من دون الله وما كان متتصراً هنالك الولادة لله الحق) اختلف القراء هنا فمنهم من يقف على قوله: «وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هنالك» أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقد له منه، ويبيديء بقوله: «الْوَلَيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ» ومنهم من يقف على «وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا» ويبيديء بقوله: «هَذَا لِكَ الْوَلَيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ» ثم اختلفوا في قراءة الولادة، فمنهم من فتح الواو من الولادة، فيكون المعنى هنالك الموالاة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخاضع له إذا وقع العذاب، كقوله: «فَلَمَّا رَأَوْا
بَاسِنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كَنَا بِهِ مُشْرِكِينَ» [غافر: ٨٤] وكقوله إخباراً عن فرعون: «هَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغُرْقَ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا ذَيْ أَمْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» [يونس: ٩١ - ٩٠] ومنهم من كسر الواو من الولادة، أي

(١) البيت بلا نسبة في تفسير الطبرى . ٢٢٦/٨

هناك الحكم لله الحق، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعم للولاية، قوله تعالى: «الملك يومئذ الحق للرحمٰن و كان يوماً على الكافرين عسيراً» [الفرقان: ٢٦] ومنهم من خفض القاف على أنه نعم لله عز وجل، قوله «ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق» [الأنعام: ٦٢] الآية، ولهذا قال تعالى: «هو خير ثواباً» أي جزاء «وخير عقباً» أي الأعمال التي تكون لله عز وجل، ثوابها خير وعاقبتها حميـدة رشيدة كلها خير.

وَأَضَرْتُ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءً أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ، نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا نَذَرُوهُ الْرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا بِالْمَالِ وَأَبْتَوْنَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَقِيرَتُ الصَّلَاحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلَاً

يقول تعالى: «واضرب لهم» يا محمد للناس «مثل الحياة الدنيا» في زوالها وفنائها وانقضائها «كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض» أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنصرة، ثم بعد هذا كله أصبح «هشيمًا» يابساً «تذروه الرياح» أي تفرقه وتطرحوه ذات اليمين وذات الشمال، «وكان الله على كل شيء مقدراً» أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعم» [يونس: ٢٥] الآية، وقال في الزمر: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه يتابع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه» [الزمر: ٢١] الآية، وقال في سورة الحديد «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار بناته» [الحديد: ٥٠] الآية، وفي الحديث الصحيح «الدنيا حضرة حلوة»^(١) قوله «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» قوله: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقطرة من الذهب» [آل عمران: ١٤] الآية، وقال تعالى: «إنما أموالكم وأولادكم فتنـة والله عنده أجر عظيم» [التغابن: ١٥] أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: «والباقيات الصالحـات خـير عند ربـك ثوابـاً وـخيرـاً مـلـاً».

قال ابن عباس وسعيد بن جبـير وغير واحد من السلف: الباقيات الصالـحـات الصلـوات الخـمسـ. وقال عطـاءـ بنـ أبيـ رـياـحـ وـسـعـيدـ بنـ جـبـيرـ عنـ ابنـ عـبـاسـ: الـباقيـاتـ الصـالـحـاتـ سـبـحانـ اللهـ، وـالـحـمـدـ لـهـ، وـلـاـ إـلـاـ اللهـ، وـالـهـ أـكـبـرـ، وـهـكـذـاـ سـئـلـ أمـيرـ المؤـمنـينـ عـثمانـ بنـ عـفـانـ

(١) أخرجه بلفظ: «إـنـ الـدـنـيـاـ حـلـوـةـ خـضـرـةـ»: الترمذـيـ فيـ الفتـنـ بـابـ ٢٦ـ، وـالـزـهـدـ بـابـ ٤١ـ، وـابـنـ مـاجـهـ فيـ الفتـنـ بـابـ ١٩ـ، وـالـدارـاميـ فيـ الرـقـاقـ بـابـ ٣٧ـ، وـأـحـمـدـ فيـ المسـنـدـ ٧/٣ـ، ٢٢ـ، ١٩ـ، ٤٦ـ، ٦١ـ، ٧٤ـ.

عن الباقيات الصالحات ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رواه الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو عبد الرحمن المقربي، حدثنا حمزة، حدثنا أبو عقيل أنه سمع الحارث مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء في إناء أطنه سيكون فيه ماء، فتوضاً ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضاً وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح: ثم صلّى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلّى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلّى العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضاً وصلّى صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهي الحسنات يذهبن السيئات» قالوا هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، تفرد به.

وروى مالك عن عمارة بن عبد الله بن صياد عن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٢)، وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال لم تصب، فقلت الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٣). وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم عن نافع بن سرجس أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن الباقيات الصالحات. قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال ابن جريج وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك.

وقال مجاهد: الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمراً عن الحسن وقتادة في قوله: «والباقيات الصالحات» قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هن الباقيات الصالحات، قال ابن جرير^(٤): وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات» قال: وحدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا

(١) المستند ٧١/١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٣١/٨.

(٣) تفسير الطبرى ٢٣٢/٨.

(٤) تفسير الطبرى ٢٣١/٨.

السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وما هن يا رسول الله قال «الملة» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال «التكبير، والتهليل، والتسبیح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله» وهكذا رواه أحمد^(١) من حديث دراج به.

قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبد الله حدثه قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي في حاجة، فقال: قل له القني عند زاوية القبر، فإن لي إليك حاجة، قال: فالتقى فسلم أحدهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعد الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله وأكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فقال له سالم: متى جعلت فيها لا حول ولا قوة إلا بالله؟ قال: ما زلت أجعلها، قال: فراجعه مرتين أو ثلاثةً فلم يتنزع، قال: فأثبتت؟ قال سالم: أجل فأثبتت، فإن أباً أويوب الأنباري حدثني أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «urge بي إلى السماء فأريت إبراهيم عليه السلام»، فقال: يا جبريل من هذا الذي معك؟ فقال: محمد، فرحب بي وسهل، ثم قال: مرأتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، فقلت: وما غراس الجنة فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا محمد بن يزيد عن العوام، حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بشير، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء، ثم قال: «أما إنه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم وماؤهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه. ألا وإن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات».

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن أبي كثیر عن زيد عن أبي سلام، عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بغ بغ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله وأكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده - وقال - بغ بغ لخمس من لقي الله مستيقناً بهن دخل الجنة: يؤمن بالله واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب».

(١) المستند ٧٥/٣.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٨/٢٣١.

(٣) المستند ٤/٢٦٧، ٢٦٨.

(٤) المستند ٤/٢٣٧.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية، قال: كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر، فنزل متزلاً فقال لغلامه: ائتنا بالشفرة نعبد بها، فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة مند أسلمت إلا وأنا أحظمها وألزمها غير كلمتي هذه، فلا تحفظوها علي واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكتنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، واستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب» ثم رواه أيضاً النسائي من وجه آخر عن شداد بنحروه.

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمي الحسين عن يونس بن نفيع الجدلي، عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال: كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي من السراة غدوة، فأتيت مني عند العصر، فتصاعدت في الجبل: ثم هبطت فأتيت النبي ﷺ، فأسلمت وعلمني «قل هو الله أحد» [الإخلاص: ١] و «إذا زلت» [الزلزلة: ١] وعلمني هؤلاء الكلمات: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات» وبهذا الإسناد «من قام من الليل فتوضاً ومضمض فاه، ثم قال سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنبه إلا الدماء فإنها لا تبطل».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: «والباقيات الصالحات» قال: هي ذكر الله قول لا إله إلا الله، والله أكبر وسبحان الله، والحمد لله، وبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاه، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلهما في الجنة ما دامت السموات والأرض. وقال العوفي عن ابن عباس: هي الكلام الطيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

وَيَوْمَ سُيرِ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرَتْهُمْ فَلَمْ تَغَاذِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفَّا لَقَدْ جَعَلْتُمُنَا كَمَا خَلَقْتُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةَ بِلَرْمَمَتْهُمْ أَلَّا نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَرُوضَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرَمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوْمَ لَنَا مَا لَنَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُعَادُ صَغِيرَةً وَلَا كِبِيرَةً إِلَّا أَحْصَنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبِّكَ أَحَدًا

يخبر تعالى عن أحوال يوم القيمة وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: «يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً» [طور: ٩، ١٠] أي تذهب من أماكنها وتزول، كما قال

تعالى: «وَتَرَى الْجَبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مِنَ السَّحَابِ» [النَّمَل: ٨٨] وقال تعالى: «وَتَكُونُ الْجَبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» [القارعة: ٥] وقال: «وَيُسَأَلُونَكَ عَنِ الْجَبَالِ فَقُلْ يَنْسَفُهَا رَبِّ نَسْفًا فَيُنَذِّرُهَا قَاعًا صَفَصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عَوْجًا وَلَا أَمْتَأً» [طه: ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧] يذكر تعالى أنه تذهب الجبال، وتتساوى المهداد، وتبقى الأرض قاعاً صافضاً، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتاً، أي لا وادي ولا جبل، ولهذا قال تعالى: «وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحكون لربهم لا تخفي عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة «وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» لا خَمَرٌ فِيهَا وَلَا غَيَّابَةَ قال وقتادة: لا بناء ولا شجر.

وقوله: «وَحَشِرْنَا هُنَّ فِلْمَ نَغَدِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا» وأي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: «قُلْ إِنَّ الْأُولَئِنَ وَالآخِرِينَ لِمَجْمُوعَةٍ إِلَيْهِ مِيقَاتُ يَوْمِ مَعْلُومٍ» [الواقعة: ٤٩ - ٥٠] وقال: «ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لِهِ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» [هود: ١٠٣]. قوله: «وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّ صَفَا» يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: «يَوْمٌ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفَا لَا يَنْكُلُونَ إِلَّا مِنْ أَذْنِ لِهِ الرَّحْمَنِ وَقَالَ صَوَابًا» [البأ: ٣٨] ويحتمل أنهم يقومون صفوافاً، كما قال: «وَجَاءَ رَبِّكَ وَالْمَلَكَ صَفَا صَفَا» [الفجر: ٢٢] قوله: «لَقَدْ جَئْنَا مُنَزِّلَاتِكُمْ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ» هذا تقرير للمنكرين للمعاد، وتوبیخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: «بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مُوَعِّدًا» أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: «وَوَضَعَ الْكِتَابَ» أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغر والمكبير، «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفَقِينَ مَا فِيهِ» أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة «وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَنَا» أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا «مَا لَهَا الْكِتَابُ لَا يَغَدِرُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا إِلَّا أَحْصَاهَا» أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر، إلا أحصاها، أي ضبطها وحفظها.

وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين، نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا من وجد عوداً فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به» قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً، فقال النبي ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذَا؟ فَكَذَّلِكَ تَجْمَعُ الذُّنُوبَ عَلَى الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُمْ هَذَا، فَلَيْقَ اللَّهِ رَجُلٌ وَلَا يَذْنَبُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، فَإِنَّهَا مَحْصَةٌ عَلَيْهِ».

وقوله: «وَوَجَدُوا مَا أَعْمَلُوا حاضِرًا» أي من خير وشر، كما قال تعالى: «يَوْمٌ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مَحْضَرًا» [آل عمران: ٣٠] الآية، وقال تعالى: «يَوْمًا إِنْسَانٌ يَوْمَئِذٍ بِمَا

قدم وأخر) [القيامة: ١٣] وقال تعالى: «يوم تبلى السرائر» [الطارق: ٩] أي تظهر المخبّات والضمائر. قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيمة يعرف به»^(٢) أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ «يرفع لكل غادر لواء يوم القيمة عند استه بقدر غدرته، يقال هذه غدرة فلان بن فلان»^(٣).

وقوله: «ولا يظلم ربك أحداً» أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه بل يغفر ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسْنَةٌ يضاعفها» [النساء: ٤٠] الآية، وقال «ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً» - إلى قوله - «حايسين» [الأبياء: ٤٧] والأيات في هذا كثيرة.

قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي ﷺ، فاشترطت بغير أثم شدّدت عليه رحلاً، فسررت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للباب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال سمعت من رسول الله يقول: «يحشر الله عز وجل الناس يوم القيمة - أو قال العياد - عراة غرلاً بهما» قلت، وما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولو عند لأحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولو عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة» قال: قلنا كيف وإنما نأتي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً بهما؟ قال: «بالحسنات والسيئات».

وعن شعبة عن العوام بن مزاحم عن أبي عثمان عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجماء لتقتص من القراء يوم القيمة»^(٥) رواه عبد الله ابن الإمام

(١) المستند ١٤٢/٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية باب ٢٢، والأدب باب ٩٩، والفتن باب ٢١، ومسلم في الجهاد حديث ٨، ١٠.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ، الترمذى في الفتنه باب ٢٦، وأحمد في المستند ٤٩٢/٢، ٤٩٣، ٧/٣، ٦١، ٦٤.

(٤) المستند ٤٩٥/٣.

(٥) أخرجه أحمد في المستند ١/١٢.

أحمد، وله شواهد من وجوه آخر، وقد ذكرناها عند قوله تعالى: «ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً» وعند قوله تعالى: «إلا أئم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون» [الأنعام: ٣٨].

وإذ قلنا لملائكته أسلجذوا للأدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن فليس عن أمير ربيه أفسخذونه
ودبريه وأولئك من دوني ومهلكم عندي ليس لظالمين يدللون

يقول تعالى من بها بني آدم على عدوة إبليس لهم ولأيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالق خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه وبألطافه رزقه وغذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله ، فقال تعالى: «وإذ قلنا لملائكته» أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة «اسجدوا للأدم» أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: «وإذ قال رب للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حما مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحه فقعوا له ساجدين» [الحجر: ٢٨ - ٢٩]. وقوله: «سجدوا إلا إبليس كان من الجن» أي خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور.

كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(١)، فعند الحاجة نصح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة، وبنه تعالى ه هنا على أنه من الجن أي على أنه خلق من نار، كما قال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقه من طين» [الأعراف: ١٢ - ٧٦] قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر، رواه ابن جرير^(٢) بإسناد صحيح عنه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: كان إبليس من حي من أحياه الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار^(٣)، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وقال الضحاك أيضاً عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله، واستخرج الله ذلك

(١) أخرجه مسلم في الرهد حديث ٦٠، وأحمد في المسند ٦/١٥٣، ١٦٨.

(٢) تفسير الطبرى ٨/٢٣٦.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٨/٢٣٥.

الكبير منه حين أمره بالسجود لآدم ﴿فاستكبر و كان من الكافرين﴾ .

قال ابن عباس قوله: «كان من الجن» أي من خزان الجنان، كما يقال للرجل مكي ومدني وبصري وكوفي . وقال ابن جرير عن ابن عباس نحو ذلك، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: هو من خزان الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد به . وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا، وقال ابن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جناً.

وقال ابن جريج عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فسخط الله عليه فمسخه شيطاناً رجيناً، لعنه الله ممسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه، وإذا كانت في معصية فارجه، وعن سعيد بن جبير أنه قال: كان من الجنانين الذين يعملون في الجنة، وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة وتصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتهال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والساسة والأتقين والبررة والنجاء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث، وحرروه وبينوا صحيحة من حسنها من ضعفيه من منكره، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل.

وقوله: «فسق عن أمر ربه» أي فخرج عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعيث والفساد، ثم قال تعالى مقرعاً وموياً لمن اتبعه وأطاعه «افتخرون وذرите أولياء من دوني» الآية، أي بدلاً عنني، ولهذا قال: «بئس للظالمين بدلًا» وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأحوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس «وامتازوا اليوم أيها المجرمون» - إلى قوله - «أفلم تكونوا تعقلون» [يس: ٥٩ - ٦٢].

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذًا لِّلنَّاسِ عَصْدًا﴾

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبراها ومقدراها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلْ ادعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ شُرَكَاءٍ وَمَا لَهُمْ مِّنْ ظَهِيرَةٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عَنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَاهُ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٣] الآية، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذًا لِّلنَّاسِ عَصْدًا﴾ قال مالك: أعونا.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَلَمْ يَسْتَجِبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا وَرَءَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَطَمَنُوا إِلَيْهِمْ مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيمة على رؤوس الأشهاد تجريعاً لهم وتوبيناً ﴿نَادُوا شُرَكَائِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي في دار الدنيا ادعوهם اليوم ينتذروكم مما أنتم فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَئْنَاهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ فَرَادِي كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوْلَى مَرَةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَلَقْنَاكُمْ وَرَاءَ ظَهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مِنْكُمْ شَفَاعَةً كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَنْهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُمْ لَقِيدَنَّا لَهُمْ تَقْطُعُ بَيْنَكُمْ وَضُلُلٌ عَنْكُمْ مَا كَتَمْتُ مِنْ تَزْعِيمَنَا﴾ [الأعراف: ٩٤] قوله: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِبُوا لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقَيلَ ادعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَلَمْ يَسْتَجِبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤] الآية، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ يَدِنِي مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ [الأحقاف: ٦ - ٥] الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَهْلَهُ لِيَكُونُوا لَهُمْ عَزًّا كَلَّا سِيَّكُفِرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾ [مرim: ٨١ - ٨٢] قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد: مهلاكاً، وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر البكائي حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو وادعيم فرق به يوم القيمة بين أهل الهدى وأهل الضلاله. وقال قتادة: موبيقاً وادياً في جهنم.

وقال ابن جرير^(١): حدثني محمد بن سنان القزار، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم، سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال: واد في جهنم من قبح ودم، وقال الحسن البصري: موبيقاً عداوة، والظاهر من السياق هنا أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، والممعن أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى الْهَتَّمِ الْتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهو عظيم وأمر كبير. وأما إن جعل الضمير في قوله بينهم عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن

عمرٌ و إن يفرق بين أهل الهدى والضلال به، فهو كقوله تعالى: «و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون» [الروم: ١٤] وقال «يومئذ يصدعون» [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: «و امتازوا اليوم أيها المجرمون» [يس: ٥٩]، وقال تعالى: «و يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم و شركاؤكم فزياناً بينهم» - إلى قوله - «و ضل عنهم ما كانوا يفترون» [يونس: ٢٨] . [٣٠]

وقوله: «و رأى المجرمون النار فظنوا أنهم موعدها ولهم يجروا عنها مصرفاً» أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك «فإذا رأى المجرمون النار» تحققا لا محالة أنهم مواقعواها، ليكون ذلك من باب تعجيل لهم والحزن لهم، فإن توقيع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز. قوله: «ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها.

قال ابن جرير^(١): حدثني يونس أخينا ابن وهب أخبرني عمرٌ بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الكافر ليり جهنم فيظن أنها مواتعه من مسيرة أربعين سنة». وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم ي عمل في الدنيا، وإن الكافر ليり جهنم ويظن أنها مواتعه من مسيرة أربعين سنة».

وَلَقَدْ صَرَّفَنَا فِي هَذَا الْقُرْآنَ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَذَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ وَجَدَ لَهُ

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحت لهم الأمور وفصلناها كيلا يصلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخالفة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله بصره لطريق النجاۃ.

قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا أبو اليام، أخينا شعيب عن الزهري، أخبرني علي بن الحسين أن حسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذله ويقول: «و كان الإنسان أكثر شيء جدلاً»^(٤) آخر جاه في الصالحين.

(١) تفسير الطبرى ٢٤١/٨.

(٢) المسند ٧٥/٣.

(٣) المسند ١١٢/١.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٨، باب ١، والاعتراض باب ١٨، والتهجد باب ٥، والتوحيد باب =

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبِّهِمْ إِلَّا أَن قَاتَلُوهُمْ سُنَّةُ الْأُولَئِنَّ أَوْ يَأْتِيهِمُ
الْعَذَابُ قَبْلًا ۝ وَمَا نَرْسَلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُتَّصِّلِينَ وَمُنْذَرِينَ وَمُجَنَّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيَدْحِضُوا
يَهُوَ الْحَقُّ وَلَخَذَلُوا آيَاتِنِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوا ۝

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتکذيبهم بالحق بين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلائل الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لربهم: «فأسقط علينا كسفما من السماء إن كنت من الصادقين» [الشعراء: ١٨٧] وأخرون قالوا «إتنا بعداب الله إن كنت من الصادقين» [العنكبوت: ٢٩] وقالت قريش «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو إتنا بعداب أليم» [الأنفال: ٣٢] «وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين» [الحجر: ٦ - ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال «إلا أن تأتهم سنة الأولين» من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، «أو يأتיהם العذاب قبلًا» أي يرونها عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين» أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم وأمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم «يجادلون بالباطل ليذبحوا به الحق» أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، «ولخذلوا آياتي وما أنذروها هزوا» أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب «هزوا» أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التکذيب.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذِكْرَ يَأْتِيَتْ رِبِّهِ فَأَغْرِضَ عَهَا وَبَسَّىٰ مَا قَدَّسَتْ يَدَاهُ إِنْ جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَدْكِنَةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي مَا ذَرْنَاهُمْ وَفَرَّا وَإِنْ تَسْعَهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَنَّى يَهْتَدُونَ إِذَا أَبْدَأُوكُمْ وَرِبِّكَ الْعَفْوُرُ دُوْلُ الْوَحْمَةَ نَوْ
يُؤْخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعْنَهُمْ كُنُمْ الْعَذَابُ كُلُّ أَنْهَمْ مُوْسَىٰ لَمَنْ يَحْدُثُ مِنْ دُوْتِهِ مَوْبِلًا ۝ وَتَلَكَ
الْمُرْسَلُوكَ أَخْلَكَهُمْ سَاضِعُوكَ وَجَعَلْنَا لِيَهْدِكُمْ مَوْعِدًا ۝

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم من ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي تناسها وأعرض عنها ولم يصح لها ولا ألقى إليها بالاً، «وَنَسِيَ مَا قَدَّسَتْ يَدَاهُ» أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، «إِنَا جَعَلْنَا عَنِّي قُلُوبَهُمْ» أي قلوب هؤلاء «أَكْنَة» أي أغطية وغشاوة «أَنْ يَفْقَهُوهُ» أي لثلا يفهموا هذا القرآن والبيان «وَفِي آذَانِهِمْ وَغَرَّا» أي صممأً معنوياً عن الرشاد «وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبْدَأُوكُمْ».

وقوله: ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿لو يؤخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب﴾ كما قال: ﴿ ولو يؤخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [فاطر: ٤٥] وقال: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ [الرعد: ٦] والآيات في هذا كثيرة شتى، ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ أي ليس لهم عنه محيسن ولا محيد ولا معدل. قوله: ﴿ وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية، أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿ وجعلنا لمهلكتهم موعداً﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص، أي وكذلك أنتم إليها المشركون احذروا أن يصييكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي وندري.

وإذ قالَ مُوسَى لِفَتَنَةٌ لَا أَبْرَحُ حَقَّ أَتَلَعَّبُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبَاً فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَأَخْدَدَ سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرِيَا فَلَمَّا جَاءَهُمَا قَالَ لِفَتَنَةٌ إِنَّا عَدَاءٌ فَلَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً قَالَ أَرَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّرْحَةِ فَإِنِّي سَيِّسُ الْحُوتَ وَمَا أَسَدِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنَّ أَذْكُرُهُ وَأَنْخُذُ سَيْلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَاهُ عَلَى أَثَارِهِمَا قَصَصَا فَوْجَدَاهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا إِنَّا أَيَّتَنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا

سبب قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون، هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك ﴿لا أُبرح﴾ أي لا أزال سائراً ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق: [الطوبل]

فما برحو حتى تهادت نساوهم ببطحاء ذي قار عياب اللطائم^(١)

قال قتادة وغير واحد: مما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. قوله: ﴿ أوْ أَمْضِي حُقْبَاً﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير^(٢) رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب في لغة قيس سنة، ثم روی عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة. قال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿ أوْ أَمْضِي حُقْبَاً﴾ قال: دهراً، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك.

(١) البيت في ديوان الفرزدق ص ٥٤٣ ، وتفسير الطبرى ٢٤٦/٨ ، وتفسير البحر المحيط ٦ / ١٣٥ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٤٦/٨ .

وقوله: «فلما بلغا مجتمع بينهما نسيأ حوتهم» وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت، فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجتمع البحرين، وهناك عين يقال لها عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطراب وكان في مقتل مع يوشع عليه السلام، وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال تعالى: «واتخذ سبيله في البحر سرباً» أي مثل السرب في الأرض. قال ابن جريج: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر. وقال العوفي عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة. وقال محمد بن إسحاق عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه، فقال: «ذلك ما كنا نبغ» وقال قتادة: سرب من البر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك طريقاً فيه إلا صار ماء جاماً.

وقوله: «فلما جاوزا» أي المكان الذي نسيأ الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: «يخرج منها اللؤلؤ والمرجان» [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من المالح على أحد القولين، فلما ذهبوا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة «قال» موسى «لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا» أي الذي جاوزا فيه المكان «نصباً» يعني تعباً «قال أرأيت إذ أويينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» قال قتادة: وقرأ ابن مسعود أن أذكر له، ولهذا قال «واتخذ سبيله» أي طريقه «في البحر عجبًا قال ذلك ما كنا نبغ» أي هذا هو الذي نطلب «فارتدًا» أي رجعاً «على آثارهما» أي طريقهما «قصصاً» أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثراًهما «فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً» وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

قال البخاري^(١): حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام، ليس هو موسى صاحب بنى إسرائىل. قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بنى إسرائىل فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منه. قال موسى: يا رب وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٨، باب ٢.

بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسهما فناما ، واخترق الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جريمة الماء ، فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : « آتنا عذائبنا لئلا تثيّبنا من سُفْرَنَا هَذَا نَصْبًا » ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، قال له فتاه : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيَنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيْتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَاهِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَابًا » قال : فكان الحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال « ذَلِكَ مَا كُنَّا نَعِي فَارْتَدَا عَلَى آثارِهِمَا قَصْصًا » قال : فرجعا يقسان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . فقال : أنا موسى . فقال : موسىبني إسرائيل ؟ قال : نعم قال أتيتك لتعلمك مما علمت رشدا « قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ معي صِبَرًا » يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمك أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمك . فقال موسى « سَتَجْدِنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » قال له الخضر : « فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذَكْرًا » .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمررت سفينه ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبوا في السفينه لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينه بالقدوم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً « قَالَ أَلَمْ أَقْلِ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ معي صِبَرًا قَالَ لَا تَؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيْتَ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا » قال : وقال رسول الله ﷺ وعلى آلـهـ . فكانت الأولى من موسى نسياناً ، قال : وجاء عصفور فوق على حرف السفينه ، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينه وبينما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتله ، فقال له موسى « أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جَئْتَ شَيْئًا نَكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقْلِ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ معي صِبَرًا » قال : وهذه أشد من الأولى ، « قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تَصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدْنِي عَذْرًا فَانطلقا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ أَسْتَطْعِمُهَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يَضْيِفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جَدَارًا يَرِيدُ أَنْ يَنْقُضَهُ أَيِّ مَائِلًا ، فَقَالَ الْخَضْرُ بِيَدِهِ « فَأَقْتَمَهُ » فَقَالَ موسى : قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَطْعَمُوْنَا وَلَمْ يَضْيِفُوْنَا « لَوْ شَئْتَ لَاتَّخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فَرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صِبَرًا » فقال رسول الله ﷺ : « وَدَدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقْصُ اللَّهَ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا » .

قال سعيد بن جبیر: كان ابن عباس يقرأ ﴿وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً﴾ و كان يقرأ ﴿وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين﴾.

ثم رواه البخاري^(١) عن قتيبة عن سفيان بن عيينة فذكر نحوه، وفيه: فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزل عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث عن عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين، فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه ﴿أنت عذاء﴾ قال: وساق الحديث، ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه.

وقال البخاري^(٢) أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبیر، يزيد أحدهما على صاحبه، وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبیر قال: إنما عند ابن عباس في بيته، إذ قال سلواني، فقلت: أي أبا عباس جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاص يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسي بنى إسرائيل، أما عمرو فقال لي قال: كذب عدو الله وأما يعلى فقال لي قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «موسى رسول الله ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولئن، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أعلم منك؟ قال: لا، فتعجب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلـ، قال أي رب، وأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أي رب أجعل لي علماً أعلم ذلك به. قال لي عمرو: قال حيث يفارقك الحوت، وقال لي يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفع فيه الروح، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً، فذلك قوله: ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ يوشع بن نون ليست عند سعيد بن جبیر.

قال: في بينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ يضرب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه لا أوقفه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، ويضرب الحوت حتى دخل في البحر فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كان أثره في حجر، قال: فقال لي عمرو: هكذا كان أثره في حجر، وحلق بين إبراهيم واللتين تليهما، قال: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ قال: وقد قطع الله عنك النصب، ليست هذه عند سعيد بن جبیر، أخبره فرجعا فوجدا خضراً قال: قال عثمان بن أبي سليمان: على طنفسه خضراء على كبد البحر، قال سعيد بن جبیر: مسجى بثوب قد جعل

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٨ ، باب ٣.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٨ ، باب ٢.

طرفه تحت رجليه وطرفه عند رأسه، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضي من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال: جئتكم لتعلمني مما علمت رشداً.

قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك يا موسى، إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركب في السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر، عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح، قال: فقلنا لسعيد بن جبير خضر، قال: نعم لا نحمله بأجر، فخرقها ووتدى فيها وتداً، قال موسى «آخر قتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً» قال مجاهد: منكراً، «قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً» كانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً، «قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتلاه».

قال يعلى: قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجهه ثم ذبحه بالسكين، فقال أقتلت نفساً زكية لم تعمل الحنث؟ وابن عباس قرأها زكية مسلمة كقولك غلاماً زكياً، فانطلقا فوجدا جداراً يريد أن يتقضى فأقامه، قال سعيد: بيده هكذا ودفع بيده فاستقام، قال: لو شئت لاتخذت عليه أجرأ، قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده واستقام، قال: لو شئت لاتخذت عليه أجرأ، قال سعيد: أجرأ نأكله، وكان وراءهم ملك، وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: أمامهم ملك يزعمون، عن غير سعيد، أنه هدد بن بدد، والغلام المقتول اسمه يزعمون جيسور ملك يأخذ كل سفينة غصباً، فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعيها، فإذا جاؤوها أصلحوها فانتفعوا بها، منهم من يقول سدواها بقاربورة، ومنهم من يقول بالقارب، كان أبواه مؤمنين، وكان هو كافراً، فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً أن يحملهما جبه على أن يتبعاه على دينه، فأردنا أن يبدلها ربها خيراً منه زكاة، كقوله: «أقتلت نفساً زكية»، وقوله: «وأقرب رحمة» مما به أرحم منها بالأول الذي قتل خضر، وزعم غير سعيد بن جبير أنها أبدلاً جارية، وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب موسى عليه السلام بنى إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني، فأمر أن يلقى هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان، والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتبة عن سعيد بن جبير قال: جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا العباس إن نوفاً ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العالم إنما هو موسى بن ميشا، قال سعيد: فقال ابن عباس: أنوف يقول هذا يا سعيد؟ فقلت له: نعم أنا سمعت نوفاً يقول ذلك، قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: نعم،

قال: كذب نوف.

ثم قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أن موسى بنى إسرائيل سأله رب، فقال: أي رب إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلني عليه، فقال له: نعم في عبادي من هو أعلم منك، ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح، قد قيل له: إذا حبي هذا الحوت في مكان، فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جده السير وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، وذلك الماء ماء الحياة، من شرب منه خلد ولا يقاربها شيء ميت إلا حبي، فلما نزلا ومن الحوت الماء حبي، فاتخذ سبيله في البحر سريا، فانطلقا فلما جاوزا النقلة قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، قال الفتى ذكر: أرأيت إذا أويينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن ذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا، قال ابن عباس فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهى إليها، فإذا رجل متلف في كساء له، فسلم موسى عليه فرد عليه السلام، ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك في قومك لشغل؟ قال له موسى: جئت لتعلمني مما علمت رشدًا. قال: إنك لن تستطيع معي صبرا، وكان رجلًا يعلم علم الغيب، قد علم ذلك، فقال موسى: بلى.

قال: **﴿وَكِيفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحْطِطْ بِهِ خَبْرًا﴾** أي إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم **﴿فَالْسَّتِيجَدِنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾** وإن رأيت ما يخالفني، قال: **﴿فَإِنْ اتَّبَعْنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾** وإن أنكرته **﴿هَتَّىٰ أَحَدَثُ لَكَ مِنْهُ ذَكْرًا﴾** فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس يلتمسان من يحملهما، حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بها من السفن شيء أحسن، ولا أجمل ولا أوثق منها، فسأل أهلها أن يحملوهما فحملوهما، فلما أطманا فيها ولجت بهما مع أهلها، أخرج منقارا له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها، ثم أخذ لوحًا فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرتعها، فقال له موسى ورأى أمراً أفظع به **﴿أَخْرَقْتَهَا لِتَغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جَئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾** قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت **﴿أَيْ بِمَا تَرَكْتَ مِنْ عَهْدِكَ﴾** **﴿وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾**.

ثم خرجا من السفينة، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية، فإذا غلامان يلعبون خلفها، فيهم غلام ليس في الغلامان أظرف منه، ولا أثري ولا أوضا منه فأخذه بيده وأخذ حجرًا فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيعاً لا صبر عليه، صبي صغير قتله لا ذنب له، قال: **﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾** أي صغيرة **﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جَئْتَ شَيْئًا نَكَرًا﴾** قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا قال إن سألك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا **﴿أَيْ قَدْ أَعْذَرْتَ فِي شَأْنِي﴾** **﴿فَانطلقا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ أَسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يَضْيَفُوهُمَا فَوْجَدَا**

فيها جداراً يربد أن ينقض» فهدمه ثم قعد يبنيه، فصجر موسى مما يراه يصنع من التكليف وما ليس له عليه صبر فأقامه، قال: «لو شئت لاتخذت عليه أجراً» أي قد استطعناهم فلم يطعمنا وضفناهم فلم يضيغونا، ثم قعدت تعمل من غير صنيعة، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً في عمله.

قال: «هذا فراق بيني وبينك سأبيك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أغيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً» وفي قراءة أبي بن كعب «كل سفينة صالحة» وإنما عبتها لأرده عنها، فسلمت منه حين رأى العيب الذي صنعت بها، «وأما الغلام فكان أبواه مؤمن فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحمة». «وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالح فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري» أي ما فعلته عن نفسي «ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً» [الكهف: ٨٢] فكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علمًا.

وقال العوفي عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله أن ذكرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمـة، وذكرهم إذ نجاهـم الله من آل فرعـون، وذـكرـهم هـلاـكـ عـدوـهـمـ وـماـ اـسـتـخـلـفـهـمـ اللهـ فـيـ الـأـرـضـ، وـقـالـ: كـلـمـ اللهـ نـيـكـمـ تـكـلـيـمـاـ وـاصـطـفـانـيـ لـنـفـسـهـ، وـأـنـزـلـ عـلـيـ مـحـبةـ مـنـهـ، وـأـتـاـكـمـ اللهـ مـنـ كـلـ مـاـ سـأـلـمـوـهـ، فـنـبـيـكـمـ أـفـضـلـ أـهـلـ الـأـرـضـ وـأـنـتـمـ تـقـرـؤـونـ التـوـرـاـةـ، فـلـمـ يـتـرـكـ نـعـمـةـ أـنـعـمـ اللهـ عـلـيـهـ إـلـاـ وـعـرـفـهـ إـيـاهـ، فـقـالـ لـهـ رـجـلـ مـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ: هـمـ كـذـلـكـ يـاـ نـبـيـ اللهـ قـدـ عـرـفـنـاـ الـذـيـ تـقـولـ: فـهـلـ عـلـىـ الـأـرـضـ أـحـدـ أـعـلـمـ مـنـكـ يـاـ نـبـيـ اللهـ؟ قـالـ: لـاـ. بـعـثـ اللهـ جـبـرـائـيلـ إـلـيـ مـوـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـقـالـ: إـنـ اللهـ يـقـولـ: وـمـاـ يـدـرـيـكـ أـيـنـ أـضـعـ عـلـمـيـ، بـلـ إـنـ لـيـ عـلـىـ شـطـ الـبـحـرـ رـجـلـاـ هـوـ أـعـلـمـ مـنـكـ.

قال ابن عباس: هو الخضر، فسأل موسى ربه أن يريه إيه، فأوحى إليه أن ائت البحر، فإنك تجد على سط البحر حوتاً، فخذنه فادفعه إلى فناك ثم الزم شاطئ البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب. فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه سأـلـ فـتـاهـ عـنـ الـحـوـتـ، فـقـالـ لـهـ فـتـاهـ وـهـوـ غـلـامـهـ «أـرـأـيـتـ إـذـ أـوـيـنـاـ إـلـىـ الصـخـرـةـ فـإـنـيـ نـسـيـتـ الـحـوـتـ وـمـاـ أـنـسـيـهـ إـلـاـ الشـيـطـانـ أـنـ ذـكـرـهـ» لـكـ، قـالـ الفتـيـ: لـقـدـ رـأـيـتـ الـحـوـتـ حـينـ اـتـخـذـ سـبـيـلـهـ فـيـ الـبـحـرـ سـرـبـاـ فـأـعـجـبـ مـنـ ذـلـكـ، فـرـجـعـ مـوـسـىـ حـتـىـ أـتـىـ الصـخـرـةـ، فـوـجـدـ الـحـوـتـ، فـجـعـلـ الـحـوـتـ يـضـرـبـ فـيـ الـبـحـرـ وـيـتـبعـ مـوـسـىـ، وـجـعـلـ مـوـسـىـ يـقـدـمـ عـصـاهـ يـفـرـجـ بـهـ عـنـهـ المـاءـ يـتـبعـ الـحـوـتـ، وـجـعـلـ الـحـوـتـ لـاـ يـمـسـ شـيـئـاـ مـنـ الـبـحـرـ إـلـاـ يـبـسـ عـنـهـ المـاءـ حـتـىـ يـكـوـنـ صـخـرـةـ، فـجـعـلـ نـبـيـ اللهـ يـعـجـبـ مـنـ ذـلـكـ حـتـىـ اـنـتـهـيـ بـهـ الـحـوـتـ إـلـىـ جـزـيـرـةـ مـنـ جـزـائـرـ الـبـحـرـ فـلـقـيـ الـخـضـرـ بـهـ،

فسلم عليه فقال الخضر: وعليك السلام، وأنني يكون السلام بهذه الأرض، ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال الخضر: صاحببني إسرائيل؟ قال: نعم، فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال جئتكم **«على أن تعلمن مما علمت رشدًا قال إنك لن تستطيع معي صبراً»** يقول: لا تطبق ذلك، قال: **«ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرًا»** قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألني عن شيء أصنعه حتى أبين شأنه، فذلك قوله: **«حتى أحدث لك منه ذكرًا»**.

وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى في صاحب موسى فقال ابن عباس: هو الخضر، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبى هذا في صاحب موسى الذي سأله السبيل إلى لقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول **«بينا موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى، بلى عبادنا خضر، فسأل موسى السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، قال موسى **«ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً»** فوجدا عبادنا خضرًا، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه.**

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِي صَبَرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَوْ تُحْطِطْ بِهِ حَبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنَّ أَتَعْتَنِي فَلَا تَسْكُلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذَكْرًا ۝

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر **«قال له موسى هل أتبعك؟** سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. قوله: **«أتبعك»** أي أصحبك وأراففك **«على أن تعلمن مما علمت رشدًا»** أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها **«قال»** الخضر لموسى **«إنك لن تستطيع معي صبراً»** أي إنك لا تقدر على مصاحبي لاما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمته الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي.

«وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحْطِطْ بِهِ خَبْرًا ۝ فَإِنَا أَعْرَفُ أَنَّكَ سَتَنْكِرُ عَلَىٰ مَا أَنْتَ مَعْذُورٌ فِيهِ ۝ وَلَكِنَّ مَا اطْلَعْتُ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي اطْلَعْتُ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ ۝ قَالَ أَيُّ مُوسَى سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ۝ أَيُّ عَلَىٰ مَا أَرَىٰ مِنْ أَمْرُكَ ۝ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ أَيُّ

ولا أحوالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام «قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء» أي ابتداء «حتى أحدث لك منه ذكرًا» أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابن جرير^(١): حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب عن هارون بن عترة عن أبيه، عن ابن عباس قال: سأله موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال: أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردي، قال: أي رب هل في أرضك أحد أعلم مني؟ قال: نعم قال: فمن هو؟ قال: الخضر. قال: وأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت منها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبها حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أحب أن أصحبك، قال: إنك لن تطبق صحيبي قال: بلى. قال: فإن صحيبي «فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا» قال: فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه، قال: وبعث الله الخطاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزاً. قال: يا موسى، فإن علمي وعلموك في علم الله كقدر ما استقي هذا الخطاف من هذا الماء، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به، فمن ثم أمر أن يأتي الخضر، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقُهَا قَالَ أَخْرَقَهَا أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا [٢] قَالَ اللَّهُ أَكْلَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِي صَبَرًا [٣] قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَيَّثْتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا [٤]

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبوا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنتك حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبَا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني بغير أجرة، تكمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولجمت، أي دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه «آخرقها لتفرق أهلها» وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر: [الوافر]

لَدَوَاللَّمْ—وَتِ وَابْنِ—وَاللَّخَ—رَابِ [٢]

(١) تفسير الطبرى ٢٥١/٨.

(٢) عجزه:

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرَأ﴾ قال مجاهد: منكراً. وقال قنادة: عجباً، فعندما قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿أَلَمْ أَقْلِ إِنْكَ لَنْ تُسْتَطِعِ مَعِي صَبْرًا﴾ يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها، لأنك لم تحظ بها خبراً ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت ﴿فَال﴾ أي موسى ﴿لَا تؤاخذنِي بِمَا نَسِيْتَ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

فَانْطَلَقاَ حَتَّىْ إِذَا لَقِيَا غُلَمًا فَقَتَلُوهُ قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا رَكِيْةً بِعَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرَا ﴿فَالَّمْ أَنْ أَقْلِ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تُسْتَطِعِ مَعِي صَبْرًا﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْبِحْنِي فَدَّ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِي عُذْرًا ﴿بِكَوْنِكَ إِنَّكَ لَنْ تُسْتَطِعِ مَعِي صَبْرًا﴾

يقول تعالى: ﴿فَانْطَلَقاَ﴾ أي بعد ذلك ﴿حَتَّىْ إِذَا لَقِيَا غُلَمًا فَقَتَلُوهُ﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأضواهم فقتله، وروي أنه احتز رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفي رواية اقتله بيده، والله أعلم، فلما شاهد موسى عليه السلام هذا، أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي صغيرة لم تعمل الحثث ولا عملت إثماً بعد فقتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرَا﴾ أي ظاهر التكارة ﴿فَالَّمْ أَنْ أَقْلِ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تُسْتَطِعِ مَعِي صَبْرًا﴾ فأكمل أيضاً في التذكرة بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِي عُذْرًا﴾ أي أعذرتك إلي مرة بعد مررة.

قال ابن جرير^(١): حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا حجاج بن محمد عن حمزة الزريات عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأنصر العجب، ولكنه قال: إن سألك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً».

فَانْطَلَقاَ حَتَّىْ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةً أَسْتَطَعُمَا أَهْلَهَا فَأَبْتَوْا أَنْ يُضَيْقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جَدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقْبَمَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَنْخَذَتْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿فَالَّمْ هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأْنِيشَكَ بِنَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعَ

فَكَلَكَمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابِ

والبيت لأبي العناية في ديوانه ص ٣٣، وللإمام علي بن أبي طالب في خزانة الأدب ٥٢٩/٩، ٥٣١، والدرر ١٦٧/٤، ويلا نسبة في أوضح المسالك ٣/٣٣، والجني الداني ص ٩٨.

(١) تفسير الطبرى ٨/٢٦١.

عَلَيْهِ صَبَرًا

يقول تعالى مخبراً عنهما إنهم انطلقوا بعد المرتدين الأوليين «حتى إذا أتيا أهل قرية» روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الأيلة، وفي الحديث «حتى إذا أتيا أهل قرية لناماً»^(١) أي بخلاء استطعماً أهلها فأبوا أن يضيقوهـما فوجداً فيها جداراً يريد أن ينقضـهـ إسناد الإرادة هـنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثـات بمعنى الميل، والانقضاض هو السقوط. قوله: «فأقامـهـ» أي فردهـ إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه ردهـ بيديه ودعـهـ حتى ردـ مـيلـهـ، وهذا خارقـ، فعند ذلك قال موسـى لـهـ «لو شـئت لـاتـخذـت عـلـيـهـ أـجـراـ» أي لأـجلـ أـنـهـ لمـ يـضـيفـونـاـ، كـانـ يـنـبغـيـ أـنـ لاـ تـعـمـلـ لـهـمـ مـجـانـاـ» قالـ هـذا فـرـاقـ بـيـنـيـ وـبـيـكـ أي لأنـكـ شـرـطـتـ عندـ قـتـلـ الغـلامـ أـنـكـ إـنـ سـأـلـتـنـيـ عـنـ شـيـءـ بـعـدـهـ، فـلاـ تصـاحـبـنـيـ فـهـوـ فـرـاقـ بـيـنـيـ وـبـيـكـ «سـأـبـئـكـ بـتـأـوـيلـ» أي بـتـفـسـيرـ «مـاـ لـمـ تـسـطـعـ عـلـيـهـ صـبـراـ».

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعْيَبَهَا وَدَانَ وَرَأَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ عَصْبَانًا

هـذا تـفسـيرـ ماـ أـشـكـلـ أـمـرـهـ عـلـيـهـ مـوسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ، وـمـاـ كـانـ أـنـكـ ظـاهـرـهـ، وـقـدـ أـظـهـرـ اللهـ الخـضـرـ عـلـيـهـ السـلـامـ عـلـىـ حـكـمـةـ باـطـنـةـ، فـقـالـ: إـنـ السـفـينـةـ إـنـماـ خـرـقـهـاـ لـأـعـيـبـهـاـ لـأـنـهـمـ كـانـواـ يـمـرـونـ بـهـاـ عـلـىـ مـلـكـ مـنـ الـظـلـمـةـ «يـأـخـذـ كـلـ سـفـينـةـ» صـالـحةـ أـيـ جـيـدةـ «عـصـبـانـاـ» فـأـرـدـتـ أـنـ أـعـيـبـهـاـ لـأـرـدـهـ عـنـهـاـ لـعـيـبـهـاـ، فـيـتـفـعـ بـهـاـ أـصـحـابـهـاـ الـمـساـكـينـ الـذـيـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـمـ شـيـءـ يـنـتـفـعـونـ بـهـ غـيرـهـاـ، وـقـدـ قـيـلـ إـنـهـمـ أـيـتـامـ، وـرـوـيـ اـبـنـ جـرـيـعـ عـنـ وـهـبـ بـنـ سـلـيـمـانـ، عـنـ شـعـيبـ الـجـبـائـيـ أـنـ شـعـيبـ الـمـلـكـ هـدـدـ بـنـ بـدـدـ^(٢)، وـقـدـ تـقـدـمـ أـيـضاـ فـيـ روـاـيـةـ الـبـخـارـيـ، وـهـوـ مـذـكـورـ فـيـ التـوـرـةـ فـيـ ذـرـيـةـ الـعـيـصـ بـنـ إـسـحـاقـ وـهـوـ مـنـ الـمـلـوـكـ الـمـنـصـوصـ عـلـيـهـمـ فـيـ التـوـرـةـ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

وَأَمَّا الْغَلَمُ فَكَانَ أَبُواهُ مُؤْمِنَيْنَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغِيَّنَا وَكُفَرَاً فَأَرَدَنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا حَتَّى مِنْهُ زِكْرٌ وَأَقْرَبَ رُمْماً

قد تـقـدـمـ أـنـ هـذـاـ الغـلامـ كـانـ اـسـمـهـ جـيـسـورـ. وـفـيـ هـذـاـ الحـدـيـثـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ عـنـ أـبـيـ بـنـ كـعبـ، عـنـ النـبـيـ ﷺ قـالـ: «الـغـلامـ الـذـيـ قـتـلـهـ الـخـضـرـ قـتـلـهـ طـبـعـ يـوـمـ طـبـعـ كـافـرـاـ» رـوـاـيـةـ اـبـنـ جـرـيـرـ مـنـ حـدـيـثـ اـبـنـ إـسـحـاقـ عـنـ سـعـيدـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ بـهـ، وـلـهـذـاـ قـالـ: «فـكـانـ أـبـوـاهـ مـؤـمـنـيـنـ فـخـشـيـنـاـ أـنـ يـرـهـقـهـمـاـ طـغـيـانـاـ وـكـفـرـاـ» أـيـ يـحـمـلـهـمـاـ حـبـهـ عـلـىـ مـتـابـعـتـهـ عـلـىـ الـكـفـرـ، قـالـ قـتـادـةـ: قـدـ فـرـحـ بـهـ أـبـوـاهـ حـيـنـ قـتـلـ، وـحـزـنـاـ عـلـيـهـ حـيـنـ قـتـلـ، وـلـوـ بـقـيـ لـكـانـ فـيـهـ هـلاـكـهـمـاـ، فـلـيـرـضـ اـمـرـؤـ بـقـضـاءـ اللـهـ، فـإـنـ

(١) أـخـرـجـهـ أـحـمـدـ فـيـ المسـنـدـ ١١٩ـ/ـ٥ـ.

(٢) اـنـظـرـ تـفـسـيرـ الطـبـرـيـ ٢٦٥ـ/ـ٨ـ.

قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث «لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» وقال تعالى: ﴿وَعُسِيَ أَنْ تَكْرُهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] قوله ﴿فَأَرْدَنَا أَنْ يَبْدِلُهُمَا رَبَّهُمَا خَيْرًا مِنْ زَكَاةٍ وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ أي ولداً أزكي من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج. وقال قتادة: أبٌ بوالديه، وقد تقدم أنهما بدلاً جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم، قاله ابن جريج.

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغَلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَّا صَنَلَ حَاجَاتٍ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمُ عَنْ أَمْرٍ إِذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَنْ تَسْطِعُ عَلَيْهِ

صَبَرَا

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً «حتى إذا أتي أهل قرية» وقال هننا «فكان لغلامين يتيمين في المدينة» كما قال تعالى: «وَكَأَيْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتُكَ» [محمد: ١٣] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَرْيَتِنَا عَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة وقتادة وغير واحد: وكان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علم، وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوى ذلك. قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشير بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله البصري عن عياش بن عباس الغتباني، عن ابن حجرية عن أبي ذر رفعه قال: «إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت، مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب، وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك، وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل، لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وبشر بن المنذر هذا يقال له قاضي المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلي في حديثه وهم، وقد روی في هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير في تفسيره: حدثني يعقوب، حدثنا الحسن بن حبيب ابن ندبة، حدثنا سلمة عن نعيم العنبري وكان من جلساء الحسن قال: سمعت الحسن يعني البصري يقول في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمّن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقبلها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش عن عمر مولى غفرة قال: إن

الكتز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ قال: كان لوحًا من ذهب مصمت، مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن عرف النار ثم ضحك، عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب، عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن،أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثني أحمد بن حازم الغفاري، حدثتنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت سمعت صاحبي حماد بن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ قال سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح. وقد قال الله ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنباء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منها صلاح، وكانت بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً، وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم، وإن صح لا ينافي قول عكرمة أنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وكان أبوهما صالحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهم صلاحاً، وتقدم أنه كان الأب السابق، فالله أعلم. وقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجها كنزهما﴾ هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام ﴿فأردنا أن يبذلها ربها خيراً منه زكاة﴾ وقال في السفينة ﴿فأردت أن أعييها﴾ فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رحمه من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري أي لكنني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا﴾ وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً، نقله الماوردي في تفسيره، وذهب كثirون إلى أنه لم يكننبياً، بل كان ولياً، فالله أعلم.

وذكر ابن قتيبة في المعارف أن اسم الخضر بلياً بن ملكان بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، قالوا: وكان يكى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النwoي في تهذيب الأسماء، وحکى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن، ثم إلى يوم القيمة قولين، وما هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وأثاراً

عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية، وإسناده ضعيف.

ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد» [الأنبياء: ٣٤] ويقول النبي ﷺ يوم بدر «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تبعد في الأرض»^(١) وبأنه لم ينقل أنه جاء رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الشقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسي حين لما وسعهما إلا اتبعني» وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى من هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل.

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك عن عمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من تحته خضراء» ورواه أيضاً عن عبد الرزاق، وقد ثبت أيضاً في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة، فإذا هي تهتز من تحته خضراء»^(٣) والمراد بالفروة هنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الزراق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض. و قوله: «ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً» أي هذا تفسير ما ضفت به ذرعاً، ولم تصر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحة وأزال المشكل قال **«تسطع»** وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال **«سألتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً»**، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: **«فما استطاعوا أن يظهوه»** وهو الصعود إلى أعلىه **«وما استطاعوا له نقباً»** [الكهف: ٩٧] وهو أشق من ذلك، فقابل كلًا بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرخ في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، هذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة: حدثني ابن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن أبيه عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث، وقد كان معه؟ قال ابن

(١) أخرجه مسلم في الجehad حديث ٥٨، والترمذى في تفسير سورة ٨، باب ٣، وأحمد في المسند ١/ ٣٠، ٣٢ . ١١٧

(٢) المسند ٢/ ٣١٢، ٣١٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٢٧ .

عباس فيما يذكر من حديث الفتى، قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به سفيينة، ثم أرسله في البحر فإنها لم تموج به إلى يوم القيمة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب، إسناده ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

وَيَسْتَأْلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذَكْرًا ﴿٤٦﴾ إِنَّمَا كَانَ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ وَآيَاتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
سَبِّيْكَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (ويسألونك) يا محمد (عن ذي القرنيين) أي عن خبره وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونه ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف، وقد أورد ابن جرير^(١) ه هنا والأموي في مغازييه حديثاً أستنه، وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنيين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء، فكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الاسكندرية، وأنه علا به ملك إلى السماء وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجه الكلاب، وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخباربني إسرائيل.

والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره، ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الاسكندر الثاني، وهو ابن فيليبس المقدوني الذي تورخ به الروم، فأما الأول فقد ذكر الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وأمن به واتبعه، وكان وزيره الخضر عليه السلام، وأما الثاني فهو اسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني، وكان وزيره ارسطاطالليس الفيلسوف المشهور. والله أعلم. وهو الذي تورخ من مملكته ملة الروم، وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو ثلاثة عشر سنة، فأما الأول المذكور في القرآن، فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرقي وغيره، وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم عليه السلام، وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحًا من أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية، والله الحمد.

وقال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمي ذا القرني لأن صفتني رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنيين. وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل قال: سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنيين. فقال: كان عبداً ناصحاً لله، فناصحه، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه، فمات، فأحياه الله، فدعى قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمى ذا القرنيين، وكذا

رواه شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيلي سمع علياً يقول ذلك. ويقال: إنه سمي ذا القرنين لأنّه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وقوله: «إنا مكنا له في الأرض» أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود والآلات الحرب والحصارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنّه بلغ قرني الشمس مشرقاً وغرباً. قوله: «وآتيناه من كل شيء سبيباً» قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وغيرهم: يعني علمًا. وقال قتادة أيضاً في قوله «وآتيناه من كل شيء سبيباً» قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: «وآتيناه من كل شيء سبيباً» قال: تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلّهم بلسانهم، وقال ابن لهيعة، حدثني سالم بن غيلان عن سعيد بن أبي هلال أن معاوية بن أبي سفيان قال لكتاب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثيريا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله تعالى قال: «وآتيناه من كل شيء سبيباً» وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه على كتاب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار، فإن معاوية كان يقول عن كعب: إن كنا لنبلو عليه الكذب، يعني فيما ينقوله، لا أنه كان يعتمد نقل ما ليس في صحفه، ولكن الشأن في صحفه أنها من الإسرائيликـات التي غالباً منها مبدل محرف مختلف، ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله ﷺ إلى شيء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض. وتأويل كعب قول الله «وآتيناه من كل شيء سبيباً» واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه من أنه كان يربط خيله بالثيريا غير صحيح ولا مطابق، فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقى في أسباب السموات، وقد قال الله في حق بلقيس «وأوتيت من كل شيء» [النمل: ٢٣] أنه مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين، يسر الله له الأسباب، أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والراسيات والبلاد والأراضي، وكسر الأعداء وكتب ملوك الأرض وإذلال أهل الشرك قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبيباً والله أعلم.

وفي المختار للحافظ الضياء المقدسي من طريق قتيبة عن أبي عوانة عن سمّاك بن حرب عن حبيب بن حمّاز قال: كنت عند علي رضي الله عنه وسألته رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشارق والمغارب؟ فقال سبحان الله سخر له السحاب وقرر له الأسباب وبسط له اليد.

فأَنْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَقْرُبُ فِي عَيْنٍ حَيَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُنَانِيَّاً قُنَانِيَّاً قُنَانِيَّاً قُنَانِيَّاً إِمَّا أَنْ شَعَّدَبَ وَإِمَّا أَنْ تَخَدَّفَ فِيهِمْ حُسْنَانِيَّاً قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَّ فَسَوْفَ تُعَذَّبُهُ ثُمَّ يُرِدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذَّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا

وَأَمَّا مَنْ ظَاهِرًا أَمَّا مَنْ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَقَوْلُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُشَرَّكًا

قال ابن عباس **﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾** يعني بالسبب المترزل، وقال مجاهد **﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾** متزاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وفي رواية عن مجاهد **﴿سَبِيًّا﴾** قال: طريقاً في الأرض وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها، وقال الضحاك **﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾** أي المنازل، وقال سعيد بن جبير في قوله: **﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾** قال: علماء، وهكذا قال عكرمة وعبد بن يعلي والسدي، وقال مطر: معالم وأثار كانت قبل ذلك.

وقوله: **﴿هَنَى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾** أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة، والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاف زنادقهم وكذبهم، قوله: **﴿وَجَدَهَا تَغْرِبُ فِي عَيْنِ حَمَّةٍ﴾** أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارق، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى: **﴿إِنِّي خَالقُ بَشْرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِّإٍ مُسْنَنٍ﴾** [الحجر: ٢٨] أي طين أملس، وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير^(١): حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أنبأنا نافع بن أبي نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول في عين حمئة ثم فسرها ذات حمئة، قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار، فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكنني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار عن سعد بن أوس عن مصدع، عن ابن عباس عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ أقرأه حمئة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وجدتها تغرب في عين حامية، يعني حارة، وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن جرير: والصواب أنها قراءتان مشهورتان وأيهماقرأ فهو مصيب، قلت: ولا منافاة بين معنييهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهي الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام حدثني مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله قال نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: «في

(١) تفسير الطبرى ٢٧٤/٨.

(٢) تفسير الطبرى ٢٧٥/٨.

نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض».

قلت: ورواه الإمام أحمد^(١) عن يزيد بن هارون وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ولعله من كلام عبد الله بن عمرو من زاملته اللتين وجدهما يوم اليرموك والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا محمد يعني ابن بشر حدثنا عمرو بن ميمون أنبأنا ابن حاضر أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف «تغرب في عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية ما نقرؤها إلا حمئة، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها؟ فقال: عبد الله كما قرأتها، قال ابن عباس فقلت لمعاوية في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب فقال له أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب قال ابن حاضر: لو أني عندك أفتلك بكلام تزداد فيه بصيرة في حمئة، قال ابن عباس: وإذا ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه: [الكامل]

بلغ المشارق والمغارب يتغى أسباب أمرِ من حكيمٍ مرشدٍ^(٢)
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وشاطِ حرمد

قال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الشاط؟ قلت: الحماء، قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود، قال: فدعا ابن عباس رجالاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل وقال سعيد بن جبير بينما ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ «وَجَدَهَا تَغْرِبُ فِي عَيْنٍ حَمَّةً» قال: كعب والذي نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرؤها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس فإنما نجدها في التوراة تغرب في مدرة سوداء، وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف قال في تفسير ابن جريج «وَوَجَدَ عَنْهَا قَوْمًا» قال مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب، قوله: «وَوَجَدَ عَنْهَا قَوْمًا» أي أمّة من الأمم ذكرها أنها كانت أمّة عظيمة من بني آدم.

وقوله: «قَلَنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَا أَنْ تَعْذِبَ وَإِمَا أَنْ تَخْذِلَ فِيهِمْ حَسَنَا» معنى هذا أن الله تعالى

(١) المسند ٢٠٧/٢

(٢) البيتان لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٢٦، وفيه «سيدي» بدل «مرشد»، والبيت الأول في لسان العرب (ثأط)، وتاج العروس (ثأط)، والبيت الثاني، في لسان العرب (حرمد)، (ثأط)، ومقاييس اللغة ١٥٤/٧، وتهذيب اللغة ٤١٨/٤، وتاج العروس (أوب)، (حرمد)، (ثأط)، والبيت الثاني لتبّع في تاج العروس (خلب)، ولسان العرب (أوب)، (خلب)، (حرمد)، وكتاب العين ٤/٢٧٠، ٨/٤١٧، وتهذيب اللغة ٥/٣٣٠، ١٤/٥، ١٥/٦٠٧، وبيان نسبة في مقاييس اللغة ١/٣٩٨، وجمهرة اللغة ص ١١٤.

مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل ونبي وإن شاء منْ أوفدى فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله: «أَتَى مِنْ ظُلْمٍ» أي من استمر على كفره وشركه بربه «فَسُوفَ نَعذِّبُهُ» قال قتادة بالقتل وقال السدي كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا وقال وهب بن منبه كان يسلط الظلمة فتدخل أجوافهم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم، وقوله: «ثُمَّ يَرَدُ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكَارًا» أي شديداً بليغاً وجيناً أليماً وفي هذا إثبات المعاد والجزاء. وقوله: «وَأَمَّا مَنْ آمَنَ» أي اتبعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل «وَسَنَتُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا» قال مجاهد معرفة.

ثُمَّ أَبْعَجَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِرَاً كَذَلِكَ
وَقَدْ أَحْكَمْنَا بِمَا لَدَيْهِ حِلْزَاراً

يقول تعالى ثم سلك طريقةً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم أنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الأقاليم المتاخمة لهم، وذكر في أخباربني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى «وَجَدَهَا تَطْلُعَ عَلَى قَوْمٍ» أي أمة «لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِرَاً» أي ليس لهم بناء يكتنفهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، وقال سعيد بن جبير كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك.

قال أبو داود الطياليسي: حدثنا سهل بن أبي الصلت سمعت الحسن وسأل عن قول الله تعالى «لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِرَاً» قال إن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه فإذا غربت خرجوا يتراوغون كما ترغى البهائم قال الحسن هذا حديث سمرة، وقال قتادة ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم. وعن سلمة بن كهيل أنه قال: ليست لهم أكنان إذا طلعت الشمس طلعت عليهم فلا يحدهم أذنان يفرش إحداهما ويلبس الأخرى. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: «وَجَدَهَا تَطْلُعَ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِرَاً» قال هم الزنج.

وقال ابن جرير^(١) في قوله: «وَجَدَهَا تَطْلُعَ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِرَاً» قال، لم يبنوا فيها بناء قط ولم يبن عليهم بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول

(١) في تفسير الطبرى ٢٧٧/٨، قال ابن جرير وليس ابن جرير.

الشمس أو دخلوا البحر وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل. جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها، قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس هنا... فماتوا، قال: فذهبوا هاربين في الأرض وقوله: «كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً» قال مجاهد والسدسي: علماً أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى **﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾** [آل عمران: ٥].

ثُمَّ أَتَيْعَ سَبِيلًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَقْتَهُونَ قَوْلًا **قَالُوا يَنْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوْجَ وَمَأْجُوْجَ مُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ حَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًا** **قَالَ مَا مَكَنَّ فِيهِ رَقِّ خَيْرٌ فَأَعْسِنُوهُ فَوْقَهُ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** **إِنَّ أَثْوَرَ زَبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدْفَيْنِ قَالَ أَنْخُوْهُ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ إِنَّ أَثْوَرَ فَرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا**

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين **«ثُمَّ أَتَيْعَ سَبِيلًا** أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين وهو جبلان متباوحان^(١) بينماهما ثغرة يخرج منها ياجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيشون فيها فساداً ويهلكون الحرج والنسل، ويأجوج ومأجوج وهم سلاله آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين «إن الله تعالى يقول: يا آدم فيقول ليك وسعديك فيقول وما بعث النار فيقول ابعث بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسمعاته وتسعة وتسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحيثما يشيّب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها فقال إن فيكم أمّتين ما كانتا في شيء إلا كثراه يأجوج ومأجوج»^(٢) وقد حكى الترمذ رحمة الله في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء وهذا قول غريب جداً لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل ولا يجوز الاعتماد هنا على ما يحكىء بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتولة والله أعلم.

وفي مسنند الإمام أحمد^(٣) عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك» قال بعض العلماء هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، وقال إنما سمي هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراة، وقد ذكر ابن جرير هنا عن وهب بن منبه أثراً

(١) جبلان متباوحان: أي متقابلان.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٢، باب ١، والرقاق باب ٤٥، والتوحيد باب ٣٢، ومسلم في الإيمان حديث ٣٧٩.

(٣) المستند ٩/٥.

طويلاً عجياً في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له وفيه طول وغرابة ونکارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وأذانهم وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها والله أعلم.

وقوله: «وَجَدَ مِنْ دُرْنَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» أي لاستعجمام كلامهم وبعدهم عن الناس «قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا» قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أجرأ عظيماً يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا لهم من بينهم مالاً يعطونه إيه حتى يجعل بينه وبينهم سداً فقال ذو القرنين بعثة وديانة وصلاح وقصد للخير «مَا مَكَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرًا» أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه كما قال سليمان عليه السلام «أَتَمْدُونَنِ بِمَا أَتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مَا آتَاكُمْ» [التبل: ٣٦] الآية وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وألات البناء «أَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتَوْنِي زِيرَ الْحَادِيدِ» والزير جمع زبرة وهي القطعة منه قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وهي كاللبنة يقال كل لبنة زنة قنطرة بالدمشقي أو تزيد عليه.

«هَنَى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدْنَيْنِ» أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضأً واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال «قَالَ انْفَخْوَا» أي أبجج عليه النار حتى صار كله ناراً «قَالَ آتَوْنِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قَطْرًا» قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي هو النحاس زاد بعضهم المذاب ويستشهد بقوله تعالى: «وَأَسْلَنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ» [سبأ: ١٢] وهذه يشبه بالبرد المحبـر.

قال ابن جرير^(١): حدثنا بشر عن بزيـد حدثـنا سعيد عن قـتـادة قال: ذـكرـ لنا أن رـجـلاً قال يا رسول الله قد رأـيتـ سـدـ يـأـجـوجـ وـمـأـجـوجـ قالـ (اعـتهـ لـيـ) قالـ كالـبرـدـ المـحبـرـ طـرـيـقـةـ سـوـدـاءـ وـطـرـيـقـةـ حـمـرـاءـ قالـ (قدـ رـأـيـتـهـ) هـذـاـ حـدـيـثـ مـرـسـلـ.

وقد بـعـثـ الخليـفةـ الـوـاثـقـ فـيـ دـوـلـتـهـ أـحـدـ أـمـرـائـهـ وـجـهـ مـعـهـ جـيشـاـ سـرـيـةـ لـيـنـظـرـوـاـ إـلـىـ السـدـ وـبـعـاـيـنـهـ وـيـنـعـتـوـهـ لـهـ إـذـاـ رـجـعـوـاـ فـتـوـصـلـوـاـ مـنـ هـنـاكـ إـلـىـ بـلـادـ وـمـنـ مـلـكـ إـلـىـ مـلـكـ حتـىـ وـصـلـوـاـ إـلـيـهـ وـرـأـواـ بـنـاءـ مـنـ الـحـدـيدـ وـمـنـ النـحـاسـ وـذـكـرـوـاـ أـنـهـ رـأـواـ فـيـ بـابـاـ عـظـيـمـاـ وـعـلـيـهـ أـفـالـ عـظـيـمـةـ وـرـأـواـ بـقـيـةـ الـلـبـنـ وـالـعـلـمـ فـيـ بـرـجـ هـنـاكـ، وـأـنـ عـنـدـهـ حـرـسـاـ مـنـ الـمـلـوـكـ الـمـاتـاخـمـةـ لـهـ وـأـنـ عـالـ مـنـيـفـ شـاهـقـ لـاـ يـسـطـعـ وـلـاـ مـاـ حـوـلـهـ مـنـ الـجـبـالـ ثـمـ رـجـعـوـاـ إـلـىـ بـلـادـهـمـ وـكـانـ غـيـبـتـهـمـ أـكـثـرـ مـنـ سـتـينـ وـشـاهـدـوـاـ أـهـوـاـ وـعـجـائـبـ. ثـمـ قـالـ اللهـ تـعـالـىـ.

فَمَا أَسْطَلَّعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا أَسْتَطَلَعُوا لَهُ نَقْبًا^(٢) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا كَاهَ وَعَدَ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَاهَ وَكَانَ

وَعَدْرَى حَقًا ﴿١٨﴾ وَرَكَّا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِنْ يَمُوحُ فِي بَعْضٍ وَفَلَحَ فِي الصُّورِ فَمَعْنَاهُمْ جَمِيعًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن ياجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاماً بما يناسبه فقال **﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهِرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾** وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «إِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لِيَحْفَرُونَ السَّدَ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شَعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ أَرْجَعُوكُمْ فَسْتَحْفِرُونَهُ غَدَّاً فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأْشَدَّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغُتْ مَدْتَهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَعْثِمَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شَعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ أَرْجَعُوكُمْ فَسْتَحْفِرُونَهُ غَدَّاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَيُسْتَثْنِي فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَهِيَّتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفَرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيُنَشِّفُونَ الْمَيَاهَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حَصُونَهُمْ فَيُرْمُونَ بِسَهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهِيَّةُ الدَّمِ فَيَقُولُونَ قَهْرَنَا أَهْلُ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلُ السَّمَاءِ فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَفْعًا فِي رُقَابِهِمْ فَيُقْتَلُهُمْ بِهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيدهِ إِنْ دَوَابُ الْأَرْضِ لَتَسْمَنْ وَتَشَكَّرْ شَكْرًا مِنْ لَحْوِهِمْ وَدَمَائِهِمْ»^(١) .

ورواه أحمد أيضاً عن حسن هو ابن موسى الأشهب عن سفيان عن قتادة به وكذلك رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : حدث أبو رافع وأخرجه الترمذمي من حديث أبي عوانة عن قتادة ثم قال غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه وإسناده جيد قوي ولكن متنه في رفعه نكارة لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقاءه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدة و لكن هذا قد روی عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون غداً نفتحه فإذا فتوهون من الغد وقد عاد كما كان فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون بذلك فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه ويقولون غداً نفتحه ويلهمون أن يقولوا إن شاء الله فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه وهذا متوجه ولعل أبي هريرة تلقاه من كعب فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه فحدث به أبو هريرة فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه والله أعلم .

ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ومن نكارة هذا المرفوع قول الإمام أحمد حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - قال سفيان أربع نسوة - قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِلَّهِ أَعُزُّ»

(١) أخرجه الترمذمي في تفسير سورة ١٨ ، باب ٥ ، وابن ماجه في الفتن باب ٣٣ ، وأحمد في المسند . ٥١٠ / ٢

للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلق قلت يا رسول الله أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : «نعم إذا كثر الخبث»^(١) هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث الزهرى ولكن سقط في صناعة الإسناد منها روایة البخاري ذكر حبیبة وأتبثها مسلم وفيه أشياء عزيزة قليلة نادرة الواقع في صناعة الإسناد منها روایة الزهرى عن عروة وهما تابعيان ومنها اجتماع أربع نسوة في سنته كلهن يروي بعضهم عن بعض ثم كل منهن صحافية ثم ثنتان ربيبات وثنتان زوجتان رضي الله عنهن .

قد رُوي نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا وهيب عن ابن طاوس عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «فتح اليوم من ردم يأجوج و مأجوج مثل هذا» وعقد التسعين^(٢) ، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهيب به، قوله: «قال هذا رحمة من ربِّي» أي لما بناه ذو القرنين «قال هذا رحمة من ربِّي» أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج و مأجوج حائلًا يمنعهم من العيش في الأرض والفساد، «إذا جاء وعد ربِّي» أي إذا اقترب الوعد الحق «جعله دكاً» أي ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دباء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: «فلما تجلَّ ربُّه للجبل جعله دكاً» [الأعراف: ١٤٣]

وقال عكرمة في قوله: «إذا جاء وعد ربِّي جعله دكاً» قال: طريقاً كما كان، «وكان وعد ربِّي حقاً» أي كائناً لا محالة . وقوله: «وتركتنا بعضهم» أي الناس يومئذ، أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيما يوجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال: ذاك حين يخرون على الناس، وهذا كله قبل القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: «حتى إذا فتحت يأجوج و مأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق» [الأنبياء: ٩٦] الآية، وهكذا قال هنا «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال: هذا أول القيامة «ونفح في الصور» على أثر ذلك «فجتمعناهم جمعاً» وقال آخرون: بل المراد بقوله: «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال: إذا ماج الجن والإنس يوم القيمة يختلط الإنس والجن .

روى ابن جرير^(٣) عن محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن هارون بن عترة، عن شيخ من بني فزاره في قوله «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر، فيظنون إلى المشرق فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض، ثم

(١) أخرجه البخاري في الفتن باب ٤، ٢٨، ومسلم في الفتن حديث ١، ٢، ومالك في الكلام حديث ٢٢، وأحمد في المسند ٦/٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٧، ومسلم في الفتن حديث ٣.

(٣) تفسير الطبرى ٨/٢٨٩، ٢٩٠.

يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض، فيقول: ما من محيض، ثم يظعن يميناً وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض فيقول ما من محيض، فيينما هو كذلك إذ عرض له طريق كالشراك فأخذ عليه هو وذريته، فيبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إيليس ألم تكن لك المنزلة عند ربك، ألم تكن في الجنان؟ فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض على فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه، فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة، فيقول: ما هي؟ فيقول يأمرك أن تدخل النار فتتكأ عليه، فيقول: به وبذرتيه بجناحيه، فيقذفهم في النار، فترفر النار زفة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جئن لركبته، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به، ثم رواه من وجه آخر عن يعقوب عن هارون عن عترة، عن أبيه عن ابن عباس «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال: الإنسان والجن يموج بعضهم في بعض.

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصفهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم عن أبي إسحاق عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج وأرجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاثة أمم: تاويل وتابس ومنسك» هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

وروى النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم عن عمرو بن أوس عن أبيه، عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعاً «إن يأجوج وأرجوج لهم نساء يجامعون ما شاءوا، وشجر يلقحون كما شاءوا، ولا يموت رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً».

وقوله: «ونفخ في الصور» والصور كما جاء في الحديث: قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، كما تقدم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة، وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته واستمع متى يؤمر؟» قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»^(١). قوله: «فجمعناهم جمعاً» أي أحضرنا الجميع للحساب «فل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» [الواقعة: ٤٩ - ٥٠] «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» [الكهف: ٤٧].

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكُفَّارِ عَرْضًا [٢٣] الَّذِينَ كَانُوا أَعْيُّنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِعُونَ

(١) أخرجه الترمذى في القيامة باب ٨، وتفسير سورة ٣٩، باب ٧، وأحمد في المسند ١/ ٣٢٦، ٣٢٦/ ١، ٧/ ٣.

سَمِعًا [٢٩] أَفْحَسَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْخُذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِنِ أُولَائِهِ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ تُرْلَأِ [٣٠]

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكافر يوم القيمة أنه يعرض عليهم جهنم، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنkal قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيمة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك»^(١) ثم قال مخبراً عنهم «الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري» أي تغافلوا وتعاملا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال: «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيس له شيطاناً فهو له قريباً» [الزخرف: ٣٦] وقال ههنا: «وكانوا لا يستطعون سمعاً» أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: «أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء» أي اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك ويتتفعون به «كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً» ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيمة متولاً.

قُلْ هَلْ نَنْهَاكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلَ [٣١] الَّذِينَ صَلَّى سَعِيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [٣٢] أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا يَأْتِيَنَّ رَبِّهِمْ وَلِقَابِهِ فَحُكِّمَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقْبَلُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَرُزْقًا [٣٣] ذَلِكَ جَرَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَأَتَخْذَلُوا إِنَّمَا يَرْسُلُهُ رُوْسُلِيْهُرُوا [٣٤]

قال البخاري^(٢): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عمرو بن مصعب قال: سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله: «قُلْ هَلْ نَنْهَاكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلَ» أهم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكثروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية^(٣)، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيبة فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطيء وعمله مردود، كما قال تعالى: «وَجُوهٌ يُوْمَنْدَ خَاطِشَةٌ عَالْمَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةٌ» [الغاشية: ٤ - ٥] وقال تعالى: «وَقَدْمَنَا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَباءً مُتَشَوِّرًا» [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ

(١) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢٩، والترمذى في جهنم باب ١.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٨، باب ٥.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٢٩٤/٨.

كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» [النور: ٣٩] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: «قل هل ننب لكم» أي نخبركم «بالأخرين أعمالاً» ثم فسرهم، فقال «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا» أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً» أي يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محظوظون.

وقوله «أولئك الذين كفروا بآيات الله في الدنيا وبراهينه» أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسالته، وكذبوا بالدار الآخرة «فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً» أي لا ننقل موازينهم لأنها خالية عن الخير. قال البخاري^(١): حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة، حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيمة لا يزن عند الله جناح بعوضة - وقال - اقرؤوا إن شئتم «فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً»». وعن يحيى بن بكيه عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد مثله، هكذا ذكره عن يحيى بن بكيه معلقاً، وقد رواه مسلم^(٢) عن أبي بكر محمد بن إسحاق عن يحيى بن بكيه به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم، فيوزن بحجة فلا يزنها» قال وقرأ «فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً» وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي الصلت عن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأم عن أبي هريرة مرفوعاً، فذكره بلفظ البخاري سواء.

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عمارة، حدثنا هشيم بن حسان عن واصل عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له، فلما قام على النبي ﷺ قال: «يا بريدة هذا من لا يقيم الله له يوم القيمة وزناً» ثم قال: تفرد به واصل مولى أبي عنبرة، وعون بن عمارة وليس بالحافظ ولم يتتابع عليه.

وقد قال ابن جرير^(٣): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن الأعمش عن شمر عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيمة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا «فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً». قوله: «ذلك جراؤهم جهنم بما كفروا» أي إنما جازيتهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً،

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٨ ، باب ٦ .

(٢) كتاب صفات المنافقين، حديث ١٨ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٩٥/٨ .

استهزءوا بهم وكذبوا هم أشد التكذيب.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفَرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَعْنُونَ عَنْهَا حَوْلًا ۝

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: الفردوس هو البستان بالرومية. وقال كعب والسدوي والضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب، وقال أبو أمامة: الفردوس سرة الجنة، وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وقد روي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ «الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأحسنها». وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن سمرة مرفوعاً وروي عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه روى ذلك كله ابن جرير رحمه الله، وفي الصحيحين «إذا سألتם الله الجنة، فسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»^(١). وقوله تعالى: «نُزُلًا» أي ضيافة، فإن النزل الضيافة. و قوله «خالدين فيها» أي مقيمين ساكنين فيها لا يطعنون عنها أبداً «لا يبغون عنها حولاً» أي لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر: [الطوبل]

فحلت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ولا عن جبها أتحوّل^(٢)

وفي قوله: «لا يبغون عنها حولاً» تنبية على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوجه فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسامه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا طعنًا ولا رحلة ولا بدلاً.

قُلْ لَّئِنْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا ۝

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك « ولو جئنا بمثله» أي بمثل البحر آخر، ثم آخر وهلم جراً بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: «لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أحمر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٢.

(٢) يروى البيت:

وحلّت سواد القلب لا أنا باغياً سواها ولا عن جبها متراخيأ

والبيت للنابغة الجعدي في ديوانه ص ١٧١ ، والأشباء والنظائر ٨/١١٠ ، وتخليص الشواهد ص ٢٩٤ ، والجني الداني ص ٢٩٣ ، وخزانة الأدب ٣٣٧/٣ ، والدرر ١١٤/٢ ، وشرح الأشموني ١٢٥/١ ، وشرح التصريح ١٩٩/١ ، وشرح شواهد المعني ٦١٣/٢ ، ومغني اللبيب ٣٤/١ ، والمقاصد النحوية ١٤١/٢ ، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٢٤٧ ، وشرح ابن عقيل ص ١٥٩ ، وهم الهوامع ١٢٥/١ .

حَكِيمٌ [لقمان: ٢٧] وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كفطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِّكَلْمَاتِ رَبِّيْ لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلْمَاتُ رَبِّيْ﴾ يقول لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ الكلمات، وفي ماء البحر، وبقيت الكلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يبني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يبني نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وأخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها .

قُلْ إِنَّمَاً بَشَرٌ مُّثَلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيْ أَنَّمَاٰ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَنِجَادُهُ فَنَّ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّيهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشَرِّكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّيهِ أَحَدًا

روى الطبراني من طريق هشام بن عمار عن إسماعيل بن عياش ، عن عمرو بن قيس الكوفي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان قال : هذه آخر آية أنزلت ، يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُّثَلُكُمْ﴾ [فصلت : ٦] فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي بما سألتكم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، ولو لا ما أطلعني الله عليه ، وإنما أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّيهِ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلَيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ أي ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشَرِّكْ بِعِبَادَةِ رَبِّيهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذا ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث عمر عن عبد الكريم الجزري عن طاووس قال : قال رجل يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطنني فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّيهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشَرِّكْ بِعِبَادَةِ رَبِّيهِ أَحَدًا﴾ وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد . وقال الأعمش : حدثنا حمزة أبو عمارة مولىبني هاشم عن شهر بن حوشب قال : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال : أبنتي عما أسألك عنه . أرأيت رجلاً يصلي بيتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويصوم بيتغي وجه الله ويحب أن يحمد ، ويتصدق ويبيغي وجه الله ويحب أن يحمد ، ويحيج بيغي وجه الله ويحب أن يحمد ، فقال عبادة : ليس له شيء ، إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معنى شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه .

وقال الإمام أحمد^(١) : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا كثير بن زيد عن ربيح بن

عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه، عن جده قال: كنا نتawaib رسول الله ﷺ، فنبتئت عنده تكون له حاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا، فكثر المحتسبون وأهل التوب، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى؟» قال: فقلنا: تبنا إلى الله أى نبي الله، إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا منه فقال ألا أخبركم بما هو أخوكم عليكم من المسيح عندى قال قلنا بلى، فقال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل».

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو النصر، حدثنا عبد الحميد يعني ابن بهرام قال: قال شهر ابن حوشب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجاوية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت فأخذ يميني بشماله، وشمال أبي الدرداء بيمنيه، فخرج يمشي بيننا ونحن نتاجي، والله أعلم بما نتاجي به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكم عمر أحدكم أو كل يكما لتوشك أن تريا الرجل من ثج العاملين، يعني من وسط قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ، فأعاده وأبدأه وأحل حلاله وحرمه ونزعه عند منازله لا يحور فيكم إلا كما يحور رأس الحمار الميت.

قال: في بينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضي الله عنه وعوف بن مالك فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخواف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من الشهوة الخفية والشرك» فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء: اللهم غفراً ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب. أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرأيتم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق له، أترون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم والله إن من صلّى لرجل أو صام أو تصدق له لقد أشرك، فقال شداد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صلّى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك فقال عوف بن مالك عند ذلك: أفلًا يعذد إليه إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به فقال شداد عند ذلك: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي من شئنا، فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني».

[طريق أخرى لبعضه] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا زيد بن الحباب، حدثني عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نسي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكياني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتخواف على أمتي الشرك والشهوة الخفية» قلت: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدي؟ قال: «نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثنًا، ولكن يراءون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن

(١) المسند / ٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) المسند / ٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه» ورواه ابن ماجه^(١) من حديث الحسن بن ذكوان عن عبادة بن نسي به، وعبادة فيه ضعف، وفي سماعه من شداد نظر.

[حديث آخر] قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله يوم القيمة: أنا خير شريك من أشرك بي أحداً فهو له كله». وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك» تفرد به من هذا الوجه.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يونس، حدثنا الليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيمة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن بكيـر، أخبرنا عبد الحميد يعني ابن جعفر، أخبرني أبي عن زيـاد بن مـينـاء عن أبي سـعـيدـ بنـ أبيـ فـضـالـةـ الـأـنـصـارـيـ، وـكـانـ مـنـ الصـحـابـةـ، أـنـهـ قـالـ: سـمـعـتـ رـسـوـلـ اللـهـ يـقـولـ: «إـذـاـ جـمـعـ اللـهـ الـأـوـلـيـنـ وـالـآـخـرـيـنـ لـيـوـمـ لـاـ رـبـ فـيـ نـادـيـ مـنـادـ: مـنـ كـانـ أـشـرـكـ فـيـ عـمـلـهـ اللـهـ أـحـدـاـ فـلـيـطـلـبـ ثـوـابـهـ مـنـ عـنـدـ غـيرـ اللـهـ، فـإـنـ اللـهـ أـغـنـيـ الشـرـكـاءـ عـنـ الشـرـكـ»^(٥) وأـخـرـجـهـ التـرـمـذـيـ وـابـنـ مـاجـهـ مـنـ حـدـيـثـ مـحـمـدـ وـهـوـ الـبـرـسـانـيـ بـهـ.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٦): حدثنا أـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ، حدـثـنـاـ بـكـارـ، حدـثـنـيـ أـبـيـ -ـ يعنيـ عبدـ العـزـيزـ بـنـ أـبـيـ بـكـرـةـ -ـ عنـ أـبـيـ بـكـرـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ يـقـولـ: «مـنـ سـمـعـ اللـهـ بـهـ، وـمـنـ رـأـيـ اللـهـ بـهـ» وـقـالـ إـلـيـامـ أـحـمـدـ^(٧): حدـثـنـاـ مـعـاوـيـةـ، حدـثـنـاـ شـيـبـانـ عـنـ فـرـاسـ عـنـ عـطـيـةـ عـنـ أـبـيـ سـعـيدـ الـخـدـرـيـ، عـنـ رـسـوـلـ اللـهـ يـقـولـ: «مـنـ يـرـأـيـ يـرـأـيـ اللـهـ بـهـ، وـمـنـ يـسـمـعـ يـسـمـعـ اللـهـ بـهـ».

(١) كتاب الزهد باب ٢١.

(٢) المستند ٣٠١/٢.

(٣) المستند ٤٢٨/٥.

(٤) المستند ٢١٥/٤.

(٥) أـخـرـجـهـ التـرـمـذـيـ فـيـ تـفـسـيـرـ سـوـرـةـ ١٨ـ ،ـ بـابـ ٦ـ ،ـ وـابـنـ مـاجـهـ فـيـ الزـهـدـ بـابـ ٤٦ـ .ـ

(٦) المستند ٤٥/٥.

(٧) المستند ٤٠/٣.

[حديث آخر] قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة قال: سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من سمع الناس بعمله سمع الله به، ساء خلقه وصغره وحقره» فذرفت عينا عبد الله. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبو عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيمة في صحف مختمه، فيقول الله: ألقوا هذا وأقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً، فيقول: إن عمله كان لغير و Jeghi ولا قبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي» ثم قال: الحارث بن غسان روى عنه جماعة وهو ثقة بصرى، ليس به بأس، وقال ابن وهب: حدثني يزيد بن عياض عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رباء وسمعة، لم يزل في مقت الله حتى يجلس».

وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بي أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص عن عوف بن مالك عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل».

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس الكلندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية «فمن كان يرجو لقاء ربه» الآية، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شمبل، حدثنا أبو قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة «فمن كان يرجو لقاء ربه» الآية، كان له من النور من عدن أبين إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة» غريب جداً.

آخر تفسير سورة الكهف.

(١) المسند / ٢ ، ١٦٢ ، ١٩٥ .

(٢) تفسير الطبرى / ٨ ، ٣٠٠ .

سورة مريم
وهي مكية

وقد روی محمد بن إسحاق في السيرة^(١) من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل^(٢) عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

سُورَةُ الْمَرْيَمِ

كَهِيعَصَ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَمْ رَكَبَيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نَدَاءَ خَفِيَا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظَمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبَا وَلَمْ أَكُنْ يُدْعَى إِلَيْكَ رَبِّ شَقِيَا وَإِنِّي خَفَتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَيْ عَاقِرًا فَهَبْتُ لِي مِنْ لَدْنَكَ وَلِيَا يَرْثَى وَرِثَى مِنْ مَالٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيَا

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، قوله «ذكر رحمت ربك» أي هذا ذكر رحمة الله بعده زكرياء، وقرأ يحيى بن يعمر «ذكر رحمت ربك عبده زكرياء» وزكرياء يمد ويقصر، قراءتان مشهورتان وكان نبياً عظيمًا من آنبياءبني إسرائيل، وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في التجارة. قوله «إذ نادى ربه نداء خفيًا» قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاه لثلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكرهه، حكاها الماوردي.

وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية «إذ نادى ربه نداء خفيًا» إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي^(٣).

وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، فقال الله له: ليك ليك ليك «قال رب إني وهن العظم مني» أي ضفت وخارت القوى «واشتعل الرأس شيباً»، أي اضطرم المشيب في السود، كما قال ابن دريد في مقصورته: [الطوويل]

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٣٦.

(٢) المسند ١/٤٦١.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٨/٣٠٦.

أَمَا ترَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنَهُ طَرَةٌ صَبَحَتْ أَذِيالَ الدَّجْنِ
 وَاشْتَعَلَ الْمُبِيَضُ فِي مَسْوَدَهُ مُثْلِ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ الْغَصَّانِ^(١)
 وَالْمَرَادُ مِنْ هَذَا الْإِخْبَارِ عَنِ الْفَضْلِ وَالْكَبِيرِ وَدَلَائِلِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ . وَقَوْلُهُ «وَلَمْ أَكُنْ
 بِدَعَائِكَّ رَبِّ شَقِيقًا» أَيْ وَلَمْ أَعْهَدْ مِنْكَ إِلَّا الْإِجَابَةَ فِي الدُّعَاءِ ، وَلَمْ تَرَدِنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُكَ وَقَوْلُهُ
 «وَإِنِّي خَفَتُ الْمَوْالِيَ مِنْ وَرَائِي» قَرَأُ الْأَكْثَرُونَ بِنَصْبِ الْيَاءِ مِنْ الْمَوْالِيِّ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ، وَعَنِ
 الْكَسَائِيِّ أَنَّهُ سَكَنَ الْيَاءَ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : [رَجْزٌ]

كَأَنْ أَيْدِيهِنَّ فِي الْقَاعِ الْقَرِيقِ أَيْدِي جَوَارٍ يَتَعَاطَيْنَ الْوَرَقَ^(٢)
 وَقَالَ الْآخَرُ : [الْطَّوَيْل]

فَتَى لَوْ يَبْارِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قَنَاعَهَا
 وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسِ الطَّائِيِّ : [الْطَّوَيْل]^(٣)

تَغَابِرُ الشِّعْرِ مِنْهُ إِذْ سَهَرَتْ لَهُ حَتَّى ظَنِّتْ قَوَافِيهِ سَتَقْتَلُ^(٤)

وَقَالَ مُجَاهِدُ وَقَتَادَةُ وَالسَّدِيُّ : أَرَادَ بِالْمَوْالِيِّ الْعَصْبَةَ . وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : الْكَلَالَةُ . وَرُوِيَّ عَنِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْرُئُهَا «وَإِنِّي خَفَتُ الْمَوْالِيَ مِنْ وَرَائِي»
 بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ بِمَعْنَى قَلْتُ عَصَبَاتِي مِنْ بَعْدِي ، وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى وَجْهُ خَوْفِهِ أَنَّهُ خَشِيَّ أَنْ
 يَتَصَرَّفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصْرِفًا سَيِّئًا ، فَسَأَلَ اللَّهُ وَلَدًا يَكُونُ نَبِيًّا مِنْ بَعْدِهِ لِيَسُوسُهُمْ بِنَبْوَتِهِ
 مَا يُوحِي إِلَيْهِ ، فَأَجِيبُ فِي ذَلِكَ لَا أَنَّهُ خَشِيَّ مِنْ وَرَاثَتِهِمْ لَهُ مَالَهُ ، إِنَّ النَّبِيَّ أَعْظَمُ مُنْزَلَةً وَأَجْلَ
 قَدْرًا مِنْ أَنْ يَشْفَقَ عَلَى مَالِهِ إِلَى مَا هَذَا حَدَّهُ ، وَأَنْ يَأْنِفَ مِنْ وَرَاثَةِ عَصَبَاتِهِ لَهُ وَيُسَأَلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ
 وَلَدٌ لِيَحْرُزَ مِيرَاثَهُ دُونَهُمْ هَذَا وَجْهٌ .

(١) الْبَيْتُ فِي شَرْحِ مَقْصُورَةِ ابْنِ دَرِيدِ صِ ٢ ، وَتَفْسِيرِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ / ٦٤٦ ، الْبَيْتُ الثَّانِي فَقْطُ ، وَرُوحِ
 الْمَعْانِي لِلْأَلوَسِيِّ ٦٠ / ١٦.

(٢) الرَّجْزُ لِرَبِّهِ فِي مَلْحِقِ دِيْوَانِهِ صِ ١٧٩ ، وَخَزَانَةِ الْأَدْبِ / ٣٤٧ / ٨ ، وَالدَّرْرُ / ١٦٦ ، وَشَرْحِ شَوَاهِدِ
 الشَّافِيَّةِ صِ ٤٠٥ ، وَتَاجِ الْعُرُوسِ (زَهْقٌ) ، (قرْقَ)، وَلِسَانِ الْعَرَبِ (زَهْقٌ) ، وَبِلَا نَسْبَةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ
 (قرْقَ)، (ثَمَنٌ) ، وَالْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ / ٢٦٩ ، وَأَمَالِيِّ الْمَرْتَضِيِّ / ٥٦١ ، وَالْخَاصَائِصُ / ٣٠٦ / ١ ، وَشَرْحِ
 دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ لِلْمَرْزُوقِيِّ صِ ٢٩٤ ، ٩٧٠ ، ١٠٣٢ ، وَشَرْحِ شَافِيَّةِ ابْنِ الْحَاجِبِ / ١٨٤ / ٣ ، وَالْمُحْتَسِبِ
 وَمِجْمَلِ الْلُّغَةِ / ١٢٦ ، ٢٨٩ ، ٧٥ / ٢ ، وَهُمُّ الْهَوَامِعُ / ٥٣ ، وَتَهْذِيبُ الْلُّغَةِ / ١٠٧ / ١٥ ، وَكِتَابُ الْعَيْنِ / ٥ / ٢٢ ،
 وَمِجْمَلُ الْلُّغَةِ / ١٥٦ ، وَمِقَايِيسُ الْلُّغَةِ / ٧٥ / ٥ ، وَتَاجِ الْعُرُوسِ (ثَمَنٌ) .

(٣) الْبَيْتُ لِلْأَعْشَى فِي دِيْوَانِهِ صِ ١١٥ ، وَلِسَانِ الْعَرَبِ (نَدِيٌّ) ، وَفِيهِ «الْقَلَادَةُ» بَدْلُ «الْمَقَالَدَةُ» وَبِلَا نَسْبَةٍ فِي
 مِقَايِيسِ الْلُّغَةِ / ٤١٢ / ٥ .

(٤) الْبَيْتُ فِي دِيْوَانِ أَبِي تَمَامٍ صِ ٢٢٧ .

[الثاني] أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سينا الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

[الثالث] أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»^(١) وفي رواية عند الترمذى يأسناد صحيح «نحن عشر الأنبياء لا نورث»^(٢)، وعلى هذا فتعين حمل قوله «فهب لي من لدنك ولياً يرثني» على ميراث النبوة، ولهذا قال «ويرث من آل يعقوب» كقوله «ورث سليمان داود» [النمل: ١٦] أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويشبهه ما صح في الحديث «نحن عشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

قال مجاهد في قوله «يرثني ويرث من آل يعقوب» كان وراثته علماً، وكان زكرييا من ذرية يعقوب، وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح في قوله «يرثني ويرث من آل يعقوب» قال: يكون نبياً كما كانت آباءه أنبياء، وقال عبد الرزاق عن عمر عن قتادة، عن الحسن يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك عن زيد بن أسلم «ويرث من آل يعقوب» قال نبوتهم. وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون كلامهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله «يرثني ويرث من آل يعقوب» قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر عن قتادة أن النبي ﷺ قال «يرحم الله زكرييا وما كان عليه من وراثة ماله، ويرحم الله لو طأ إن كان ليأوي إلى ركن شديد». وقال ابن جرير^(٣): حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح عن مبارك هو ابن فضالة، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله أخي زكرييا ما كان عليه من وراثة ماله حين قال: هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب» وهذه مرسولات لا تعارض الصحاح، والله أعلم. وقوله «واجعله رب رضيَا» أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه.

يَرَزِّكَ رِبِّيَّا إِنَّا نُشْرِكُ بِغَلَمٍ أَسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلٍ سَمِّيَا

هذا الكلام يتضمن محدوداً وهو أنه أجيب إلى ما سأله في دعائه، فقيل له: «يا زكرييا إننا نشرك بغلام اسمه يحيى» كما قال تعالى: «هنا لك دعا زكرييا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلبي في المحراب أن الله يشرك بيحيى

(١) أخرجه البخاري في الخمس باب ١، ومسلم في الجهاد حديث ٤٩، ٥٢.

(٢) أخرجه الترمذى في السير باب ٤٤، وأحمد في المسند ٤٦٣/٢.

(٣) تفسير الطبرى ٣٠٨/٨.

مصدقاً بكلمة من الله ونبياً وحصوراً ونبياً من الصالحين» [آل عمران: ٣٨ - ٣٩] وقوله «لم يجعل له من قبل سميا» قال قتادة وابن جرير وابن زيد: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير رحمة الله.

قال مجاهد «لم يجعل له من قبل سميا» أي شبهاً، وأخذه من معنى قوله «فاعبدوه» واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا» [مريم: ٦٥] أي شبهاً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي لم تلد العوافر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم، وسارة عليهما السلام، فإنهم وإنما تعجبوا من البشرة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما، ولهذا قال «أبشرتمني على أن مبني الكبر فبم تبشرون» [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته «يا ويلتي أللد وأنا عجوز وهذا يعلي شيئاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد» [هود: ٧٢ - ٧٣].

قَالَ رَبِّ أَنَّ يَكُونُ لِي عَلَمٌ وَكَانَتِ أَمْرَأِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيَاً ﴿١﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنَ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلٍ وَلَمْ تَكُنْ شَيئاً

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيبي إلى ما سأله ويسره بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعانت، أي: عسا عظمها ونحل، ولم يبق فيه لفاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا يعتو عتياً وعتراء، وعسا يعسو عسواً وعسياً، وقال مجاهد: عتيا يعني نحو العظم، وقال ابن عباس وغيره: عتيا، يعني الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها غير أني لا أدرى أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا، ولا أدرى كيف كان يقرأ هذا الحرف «وقد بلشت من الكبر عتيا» أو عسيا، ورواه الإمام أحمد^(٢) عن سريج بن النعمان وأبو داود عن زياد بن أيوب كلاماً عن هشيم به، «قال» أي الملك مجيئاً لزكريا بما استعجب منه «كذلك قال ربك هو على هين» أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، «هين» أي يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأله عنه، فقال «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً» كما قال تعالى: «هل أنت على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» [الإنسان: ١].

(١) تفسير الطبرى ٣١١ / ٨.

(٢) المسند ١ / ٢٥٧، ٢٥٨.

قَالَ رَبِّيْ أَجْعَلْتِيْ مَآيَةً فَقَالَ إِيْتُكَ أَلَا تَكْلِمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لِيَالٍ سَوِيَّاً فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِكَرَّةً وَعَشِيَّاً

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامه ودليل على وجود ما وعدتني، ل تستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رب أرنى كيف تحسي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية ﴿قال آيتك﴾ أي علامتك ﴿أن لا تكلم الناس ثلاثة ليل سوياً﴾ أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاثة ليل ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة و وهب والسدی وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة .

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ثلاث ليل سوياً﴾ أي متابعت ، والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح ، كما قال تعالى في آل عمران ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ [آل عمران: ٤١] وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ثلاث ليل سوياً﴾ من غير خرس ، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إلا رمزاً﴾ أي إشارة ، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿فأوحي إليهم﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿أن سبحوا بكرة وعشياً﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكر الله على ما أولاه . قال مجاهد: ﴿فأوحي إليهم﴾ أي أشار وبه قال وهب وقتادة . وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿فأوحي إليهم﴾ أي كتب لهم في الأرض ، وكذا قال السدی .

يَعِيْحَى حَذَ الْكِتَابَ يَقُوَّهُ وَأَيْتَنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَّانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكُوَّهُ وَكَانَ تَقِيَّاً وَبَرَّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا وَسَلَمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلُودِهِ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبَعَّثُ حَيًّا

وهذا أيضاً تضمن محدوداً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، وبحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً فلهذا نوه بذلكه وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال: ﴿يَا يَحِيَّا حَذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي تعلم الكتاب بقوه أي بجد وحرص واجتهاد ﴿وَأَيْتَنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث ، قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا لنلعب ، فقال: ما للعب خلقت ، فلهذا أنزل الله ﴿وَأَيْتَنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (١)

وقوله: «وحناناً من لدنا» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «وحناناً من لدنا» يقول: ورحمة من عندنا، وكذا قال عكرمة وقناة والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا، وزاد قنادة: رحم الله بها ذكريها. وقال مجاهد: «وحناناً من لدنا» وتعطفاً من ربه عليه. وقال عكرمة: «وحناناً من لدنا» قال: محبة عليه. وقال ابن زيد أما الحنان فالمحبة، وقال عطاء بن أبي رباح: «وحناناً من لدنا» قال: تعظيمًا من لدنا، وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا والله ما أدرى ما حناناً^(١).

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن منصور، سألت سعيد بن جبير عن قوله: «وحناناً من لدنا» فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجد فيها شيئاً، والظاهر من السياق أن قوله وحناناً معطوف على قوله «وآتيناه الحكم صبياً» أي آتيناه الحكم وحناناً وزكاة، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها وحننت المرأة على زوجها، ومنه سميت المرأة حنة من الحنة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر: [المتقارب]

تحنَّ علَيْ هَذَا الْمَلِكُ فَإِنْ لَكُلَّ مَقَامٍ مَقَالَ^(٣)

وفي المسند للإمام أحمد^(٤) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة: يا حنان يا منان» وقد يثنى، ومنهم من يجعل ما ورد في ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة: [الطوبل]

أبا منذر أفيت فاستيق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض^(٥)

وقوله: «وزكاة» معطوف على وحناناً، فالزكاة الطهارة من الدنس والأثام والذنوب، وقال قنادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي. وقال العوفي عن ابن عباس «وزكاة» قال: بركة، «وكان ثنياً» ذا ظهر فلم يهمنَ بذنب.

وقوله «وبرأ بوالديه ولم يكن جباراً عصبياً» لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة

(١) انظر تفسير الطبرى / ٨ / ٣١٦.

(٢) هذا الأثر لم أجده بهذا اللفظ في تفسير الطبرى.

(٣) البيت للخطية في ديوانه ص ٧٧، وتخلص الشواهد ص ٢٠٦، والدرر ٣/٦٤، ولسان العرب (قول)، (حنن)، وتأج العروس (قول)، (حنن)، وبلا نسبة في العقد الفريد ٥/٤٩٣، والمقتضب ٣/٢٢٤، وهمع الهوامع ١/١٨٩، وتفسير الطبرى / ٨ / ٣١٧.

(٤) المسند ٣/٢٣٠.

(٥) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٦٦ ، والدرر ٣/٦٧ ، والكتاب ١/٣٤٨ ، ولسان العرب (حنن) وهمع الهوامع ١/١٩٠ ، وتأج العروس (حنن)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٢٧٣ ، وشرح المفصل ١/١١٨ ، والمقتضب ٣/٢٤٠ .

وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوبتهما قولهً وفعلًا، أمراً ونهيًّا، ولهذا قال: «ولم يكن جباراً عصيًّا» ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك «سلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا» أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: «سلام عليه يوم ولد ويوم يموت في يوم يبعث حيًّا» رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمراً عن قتادة في قوله: «جباراً عصيًّا» قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال رسول الله ﷺ «ما من أحد يلقى الله يوم القيمة إلا ذنب إلا يحيى بن زكريا» قال قتادة: ما أذنب ولا هم بأمرأة^(١)، مرسلاً، وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، حدثني ابن العاص أنه سمع النبي ﷺ قال: «كلبني آدم يأتي يوم القيمة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا بن إسحاق هذا مدلس، وقد عنعن هذا الحديث، فالله أعلم».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» وهذا أيضاً ضعيف، لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: استغفر لي أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي، وسلم الله عليك فعرف والله فضلهم.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيمَ إِنَّ أَنْبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكْرُورًا شَهْرًا فَتَخَدَّسَتْ مِنْ شَهْرِهِمْ حَمَّةً فَلَمْ يَرْجِعْهُمْ إِلَيْهَا رُوْحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنَّكَ لَكَ عَذَّابٌ مُّؤْكَدٌ مَّا كُنْتَ تَكْفِيَنِي بِهِ إِنَّكَ لَرَبِّي رَسُولُ رَبِّي لَأَهْبَطَ لَكَ عَذَّابَ رَبِّكَ مَكْرُورًا قَالَتْ إِنَّكَ لَكَ عَذَّابٌ مُّؤْكَدٌ مَّا كُنْتَ تَكْفِيَنِي بِهِ إِنَّكَ لَرَبِّي قَالَ رَبِّي لَكَ هُوَ عَلَى هَذِينَ وَلِنَجْعَلَنَّكَ مَكْرُورًا كَمَا كُنْتَ مَكْرُورًا كَمَا كُنْتَ

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكيًّا طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وهنها، وفي سورة الأنبياء يقرن

(١) انظر تفسير الطبرى ٣١٨/٨.

(٢) المستند ١/٢٥٤.

بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال ﴿وَذَكْرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيمٌ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام. وكانت من بيت طاهر طيب فيبني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك ﴿فَتَقْبِلُهَا رَبِّهَا بِقَبْولِ حَسْنٍ وَأَنْبِئْهَا نِبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت فيبني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات النسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدُّرُوب، وكانت في كفالة زوج اختها زكريا نبيبني إسرائيل إذ ذاك، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَا الْمُحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرِيمَ أَنِّي لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مَنْ عَنِ الدِّرَّةِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة، أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿فَانْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي اعززتهم وفتحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس. وقال السدي لحيض أصحابها، وقيل لغير ذلك.

قال أبو كدينة عن قابوس بن أبي طبيان عن أبيه عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿فَانْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقال ابن جرير^(١) أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عامر، عن ابن عباس قال: إنني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى: ﴿فَانْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة. وقال قتادة ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شاسعاً متنحياً، وقال محمد بن إسحاق: ذهب بقلتها ل تستقي الماء. وقال نوف البكري: اتخذت لها منزلة تتبعده فيه، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي استترت منهم وتواترت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] وقال أبو جعفر

الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال: إن روح عيسى عليه السلام من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام، وهو الذي تمثل لها بشراً سوياً، أي روح عيسى، فحملت الذي خاطبها، وحل في فيها، وهذا في غاية الغرابة والنكارة وكأنه إسرائيلي **﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقينا﴾** أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافتة وظننت أنه يريدها على نفسها، فقالت: **﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقينا﴾** أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولًا بالله عز وجل.

قال ابن جرير^(١): حدثني أبو كريب، حدثنا أبو بكر عن عاصم قال: قال أبو وائل وذكر قصة مريم، فقال: قد علمت أن التقى ذو نهاية حين قالت: **﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقينا﴾** قال إنما أنا رسول ربك **﴿أي فقال لها الملك مجيئاً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها لست مما تظنين ولكنني رسول ربك أي بعثني الله إليك، ويقال إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقاً وعاد إلى هيئته وقال **﴿إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكي﴾** هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء، وقرأ الآخرون **﴿لأحب لك غلاماً زكي﴾** وكلا القراءتين له وجه حسن ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى.**

﴿قالت أني يكون لي غلام﴾ أي فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت: **﴿ولم يمسني بشر ولم أك بغي﴾** والبغي هي الزانية، ولهذا جاء في الحديث نهي عن مهر البغي **﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين﴾** أي فقال لها الملك مجيئاً لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: **﴿ول يجعله آية للناس﴾** أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخلقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: **﴿ورحمة منا﴾** أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله ونبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: **﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾** [آل عمران: ٤٥] أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم، حدثنا مروان، حدثنا

العلاء بن الحارث الكوفي عن مجاهد: قال: قالت مریم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني، وإذا كنت مع الناس سبع في بطني وكبر.

وقوله: «وكان أمراً مقتضياً» يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفح في فرجها، كما قال تعالى: «ومريم ابنة عمران التي أحسنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» [التحريم: ١٢] وقال: «والتي أحسنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا» [الأنباء: ٩١] قال محمد بن إسحاق: «وكان أمراً مقتضياً» أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿فَحَمَّلَتْهُ فَأَنْبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيمًا فَجَاءَهَا الْمَحَاضُ إِلَى جَنْعِ التَّخَلَّةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِنْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ سَيِّئَةً مُنْسِيَةً﴾

يقول تعالى مخبراً عن مریم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفح في جيب درعها، فنزلت النفحة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفتست سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زکریا، وذلك أن زکریا عليه السلام كان قد سأله الله الولد فأجيب إلى ذلك، فحملت أمرأته، فدخلت عليها مریم، فقامت إليها فاعتنقتها وقالت: أشعرت يا مریم أني حبل؟ فقالت لها مریم: وهل علمت أيضاً أني حبل؟، وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زکریا بعد ذلك إذا واجهت مریم تجد الذي في بطنه يسجد للذي في بطنه مریم، أي يعظمه ويخصّه لها، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد لیوسف أبوه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لأدم عليه السلام، ولكن حرم في ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قرئ على الحارث بن مسکین وأنا أسمع، قال أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى ابن مریم ويعیی بن زکریا عليهم السلام ابنا خالة، وكان حملهما جمیعاً معاً، بلغني أن أم يعیی قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضیل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيی الموتی ويریء الأکمه والأبرص، ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر. وقال ابن جریح:

أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت^(١)، وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: «فَحَمَلْتَهُ فَإِنَّكَ بِهِ مَكَانٌ قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَذْعِ النَّخْلَةِ» فالباء وإن كانت للتعليق، لكن تعقيب كل شيء بحسبه، قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانًا مِّنْ سَلَالَةِ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَا نَطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مَضْعَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْعَةَ عَظَاماً» [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وهذه الفاء للتعليق بحسبها.

وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوماً، وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَتَبَصَّرُ بِهِ أَرْضًا» [الحج: ٦٣] فالمشهور الظاهر، والله على كل شيء قادر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن. ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف التجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلني علي. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حب، وهل يكون زرع من غير بذر. وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه.

أما قولك: هل يكون شجر من غير بذر، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب؟ فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم، فصدقها وسلم لها حالها، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي فاصلياً منهم بعيداً عنهم لثلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوجه وتغير اللون، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيته ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا: إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتواترت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه. وقوله: «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَذْعِ النَّخْلَةِ» أي فاضطرها وألجمها الطلاق إلى جذع النخلة في المكان الذي تتحت إليه، وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس. وقال وهب بن منبه: ذهب هاربة، فلما كانت بين الشام وببلاد مصر ضربها الطلاق. وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها بيت لحم، قلت: وقد تقدم في أحاديث الإسراء من

رواية النسائي عن أنس رضي الله عنه، والبيهقي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن ذلك بيت لحم، قال الله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشک فيه النصارى أنه بيت لحم، وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث إن صحيحاً.

وقوله تعالى إخباراً عنها: «قالت يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسيأً منسيأً» فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستتبلى و تمحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: «يا ليتني مت قبل هذا» أي قبل هذا الحال، «و كنت نسيأً منسيأً» أي لم أخلق ولم أك شيئاً، قاله ابن عباس. وقال السدي: قالت وهي تطلق من العجل استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل، «و كنت نسيأً منسيأً» نسي فترك طلبه كخرق الحيض التي إذا أقيمت وطاحت لم تطلب ولم تذكر، وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي. وقال قتادة: «و كنت نسيأً منسيأً» أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا. وقال الريبع بن أنس: «و كنت نسيأً منسيأً» هو السقط. وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله: « توفني مسلماً وأحقني بالصالحين » [يوسف: ١٠١].

فَنَادَاهَا مِنْ قَعْدِهَا أَلَا تَحْرَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْكَمَ سَرِيرَتِي ۝ وَهُرِزَ إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ سُلْقُطَ عَنْكِ رُطْبَأَ جِينِيَا ۝ فَكُلِّي وَأَشْرِيفَ وَفَرِي عَيْنَنَا فِإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَاقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيَا ۝

قرأ بعضهم: «من تحتها» بمعنى الذي تحتها، وقرأ الآخرون: «من تحتها» على أنه حرف جر، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره عن ابن عباس «ف Nadaha من تحتها» جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدسي وقتادة: إنه الملك جبرائيل عليه الصلاة والسلام، أي ناداها من أسفل الوادي. وقال مجاهد: «ف Nadaha من تحتها» قال: عيسى ابن مريم، وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها، وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها، قال: أو لم تسمع الله يقول: « فأشارت إليه» [مريم: ٢٩] وانتداب ابن زيد وابن جرير^(١) في تفسيره.

وقوله: «أن لا تحزنني» أي ناداها قائلاً لا تحزنني «قد جعل ربك تحتك سرياً» قال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب «قد جعل ربك تحتك سرياً» قال: الجدول، وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السري النهر، وبه قال عمرو بن ميمون

نهر تشرب منه . وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية . وقال سعيد بن جبير: السري النهر الصغير بالنبطية . وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية . وقال إبراهيم التخعي: هو النهر الصغير . وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز ، وقال وهب بن منبه: السري هو ربيع الماء . وقال السدي: هو النهر ، واختار هذا القول ابن جرير .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع ، فقال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الحراني ، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلتي ، حدثنا أيوب بن نهيك ، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول ، سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن السري الذي قال الله لمريم ﴿قد جعل ربك تحتك سريا﴾ نهر أخرجه الله لتشرب منه» وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه . وأيوب بن نهيك هذا هو الجبل ، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف . وقال أبو زرعة: منكر الحديث .

وقال أبو الفتح الأزدي: مترونك الحديث . وقال آخرون المراد بالسري عيسى عليه السلام ، وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر ، وهو إحدى الروايتين عن قتادة ، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهره . ولهذا قال بعده: «وهزي إليك بجذع النخلة» أي وخذي إليك بجذع النخلة . قيل: كانت يابسة ، قاله ابن عباس . وقيل: مثمرة . قال مجاهد: كانت عجوة . وقال الثوري عن أبي داود نفي الأعمى: كانت صرفانة ، والظاهر أنها كانت شجرة ، ولكن لم تكن في إيان ثمرها ، قاله وهب بن منبه ، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: «تساقط عليك رطباً جنباً فكلي واشري وقربي عيناً» أي طيبني نفساً ، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسروور بن سعيد التميمي ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عن عروة بن رويم ، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكروموا عتمكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام ، وليس من الشجر شيء يلصح غيرها» وقال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الولد الرطب ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» هذا حديث منكر جداً ورواه أبو يعلى عن شيبان به . وقرأ بعضهم «تساقط» بتشديد السين ، وآخرون بتخفيفها . وقرأ أبو نهيك «تسقط عليك رطباً جنباً» وروى أبو إسحاق عن البراء أنه قرأها «يَسَّاقِطُ» أي الجذع ، والكل متقارب .

وقوله: «فإما ترين من البشر أحداً» أي مهما رأيت من أحد «فقولي إني نذرت للرحمـن صومـاً فلنـ أكلـمـ الـيـومـ إـنـسـيـاـ» المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللغظـي لـثـلـاـ يـنـافـيـ «فـلـنـ أـكـلـمـ الـيـومـ إـنـسـيـاـ» قال أنس بن مالك في قوله: «إـنـيـ نـذـرـتـ لـلـرـحـمـنـ

صوماً» قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس والضحاك، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً، وكذا قال قتادة وغيرهما، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو إسحاق عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف أن لا يكلم الناس اليوم، فقال عبد الله بن مسعود: كلام الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج، يعني بذلك مريم عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) رحمهما الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: «لا تحزني» قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لاذات زوج ولا مملوكة؟ أي شيء عذرني عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكانت نسيأ منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام «فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحم صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً» قال هذا كله من كلام عيسى لأمه، وكذا قال وهب.

فَأَتَتْهُ قَوْمَهَا حَمِيلٌ فَالْأَوَّلُ يَمْرِيدُ لَقَدْ جَعَلَتْ شَيْئاً فَرِيَّاً ۚ يَكْأَخْتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيْنَا ۖ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَائِمًا كِيفَ تُكَبِّهُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَذْدُ اللَّهِ أَتَلَّنِي الْكِتَبَ وَجَعَلَنِي مُبَارِّاً أَيْنَ مَا مَكَثْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكُورَةِ مَا دَمَتْ حَيَاً ۖ وَبِرَا بِوَالِدَيِّ وَكُمْ يَجْعَلُنِي جَبَارًا شَقِيقًا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمْوَثُ وَيَوْمَ أُمْتَ حَيَا ۖ

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكتفي أمرها ويقام بحاجتها، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدتها فأدت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، و«قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريباً»، أي أمراً عظيماً، قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكري قال: وخرج قومها في طلبها، قال: وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيئاً، فلقو راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعمتها؟ قال: لا ولكنني رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادي.

قال عبد الله بن زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً فتوجها حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأيهم قعدت وحملت ابنها في حجرها فجاوزوا حتى قاموا عليها «وَتَالِيَا يَا مَرِيمَ لَقَدْ جَعَلْتَ شَيْئاً فَرِيَّاً أَمْرَأَ عَظِيْمَاً ۖ يَا أَخْتَ هَارُونَ» أي يا شبيهة هارون في

العبادة «ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمه بعياً» أي أنت من بيت طيب ظاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟

قال علي بن أبي طلحة والسدي : قيل لها: «يا أخت هارون» أي أخي موسى ، وكانت من نسله كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وللمضري يا أخا مضر^(١) ، وقيل : نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تقايس به في الزهادة والعبادة ، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هارون^(٢) .

ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر ، وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين الھستجاني ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا المفضل بن فضالة ، حدثنا أبو صخر عن القرظي في قوله الله عز وجل : «يا أخت هارون» قال : هي أخت هارون لأبيه وأمه ، وهي أخت موسى أخي هارون التي قصت أثر موسى «فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون» [القصص : ١١] وهذا القول خطأ ممحض ، فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قوى بعيسي بعد الرسل ، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً ، وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليهمما ، ولهذا ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أنا أولى الناس بابن مريم إلا أنه ليس بيبني ويبينهنبي» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي ، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد ، ولكن قبل سليمان وداود ، فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى عليهما السلام في قوله تعالى : «ألم تر إلى الملائكة من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله» [آل عمران : ٢٤٦] وذكر القصة إلى أن قال : «وقتل داود جالوت» [آل عمران : ٢٥١] الآية ، والذي جرأ القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر وإغراق فرعون وقومه .

قال : وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين تضرب بالدف هي والنساء معها يسبحن الله ويشكرونها على ما أنعم به على بنى إسرائيل ، فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى وهذه هفوة وغلطة شديدة ، بل هي باسم هذه ، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم ، كما قال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا عبد الله بن إدريس ، سمعت أبي يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقررون «يا أخت هارون» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»^(٤) انفرد بإخراجه مسلم

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٣٦/٨.

(٢) تفسير الطبرى ٣٣٦/٨.

(٣) المسند ٤/٢٥٢.

(٤) أخرجه بلفظ «يتسمون» بدل «يتسمون» ، مسلم في الأدب حديث ٩ ، والترمذى في تفسير سورة ١٩ ، باب ١ .

والترمذی والنسائی من حديث عبد الله بن إدريس عن أبيه عن سماک به ، وقال الترمذی حسن صحيح غریب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس .

وقال ابن جریر^(١) : حدثني يعقوب حدثنا ابن علیة عن سعید بن أبي صدقہ عن محمد بن سیرین قال أبیت أن کعباً قال إن قوله : ﴿يَا أخْتَ هَارُونَ﴾ ليس بهارون أخي موسى قال فقالت له عائشة كذبت قال يا أم المؤمنین إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر وإنما أجد بينهما ستمائة سنة قال فسكتت وفي هذا التاريخ نظر .

وقال ابن جریر^(٢) أيضاً : حدثنا بشر ، حدثنا یزید ، حدثنا سعید عن قتادة قوله : ﴿يَا أخْتَ هَارُونَ﴾ الآیة ، قال : كانت من أهل بیت یعرفون بالصلاح ولا یعرفون بالفساد ، ومن الناس من یعرفون بالصلاح ویتوالدون به ، وآخرون یعرفون بالفساد ویتوالدون به ، وكان هارون مصلحاً محباً في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر ، قال : وذكر لنا أنه شیع جنائزه يوم مات أربعون ألفاً کلهم یسمی هارون من بني إسرائیل .

وقوله : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكْلُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي إنهم لما استрабوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفربة ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه ، فقالوا متھکمین بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم ﴿كَيْفَ نَكْلُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قال میمون بن مهران : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قالت كلموه ، فقالوا : على ما جاءت به من الداهية تأمّرنا أن نکلم من كان في المهد صبياً ، وقال السدي لما «أشارت إليه» غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا حتى تأمّرنا أن نکلم هذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكْلُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي من هو موجود في مهده في حال صباح وصغره ، كيف يتکلم ؟ قال : ﴿إِنِّي عبد الله﴾ ، أول شيء تکلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه .

وقوله : ﴿أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة ، قال نوف البکالی : لما قالوا لأمه ما قالوا ، كان يرتفع ثديه ، فنزع الثدي من فمه واتکأ على جنبه الأيسر وقال ﴿إِنِّي عبد الله أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ - إلى قوله - ﴿مَا دَمْتَ حَيًّا﴾ وقال حماد بن سلمة عن ثابت البناي : رفع أصبعه السبابة فوق منکبه وهو يقول : ﴿إِنِّي عبد الله أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآیة ، وقال عکرمة : ﴿أَتَانِي الْكِتَابُ﴾ أي قضى أنه يؤتینی الكتاب فيما قضى ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن المصفی ، حدثنا یحیی بن سعید هو العطار

(١) تفسیر الطبری ٨/٣٣٥.

(٢) تفسیر الطبری ٨/٣٣٥.

عن عبد العزیز بن زیاد، عن انس بن مالک رضی الله عنه قال: کان عیسی ابن مریم قد درس الانجیل وأحکمها و هو فی بطن أمه، فذلک قوله: ﴿إِنِّي عبدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ يحیی بن سعید العطار الحمصی متوفی.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ﴾ قال مجاهد و عمرو بن قیس والثوری: و جعلنی معلماً للخیر. وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً. وقال ابن جریر^(١): حدثنا سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن یزید بن خنیس المخزومی، سمعت وهب بن الورد مولی بنی مخزوم قال: لقی عالم عالماً هو فوقه فی العلم، فقال له: يرحمک الله ما الذي أعلن من عملی؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنکر، فإنه دین الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مِبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ﴾ وقيل: ما برکته؟ قال: الأمر بالمعروف والنھی عن المنکر أینما كان. و قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دَمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالی لمحمد ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْقِيَمَنُ﴾ [الحجر: ٤٩]. وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالک بن انس فی قوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دَمْتُ حَيًّا﴾ قال: أخبره بما هو کائن من أمره إلى أن یموت، ما أینها لأهل القدر.

وقوله: ﴿وَبِرًا بِوَالدِّي﴾ أي وأمرني ببر والدی، ذکره بعد طاعة الله ربہ، لأن الله تعالی کثیراً ما یقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالی: ﴿وَقُضِيَ رِبَكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالوَالِدِينِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ إِلَيِّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. و قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيقًا﴾ أي ولم يجعلنی جباراً مستکبراً عن عبادته وطاعته وبر والدی، فأشقی بذلك. قال سفیان الثوری: الجبار الشقی الذي یقتل على الغضب. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالدیه إلا وجدته جباراً شقیاً، ثم قرأ: ﴿وَبِرًا بِوَالدِّي﴾ ولم يجعلنی جباراً شقیاً^(٢) قال: ولا تجد سبیء الملکة^(٢) إلا وجدته مختلفاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَ أَيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

قال قتادة: ذکر لنا أن امرأة رأت ابن مریم یحیی الموتی و یبریء الأکمه والأبرص فی آیات سلطه الله علیھن و أذن له فیھن، فقالت: طوبی للبطن الذي حملک، و طوبی للثدی الذي أرضعت به، فقال نبی الله عیسی علیه السلام یجیہا: طوبی لمن تلا کتاب الله فاتبع ما فیه، ولم یکن جباراً شقیاً^(٣). و قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبَعْثَرُ حَيًّا﴾ إثبات منه لعبودیته الله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله یحیی ويموت و یبعث کسائر الخلائق، ولكن له السلامة فی هذه الأحوال التي هي أشق ما یكون على العباد، صلوات الله وسلامه علیه.

(١) تفسیر الطبری ٨/٣٣٨.

(٢) سبیء الملکة: هو الذي یسیء صحبة ومعاملة الممالیک.

(٣) انظر تفسیر الطبری ٨/٣٣٩، ٣٤٠.

ذَلِكَ عِيسَى اُبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ إِنَّمَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْدُمَ مِنْ وَلَدِ سَبَّاهُهُ إِذَا قَضَى
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ إِنَّ اللَّهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ سُتْقِيمٌ فَالْخَلْفُ الْأَحْزَابُ
مِنْ بَنِيهِمْ فَوْلِلَلَّهِمَّ كَفَرُوا مِنْ مَشَهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولهذا قرأ الأثثرون قول الحق برفع قول، وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر قول الحق، وعن ابن مسعود أنه قرأ ذلك عيسى ابن مريم، قال: الحق، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترتين﴾ [آل عمران: ٦٠] ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿ما كانَ اللَّهُ أَنْ يَتَخَذَ مِنْ وَلَدٍ سَبَّاهَهُ﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدلون علوأً كبيراً ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، كما قال: ﴿إِنْ مُثْلُ عِيسَى عَنْدَ اللَّهِ كَمْثُلَ آدَمَ خَلْقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ سُتْقِيمٌ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ سُتْقِيمٌ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي قوييم من اتبעה رشد وهدى، ومن خالقه ضل وغوى. وقوله: ﴿فَالْخَلْفُ الْأَحْزَابُ مِنْ بَنِيهِمْ﴾ أي اختلف أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود. - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: بل هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روی نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى اُبْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي
فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل، فأخرجوا منهم أربعة نفر، آخر ج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال بعضهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من
آيات، ثم صعد إلى السماء وهم العقوبية، فقال الثالثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث:
قل أنت فيه قال: هو ابن الله وهم النسطورية، فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين
للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية ملوك
النصارى عليهم لعائن الله. قال الرابع: كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم

ال المسلمين . فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا ، فاقتتلوا و ظهروا على المسلمين ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ و يقتلون الذين يأمرن بالقسط من الناس ﴾ قال قتادة : و هم الذين قال الله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال اختلقو في فصاروا أحزاباً^(١) .

و قد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير وعن بعض أهل العلم قريباً من ذلك ، وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجتمعهم الثلاثة المشهورة عندهم ، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً ، فاختلفوا في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافاً متبيناً جداً ، فقالت كل شرذمة فيه قوله ، فمائة يقول فيه شيئاً ، و سبعون يقول فيه قوله آخر ، و خمسون يقول شيئاً آخر و مائة و ستون يقول شيئاً ، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثة و مائة ، وثمانية منهم اتفقوا على قوله و صمموا عليه ، فمال إليهم الملك وكان فيلسوفاً فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم ، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة ، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء ، وابتدعوا بدعاً كثيرة ، وحرفوا دين المسيح وغيره ، فابتني لهم حيثنـ الكنائس الكبار في مملكته كلها ، بلاد الشام والجزرية والروم ، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنـ عشرة ألف كنيسة ، وبنـ أمـه هيلانـة قمامـة^(٢) على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي يزعم اليهود والنصارـي أنه المسيح ، وقد كذبوا بل رفعـه الله إلى السماء .

وقوله ﴿ فوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ شَهِيدٍ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافتـى و زعم أنـ له ولـداً ، ولكنـ أنـظرـهم تعالى إلى يوم القيـمة ، وأجلـهم حـلـماً وثـقة بـقدرـته عليهم ، فإـنهـ الـذـي لاـ يـعـجلـ عـلـىـ مـنـ عـصـاهـ ، كـماـ جـاءـ فـيـ الصـحـيـحـينـ «إـنـ اللهـ لـيـمـلـيـ لـلـظـالـمـ حـتـىـ إـذـاـ أـخـذـهـ لـمـ يـفـلـتـهـ» ثـمـ قـرـأـ رسـولـ اللهـ ﷺ : «وـكـذـلـكـ أـخـذـ رـبـكـ إـذـاـ أـخـذـ التـرـىـ وـهـيـ ظـالـمـ إـنـ أـخـذـهـ أـلـيـمـ شـدـيدـ»^(٣) [هـودـ: ١٠٢] . وـفـيـ الصـحـيـحـينـ أـيـضاـ عـنـ رسـولـ اللهـ ﷺ أـنـهـ قـالـ: «لـاـ أـحدـ أـصـبـرـ عـلـىـ أـذـىـ سـمـعـهـ مـنـ اللهـ ، إـنـهـ يـجـعـلـونـ لـهـ وـلـدـاـ وـهـ يـرـزـقـهـ وـيـعـافـهـ»^(٤) وـقـدـ قـالـ اللهـ تعالىـ: «وـكـأـيـنـ مـنـ قـرـيـةـ أـمـلـيـتـ لـهـ وـهـيـ ظـالـمـ ثـمـ أـخـذـتـهـ وـإـلـيـ الـمـصـيرـ» [الـحـجـ: ٤٨] وـقـالـ تعالىـ: «وـلـاـ تـحـسـبـنـ اللهـ غـافـلاـ عـمـاـ يـعـمـلـ الـظـالـمـونـ إـنـمـاـ يـؤـخـرـهـمـ لـيـومـ تـشـخـصـ فـيـ الـأـبـصـارـ» [إـبـراهـيمـ: ٤٢] وـلـهـذاـ قـالـ هـنـاـ: «فـوـيـلـ لـلـذـينـ كـفـرـواـ مـنـ شـهـيدـ يـوـمـ عـظـيمـ» أيـ يومـ الـقـيـمةـ . وـقـدـ

(١) انظر تفسير الطبرـيـ ٣٤١/٨.

(٢) القـاماـةـ: الدـيرـ.

(٣) أخرـجـ البـخارـيـ فـيـ تـفـسـيرـ سـورـةـ ١١ـ ، بـابـ ٥ـ ، وـمـسـلـمـ فـيـ البرـ حـدـيـثـ ٦٢ـ ، وـالـتـرمـذـيـ فـيـ تـفـسـيرـ سـورـةـ ١١ـ ، بـابـ ٢ـ ، وـابـنـ مـاجـهـ فـيـ الفـتنـ بـابـ ٢٢ـ .

(٤) أخرـجـ البـخارـيـ فـيـ التـوـحـيدـ بـابـ ٣ـ ، وـالـأـدـبـ بـابـ ٧١ـ ، وـمـسـلـمـ فـيـ الـمـنـافـقـينـ حـدـيـثـ ٤٩ـ ، وـأـحـمدـ فـيـ المسـنـدـ ٤٠١ـ ، ٤٠٥ـ .

جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمه ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(١).

أَسْمَعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ يَأْتُونَا لِكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَنذَرْهُمْ يَوْمَ الْحِسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا نَخْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيمة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، كما قال تعالى: «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصراً وسمينا» [السجدة: ١٢] الآية، أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاناة العذاب لكان نافعاً لهم ومتقدماً من عذاب الله، ولهذا قال: «أسمع بهم وأبصر» أي ما أسمعهم وأبصرهم «يوم يأتوننا» يعني يوم القيمة «لكن الظالمون اليوم» أي في الدنيا «في ضلال مبين» أي لا يسمعون ولا يصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهداي لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: «وأنذرهم يوم الحسرة» أي أنذر الخلاقين يوم الحسرة «إذ قضي الأمر» أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، «وهم» أي اليوم «في غفلة» عما أنذروه به يوم الحسرة والندامة «وهم لا يؤمنون» أي لا يصدقون به.

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة وأهل النار النار، ي جاء بالموت كأنه كيش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا، قال: فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت - قال - فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت - قال - فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» ثمقرأ رسول الله ﷺ: «وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون» وأشار بيده^(٣) ثم قال «أهل الدنيا في غفلة الدنيا» هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الأعمش به، ولفظهما قريب من ذلك. وقد روی هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثني أسباط بن محمد

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٤٧، ومسلم في الإيمان حديث ٤٦، وأحمد في المسند ٥/٣١٤.

(٢) المسند المسند ٣/٩.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٩، باب ١، ومسلم في الجنة حديث ٤٠، والترمذى في الجنة باب ٢٠.

عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً مثله ، وفي سنن ابن ماجه وغيره من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة نحوه ، وهو في الصحيحين عن ابن عمر .

ورواه ابن حرير قال: قال ابن عباس فذكر من قبله نحوه ، ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة فيذبح والناس ينظرون ، وقال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل: حدثنا أبو الزعراء عن عبد الله هو ابن مسعود في قصة ذكرها ، قال: فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار وهو يوم الحسرة ، فيرى أهل النار القيت الذي في الجنة ، ويقال لهم لو عملتم ، فتأخذهم الحسرة ، قال: ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار ، فيقال لهم لولا أن الله من عليكم .

وقال النبي عن زياد عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأُمُورُ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة وأهل النار ، أتي بالموت في صورة كبش أملع حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في أهل عاليين ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه ، ثم ينادي مناد: يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في ضحاصح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادي: يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين ، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين ، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا ، ويشهد أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأُمُورُ﴾ يقول إذا ذبح الموت ، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ من أسماء يوم القيمة عظمه الله وحضره عباده وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيمة ، وقرأ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [المر: ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرَثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخليق كلهم يهلكون ويبيقى هو تعالى وتقديس ، ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقى بعدهم الحاكم فيهـم ، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة . قال ابن أبي حاتم: ذكر هدبـة بن خالد القيسي ، حدثنا حزم بن أبي حزم القطـيعي قال: كتب عمر بن عبد العزـيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفـة: أما بعد ، فإن الله كتب على خلقـهم حين خلقـهم الموت ، فجعل مصيرـهم إليه ، وقال فيما أنـزل في كتابـه الصـادق الذي خلقـه بعلـمه وأـشهد ملـائكتـه على حـفظه: إنه يـرث الأرض

ومن عليها وإليه يرجعون^(١).

وَذَكْرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا كَانَ صَدِيقَاتِنَا إِذْ قَالَ لِأُبَيِّ يَأْبَى أَنْ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبَصِّرُ وَلَا يُغْنِي
عَنِّي شَيْئاً يَأْبَى إِنْ تَجَاءَنِي مِنْ أَنْعَمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَأَنْبَعْتُهُ أَهْدِكَ صِرَاطَ سَوْيَا يَأْبَى لَا تَعْبُدُ
الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِرَحْمَنِ عَصِيَّا يَأْبَى إِنْ أَخَافُ أَنْ يَسْكُنَ عَذَاباً مِنْ رَحْمَنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِنَا

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: «وَادْكُر فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ» واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن. الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه، كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: «يَا أَبَتْ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبَصِّرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً» أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً «يَا أَبَتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ» يقول: وإن كنت من صلبك وترايني أصغر منك لأنني ولدك، فاعلم أنني قد أطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا أطلعت عليه ولا جاءك «فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوْيَا» أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب «يَا أَبَتْ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ» أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: «إِنَّمَا أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ يَابْنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُبِينٌ» [يس: ٦٠] وقال: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مُرِيدًا» [النساء: ١١٧].

وقوله «إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِرَحْمَنِ عَصِيَّا» أي مخالفًا مستكبراً عن طاعة ربها، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله «يَا أَبَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَسْكُنَ عَذَاباً مِنْ رَحْمَنِ» أي على شركك وعصيائلك لما أمرك به «فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِنَا» يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتبعائك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: «قَاتَ اللَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّ مِنْ قَبْلِكَ فَزِينْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النحل: ٦٣].

قَالَ رَأَيْتُ أَنَّمَا يَعْبُدُهُمْ لَهُنَّ أَخْرَجُوهُنَّ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْبَطْنَا فِي مَلَيْنَا قَالَ سَلَّمُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِحُفْيَنَا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوكُمْ إِلَى عَسَى إِلَّا أَنْ تُؤْمِنُ بِدُعَائِهِ رَبِّ شَقِيقَ

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: «أَرَاغَبْ أَنْتَ عَنْ أَهْلِهِي يَا إِبْرَاهِيمَ» يعني إن كنت لا ت يريد عبادتها ولا ترضاهما، فانته عن سبها وشتمها

وعيها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصرت منك وشمتتك وسبتك، وهو قوله: ﴿لأرجمنك﴾ قاله ابن عباس والسدی وابن جریح والضحاک وغيرهم، قوله: ﴿واهجرني مليا﴾ قال مجاهد وعکرمة وسعید بن جبیر ومحمد بن إسحاق: يعني دھراً. قال الحسن البصري: زماناً طویلاً. وقال السدی ﴿واهجرني مليا﴾ قال: سوياً سالماً قبل أن تصبیک منی عقوبة، وكذا قال الضحاک وقتادة وعطيۃ الجدلی ومالك وغيرهم، واختاره ابن جریر، فعندهما قال إبراهیم لأبیه: ﴿سلام عليك﴾ كما قال تعالیٰ في صفة المؤمنین: ﴿إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالیٰ: ﴿إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولکم أعمالکم سلام عليکم لا نبغي الجاهلين﴾ [القصص: ٥٥] ومعنى قول إبراهیم لأبیه ﴿سلام عليك﴾ يعني أما أنا فلا ينالک منی مکروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة ﴿استغفر لك ربی﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهدیک ویغفر ذنبک ﴿إنه كان بي حفیا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطیفاً، أي في أن هداني لعبادته والإخلاص له.

وقال قتادة ومجاهد وغيرهما: ﴿إنه كان بي حفیا﴾ قال عوده الإجابة. وقال السدی: الحفی الذي یهتم بأمره، وقد استغفر إبراهیم ﷺ لأبیه مدة طویلة وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنی المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعیل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنین يوم يقوم الحساب﴾ [ابراهیم: ٤١] وقد استغفر المسلمون لقرباباتهم وأهليهم من المشرکین في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهیم الخلیل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهیم والذین معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منکم وما تعبدون من دون الله﴾ - إلى قوله - ﴿إلا قول إبراهیم لأبیه لاستغفرون لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ [الممتحنة: ٤] الآية، يعني إلا في هذا القول، فلا تأسوا به، ثم بين تعالیٰ أن إبراهیم أفلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالیٰ: ﴿ما كان للنبي والذین آمنوا أن يستغفروا للمشرکین﴾ - إلى قوله - ﴿وما كان استغفار إبراهیم لأبیه إلا عن موعدة وعدها إیاه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهیم لأوه حلیم﴾ [التوبۃ: ١١٣ - ١١٤]. قوله: ﴿وأعتزلکم وما تدعون من دون الله وأدعو ربی﴾ . أي وأعبد ربی وحده لا شریک له ﴿عسى أن لا أكون بداع ربی شقیا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سید الأنبياء بعد محمد ﷺ.

فَلَمَّا أَعْزَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبَتْ لَهُمْ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَلَا جَعَلْنَا نَبِيًّا
وَوَهَبْنَا لَهُمْ لِسَانًا صِدْقٍ عَلَيْهَا

يقول تعالیٰ: فلما اعتزل الخلیل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خیر منهم، ووهب له إسحاق ویعقوب يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ویعقوب نافلہ﴾

[الأنياء: ٧٢] وقال **﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾** [هود: ٧١] ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: **﴿أَمْ كَتَمْ شَهَادَةً إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَبْدِلُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكُمْ وَإِلَهَ أَبَائِكُمْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾** [البقرة: ١٣٣] ولهذا إنما ذكر هنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلاً وعقبًاً نبياءً أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: **﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾** فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبى في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضًا.

كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خبر الناس، فقال: «يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله»^(١)، وفي اللفظ الآخر «إن الكريمة ابن الكريمة ابن الكريمة ابن الكريمة يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»^(٢).

وقوله **﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسانَ صَدِيقِ عَلِيِّا﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الثناء الحسن، وكذا قال السدي ومالك بن أنس، وقال ابن جرير^(٣): إنما قال علياً لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّمَا كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَذِيَّةً وَمِنْ جَانِبِ الْطُورِ الْأَيْمَنِ وَقَرْبَتْهُ نَجِيَّةٌ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَنَنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذلك الكليم، فقال: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾** قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة. قال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله أخبرنا عن المخلص الله؟ قال: الذي يعمل الله لا يحب أن يحمده الناس، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: **﴿إِنِّي أَصْطَفْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾** [الأعراف: ١٤٤] **﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾** جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: **﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُورِ﴾** أي الجبل **﴿الْأَيْمَنِ﴾** من موسى حين ذهب يتبعي من تلك النار جذوة فرأها تلوح، فقصدتها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه. روى ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٨، ١٤، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ١٩، والمناقب باب ١٣، وتفسير سورة ١٢ باب ١.

(٣) تفسير الطبراني /٨ ٣٥٠.

هو القبطان، حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس **﴿وَقَرْبَنَا نَجِيَا﴾** قال: أدنى حتى سمع صریف القلم^(١)، وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم: يعنون صریف القلم بكتابۃ التوراة. وقال السدی: **﴿وَقَرْبَنَا نَجِيَا﴾** قال: أدخل في السماء فکلم، وعن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة **﴿وَقَرْبَنَا نَجِيَا﴾** قال: نجا بصدقه. وروى ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحراني عن أبي واصل، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن معد يکرب قال: لما قرب الله موسى نجيا بطور سیناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وقوله: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾** أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناهنبياً، كما قال في الآية الأخرى **﴿وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَنْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَاهُ مَعِي رَدْءَأَيْضَدْتُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكْذِبُنِي﴾** [القصص: ٣٤] وقال: **﴿فَقَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾** [طه: ٣٦] وقال: **﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيْهِ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُنِي﴾** [الشعراء: ١٣ - ١٤] ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكوننبياً، قال الله تعالى: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾** قال ابن جریر: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علیة عن داود عن عکرمة قال: قال ابن عباس قوله: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾** قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له، وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقاً عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقي به.

وَذَكْرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلُ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكُوْةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جریر: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها. وقال ابن جریر^(٢): حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن سهل بن عقیل حدثه أن إسماعیل النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه، ف جاء ونسنی الرجل، فظل به إسماعیل وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برح من هنا؟ قال: لا. قال: إني نسيت قال: لم أكن أبح حتى تأتيني، فلذلك **﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾** وقال سفيان الثوري: يلغني أنه أقام في ذلك المكان يتظاهره حولاً حتى

(١) انظر تفسیر الطبری ٣٥١/٨.

(٢) تفسیر الطبری ٣٥١/٨، ٣٥٢.

جاءه وقال ابن شوذب : بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع مسكنًا .

وقد روى أبو داود في سنته ، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه مكارم الأخلاق ، من طريق إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الكريم يعني ابن عبد الله بن شقيق ، عن أبيه عن عبد الله بن أبي الحمساء ، قال : بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث ، فبقيت له على بقية ، فوعده أن آتني بها في مكانه ذلك ، قال : فنسحت يومي والغد ، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك ، فقال لي : « يا فتى لقد شفقت عليّ ، أنا ه هنا منذ ثلاث أنتظرك »^(١) لفظ الخرائطي وساق آثاراً حسنة في ذلك ، ورواه ابن منه أبو عبد الله في كتاب معرفة الصحابة بإسناده عن إبراهيم بن طهمان ، عن بديل بن ميسرة عن عبد الكريم به .

وقال بعضهم : إنما قيل له : « صادق الوعد » لأنَّه قال لأبيه : « ستُجذبني إن شاء الله من الصابرين » [الصفات : ١٠٢] فصدق في ذلك ، فصدق الوعد من الصفات الحميَّدة كما أنَّ خلفه من الصفات الذمِّيَّة ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مفتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » [الصف : ٢ - ٣] وقال رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »^(٢) ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين ، ولهذا أثَنَ الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد ، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضًا لا يعد أحدًا شيئاً إلا وفي له به ، وقد أثَنَ على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ، فقال : « حدثني فصدقني ، ووعدي فوفى لي »^(٣) ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له ، ف جاء جابر بن عبد الله فقال إن رسول الله ﷺ قال : « لو كان جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا » يعني ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابرًا فغرف بيديه من المال ، ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها .

و قوله : « وكان رسولًا نبيًّا » في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ، لأنَّه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة . وقد ثبت في صحيح مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل »^(٤) وذكر تمام الحديث ، فدل على صحة ما قلناه . و قوله : « وكان يأمر أهله بالصلوة والزكاة وكان عند ربه مرضياً » هذا أيضًا من الثناء الجميل والصفة الحميَّدة ، والخلة السديدة ، حيث كان مثابرًا على طاعة ربِّه عز وجل ،

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات باب ٢٨ ، ومسلم في الإيمان حديث ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٣) أخرجه البخاري في الشروط باب ٦ ، والشهادات باب ٢٨ ، وفضائل أصحاب النبي باب ١٦ ، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٩٥ .

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١ ، والترمذى في المناقب باب ١ ، وأحمد في المسند ٤ / ١٠٧ .

أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: «وأمر أهلك بالصلوة واصطبر عليها» [طه: ١٣٢] الآية، وقال: «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» [التحريم: ٦] أي مروهم بالمعروف وانهواهم عن المنكر ولا تدعوه هملاً، فتأكلهم النار يوم القيمة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبى نضحت في وجهها الماء». رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهها الماء»^(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه. وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكريات»^(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له.

وَذَكْرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسٌ إِنَّمَا كَانَ صَدِيقَنِيَّةً وَرَفِعَنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهِ

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة. وقد روى ابن جرير^(٣) هنا أثراً غريباً عجيباً فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم عن سليمان الأعمش عن شمر بن عطيه عن هلال بن يساف قال: سأله ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له: ما قول الله عز وجل لإدريس «ورفعناه مكاناً علياً» فقال كعب: أما إدريس، فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميعبني آدم، فأحب أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال له: إن الله أوحى إليكذا وكذا، فكلم لي ملك الموت فليؤخري حتى أزداد عملاً، فحمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هوذا على ظهرى. قال ملك الموت: العجب، بعثت وقل لي: أقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك قوله الله «ورفعناه مكاناً علياً» هذا من أخبار كعب الأخبار الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة، والله أعلم.

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجہ آخر عن ابن عباس أنه سأله كعباً فذكر نحو ما تقدم، غير أنه

(١) أخرجه أبو داود في الطوع باب ١٨، والوتر باب ١٣، والنسائي في قيام الليل باب ٥، وأحمد في المسند ٢/٤٣٦، ٢٥٠، وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الطوع باب ١٨، وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٥.

(٣) تفسير الطبرى ٣٥٢/٨

قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله، يعني ملك الموت، كم بقي من أجلني لكي أزداد من العمل، وذكر باقيه وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال: لا أدرى حتى أظر، فنظر ثم قال: إنك تسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جناحه فإذا هو قد قبض عليه السلام وهو لا يشعر به، ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يغزو إبرة إلا قال: سبحان الله، فكان يمسى حين يمسى وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه، وذكر بقائه كالذى قبله أو نحوه.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: **﴿وَرَفِعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهَا﴾** قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى، وقال سفيان عن منصور عن مجاهد **﴿وَرَفِعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهَا﴾** قال: السماء الرابعة، وقال العوفي عن ابن عباس **﴿وَرَفِعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهَا﴾** قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقال الحسن وغيره في قوله: **﴿وَرَفِعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهَا﴾** قال: الجنة.

**أَوْتَيْكَ اللَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّنْ أَنْتَيْكَنَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمَمْنَ حَمَلْنَا مَعَ ثُوُّجَ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمَمْنَ
هَدَيْنَا وَلَجَنَّتِنَا إِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ إِيمَانُ الرَّحْمَنِ حَرُّهُ وَأَسْجَدَهُ وَبَيْكَنَ**

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - **﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ مِّنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾** الآية، قال السدي وابن جرير رحمه الله. فالذى عنى به من ذرية إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح (قلت) هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام، وقد قيل إنه من أنبياءبني إسرائيل أخذ من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل ولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهم السلام.

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أبناؤنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن محمد أن إدريس أقدم من نوح، فبعثه الله إلى قومه فأمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاؤوا، فأبوا فأهلكهم الله عز وجل، ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: **﴿وَنَلَكَ حِجَّتَنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مِّنْ نَشَاءِ إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهْبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلَّا هَدَيْنَا وَنَوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلِ
وَمِنْ ذُرِّيَّةِ دَاوِدَ وَسَلِيمَانَ وَأَيُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكْرِيَا**

ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلأ فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم» - إلى قوله - «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» [الأنعام: ٩٠ - ٨٣] وقال سبحانه وتعالى : «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» [غافر: ٧٨].

وفي صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأله ابن عباس : أفي ﴿ص﴾ سجدة ؟ فقال : نعم، ثم تلا هذه الآية : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» [الأنعام: ٩٠] فنبهكم ممن أمر أن يقتدى بهم، قال : وهو منهم، يعني داود^(١).

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة : «إذا تلئ عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً» أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وإبراهيم، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة وحمدأً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكاء جمع بالك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم . قال سفيان الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي عمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم ، فسجد وقال : هذا السجود فأين البكاء ؟ يريد البكاء ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وسقط من رواه ذكر أبي عمر فيما رأيت ، فالله أعلم .

﴿فَلَفَّ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ أَصْنَاعِهَا أَشْهُوَتْ سَفَوْرَ يَلْقَوْنَ عَيْنَاهُنَّ ۚ ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَلِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۖ ۖ﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه «خلف من بعدهم خلف» أي قرون آخر «أصنعوا الصلاة» وإذا أصنعواها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيّاً ، أي خساراً يوم القيمة ، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هنا فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن أسلم والسدي ، واختاره ابن جرير ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة للحديث «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»^(٢) . والحديث الآخر «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٣٩ ، وتفسير سورة ٦ ، باب ٥ ، وسورة ٣٨ ، باب ١ ، وأحمد في المستند ١ / ٣٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٣٤ ، وأبو داود في السنة باب ١٥ ، والترمذني في الإيمان باب ٩ ، وابن ماجه في الإقامة باب ١٧ ، والدارمي في الصلاة باب ٢٩ .

فمن تركها فقد كفر^(١) وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله: «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة» قال: أي أضاعوا المواقت ولو كان تركاً كان كفراً^(٢). وقال وكيع عن المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سعد عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكره ذكر الصلاة في القرآن «الذين هم عن صلاتهم ساهون» [الماعون: ٥] و«على صلاتهم دائمون» [المعارج: ٢٣] و«على صلاتهم يحافظون» [الأنعام: ٩٢] فقال ابن مسعود: على مواقتها. قالوا: ما كان رأى ذلك إلا على الترك، قال ذلك الكفر، قال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن إضاعتنهن عن وقتهم.

وقال الأوزاعي عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً» ثم قال: لم تكن إضاعتكم تركها ولكن أضاعوا الوقت، وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد «فخالف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات» قال: عند قيام الساعة وذهب صالح أمة محمد عليه السلام ينزو بعضهم على بعض في الأزقة، وكذا روى ابن جريج عن مجاهد مثله، وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رياح أنهم من هذه الأمة، يعنون في آخر الزمان.

وقال ابن جرير^(٣): حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات» قال: هم في هذه الأمة يتراکبون تراكب الأئمّة والحرم في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحبون من الناس في الأرض وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقربي، حدثنا حمزة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني أن الوليد بن قيس حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله عليه السلام يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيّاً، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعلو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق وفاجر» وقال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به. والفاجر يأكل به» وهكذا رواه أحمد^(٤) عن أبي عبد الرحمن المقربي به.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أبناؤنا عيسى بن يونس،

(١) أخرجه الترمذى في الإيمان باب ٩، والنمسائى في الصلاة باب ٨، وابن ماجه في الإقامة باب ٧٧، ٧٨، والفتن باب ٢٣، وأحمد في المستند ٣٤٦/٥، ٣٥٥.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٨/٣٥٤.

(٣) تفسير الطبرى ٨/٣٥٥.

(٤) المستند ٣/٣٨، ٣٩.

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن وهب عن مالك عن أبي الرجال أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الصفة، وتقول: لا تعطوا منه بربيراً، ولا ببربرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى فيهم: فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة» هذا الحديث غريب. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد حدثنا حريز عن شيخ من أهل المدينة أنه سمع محمد بن كعب القرظي يقول في قول الله: «فخلف من بعدهم خلف» الآية، قال: هم أهل الغرب يملكون وهم شر من ملك.

وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل: شرّابين للقهوة^(١)، تراكيين للصلوات، لغابين بالكعبات، رقادين عن العumas، مفرطين في الغدوات، تاركين للجماعات، قال: ثم تلا هذه الآية «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً» وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات. وقال أبو الأشهب العطاردي: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عن محبوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهواه أن أحarme من طاعتي.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا أبو السمح التميمي عن أبي قبيل أنه سمع عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف على أمتي الثنتين: القرآن، والبن» أما البن فيتبعون الريف ويتبعون الشهوات ويتركون الصلاة، أما القرآن فيتعلمه المنافقون فيجادلون به المؤمنين، ورواه عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة: حدثنا أبو قبيل عن عقبة به، مرفوعاً بتحوه، تفرد به.

وقوله: «فسوف يلقون غيّاً» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «فسوف يلقون غيّاً» أي خسراناً، وقال قتادة: شرّاً، وقال سفيان الثوري وشعبة ومحمد بن إسحاق عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود «فسوف يلقون غيّاً» قال: واد في جهنم بعيد القرعر، خبيث الطعم. وقال الأعمش عن زياد عن أبي عياض في قوله: «فسوف يلقون غيّاً» قال: واد في جهنم من قبح ودم.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير^(٣): حدثني عباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن زياد، حدثنا شرقي بن قطامي عن لقمان بن عامر الخزاعي قال: جئت أبا أمامة صدي بن عجلان الباهلي، فقلت: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فدعا ب الطعام، ثم قال قال

(١) التهوة: هي الخمرة.

(٢) المستند ٤/١٤٦، ١٥٦.

(٣) تفسير الطبرى ٨/٣٥٦.

رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنْ صَخْرَةً زَنْةً عَشْرَ أَوْاقِ قَذْفَ بَهَا مَا بَلَغَتْ قُعْدَهَا خَمْسِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ تَنْتَهِي إِلَى غَيْ وَآثَامٍ» قال: قلت ما غي وآثام؟ قال: قال: «بَئْرَانٌ فِي أَسْفَلِ جَهَنَّمِ يَسِيلُ فِيهِمَا صَدِيدٌ أَهْلُ النَّارِ» وَهُمَا اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيَّاً﴾ وَقَوْلُهُ فِي الْفُرْقَانِ: ﴿وَلَا يَزَنُونَ وَمَنْ يَفْعُلْ ذَلِكَ يُلْقِي أَثَاماً﴾ [الفرقان: ٦٨] حديث غريب ورفعه منكر.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها، وفي الحديث الآخر «الثَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(١) ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قabilوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها، لأن ذلك ذهب هدراً وترك نسياناً، وذهب مجاناً من كرم الكرييم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء هنا ك قوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخَرَ وَلَا يَقْتَلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ - إلى قوله - ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

جَنَّتِ عَدْنٍ أَلَّى وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّمَا كَانَ وَعْدُ مَائِيَّا ﴿١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَمْ يَرْزُقُهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيَّاً ﴿٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي تُرِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ يَقِيَّاً

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن، أي إقامة التي وعد الرحمن عباده بظهور الغيب، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدَهُ مَائِيَّا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدل، ك قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مُفْعُولًا﴾ [المزمول: ١٨] أي كائناً لا محالة، قوله هنا: ﴿مَائِيَّا﴾ أي العباد صاثرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال ﴿مَائِيَّا﴾ بمعنى آتياً لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت علي خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا. قوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيْمًا إِلَّا قِيَّلًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦] وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيَّاً﴾ أي في مثل وقت الباردات وقت العشييات لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٠.

(٢) المستند ٢٣٦.

همام عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلجم الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصقون فيها، ولا يتخططون فيها. ولا ينغوطن، آتنيهم وأماشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة»^(١) ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا»^(٢) آخر جاه في الصالحين من حديث معمر به.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثنا الحارث بن فضيل الأنباري عن محمود بن ليد الأنباري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً» تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال الضحاك عن ابن عباس: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً» قال: مقادير الليل والنهار.

وقال ابن جرير^(٤): حدثنا علي بن سهم، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً» قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، ويعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب، وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم عن خليل عن الحسن البصري، وذكر أبواب الجنة فقال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتتكلم فتهُمُّهم، انفتحي انغلقي فتفعل، وقال قتادة في قوله: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً» فيها ساعتان بكرة وعشى، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور، وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتتهون في الدنيا.

وقال الحسن وقتادة وغيرهما: كانت العرب الأنعم فيهم من يتغدى ويتعشى، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من التعميم فقال تعالى: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً» وقال ابن مهدي عن حماد بن زيد عن هشام عن الحسن: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً» قال: البكور يرد على العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثني أبي حدثني محمد بن زياد قاضي أهل شمشاط عن عبد الله بن حذير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما من غدأة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولی الله، فيها زوجة من الحور العين أدناهن التي خلقت من الزعفران» قال أبو محمد: هذا حديث غريب منكر.

(١) الألوة: العود الذي يتخرّب به.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، ومسلم في الجنة حديث ١٤، ١٦.

(٣) المسند ٢٦٦ / ١.

(٤) تفسير الطبرى ٣٥٨ / ٨.

وقوله: ﴿تَلِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نَوَرْتَ مِنْ عَبْدَنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة، هي التي نورتها عبادنا المتقيين، وهم المطهرون الله عز وجل في السراء والضراء، والكافرون الغيظ، والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

وَمَا نَنْزَلَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَمْكُرْ أَيْدِيَنَا وَمَا حَلَفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبِّكَ نَسِيًّا ۝ ۝ ۝
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَنْهَا فَاعْبُدُهُ وَاصْطَبِرْ لِعِنْدِهِ ۝ ۝ ۝ هَلْ تَأْمُرُ لَمْ يُسَمِّيَ ۝ ۝ ۝

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يعلى ووكيع قالا: حدثنا عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَنْزَلَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(٢) إلى آخر الآية.

انفرد بإخراج البخاري فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم عن عمر بن ذر به ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عمر بن ذر به وعندهما زيادة في آخر الحديث فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ وقال العوفي عن ابن عباس احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن فأتاه جبريل وقال: يا محمد ﴿وَمَا نَنْزَلَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية.

وقال مجاهد لبيث جبرائيل عن محمد ﷺ أثنتي عشرة ليلة، ويقولون أقل، فلما جاءه قال: «يا جبرائيل لقد رشت^(٣) على حتى ظن المشركون كل ظن» فنزلت ﴿وَمَا نَنْزَلَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. قال: وهذه الآية كالتي في الضحى، وكذلك قال الصحاح بن مازام وقتادة والسدي وغير واحد: إنها نزلت في احتباس جبرائيل. وقال الحكم بن أبيان عن عكرمة قال: أبطأ جبرائيل النزول على النبي ﷺ: أربعين يوماً، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ «ما نزلت حتى اشتقت إليك» فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور، فأوحى الله إلى جبرائيل أن قل له ﴿وَمَا نَنْزَلَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية، ورواه ابن أبي حاتم رحمه الله وهو غريب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على النبي ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له «ما حبسك يا جبريل؟» فقال له جبريل: وكيف نأيكم وأتتم لا تقصون أظفاركم، ولا تتقون برامجكم^(٤)، ولا تأخذون

(١) المستند ١/ ٢٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٩ ، باب ٢ ، والتوحيد باب ٢٨ ، وبده الخلق باب ٦ ، والترمذمي في تفسير سورة ١٩ ، باب ٤ .

(٣) لقد رشت على: أي لقد أبطأت على.

(٤) البراجم: هي العقود التي في ظهور الأصابع، يجتمع فيها الوسخ، الواحدة: بُرْجَمَة، وإنقاذهما:

شواربكم، ولا تستاكون. ثم قرأ ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. وقد قال الطبراني: حدثنا أبو عامر النحوي، حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرني ثعلبة بن مسلم عن أبي كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس عن النبي ﷺ أن جبرائيل أبطأ عليه ذكر له ذلك، فقال: وكيف وأنت لا تستثنون، ولا تقلمون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تنقون رواجبكم؟^(١) وهكذا رواه الإمام أحمد^(٢) عن أبي اليمان عن إسماعيل بن عياش عن ابن عباس بنحوه.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب عن مالك بن دينار، حدثني شيخ من أهل المدينة عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أصلحي لنا المجلس فإنه ينزل ملك إلى الأرض لم ينزل إليها قط».

وقوله: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِنَا وَمَا خَلْفِنَا» قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة، «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» ما بين النفحتين، هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في رواية عنهم، والسدسي والربيع بن أنس، وقيل: «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِنَا» ما يستقبل من أمر الآخرة «وَمَا خَلْفِنَا» أي ما مضى من الدنيا «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» أي ما بين الدنيا والآخرة، ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثورى، واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم.

وقوله: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» قال مجاهد معناه ما نسيك ربك^(٤)، وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله: «والضَّحْيَ وَاللَّلِيلُ إِذَا سُجِّيَ مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» [الضحى: ١ - ٣]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان يعني أبي الجماهر، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حمزة عن أبيه عن أبي الدرداء يرفعه قال «مَا أَحَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَمَهُ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسِيْ شَيْئًا» ثم تلا هذه الآية «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»^(٥).

وقوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أي خالق ذلك ومديره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه «فَاعْبُدْهُ وَاصْطِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لِهِ سَمِيًّا» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شيئاً، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير

نظيفها.

(١) الواجب: ما بين عقد الأصابع من داخل، واحدها: راجبة.

(٢) المستند ١/٢٤٣.

(٣) المستند ٦/٢٩٦.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٨/٣٦١.

(٥) انظر الدر المثور ٤/٥٠٢.

وقتادة وابن جریح وغيرهم . وقال عکرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقديس اسمه .

وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجْ حَيَا ۝ أَوْلَا يَذَكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ۝ فَوَرِبَكَ لَنْحَشِرْنَاهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنْحَضِرَنَاهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ۝ حِتَّىٰ ۝ ثُمَّ لَنْتَزَعَنَ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيْهُمْ أَشَدُ عَلَى الرَّحْمَنِ عِنْتَ ۝ ثُمَّ لَنَخْ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلَيْتَ ۝

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد بإعادته بعد موته ، كما قال تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أتنا لفي خلق جديد » [الرعد: ٥] وقال : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصم مبين وضرب لنا مثلاً ونبي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » [يس: ٧٧ - ٧٩] وقال ه هنا : « ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياً أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولو يك شيئاً » يستدل تعالى بالبداء على الإعادة ، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً ، أفالاً يعيده وقد صار شيئاً ، كما قال تعالى : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » [الروم: ٢٧] وفي الصحيح « يقول الله تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذني ، أما تكذبيه إباهي قوله لن يعيديني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون على من آخره ، وأما أهاده إباهي قوله إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (١) .

وقوله : « فوربك لتحشرنهم والشياطين » أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله « ثم لتحضرنهم حول جهنم جيئاً » قال العوفي عن ابن عباس : يعني قعوداً كقوله : « وترى كل أمة جاثية » [الجاثية: ٢٨] وقال السدي في قوله جيئاً : يعني قياماً ، وروي عن مرة عن ابن مسعود مثله . وقوله : « ثم لتنزعن من كل شيعة » يعني من كل أمة ، قال مجاهد « أيهم أشد على الرحمن عتيماً » قال الثوري عن علي بن الأقمر عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكباب فالأكباب جرماً ، وهو قوله : « ثم لتنزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيماً » .

وقال قتادة : « ثم لتنزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيماً » قال : ثم لتنزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤسائهم في الشر ، وكذا قال ابن جریح وغير واحد من السلف ، وهذا قوله تعالى : « حتى إذا ادارکوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلتنا فاتهم

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢ ، باب ٨ ، وسورة ١١٢ ، باب ١ ، ٢ ، والنمسائي في الجنائز باب ١١٧ ، وأحمد في المسند ٣١٧ / ٢ ، ٣٥٠

عذاباً ضعفاً من النار» - إلى قوله - «بما كنتم تكسبون» [الأعراف: ٣٨ - ٣٩] وقوله: «ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلباً» ثم هنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبين يستحق تضييف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة «قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون».

وَإِنْ تَسْكُنْ إِلَّا وَارْدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَّمًا مَقْضِيَا ۝ ثُمَّ شَجَّى الَّذِينَ أَتَقْوَا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِئْنَا ۝

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضاً: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضاً: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً، وقال سليمان بن مرة: يدخلونها جميعاً، وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه، وقال: صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويدر الظالمين فيها جيئاً» غريب ولم يخرجوه.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية عن بكار بن أبي مروان عن خالد بن معدان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوها الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررت علىها وهي خامدة^(٢)، وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله عز وجل «وإن منكم إلا واردتها» فلا أدرى أنجو منها أم لا - وفي رواية، وكان مريضاً^(٣).

وقال ابن حجر^(٤): حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان عن مالك بن مغول عن أبي إسحاق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبي ميسرة؟ قال: أخبرنا أنا واردوها ولم تُخبرَ أنا صادرون عنها، وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أتك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أتك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيهم الصحك؟ قال: مما رُئي ضاحكاً حتى لحق بالله^(٥). وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو، أخبرني من سمع ابن عباس يخاطب

(١) المستند / ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) انظر تفسير الطبرى / ٨، ٣٦٤.

(٣) انظر تفسير الطبرى / ٨، ٣٦٥.

(٤) تفسير الطبرى / ٨، ٣٦٥.

(٥) انظر تفسير الطبرى / ٨، ٣٦٧.

نافع بن الأزرق فقال ابن عباس: الورود الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنت لها واردون» [الأنبياء: ٩٨] وردوا أم لا، وقال: «يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار» [هود: ٩٨] أوردها أم لا، أما أنا وأنت فسندخلها. فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع^(١).

وروى ابن جريج عن عطاء قال: قال أبو راشد الحروري وهو نافع بن الأزرق «لا يسمعون حسيسها» فقال ابن عباس: ويلك، أمجون أنت؟ أين قوله: «يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار» «ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً» «وإن منكم إلا واردتها» والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجنِي من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً^(٢). وقال ابن جرير^(٣): حدثني محمد بن عبد المحاريبي، حدثنا أسباط عن عبد الملك عن عبيد الله عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله: «وإن منكم إلا واردتها كان على ربك حتى مقتضياً»؟ قال: أما أنا وأنت يا أبي راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة: أخبرني عبد الله بن السائب عن سمع ابن عباس يقرؤها «وإن منهم إلا واردتها» يعني الكفار^(٤)، وهكذا روى عمر بن الوليد الشنّي أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك «وإن منهم إلا واردتها» قال وهم الظلمة كذلك كنا نقرؤها، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس: قوله: «وإن منكم إلا واردتها» يعني البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: «يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار» [هود: ٩٨] الآية، «ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً» [مريم: ٨٦] فسمى الورود على النار دخولاً وليس بصادر^(٥).

وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا عبد الرحمن عن إسرائيل عن السدي، عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود «وإن منكم إلا واردها» قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم»^(٧) ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عبيد الله عن إسرائيل عن السدي به. ورواه من طريق شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود موقعاً، هكذا وقع هذا الحديث هنا مرفوعاً.

(١) انظر تفسير الطبرى ٨/٣٦٤.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٨/٣٦٤.

(٣) تفسير الطبرى ٨/٣٦٧.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٨/٣٦٦.

(٥) انظر تفسير الطبرى ٨/٣٦٤.

(٦) المستند ١/٤٣٤، ٤٣٥.

(٧) آخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٩، باب ٥، ٦، والدارمى في الرقاق باب ٨٩.

وقد رواه أسباط عن السدي عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جمِيعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مرأة رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، يمر فيتكتفاً به الصراط، والصراط دحْض^(١) مزلة عليه حسك كحسك القتاد^(٢)، حفاته ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير^(٣): حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قوله: «وإن منكم إلا واردها» قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم. ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في الصحيحين

وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وقال ابن جرير^(٤): حدثني يعقوب، حدثنا ابن علي عن الجرجيري عن أبي السليل عن غنيم بن قيس قال: ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار الناس كأنها متن إهالة حتى يستوي عليها أقدام الخلاق: برهن وفاجرهم، ثم يناديها مناد: أن أمسكي أصحابك ودعني أصحابي، قال فتخسف بكلولي لها، وهي أعلم بهم من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين، يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعمائة ألف.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، عن أم مبشر عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرأ والحدبية» قالت: فقلت أليس الله يقول: «وإن منكم إلا واردها» قالت: فسمعته يقول «ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها حشا».

وقال أحمد^(٦) أيضاً: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت: كان رسول الله ﷺ في بيته حفصة فقال: «لا يدخل النار أحد

(١) دحْض: زلق.

(٢) الحسك: الشوك، والقتاد: شجر له شوك.

(٣) تفسير الطبرى / ٨ ، ٣٦٥ / ٣٦٦.

(٤) تفسير الطبرى / ٨ .

(٥) المسند / ٦ .

(٦) المسند / ٦ .

شهد بدرأً والحدبية» قالت حفصة: أليس الله يقول «إِنَّمَا يَعْلَمُ إِلَّا وَارْدَهَا»؟ فقال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا» الآية، وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمُوتُ لَأَحَدٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْوَلَدِ تَمَسِّهِ النَّارُ إِلَّا تَحْلِلُ الْقَسْمُ»^(١).

وقال عبد الرزاق قال معمراً أخبرني الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلاة القسم» يعني الورود^(٢)، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا زمعة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَمُوتُ لَمْسُلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْوَلَدِ فَتَمَسِّهِ النَّارُ إِلَّا تَحْلِلُ الْقَسْمُ» قال الزهري كأنه يريد هذه الآية «إِنَّمَا يَعْلَمُ إِلَّا وَارْدَهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَّمًا مَقْضِيًّا».

وقال ابن جرير^(٣): حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا أبو المغيرة حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: هُنَّ نَارٍ أَسْلَطْتُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ لِتَكُونَ حَظَهُ مِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ» غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ «إِنَّمَا يَعْلَمُ إِلَّا وَارْدَهَا». وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس الجhenي عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمنها عشر مرات، بني الله له قصرًا في الجنة» فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ «الله أكثر وأطيب» وقال رسول الله ﷺ «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيمة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً إن شاء الله، ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا بأجر سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلاة القسم». قال تعالى: «إِنَّمَا يَعْلَمُ إِلَّا وَارْدَهَا» وإن الذكر في سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف. وفي رواية بسبعمائة ألف ضعف^(٥).

وروى أبو داود عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن يحيى بن أيوب، كلامهما عن زبان عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ «إِنَّ الصَّلَاةَ وَالصَّيَامَ وَالذِّكْرَ يَضَاعِفُ عَلَى النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ

(١) آخرجه البخاري في الجنائز باب ٦، والأيمان باب ٩، ومسلم في البر حديث ١٥٠.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٦٦/٨.

(٣) تفسير الطبرى ٣٦٦/٨.

(٤) المستند ٤٣٧/٣.

(٥) آخرجه أحمد في المستند ٤٣٧/٣، ٤٣٨.

بسعمائة ضعف»^(١) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قوله: «وإن منكم إلا واردها» قال: هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: «وإن منكم إلا وردها» قال: ورود المسلمين المروء على الجسر بين ظهريها وورود المشركين أن يدخلوها، وقال النبي ﷺ: «الزالون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاهم يا الله سلم سلم» وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله «كان على رب حتماً مقتضياً» قال: قسمًا واجبًا. وقال مجاهد: حتماً، قال قضاء، وكذا قال ابن جريج.

وقوله: «ثم نجي الذين اتقوا» أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجي الله تعالى المؤمنين المتقيين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبار من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله وإن لم ي عمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: «ثم نجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً».

وإذا نُتْلَى عَلَيْهِمْ إِيمَنُنَا بِيَتَتِّ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَئِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيَّاً وَكَمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مَنْ قُرِنَ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَانَ وَرِبِّيَّاً

يخبر تعالى عن الكفار حين تلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرین عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم «خير مقاماً وأحسن ندياً» أي أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً وهو مجتمع الرجال للحديث أي ناديهم أعلم وأكثر وارداً وطارقاً يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مختلفون مستترون في دار الأرقام بن أبي الأرقام ونحوها من الدور على الحق كما قال تعالى مخبراً عنهم: «وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه» [الاحقاف: ١١] وقال قوم نوح: «أئمن لك واتبعك الأرذلون» [الشعراء: ١١] وقال تعالى: «وكذلك فتنا بعضهم البعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين» [الأنعام: ٥٣] ولهذا قال تعالى راداً على شبهتهم «وكم أهلكنا قبلهم من قرن» أي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم

بكفرهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَنْثَاثاً وَرَئِيَا﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً.
قال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس ﴿خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيَا﴾ قال المقام المتر拔
والندي المجلس والأثاث المتعاب والرئي المنظر^(١).

وقال العوفي عن ابن عباس المقام المسكن والندي المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كُمْ ترکوا من جناتٍ وَعِيُونَ وَزَرْوَعَ وَمَقَامَ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٣٥] فال مقام المسكن والنعيم، والندي المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَر﴾ [العنكبوت: ٢٩] والعرب تسمى المجلس النادي^(٢)، وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيَا﴾ وكذا قال مجاهد والضحاك ومنهم من قال في الأثاث هو المال ومنهم من قال الشياب ومنهم من قال المتعاب والرئي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقال الحسن البصري يعني الصور وكذا قال مالك: ﴿أَنْثَاثاً وَرَئِيَا﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً والكل متقارب صحيح.

*قُلْ مَنْ كَانَ فِي الْضَّلَالَةِ فَلَيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَّا حَقَّ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابَ وَإِنَّمَا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَعَفَ جُنْدًا*

يقول تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على حق وأنكم على باطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَلَيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَّا حَقَّ﴾ أي فأهلله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ﴿هُنَّ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابَ وَإِنَّمَا السَّاعَةَ بَغْتَةٌ تَأْتِيهِ﴾ (فسيعلمون) حيث إن ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَعَفَ جُنْدًا﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى. قال مجاهد في قوله: ﴿فَلَيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَّا﴾ فليدعوه الله في طغيانه، وهكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيهم، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أُولَاءِ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنَوْا الْمَوْتَ إِنْ كَتَمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أي ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فتكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطاً، والله الحمد، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حججه

(١) انظر تفسير الطبرى / ٨ / ٣٧١.

(٢) انظر تفسير الطبرى / ٨ / ٣٧١.

وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كادم، قال تعالى بعد ذلك: «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نتبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» [آل عمران: ٤٠] فتكلوا أيضاً عن ذلك.

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَهْتَدَوْا هُدًىٰ وَالْيَقِينُ أَصَلِحَتْ خَرْجَةَ رَبِّكُمْ تَوَابًا وَخَيْرًا مَرَدًا ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهدتين هدى، كما قال تعالى: «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيم زادته هذه إيماناً» [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] الآيتين. قوله: «والباقيات الصالحات» قد تقدم تفسيرها والكلام عليها وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف «خبر عند ربك ثواباً» أي جراءً «وخير مرداً» أي عاقبة ومرداً على صاحبها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد عن يحيى بن أبي كثیر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه، ثم قال: «إن قول لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة» قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهلن الله، ولأكربن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رأني الجاهل حسب أني مجنون^(١)، وهذا ظاهره أنه مرسلاً، ولكن قد يكون من روایة أبي سلمة عن أبي الدرداء، والله أعلم، وهكذا وقع في سنن ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن عمر بن راشد عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي الدرداء، فذكر نحوه.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِإِيمَانِنَا وَقَالَ لَا أُوتِنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿١٨﴾ أَطْلَعَ اللَّغَبَ أَمْ أَنْخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿١٩﴾ كَلَّا لَسَنَكُنْ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذَاءً ﴿٢٠﴾ وَنَرِثُهُمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فِرْدًا ﴿٢١﴾

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأقضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تکفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أکفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتي ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِإِيمَانِنَا وَقَالَ لَا أُوتِنَّ مَالًا وَوَلَدًا» - إلى قوله - «وَيَأْتِنَا فِرْدًا»^(٣) أخرجه صاحباً

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٧٤/٨.

(٢) المسند ١١١/٥.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع باب ٢٩، والإجارة باب ١٥، والخصومات باب ١٠، وتفسير سورة ١٩، =

الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به وفي لفظ البخاري : كنت قيناً بمكة فعملت لل العاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه فذكر الحديث ، وقال : «أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» قال : موثقاً .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن الأعمش عن أبي الصبحي ، عن مسروق قال : قال خباب بن الأرت : كنت قيناً بمكة فكنت أعمل لل العاص بن وائل ، فاجتمعت لي عليه دراهم فجئت لأنقضاه ، فقال لي : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإذا بعثت كان لي مال وولد ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﷺ «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا»^(١) الآيات .

وقال العوفي عن ابن عباس : إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطالبون العاص بن وائل السهمي بدین ، فأتوه يتلقاونه ، فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل ثمرات ؟ قالوا : بلى . قال : فإن موعدكم الآخرة ، فوالله لأوتين مالاً ولداً ، وألوتين مثل كتابكم الذي جئتم به ، فضرب الله مثله في القرآن ، فقال «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا فِرْدَأً»^(٢) وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم : أنها نزلت في العاص بن وائل . قوله : «أَلَوْتَيْنِ مَالًا وَلَدًا»^(٣)قرأ بعضهم بفتح الواو من ولدا ، وقرأ آخرون بضمها ، وهو بمعناه ، قال رؤبة : [رجز]

لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وَلَدَ شَيْءٍ وَلَدًا^(٤)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ فَرِدًا

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ حَلْزَةَ : [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

قَدْ ثَمَّرُوا مَالًا وَلَدًا^(٥)

وَلَقَدْ رَأَيْتَ مَعَاشِرًا

وَقَالَ الشَّاعِرُ : [الطَّوَيْل]

فَلَيْتَ فَلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ

وَلَيْتَ فَلَانًا كَانَ وُلْدَ حَمَارٍ^(٦)

وَقَيلَ : إِنَّ الْوَلَدَ بِالضَّمِّ جَمْعٌ ، وَالْوَلَدَ بِالْفَتْحِ مَفْرَدٌ ، وَهِيَ لُغَةُ قَيْسٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

= باب ٤ ، ٥ ، ومسلم في المتفقين حديث ٣٦ .

(١) انظر تفسير الطبرى / ٨ ٣٧٥ .

(٢) تفسير الطبرى / ٨ ٣٧٥ .

(٣) الرجز في تفسير الطبرى / ٨ ٣٧٦ .

(٤) البيت للحارث بن حلزة في ديوانه ص ٤٦ ، وجمهرة اللغة ص ١٠٠٠ ، ١١٢٠ ، والأغاني ٤٤ / ١١ ،

وشعراء النصرانية ص ٤١٧ ، وتفسير الطبرى / ٨ ٣٧٦ ، وبلا نسبة في لسان العرب (ولد) ، وتهذيب اللغة

١٤ / ١٧٧ ، وتاح العروس (ولد) .

(٥) البيت بلا نسبة في لسان العرب (ولد) ، وتهذيب اللغة ١٧٨ / ١٤ ، والمخصوص ٢١٧ / ١٣ ، وتاح

العروس (ولد) ، وتفسير الطبرى / ٨ ٣٧٦ .

﴿أَطْلَعَ الْغَيْب﴾ إِنْكَارٌ عَلَى هَذَا الْقَائِلِ ﴿لَا وَتَيْنِ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يَعْنِي يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أَيْ أَعْلَمُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ حَتَّى تَأْلِي وَحْلَفَ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أَمْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ سَيَؤْتَيْهِ ذَلِكُ، وَقَدْ تَقْدَمَ عِنْدَ الْبَخَارِيِّ أَنَّهُ الْمُوْثَقُ. وَقَالَ الْضَّحَّاكُ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيُرْجُو بِهَا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبَ الْقَرَظِيِّ ﴿إِلَّا مِنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِلَّا مِنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

وَقُولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ هِيَ حِرْفٌ رَدْعٌ لِمَا قَبْلَهَا، وَتَأْكِيدٌ لِمَا بَعْدَهَا ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أَيْ مِنْ طَلْبِهِ ذَلِكُ وَحْكَمَهُ لِنَفْسِهِ بِمَا يَتَمَنَّاهُ وَكَفَرَهُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، ﴿وَنَمِدُّهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أَيْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى قَوْلِهِ ذَلِكُ وَكَفَرَهُ بِاللَّهِ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أَيْ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ نَسْلِهِ مِنْهُ عَكْسُ مَا قَالَ إِنَّهُ يُؤْتَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَالًا وَوَلَدًا زِيَادَةً عَلَى الَّذِي لَهُ فِي الدُّنْيَا، بَلْ فِي الْآخِرَةِ يُسْلِبُ مِنْهُ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِيْنَا فَرْدًا﴾ أَيْ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ. قَالَ عَلَيْ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قَالَ: نَرِثُهُ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ مَالَهُ وَوَلَدُهُ. وَذَلِكُ الَّذِي قَالَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَاتَادَةَ ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قَالَ: مَا عَنْهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَا وَتَيْنِ مَالًا وَوَلَدًا﴾. وَفِي حِرْفِ أَبْنِ مُسْعُودٍ: وَنَرِثُهُ مَا عَنْهُ وَقَالَ قَاتَادَةَ ﴿وَيَأْتِيْنَا فَرْدًا﴾ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قَالَ: مَا جَمَعَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا أَعْمَلَ فِيهَا، قَالَ ﴿وَيَأْتِيْنَا فَرْدًا﴾ قَالَ: فَرْدًا مِنْ ذَلِكُ لَا يَتَبَعَّهُ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ.

وَأَخْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَهُ لَيْكُونُوا لَهُمْ عِزًا ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكُفَّارِ لِتُوزَّهُمْ أَرَى ﴿فَلَا تَعْجِلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْذِلُهُمْ عَدَّا﴾

يَخْبُرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ الْمُشَرِّكِينَ بِرَبِّهِمْ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَتَكُونَ تِلْكَ الْآلَةُ ﴿عِزًا﴾ يَعْتَزُونَ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُونَهَا ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا يَكُونُ مَا طَعَمُوا فَقَالَ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾ أَيْ بِخَلْافِ مَا ظَنَّوْا فِيهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَضَلِّ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حَسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٍ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الْاحْقَافِ: ٥] وَقَرَأَ أَبُو نَهَيْكَ ﴿كُلُّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾. وَقَالَ السَّدِيُّ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

وَقُولُهُ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾ أَيْ بِخَلْافِ مَا ظَنَّوْا فِيهِمْ. وَقَالَ عَلَيْ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾ قَالَ: أَعْوَانًا. قَالَ مُجَاهِدٌ: عَوْنَى عَلَيْهِمْ تَخَاصِمُهُمْ وَتَكْذِبُهُمْ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾، قَالَ: قَرْنَاءُ. وَقَالَ قَاتَادَةَ:

قرناء في النار يلعن بعضهم بعضاً، ويكره بعضهم بعض. وقال السدي **﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾** قال: **الخصماء الأشداء في الخصومة**، وقال الصحاك **﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾** قال: أعداء. وقال ابن زيد: **الضد البلاء**، وقال عكرمة: **الضد الحسرة**.

وقوله: **﴿أَلَمْ ترَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْزِعُهُمْ أَرَازًا﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: **تغويهم إغواء**، وقال العوفي عنه: **تحرضهم على محمد وأصحابه**. وقال مجاهد: **تشليهم إشلاء** وقال قتادة: **تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله**، وقال سفيان الثوري: **تغريهم إغراء و تستعجلهم استعجالاً**. وقال السدي: **تطغىهم طغياناً**. وقال عبد الرحمن بن زيد: **هذا كقوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصٌ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾**** [الزخرف: ٣٦] قوله تعالى: **﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا﴾** أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم **﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا﴾** أي إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله. وقال: **﴿وَلَا تَحْسِبْنَ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾** [إبراهيم: ٤٢] الآية، **﴿نَمَهِلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلْهُمْ رُوِيدًا﴾** [الطارق: ١٧] **﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا﴾** [آل عمران: ١٧٨] **﴿نَمْتَعِهِمْ قَلِيلًا ثُمَّ نُضْطَرْهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِظٍ﴾** [لقمان: ٢٤] **﴿قُلْ تَمَتَّعُوا إِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾** [إبراهيم: ٣٠] وقال السدي: **إنما نعد لهم عداً**: **الستين والشهور والأيام والساعات**. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا﴾** قال: **نعد أنفاسهم في الدنيا**^(١).

يَوْمَ تَحْسُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا **﴿وَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾** **لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخْذَهُ اللَّهُ عِنْدَ الْرَّحْمَنِ عَهْدًا**

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسلاه وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروه به، وانتهوا عما عنه زجروههم، أنه يحشرهم يوم القيمة وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار **﴿وَرَدًا﴾** عطاشاً، قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد، وهبنا يقال: **﴿أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾** [مريم: ٧٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشعج، حدثنا ابن خالد عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن مرزوق **﴿يَوْمَ تَحْسُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾** قال: **يُسْتَقْبَلُ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ خَرْوْجِهِ مِنْ قَبْرِهِ أَحْسَنَ صُورَةَ رَاهِهِ وَأَطْبَيْهَا رِيحًا**، فيقول: من أنت؟ فيقول أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك، فيقول: أنا عملك الصالح، هكذا كنت في الدنيا حسن

العمل طيبه، فطالما ركبتك في الدنيا فهم اركبني فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نُحَشِّرُ الْمُتَقِّنِينَ إِلَى الرَّحْمَنَ وَفَدًا﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَوْمَ نُحَشِّرُ الْمُتَقِّنِينَ إِلَى الرَّحْمَنَ وَفَدًا﴾ قال: ركبانا.

وقال ابن جرير^(١): حدثني ابن المثنى، حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن إسماعيل عن رجل عن أبي هريرة ﴿يَوْمَ نُحَشِّرُ الْمُتَقِّنِينَ إِلَى الرَّحْمَنَ وَفَدًا﴾ قال: على الإبل. وقال ابن جرير: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل النوق. وقال قتادة ﴿يَوْمَ نُحَشِّرُ الْمُتَقِّنِينَ إِلَى الرَّحْمَنَ وَفَدًا﴾ قال: إلى الجنة. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسنده أبيه: حدثنا سعيد بن سعيد، أخبرنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد، قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نُحَشِّرُ الْمُتَقِّنِينَ إِلَى الرَّحْمَنَ وَفَدًا﴾ قال: لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلاق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيربون عليها حتى يضرموا أبواب الجنة^(٢)، وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به. وزاد عليها رحائل من ذهب وأزمنتها الزبرجد والباقي مثله.

وروى ابن أبي حاتم ه هنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً عن علي، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي، سمعت أبا معاذ البصري قال: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقرأ هذه الآية ﴿يَوْمَ نُحَشِّرُ الْمُتَقِّنِينَ إِلَى الرَّحْمَنَ وَفَدًا﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «والذى نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنرق بيس له أجنحة وعليها رحال الذهب شرك عالهم نور يتلاًّا كل خطوة منها مد البصر، فيتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فتفسل ما في بطونهم من دنس، ويغسلون من الأخرى فلا تشعت أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نمرة النعيم فيتهون أو فيأتون بباب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة، فيسمع لها طنين يا علي، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعد قيمها فيفتح له، فإذا رأه خر له - قال مسلمة أراه قال ساجداً -.

فيقول: ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك، فيتبعه، ويقفوا أثره فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت حبي وأنا حبك، وأنا الحالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أُسخط، وأنا المقيمة

(١) تفسير الطبرى ٣٨٠ / ٨

(٢) آخرجه أحمد في المسند ١ / ١٥٥

التي لا أطعن، فيدخل بيتاً من رأسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل المؤلئ طرائق: أحمر وأصفر وأخضر، ليس منها طريقة تشكل صاحبها. وفي البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى من ساقها من وراء الحل يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه، الأنهر من تحتهم تطرد أنهر من ماء غير آسن.

قال: صاف لا كدر فيه، وأنهر من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضروع الماشية وأنهر من خمر لذة للشاربين لم يعتصرها الرجال بأقدامهم، وأنهر من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل فيستحللي الشمار، فإن شاء أكل قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء متكتماً، ثم تلا: «ودانية عليهم ظلالها وذلت قطوفها تذليلاً» [الإنسان: ١٤] فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض، وربما قال أحضر، فترفع أجنبتها فيأكل من جنوبها، أي الألوان شاء، ثم يطير فتذهب فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم « تلك الجنة التي أورثتموها بما كتمنتم عمليون» [الزخرف: ٧٢] ولو أن شرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سواد في نور هكذا وقع في هذه الرواية مروعاً، وقد روينا في المقدمات من كلام علي رضي الله عنه بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: «ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً» أي عطاشاً «لا يملكون الشفاعة» أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم» [الشعراء: ١٠١]. قوله: «إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخاذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيامة بحقها. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» قال: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، وبيراً إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله عز وجل^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عثمان بن خالد الواسطي حدثنا محمد بن الحسن الواسطي عن المسعودي، عن عون بن عبد الله عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله يعني ابن مسعود هذه الآية «إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» ثم قال: اتخاذوا عند الله عهداً، فإن الله يوم القيمة يقول: من كان له عند الله عهد فليقيم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلمنا. قال: قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أن لا تتكلني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير، وإنني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليك يوم القيمة، إنك لا تخلف الميعاد. وقال المسعودي: فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود وكان يخلق بهن خائفاً مستجيراً مستغمراً راهباً

راغباً إليك، ثم رواه من وجه آخر عن المسعودي بنحوه.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنَ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ
وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا ۝ أَنْ دَعَوْا لِرَحْمَنَ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِرَحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ الرَّحْمَنَ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَخْصَنَاهُ وَعَدَهُمْ عَدَّا ۝ وَلَكُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمةِ
فَرَدًا ۝

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقديس وتزه عن ذلك علواً كبيراً، فقال: «وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنَ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ» أي في قولكم هذا «شَيْئًا إِذَا» قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك: أي عظيماً. ويقال إِذَا بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدتها أيضاً ثلاثة لغات أشهرها الأولى وقوله: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا أَنْ دَعَوْا لِرَحْمَنَ وَلَدًا» أي يكاد ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرةبني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهم مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولده، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد. [المتقارب]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لِهِ آيَةٌ تَدْلِي إِلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

قال ابن جرير^(٢): حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية عن علي، عن ابن عباس في قوله: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا أَنْ دَعَوْا لِرَحْمَنَ وَلَدًا» قال: إن الشرك فزعـت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكانت أن تزول منه لعنة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لَقَنُوا مَوْتَكُمْ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا عَنْ مَوْتِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فقالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال «تَلَكَ أُوجَبَ وَأُوجَبَ». ثم قال «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْجِيَءُ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا تَحْتَهُنَّ، فَوَضَعْنَ فِي كَفَةِ الْمِيزَانِ، وَوَضَعْتُ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكَفَةِ الْأُخْرَى لِرَجْحَتْ بِهِنَّ» هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث الطافقة، والله أعلم.

وقال الضحاك: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَ مِنْهُ» أي يتشقـن فرقاً من عظمة الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ»، أي غضباً له عز وجل، «وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا»، قال ابن عباس: هداماً، وقال سعيد بن جبير: هداً ينكسر بعضها على بعض متبايعـاتـ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سويد المقبرـيـ، حدثنا سفيان بن عيينـةـ، حدثنا

(١) البيت لأبي العناية في ديوانه ص ١٠٤ ، وتأج العروس (عنه).

(٢) تفسير الطبرـيـ ٢٨٣/٨

مسعر عن عون عن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكر الله عز وجل؟ فيقول: نعم ويستبشر، قال عون: لهي للخير أسمع فأيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ ﴿تَكاد السموات ينفطرن مِنْهُ وتنشق الأرض وتخر الجبال هَذَا أَنْ دُعُوا للرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هودة، حدثنا عوف عن غالب بن عجرد، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد مني قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بني آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال - كان لهم فيها منفعة، ولم تزل الأرض والشجر بذلك حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم: اتخذ الرحمن ولداً، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض وشاك الشجر. وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنه يشرك به ويجعل له ولداً، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم»^(٢) آخر جاه في الصحيحين. وفي لفظ «أنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم».

وقوله: «وما ينبغي للرحمـن أن يتـخذ ولـداً» أي لا يصلـح له ولا يليـق به لجلـاله وعظـمته، لأنـه لا كـفاء له من خـلقـه، لأنـ جـمـيع الـخـلـاقـ عـبـدـ لهـ، وـلهـذا قالـ: «إـنـ كـلـ منـ فـي السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ إـلـاـ آـتـيـ الرـحـمـنـ عـبـدـاـ لـنـدـ أـحـصـاـهـمـ وـعـدـهـ عـدـاـ» أي قد علم عـدـهـمـ مـنـذـ خـلـقـهـمـ إـلـىـ يومـ الـقيـامـةـ، ذـكـرـهـمـ وـأـنـثـاـهـمـ، صـغـيرـهـمـ وـكـبـيرـهـمـ، «وـكـلـهـمـ آـتـيـهـ يـوـمـ الـقيـامـةـ فـرـدـاـ» أي لا نـاصـرـ لهـ ولا مـجـيـرـ إـلـاـ اللهـ وـحـدـهـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ، فـيـحـكـمـ فـيـ خـلـقـهـ بـمـاـ يـشـاءـ وـهـوـ الـعـادـلـ الـذـيـ لـاـ يـظـلـمـ مـثـقـالـ ذـرـةـ، وـلـاـ يـظـلـمـ أـحـدـاـ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُهُمُ الرَّحْمَنُ وَدًا إِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَا يَرَوْنَا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَفَ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا

يخـبرـ تعالىـ أـنـهـ يـغـرسـ لـعـبـادـهـ الـمـؤـمـنـينـ الـذـيـنـ يـعـمـلـونـ الصـالـحـاتـ، وـهـيـ الـأـعـمـالـ التـيـ تـرضـيـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ لـمـتـابـعـتـهاـ الشـرـيـعـةـ الـمـحـمـدـيـةـ - يـغـرسـ لـهـمـ فـيـ قـلـوبـ عـبـادـهـ الـصـالـحـينـ مـحـبةـ وـمـوـدةـ، وـهـذـاـ أـمـرـ لـاـ بـدـ مـنـهـ وـلـاـ مـحـيدـ عـنـهـ، وـقـدـ وـرـدـتـ بـذـلـكـ الـأـحـادـيـثـ الصـحـيـحةـ عـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ مـنـ غـيرـ وجـهـ.

(١) المسند ٤٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣، والأدب باب ٧١، ومسلم في المناقب حديث ٤٩، ٥٠.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه قال فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغض في الأرض»^(٢). ورواه مسلم من حديث سهيل، ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عقبة، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ نحوه.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المراتي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتمنّى مرضاة الله عز وجل، فلا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل: إن فلاناً عبدي يتمنّى أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض» غريب. ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك عن محمد بن سعد الواسطي عن أبي ظبيبة، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «إن المقة من الله - قال شريك: هي المحبة - والصيت في السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل عليه السلام: إني أحب فلاناً، فينادي جبريل: إن ربكم يمق - يعني يحب - فلاناً فأحبوه - أرى شريك قد قال: فتنزل له المحبة في الأرض - وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فينادي جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه - أرى شريك قال: فيجري له البغض في الأرض» غريب، ولم يخرجوه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو داود الحفرمي، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - وهو الدراوردي عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحبت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا﴾

(١) المسند / ٤١٣ / ٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٤١، ومسلم في البر حديث ١٥٧.

(٣) المسند / ٥ / ٢٧٩.

(٤) المسند / ٥ / ٢٦٣.

الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودأ^(١)، رواه مسلم والترمذى، كلاهما عن عبد الله عن قتيبة، عن الدراوردى به. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «سيجعل لهم الرحمن ودأ» قال: حباً، وقال مجاهد عنه: «سيجعل لهم الرحمن ودأ»، قال: محبة في الناس في الدنيا، وقال سعيد بن جبير عنه، يحبهم ويحببهم، يعني إلى خلقه المؤمنين، كما قال مجاهد أيضاً والضحاك وغيرهم. وقال العوفى عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق. وقال قتادة: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودأ» إني والله في قلوب أهل الإيمان، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه موتهن ورحمتهم وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد ي عمل خيراً أو شرًا إلا كساه الله عز وجل رداء عمله.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن الربيع بن صبيح عن الحسن البصري رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي، وكان أول داشر إلى المسجد وأخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: انظروا إلى هذا المرائي، فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أذكر إلا بشر، لا يجعلن عملي كله لله عز وجل، فلم يزد على أن قلب نيته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودأ» وقد روى ابن جرير أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف، وهو خطأ، فإن هذه السورة بكمالها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

وقوله: «فإنما يسرناه» يعني القرآن «يلسانك» أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل «لتبشر به المتقين» أي المستجيبين لله، المصدقين لرسوله، «وتذر به قوماً لدأ» أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل وقال ابن أبي نجيج عن مجاهد: «قوماً لدأ» لا يستقرون وقال الثوري عن إسماعيل وهو السدي عن أبي صالح «وتذر به قوماً لدأ» عوجاً عن الحق، وقال الضحاك: الألد الخصم. وقال القرظى: الألد الكذاب. وقال الحسن البصري «قوماً لدأ» صماً، وقال غيره: صم آذان القلوب. وقال قتادة: قوماً لدأ يعني قريشاً وقال العوفى عن ابن عباس « القوم لدأ» فجراً، وكذا روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد.

وقال ابن زيد: الألد الظلوم، وقرأ قوله تعالى: «وهو ألد الخصم» [البقرة: ٢٠٤].

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ١٥٧، والترمذى في تفسير سورة ١٩، باب ٧.

وقوله: «وَكُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنَ» أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسle «هَلْ تُحْسِنُونَهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رَكْزًا» أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً. وقال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد: يعني صوتاً، وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً، والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي.

قال الشاعر: [الكامل]

فتوجست ركز الأنیس فراعها عن ظهیر غیبِ والأنیسُ سقامها^(١)
آخر تفسير سورة مريم والله الحمد والمنة ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة طه والحمد لله.

(١) يروى صدر البيت:

وَتَسْمَعُ — — — — — رَزَّ الأنیس فراعها

وهو للبيد في ديوانه ص ٣١١، ولسان العرب (غيب) (ظهر)، والتنبيه والإيضاح ١٢٥/١، وتابع العروس (غيب)، (ظهر)، (سمع)، وديوان الأدب ٢٠٩/٣، وكتاب العين ٣٤٨/٧، وبلا نسبة في المخصص ٢/١٣٧، وتفسير الطبرى ٨/٣٨٨.

سورة طه

وهي مكية

روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد عن زياد بن أبى يوب عن إبراهيم بن المنذر الحزمى: حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار عن عمر بن حفص بن ذكوان عن مولى الحرقة - يعني عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجوار تحمل هذا، وطوبى لأنسٍ تتكلم بهذا» هذا حديث غريب وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ① مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقِقَ ② إِلَّا نذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ③ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ
الْعُلَى ④ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ⑤ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَرْضَ ⑥ وَإِنْ يَعْمَلْ بِالْقَلِيلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسَّرَّ وَأَخْفَى ⑦ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِلْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ⑧

قد تقدم الكلام على الحروف المقاطعة في أول سورة البقرة بما ألغى عن إعادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شيبة الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - أنينا إسرائيل عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: طه يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبي مالك وعطاء العوفي والحسن وقتادة والضحاك والستي وابن أبي زيد أنهم قالوا: طه بمعنى يا رجل^(١). وفي رواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثورى أنها كلمة بالنبطية معناها يا رجل. وقال أبو صالح: هي معربة. وأسنده القاضي عياض في كتابه الشفاء من طريق عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هاشم بن القاسم عن ابن جعفر عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى: «طه» يعني: طأ الأرض يا محمد «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقِقَ» ثم قال: ولا يخفى بما في هذا الإكرام وحسن المعاملة.

وقوله: «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقِقَ» قال جوير عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٨٩/٨، ٣٩٠.

رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقي، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطالقاني، حدثنا ابن المبارك عن سفيان عن سماك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيمة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» إسناده جيد، وثعلبة بن الحكم هذا هو الليشي، ذكره أبو عمر في استيعابه، وقال: نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ هي كقوله: ﴿فاقرئوا ما تيسر منه﴾ [المزمول: ٢٠] وكانوا يعلقون الحبال بتصورهم في الصلاة. وقال قتادة: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلًا إلى الجنة ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليذكر ذاكراً، ويتنفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلي﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلي في ارتفاعها ولطافتها، وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذى وغيره أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبعد ما بينها والتي تلية مسيرة خمسمائة عام^(٢)، وقد أورد ابن أبي حاتم هنا حديث الأوعال من روایة العباس عم رسول الله ﷺ ورضي الله عنه. قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغني عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمارات ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الشري﴾ أي الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيّنته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ١٠، والخمس باب ٧، والاعتظام باب ١٠، ومسلم في الإمارة حديث ١٧٥، والزكاة حديث ٩٨، ١٠٠.

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٥٧، باب ١.

ولا رب غيره . وقوله : «وما تحت الشري» قال محمد بن كعب : أي ما تحت الأرض السابعة . وقال الأوزاعي : إن يحيى بن أبي كثير حدثه أن كعباً سئل فقيل له : ما تحت هذه الأرض ؟ فقال : الماء . قيل : وما تحت الماء ؟ قال : الأرض . قيل : وما تحت الأرض ؟ قال : الماء ، قيل : وما تحت الماء ؟ قال : الأرض . قيل : وما تحت الأرض ؟ قال : الماء ، قيل : وما تحت الماء ؟ قال : الأرض ، قيل : وما تحت الأرض ؟ قال : الصخرة ، قيل : وما تحت الصخرة ؟ قال : ملك ، قيل : وما تحت الملك ؟ قال : حوت معلق طرفاه بالعرش ، قيل : وما تحت الحوت ؟ قال : الهواء والظلمة وانقطع العلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب ، حدثنا عمي ، حدثنا عبد الله بن عياش ، حدثنا عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد الملك ، والثالثة سجن الريح ، والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم ، والخامسة فيها حيات جهنم ، وال السادسة فيها عقارب جهنم ، والسابعة فيها سقر وفيها إبليس مصفد بالحديد يد أمامة ويد خلقه ، فإذا أراد الله أن يطلقه لما يشاء أطلقه» وهذا حديث غريب جداً ، ورفعه فيه نظر .

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده : حدثنا أبو موسى الھروي عن العباس بن الفضل قال : قلت ابن الفضل الأنباري ؟ قال : نعم ، عن القاسم بن عبد الرحمن عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فأقبلنا راجعين في حر شديد ، فنحن متفرقون بين واحد واثنين متشررين ، قال وكانت في أول العسكر إذا عارضنا رجل فسلم ، ثم قال : أيكم محمد ؟ ومضى أصحابي ووقفت معه ، فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل في وسط العسكر على جمل أحمر مقنع بشوبيه على رأسه من الشمس ، فقلت : أيها السائل هذا رسول الله ﷺ قد أتاك ، فقال : أيهم هو ؟ فقلت : صاحب البكر الأحمر ، فدنا منه فأخذ بخطام راحلته ، فكف عليه رسول الله ﷺ فقال : أنت محمد ؟ قال : «نعم» .

قال : إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمها أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان ؟ فقال : رسول الله ﷺ «سل عما شئت» قال : يا محمد أينام النبي ؟ فقال رسول الله ﷺ : «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قال : صدقت ثم قال : يا محمد من أين يشبه الولد آباء وأمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ماء الرجل أليس غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأي الماءين غالب على الآخر نزع الولد» فقال : صدقت ، فقال : ما للرجل من الولد ، وما للمرأة منه ؟ فقال «للرجل العظام والعروق والعصب ، وللمرأة اللحم والدم والشعر» قال : صدقت ، ثم قال : يا محمد

ما تحت هذه؟ - يعني الأرض -

قال رسول الله ﷺ: «خلق» فقال: فما تحتهم؟ قال «أرض». قال: فما تحت الأرض؟ قال: «الماء». قال: فما تحت الماء؟ قال: «ظلمة». قال: فما تحت الظلمة؟ قال: «الهواء». قال: فما تحت الهواء؟ قال: «الثرى». قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: «انقطع علم الخلق عند علم الخالق، أيها السائل ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فقال صدقت، أشهد أنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أيتها الناس هل تدرؤن من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال «هذا جبريل عليه السلام». هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: ليس يساوي شيئاً، وضعفه أبو حاتم الرازبي، وقال ابن عدي: لا يعرف. قلت: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء وحديث في حديث، وقد يحتمل أنه تمد ذلك أو أدخل عليه فيه فيه، والله أعلم.

وقوله: «إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السُّرَّ وَأَخْفَى» أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات على الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السُّرَّ فِي السُّمُوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا» [الفرقان: ٦] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «يَعْلَمُ السُّرَّ وَأَخْفَى» قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه «وَأَخْفَى» ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كلـه، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: «مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعْثَرْتُمْ إِلَّا كَنْفُسَ وَاحِدَةٍ»^(١) [لقمان: ٢٨] وقال الضحاك «يَعْلَمُ السُّرَّ وَأَخْفَى» قال: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً، وقال مجاهد «وَأَخْفَى» يعني الوسوسة، وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير «وَأَخْفَى» أي ما هو عالمه مما لم يحدث به نفسه. وقوله: «الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى» أي الذي أنزل عليك القرآن، هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف والله الحمد والمنة.

وَهَلْ أَتَنَّكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَنْكُثُوا إِنِّي أَنْسَىْتُ نَارًا لَّعْلَىٰ إِنِّي كُمْ بِمَهْبَبِي أَقْرَأْتُ حِدْدَتَنِي عَلَى النَّارِ هَذِهِ ۝

من هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتکلیمه إياه،

وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأفضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل متولاً بين شعاب وجبال في برد وشقاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقبح بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدر شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبینا هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يشيرهم: «إني آنس ناراً على آتيكم منها بقبس» أي شهاب من نار. وفي الآية الأخرى «أو جذوة من النار» [القصص: ٢٩] وهي الجمر الذي معه لهب «لعلكم تصطalon» [القصص: ٢٩] دل على وجود البرد.

وقوله: «بقبس» دل على وجود الظلام، وقوله: «أو أجد على النار هدى» أي من يهدبني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الشوري عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: «أو أجد على النار هدى» قال: من يهدبني إلى الطريق، وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدبني إلى الطريق آتيكم ب النار توقدون بها.

فَلَمَّا أَنْهَا نُودِيَ يَمْسُوْقَ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمَقْدَسِ طَوَّى إِنِّي أَنَا أَخْتَرُكَ فَأَسْتَمِعُ لِمَا يُوحَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ إِلَيْهَا أَكَادُ أَخْفِيَهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى فَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَأَتَبْعَهُو نُودِيَ فَتَرَدَّى

يقول تعالى: «فلما أتاهها» أي النار، واقترب منها «نودي يا موسى» وفي الآية الأخرى «نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله» [القصص: ٣٠] وقال ه هنا «إني أنا ربك» أي الذي يكلمك ويخاطبك «فأخلع نعليك» قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيمها للبقعة. وقال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة، وقيل: ليطاً الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتقل، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: «طوى» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو اسم للوادي، وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان، وقيل عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه، وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت، والأول أصح كقوله: «إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى» [النازوات: ١٦]. وقوله: «وأنا أخترتكم» كقوله: «إني اصطفيتكم على الناس برسالاتي وبكلامي» [الأعراف: ١٤٤] أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه، وقد قيل: إن الله تعالى قال يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا، قال: لأنني لم

يتواضع إلى أحد تواضعك. وقوله: ﴿فاستمع لما يوحى﴾ أي استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فاعبدني﴾ أي وحدني، وقم بعبادتي من غير شريك ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ قيل: معناه صل لذكرني، وقيل: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي، ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا المثنى بن سعيد عن قتادة، عن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: وأقم الصلاة لذكرى»، وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»^(٢). وقوله: ﴿إن الساعة آتية﴾ أي قائمة لا محالة وكائنة لا بد منها.

وقوله: ﴿أكاد أخفيها﴾ قال الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرؤها: أكاد أخفيها من نفسي، يقول: لأنها لا تخفي من نفس الله أبداً. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: من نفسه: وكذا قال مجاهد وأبو صالح ويعيني بن رافع. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿أكاد أخفيها﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيري. وقال السدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفي الله تعالى عنه علم الساعة وهي في قراءة ابن مسعود إني أكاد أخفيها من نفسي، يقول: كتمتها من الخلاق حتى لو استطعت أن أكتتمها من نفسي لفعلت. وقال قتادة: أكاد أخفيها، وهي في بعض القراءات: أخفيها من نفسي، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين. قلت وهذا كقوله تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل: ٦٥] وقال: ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيم إلا بعنة﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب، حدثنا أبو نميلة، حدثني محمد بن سهل الأستي عن وقاء قال: أقرأنها سعيد بن جبير: أكاد أخفيها، يعني بنصب ألف وخفض الفاء، يقول أظهرها، ثم قال أما سمعت قول الشاعر: [الخفيف]

دأب شهرين ثم شهراً دميكاً باريكيان يخفيان غمير^(٣)

(١) المستند ١٨٤ / ٣ .

(٢) أخرجه البخاري في المواقف باب ٣٧، ومسلم في المساجد حديث ٣١٤ .

(٣) يروى البيت:

دأب شهرين نم نصفاً دميكاً باريكيان يكلمان غمير

وهو لكتاب بن زهير في ديوانه ص ١٧٤ ، وكتاب الجيم ٢٦٦ / ١ ، ولسان العرب (دمك).

قال السدي: الغمير بنت رطب ينبت في خلال يبس، والأريkin موضع، والدミニك الشهر التام، وهذا الشعر لعبد بن زهير. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَتُحْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَ﴾ أي أقيمتها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] ﴿وَإِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كَتَمْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وقوله: ﴿فَلَا يَصِدِّنَكُمْ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ الآية، المراد بهذا الخطاب أحاد المكلفين. أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاده في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن واقفهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرَدَّى﴾ أي تهلك وتعطّب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿ قَالَ هِيَ عَصَمَى أَتُوكُؤْأَعْلَيَهَا وَأَهْشَهَا عَلَى غَنْمِي وَلَيْ فِيهَا مَثَارِبُ أُخْرَى ﴾ ﴿ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَى ﴾ فَالْقَنَهَا فِي ذَذَاهِي حَيَّةٌ تَسْعَ ﴿ قَالَ حَذْهَا وَلَا تَخَفَ سَعْيُهَا سِيرَتَهَا أَلْأَوَى ﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل. وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإثبات له، وقيل: وإنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ استفهام تقرير ﴿قَالَ هِيَ عَصَمَى أَتُوكُؤْأَعْلَيَهَا﴾ أي اعتمد عليها في حال المshiي ﴿وَأَهْشَهَا عَلَى غَنْمِي﴾ أي أهزم بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمی. قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخطط، وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَأَرَبٌ أُخْرَى﴾ أي مصالح ومنافع و حاجات آخر غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل وتحرس له النغم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظلله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه الصلاة والسلام صيرورتها ثعباناً فما كان يفتر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائية، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لأدم عليه الصلاة والسلام، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيمة، وروي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ما شا، والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَى﴾ أي هذه العصما التي في يده يدك يا موسى ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فِي حَيَّةٍ تَسْعَ﴾ أي صارت في الحال حية عظيمة ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا

هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، **﴿تَسْعِي﴾** أي تمشي وتضطرب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جميع، حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس **﴿فَأَلْقَاهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعِي﴾** ولم تكن قبل ذلك حية، فمررت بشجرة فأكلتها، ومررت بصخرة فابتلاعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مدبراً، ونودي: أن يا موسى خذها فلم يأخذها، ثم نودي الثانية: أن خذها ولا تخف، فقيل له في الثالثة: إنك من الأميين، فأخذها.

وقال وهب بن منبه في قوله: **﴿فَأَلْقَاهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعِي﴾** قال **فَأَلْقَاهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ** ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون فدب يلتسم كأنه يتغى شيئاً يريد أخذها، يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المجنون منها عرفاً، قيل: شعره مثل التيازك، وعاد الشعتان منها مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولد مدبراً ولم يعقب، فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحياة.

ثم ذكر ربه فوق استحياء منه ثم نودي يا موسى أن ارجع حيث كنت فرجع موسى وهو شديد الخوف فقال: **﴿خُذْهَا﴾** بيمينك **﴿وَلَا تَخْفَ سَعِيدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾** وعلى موسى حيئذ مدربة من صوف فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها، أدى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر وكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً؟ قال: لا ولكنني ضعيف، ومن ضعف خلقت، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحياة حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكت بين الشعتين، ولهذا قال تعالى: **﴿سَعِيدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾** أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

وَاضْصِمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بِيَضَّاءِ مِنْ عَبْرِ سَوَّءَاءِيَّةَ أُخْرَى ۝ لِرَبِّكَ مِنْ أَيْتَنَا أَكْبَرَى ۝ أَذْهَبْ إِلَى فَرَعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ قَالَ رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدَرِي ۝ وَبَيْرَ لِي أَمْرِي ۝ وَأَحْلَلْ عَقْدَهُ مِنْ لِسَانِي ۝ يَقْهَهُوا قَوْلِي ۝ وَأَجْعَلْ لِي وَزِرْكَ مِنْ أَهْلِي ۝ هَرُونَ أَخِي ۝ أَشَدَّ بِهِ أَرْزِي ۝ وَأَشْرِكَهُ فِي أَمْرِي ۝ كَمْ سُبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذَرْكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاصِيرًا ۝

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جبيه كما صرخ به في الآية الأخرى، وه هنا عبر عن ذلك بقوله: **﴿وَاضْصِمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾** وقال في مكان آخر **﴿وَاضْصِمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَانَكَ بِرْهَانَنَّ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فَرَعَوْنَ وَمَلَّهُ﴾** [القصص: ٣٢] وقال مجاهد: **﴿وَاضْصِمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾** كفه تحت عضدك، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جبيه ثم أخرجها، تخرج تلاؤاً كأنها فلقة قمر.

وقوله: ﴿تَخْرُجَ بِيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي من غير برص ولا أدى ومن غير شين، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدوي وغيرهم، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصبحاً، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لَنْرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكَبْرِيَ﴾ وقال وهب: قال له ربه: ادنه فلم يزل يدnyه حتى أستد ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا وخلص برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿إِذْهَبْ إِلَى فَرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فاراً منه وهارباً فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعنفهم، فإنه قد طغى وبغي وأثر الحياة الدنيا ونسى الرب الأعلى. قال وهب بن منبه: قال الله لموسى: انطلق برسالتي فإنك بسمعي وعيسي، وإن ملوك أيدي ونصري، وإنني قد ألبستك جنة من سلطاني لستكملاً بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عنى حتى جحد حقي، وأنك ربيبي وزعم أنه لا يعرفي، فإني أقسم بعزمي لولا القدر الذي وضع بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبتها، وإن أمرت الأرض ابتلعتها، وإن أمرت الجبال دمرتها، وإن أمرت البحار غرقته.

ولكنه هان علي وسقط من عيني ووسعه حلمي واستغنىت بما عندي وحقني إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادي، وتوحيدني وإخلاصي وذكره أيامي، وحذرته نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قوله قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، وقل له أجب ربك فإنه واسع المغفرة وقد أمهلك أربعمائة سنة في كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبه وتتمثل به، وتصد عباده عن سبيله، وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض لم تقسم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب، ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحمل عظيم.

وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها فعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفتة القليلة، ولا قليل مني، تغلب الفتة الكثيرة بإذني، ولا تعجبنكم زيتها ولا ما متع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكم فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، ولو شئت أن أزيئكم من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدراته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت، ولكنني أرغب بكم عن ذلك وأزويه عنكم، وكذلك أفعل بأوليائي وقديمًا ما جرت عادتي في ذلك، فإني لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعي الشقيق إبله عن مبارك العناء، وما ذاك لهوانهم علي ولكن

ليستكملوا نصيبيهم في دار كرامتي سالماً موفراً لم تكلمه الدنيا، واعلم أنه لا يتزين لي العباد بزيته هي أبلغ فيما عندي من الرهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقاً حقاً، فإذا لقيتهم فاختفض لهم جناحك وذلل قلبك ولسانك.

وأعلم أنه من أهان لي ولياً أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة وبإداني وعرض لي نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يعاديني أن يعجزني، أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني، وكيف وأنا الشائر لهم في الدنيا والآخرة لا أكل نصرتهم إلى غيري، رواه ابن أبي حاتم.

﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه رباه عز وجل إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعنصري وظهيري، وإنما فلا طاقة لي بذلك واحلل عقدة من لسانك يفهموا قوله﴾ وذلك لما كان أصحابه، من اللئن حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأله أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأله الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري ﴿واحلل عقدة من لسانك﴾ قال: حل عقدة واحدة. ولو سأله أكثر من ذلك أعطي. وقال ابن عباس: شكا موسى إلى رباه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل رباه أن يعيشه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلّم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فاتاه سؤله فحل عقدة من لسانه.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عمرو بن عثمان، حدثنا بقية عن أرطأة بن المنذر، حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب عنه قال: أتاه ذو قرابة له: فقال له: ما بك بأس لو لا أنك تلحن في كلامك، ولست تعرب في قراءتك، فقال القرطي: يا ابن أخي ألسست أفهمك إذا حدثتك؟ قال: نعم. قال: فإن موسى عليه السلام إنما سأله رباه أن يحل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه، ولم يزد عليها، هذا لفظه.

وقوله: «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي» وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال الشوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال فنبيء هارون ساعتها حين نبيء موسى عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن نمير، حدثنا أبوأسامة عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت بعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أفعى لأخيه؟ قالوا: لا ندري. قال: أنا والله أدرى. قالت: فقلت في نفسي في حلفه لا يستثنى إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أفعى لأخيه، قال: موسى حين سأله أخيه النبوة، فقلت: صدق والله. قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: «وكان عند الله وجهاً».

وقوله: «أشدد به أزرني» قال مجاهد: ظهري، «وأشركه في أمري» أي في مشاورتي «كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً» قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. قوله: «إنك كنت بنا بصيراً» أي في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك.

قال قد أوريت سؤالك يموسى ﷺ ولقد مننا عليك مرّة أخرى ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى به﴾ أن أقديه في التأبُّوت فأقديه في اليمِ فليلقه أليم بالساحل يأخذه عدوه وعدوله وأقيمت عليك محبة متي ولتصنع على عيني ﴿إذ تشين أختاك فنقول هل أدلّك على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي نقر عينها ولا تحرر وقتلت نفساً في جهنم من الغم وفتاك فعنوانا﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأله رباه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان ألهم منه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه، لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبيل، فذهبت مرة لترتبط الجبل فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لو لا أن ربنا على قلبها» [القصص: ١٠] فذهب به البحر إلى دار فرعون.

«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً» [القصص: ٨] أي قدرًا مقدورًا من الله حيث كانوا هم يقتلون العلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: «يأخذه عدو لي وعدوه وأقيمت عليك محبة متي» أي عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل «وأقيمت عليك محبة متي» قال: حبتك إلى عبادي ولتصنع على عيني قال أبو عمران الجوني: تربى بيني الله وقال قتادة: تغذى على عيني.

وقال معاذ بن المثنى **﴿ولتصنع على عيني﴾** بحيث أرى، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلد الصنعة.

وقوله: **﴿إِذْ تَمْشِي أَخْتَكْ فَتَقُولُ هَلْ أَدْلَكْمْ عَلَى مَنْ يَكْفِلْهُ فَرْجُنَاتْكَ إِلَى أَمْكَ كَيْ تَقْرَ عَيْنَهَا﴾** وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها، قال الله تعالى: **﴿وَحِرْمَنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعُ مِنْ قَبْلِ﴾** [القصص: ١٢] فجاءت أخته وقالت: **﴿هَلْ أَدْلَكْمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾** [القصص: ١٢] تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنانها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أغنى وأجزل، ولهذا جاء في الحديث «مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» وقال تعالى ه هنا: **﴿فَرْجُنَاتْكَ إِلَى أَمْكَ كَيْ تَقْرَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَن﴾** أي عليك **﴿وَقُتِلتْ نَفْسًا﴾** يعني القبطي **﴿فَجَبِينَاتْكَ مِنْ الْغَمِّ﴾** وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: **﴿لَا تَخْفَ نِجُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** [القصص: ٢٥].

وقوله: **﴿وَفَتَنَاكَ فَتُونَا﴾** قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سنته قوله **﴿وَفَتَنَاكَ فَتُونَا﴾**.

(حديث الفتون) حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أئبنا أصبح بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام **﴿وَفَتَنَاكَ فَتُونَا﴾** فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدي من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل يتظرون بذلك لا يشكون فيه.

وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون: كيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكرًا إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم، والصغرى يذبحون، قالوا: ليوشك أن تفتنوا ببني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلون عاماً كل مولد ذكر، واتركوا بناتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهن لن يکثروا بمن تستحبون منهم، فتخافوا مکاثرهم إياكم، ولم يفتنا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة.

فلما كان من قابل، حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون - يا ابن جبیر - ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به، فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إن رادوه إليك وجعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن يجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاهها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت ببني لو ذبح عندي فواريته وكفته كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحياته .

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقي جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن: إن في هذا مالاً، وإن إن فتحنا لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملته كهيته لم يخرج منها شيئاً حتى دفعه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد فقط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباخون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبیر، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستووه منه، فإن وبه لي كتم قد أحستم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم، فأتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك»، فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لبنة لتخثار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهم لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبنة فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذنه منها، فلم يقبل .

وأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرأً: أحي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظورات: أنا أدلكم على أهل بيتك يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا ما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبیر، فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظورة الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها .

فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمضه حتى امتلاً جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً جبه فقط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك

أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيراً، فإني غير تاركة بيتي ولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتريني ابني فدعتها يوماً تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظورها وقها متها: لا يقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكراامة لأرى ذلك، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لاتين به فرعون فلينحلنهوليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباхين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به.

وأريد به فتوناً فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدارك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال ألا ترين أنه يصرعني ويعلوني؟ فقالت: أجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به، أئـت بجمـرـتين ولؤـلـؤـتين فـقـدـمـهـنـ إـلـيـهـ، فـإـنـ بـطـشـ بـالـلـؤـلـؤـتـيـنـ وـاجـتـبـ الجـمـرـتـيـنـ، عـرـفـ أـنـ يـعـقـلـ، وـإـنـ تـنـاـوـلـ الجـمـرـتـيـنـ وـلـمـ يـرـدـ اللـؤـلـؤـتـيـنـ عـلـمـ أـنـ أـحـدـ لـاـ يـؤـثـرـ الجـمـرـتـيـنـ وـهـوـ يـعـقـلـ، فـقـرـبـ إـلـيـهـ الجـمـرـتـيـنـ وـالـلـؤـلـؤـتـيـنـ، فـتـنـاـوـلـ الجـمـرـتـيـنـ، فـأـنـتـزـعـهـمـاـ مـنـ مـخـافـةـ أـنـ يـحرـقاـ يـدـهـ، فـقـالـتـ المـرـأـةـ: أـلـاـ تـرـىـ؟ فـصـرـفـهـ اللهـ عـنـهـ بـعـدـ مـاـ كـانـ قـدـ هـمـ بـهـ، وـكـانـ اللهـ بـالـغـاـيـةـ أـمـرـهـ، فـلـمـ بـلـغـ أـشـدـهـ وـكـانـ مـنـ الرـجـالـ لـمـ يـكـنـ أـحـدـ مـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ مـعـهـ بـظـلـمـ وـلـاـ سـخـرـةـ حـتـىـ اـمـتـنـاعـ كـلـ الـامـتـنـاعـ، فـبـيـنـمـاـ مـوـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ يـمـشـيـ فـيـ نـاحـيـةـ الـمـدـيـنـةـ إـذـاـ هـوـ بـرـجـلـيـنـ يـقـتـلـانـ أـحـدـهـمـاـ فـرـعـونـيـ وـالـآـخـرـ إـسـرـائـيلـيـ، فـاستـغـاثـهـ إـسـرـائـيلـيـ عـلـىـ الـفـرـعـونـيـ فـغـضـبـ مـوـسـىـ غـضـبـاـ شـدـيدـاـ، لـأـنـ تـنـاـوـلـهـ وـهـوـ يـعـلـمـ مـنـزـلـهـ مـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ وـحـفـظـهـ لـهـمـ لـاـ يـعـلـمـ النـاسـ إـلـاـ إـنـمـاـ ذـلـكـ مـنـ الرـضـاعـ إـلـاـ أـمـ مـوـسـىـ إـلـاـ أـنـ يـكـونـ اللهـ أـطـلـعـ مـوـسـىـ مـنـ ذـلـكـ عـلـىـ مـاـ لـمـ يـطـلـعـ عـلـيـهـ غـيرـهـ، فـوـكـرـ مـوـسـىـ الـفـرـعـونـيـ فـقـتـلـهـ، وـلـيـسـ يـرـاهـمـ أـحـدـ إـلـاـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـالـإـسـرـائـيلـيـ، فـقـالـ مـوـسـىـ حـيـنـ قـتـلـ الرـجـلـ: هـذـاـ مـنـ عـمـ الشـيـطـانـ إـنـ عـدـوـ مـضـلـ مـبـينـ، ثـمـ قـالـ: **﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فنفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾** [القصص: ١٦].

فـأـصـبـحـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ خـائـفـاـ يـتـرـقـبـ الـأـخـبـارـ، فـأـتـىـ فـرـعـونـ فـقـيـلـ لـهـ: إـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ قـتـلـواـ رـجـلـاـ مـنـ آلـ فـرـعـونـ، فـخـذـ لـنـاـ بـحـقـنـاـ وـلـاـ تـرـحـضـ لـهـمـ، فـقـالـ: أـبـغـونـيـ قـاتـلـهـ وـمـنـ يـشـهـدـ عـلـيـهـ، فـإـنـ الـمـلـكـ وـإـنـ كـانـ صـفـوهـ مـعـ قـوـمـهـ لـاـ يـسـتـقـيمـ لـهـ أـنـ يـقـيـدـ بـغـيرـ بـيـنةـ وـلـاـ ثـبـتـ، فـاطـلـبـواـ لـيـ عـلـمـ ذـلـكـ آخـذـ لـكـمـ بـحـقـكـمـ، فـبـيـنـمـاـ هـمـ يـطـوـفـونـ لـاـ يـجـدـونـ ثـبـتاـ إـذـاـ بـمـوـسـىـ مـنـ الـغـدـ قـدـ رـأـىـ ذـلـكـ إـسـرـائـيلـيـ يـقـاتـلـ رـجـلـاـ مـنـ آلـ فـرـعـونـ آخـرـ،

رجالاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى فندم على ما كان منه وكره الذيرأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: «إنك لغوي مبين» [القصص: ١٨]، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين، لأن يكون إيه أراد، ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني.

فخاف الإسرائيلي وقال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، وإنما قاله مخافة أن يكون إيه أراد موسى ليقتله، فتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، فأرسل فرعون الذابحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسيل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ولم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: «عسى ربى أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسكنون ووجد من دونهم امرأتين تذودان» [القصص: ٢٣] يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لها: ما خطبكما معترتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نراحم القوم وإنما نسقي من فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغمهمما إلى أبيهما، وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال: «رب إني لما أزلت إلى من خير فقير» واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغمهمما حفلاً بطاناً، فقال: إن لكما اليوم لشأننا، فأخبرتهما بما صنع موسى، فأمر إدحاماً أن تدعوه، فأتت موسى فدعنته.

فلما كلمه قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إدحاماً: «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين» [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فيما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقى منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانتعي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذي قال، فقال له: هل لك «أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجاج فإن أتممت عشرأً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين» [القصص: ٢٧]؟ ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت ستتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرأً.

قال سعيد وهو ابن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدرى أي

الأجلين فقضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدرى، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانين كانت على نبي الله واجبة لم يكن النبي الله ليقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراوي فأخبرته بذلك، فقال: الذي سأله فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكى إلى الله تعالى ما يحذره من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فاتاه الله سوله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليهما السلام، فانطلقا جمِعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: «إنا رسولا ربك» قال: فمن ربكم؟ فأخباره بالذي قص الله عليك في القرآن؟ قال: وما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل، فأبى عليه وقال: أئت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة، فاغرَّها، مسرعة إلى فرعون.

فلما رأها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتجم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه فعل، ثم أخرج يده من جيبه فرأها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص، ثم ردتها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملا حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران **﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما وينهبا بطريقنكم المثلث﴾**، يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطيه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهما بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المداين فحضر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، مما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقارب وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحضر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحر هو يوم عاشوراء. فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر **﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾** [الشعراء: ٤٠] يعني موسى وهارون استهزاء بهما؟ فـ **﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن تكون نحن الملقين﴾** [الأعراف: ١١٥] قال: بل ألقوا **﴿فاللهم حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحنا الفالبون﴾** [الأعراف: ٤٤] فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقها صارت ثعباناً عظيمة فاغرَّها، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت

جزراً إلى الشعبان تدخل فيه حتى ما أبقيت عصاً ولا حبلًا إلا ابتلعته، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله عز وجل، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله، وننوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَلْعُلُوْبَا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وامرأة فرعون بارزة متبدلة تدعى الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رأها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معهبني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى وينطلب إليه أن يكفها عنه ويوافقه على أن يرسل معهبني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المداشر حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنى عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من يقى بعد من فرعون وأشياعه، فنسى موسى أن يضرب البحر بعصاه وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضر به موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصيًّا لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربوا قال أصحاب موسى: إننا لمدركون أفعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربِّي إذا أتيت البحر انفلق اثنى عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربِّه وكما وعد موسى، فلما أتى جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إننا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربِّه فأخرجه له بيده حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مرروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ﴾ قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه [الأعراف: ١٣٨] الآية. قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم، وممضى فأنزلتهم موسى متزاً وقال: أطيعوا هارون فإنني قد استخلفته عليكم، فإني ذاهب إلى ربِّي وأجلهم ثلاثة يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربِّه وأراد أن يكلمه في ثلاثة يوماً، وقد صامهن ليهن ونهاهن، وكره أن يكلم ربِّه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضعه فقال له ربِّه حين أتاه: لم أفترط وهو أعلم بالذي كان، قال: يا ربِّي كرهت أن أكلمك إلا وفيك طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصم عشرأ ثم ائنني.

فَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَمْرَ بِهِ، فَلَمَّا رَأَى قَوْمَهُ أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي الْأَجْلِ سَاءَهُمْ ذَلِكُ، وَكَانَ هَارُونَ قَدْ خَطَبَهُمْ وَقَالَ: إِنَّكُمْ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ وَلَقَوْمَ فَرْعَوْنَ عَنْكُمْ عَوْرَيْ وَوَدَائِعَ وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكُ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّكُمْ تَحْتَسِبُونَ مَا لَكُمْ عَنْهُمْ وَلَا أَحْلَ لَكُمْ وَدِيعَةً اسْتَوْدَعْتُمُهَا وَلَا عَارِيَةً، وَلَسْتُ بِرَادِينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكُ وَلَا مَمْسِكِيَّهُ لِأَنْفُسِنَا، فَحَفِرَ حَفِيرًا وَأَمْرَ كُلَّ قَوْمٍ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكُ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حَلِيلٍ أَنْ يَقْذِفُوهُ فِي ذَلِكَ الْحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا يَكُونُ لَنَا وَلَا لَهُمْ، وَكَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقْرَ جِبْرِيلَ بْنِ إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَقُضِيَ لَهُ أَنْ رَأَى أَثْرًا فَقَبَضَ مِنْهُ قَبْضَةً، فَمَرَّ بِهِارُونَ فَقَالَ لَهُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا سَامِرِيُّ أَلَا تَلْقَى مَا فِي يَدِكُ، وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ؟

فَقَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثْرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاؤَزَ بَكُمُ الْبَحْرَ، وَلَا أَلْقَيْهَا لِشَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَدْعُوكُهُ إِذَا أَلْقَيْتَهَا أَنْ يَجْعَلَهَا وَدْعَاهَا وَدَعَا لَهُ هَارُونَ، فَقَالَ: أَرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَجَلًا، فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الْحَفِيرَةِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حَلِيلٍ أَوْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ، فَصَارَ عَجَلًا أَجْوَافُ لِلَّهِسْ فِيهِ رُوحٌ وَلِهِ خَوَارٌ، قَالَ أَبْنَ عَبَّاسٍ: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لَهُ صَوْتٌ قَطْ إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ فِي دِبْرِهِ وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكُ، فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَرَقًا، فَقَالَتْ فَرَقَةٌ: يَا سَامِرِيُّ مَا هَذَا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ؟ قَالَ: هَذَا رِبُّكُمْ وَلَكُنْ مُوسَى أَضْلَلُ الطَّرِيقَ، فَقَالَتْ فَرَقَةٌ: لَا نَكْذِبُ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ رَبُّنَا لَمْ نَكْنِ ضَيْعَنَا وَعَجَزَنَا فِيهِ حِينَ رَأَيْنَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّنَا فَإِنَا نَتَّعِ قولَ مُوسَى، وَقَالَتْ فَرَقَةٌ: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَلَيْسَ بِرَبِّنَا وَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُصَدِّقُ، وَأَشَرَّبَ فَرَقَةٌ فِي قَلْوَبِهِمُ الصَّدْقَ بِمَا قَالَ السَّامِرِيُّ فِي الْعَجْلِ وَأَعْلَنُوا التَّكْذِيبَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُمْ هَارُونَ: «يَا قَوْمَ إِنَّمَا فَتَنْتُمْ بِهِ وَإِنْ رَبُّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوْ أَمْرِي» فَالْأَلْوَاهُ: فَمَا بَالَّمُوسَى وَعَدْنَا ثَلَاثَيْنِ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفَنَا، هَذِهِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَدْ مَضَتْ، وَقَالَ سَفَهَاهُوْهُمْ: أَخْطَأَ رَبِّهِ فَهُوَ يَطْلُبُهُ: يَتَّبِعُهُ، فَلَمَّا كَلَمَ اللَّهَ مُوسَى وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ، أَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ قَوْمَهُ مِنْ بَعْدِهِ «فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضِبَانَ أَسْفًا» فَقَالَ لَهُمْ مَا سَمِعْتُمْ فِي الْقُرْآنَ، وَأَخْذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرِهُ إِلَيْهِ، وَأَلْقَى الْأَلْوَاهَ مِنَ الْغَضَبِ، ثُمَّ إِنَّهُ عَذَرَ أَخَاهُ بَعْدَهُ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَانْصَرَفَ إِلَى السَّامِرِيِّ فَقَالَ لَهُ: مَا حَمْلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: قَبَضْتَ قَبْضَةً مِنْ أَثْرِ الرَّسُولِ وَفَطَنْتَ لَهَا وَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ «فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوْلَتُ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهِبْ فَإِنَّكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسٌ وَإِنَّكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلُفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْ تَحرَقَنَهُ ثُمَّ لَنْتَسْفَنَهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا»، وَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ.

فَاسْتَيْقَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالْفَتْنَةِ، وَاغْتَبَطَ الَّذِينَ كَانُوا رَأِيَهُمْ فِيهِ مِثْلُ رَأْيِ هَارُونَ، فَقَالُوا لِجَمَاعَتِهِمْ: يَا مُوسَى سَلْ لَنَا رَبِّكَ أَنْ يَفْتَحْ لَنَا بَابَ تُوبَةٍ نَصْنَعُهَا فَيَكْفُرَ عَنَا مَا عَمَلْنَا، فَاخْتَارَ مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا لَذَلِكَ لَا يَأْلُو الْخَيْرَ خَيْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ لَمْ يَشْرُكْ فِي الْعَجْلِ، فَانْطَلَقَ بِهِمْ يَسْأَلُ لَهُمُ التُّوبَةَ فَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ! فَاسْتَحْيَا نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ قَهْرِهِ وَمِنْ وَفْدِهِ حِينَ فَعَـ

بهم ما فعل، فقال: ﴿رب لَوْ شِئْتْ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّاِيْ أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءِ﴾ [الأعراف: ٣] وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَقَوَّنُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَبَعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجْدُونَهُ مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فقال: يا رب سألك التوبة لقومي، فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجي في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الوطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون، واطلع الله من ذنبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يلغهم من الوظائف، فشقق ذلك عليهم وأبوا أن يقرروا بها، فتنق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذنا الكتاب بأيمانهم، وهم مصغون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها، فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون.

قال رجلان من الذين يخافون قبل ليزيد هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجا إليه فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون منبني إسرائيل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَا لَن نَدْخُلَهَا أَبْدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْهُمْ وَرَبِّكَ فَقَاتَلَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فأغضبوا موسى، فدعوا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، وحرمهما عليهم أربعين سنة يتبعون في الأرض يصبحون كل يوم فيسرون ليس لهم قرار، وظلل عليهم الغمام في الظهيرة، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تسخن، وجعل بين ظهريهما حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتان عشرة عيناً في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا بذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل، فقال: كيف يفضي عليه ولم يكن علم به، ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذي حضر ذلك؟

غضب ابن عباس فأخذ ييد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائىلى الذى أفسى عليه أم الفرعونى؟ قال: إنما أفسى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائىلى الذى شهد على ذلك وحضره.

وهكذا رواه النسائي في السنن الكبيرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير^(١) وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلهم من حديث يزيد بن هارون به، وهو موقف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاء ابن عباس رضي الله عنهما مما أبىع نقله من الإسرائىليات عن كعب الأحبار، أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً. قوله عز وجل:

فَلِّيَشَّتْ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدِينَ ثُمَّ حِثَّتْ عَلَى قَدَرِ يَمْوُسَى ۝ وَاصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ۝ أَدْهَبَتْ أَنْتَ وَحْولَكَ ۝ يَنَائِتِي وَلَا نَيَّا فِي ذِكْرِي ۝ أَذْهَبَ إِلَى فَرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُولَا لَهُ قُولَا لِتَنَاهُمْ يَنْذَكِرُوا فَيَعْشَنِي ۝

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيناً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه، يربى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: «ثم جئت على قدر يا موسى» قال مجاهد: أي على موعد. وقال عبد الرزاق عن معمراً عن قتادة في قوله: «ثم جئت على قدر يا موسى» قال: على قدر الرسالة والنبوة^(٢). وقوله: «واصطنتك لنفسي» أي اصطفيتك واجتبيتك رسولًا لنفسي أي كما أريد وأشاء.

وقال البخارى عند تفسيرها: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال فوجده مكتوباً على قبره قبل أن يخلقني، قال: نعم فحج آدم موسى»^(٣) أخر جاه.

وقوله: «أذهب أنت وأخويك بـَيَانِي» أي بحججي وبراهيني ومعجزاتي «ولَا نَيَّا فِي ذِكْرِي» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تبطئنا، وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفنا، والمراد أنهم لا يفتراون في ذكر الله، بل يذكرون الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهم عليه، وقوه لهم سلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني

(١) تفسير الطبرى /٨ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، وانظر الدر المتشور /٤ - ٥٣٠ - ٥٣٦ .

(٢) انظر تفسير الطبرى /٨ .

(٣) أخرجه البخارى في تفسير سورة ٢٠ ، باب ١ ، ٣ ، ومسلم في القدر حديث ١٣ ، ١٥ .

وهو مناجز قرنه». وقوله: «إذهبا إلى فرعون إنه طغى» أي تمرد وعنتا وتجرير على الله وعصاه «فقولا له قولًا ليناً لعله يتذكر أو يخشى» هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاظفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: «فقولا له قولًا ليناً»: [رجز]

يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وقال وهب بن منبه: قولًا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. وعن عكرمة في قوله: «فقولا له قولًا ليناً» قال: لا إله إلا الله، وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصري «فقولا له قولًا ليناً» أعزرا إليه قولًا له: إن لك ربًا ولنك معادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا، وقال بقية عن علي بن هارون عن رجل عن الصحاح بن مزاحم عن النزال بن سبرة عن علي في قوله «فقولا له قولًا ليناً» قال: كنه، وكذا روي عن سفيان الثوري: كنه بأبي مرة، والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رقيق، ليكون أوقع في الفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والمواعظ الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» [التحل: ١٢٥].

وقوله: «لعله يتذكر أو يخشى» أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلاكة، أو يخشى أي يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: «لمن أراد أن يذكر أو يخشى»^(١) فالذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة، وقال الحسن البصري: «لعله يتذكر أو يخشى» يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعزرك إليه، وه هنا ذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق: [الطوبل]

بعثت إلى موسى رسولاً مناديًا^(٢)
وأنت الذي من فضل من ورحمة
فقلت له: فاذهب وهارون فادعوه
فقولا له: هل أنت سويت هذه
وقولا له: أنت رفعت هذه
وقولا له: أنت سويت وسطها
وقولا له: من يخرج الشمس بكرة
وقولا له: من ينبع الحب في الثرى
ويخرج منه حبة في رؤوسه؟
وقوله عز وجل:

(١) هذه ليست آية، وهي مزيج من آيتين الأولى: «لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا» [الفرقان: ٦٢]، والثانية: «سيذكر من يخشى» [الأعلى: ١٠].

(٢) الآيات في سيرة ابن هشام ١/ ٢٨٨.

فَالاَّ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَيْنَانَا أَوْ أَنْ يَطْغِيٌ^{١٠} قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَأَنِي أَهُ فَقُولَا إِنَّا سُلْطَانُكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُؤْذِنْهُمْ قَدْ جِئْنَكَ بِشَاهِيَّةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَتَيْتَ الْمُهْدِيَّ^{١١} إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَبَ وَتَوَلَّ^{١٢}

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، أنهم قالا مستجيرين بالله تعالى شاكين إليه: «إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَيْنَانَا أَوْ أَنْ يَطْغِي» يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهمما، فيعاقبهم بما لا يستحقان منه ذلك. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن يفترط يعجل. وقال مجاهد: يبسط علينا. وقال الضحاك عن ابن عباس أو أن يطغى: يعتدي «قال لا تخافا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» أي لا تخافا منه، فإِنِّي معكمَا أَسْمَعُ كلامكمَا وكلامه، وأَرَىٰ مكانكمَا ومكانه، لا يخفى عليَّ من أمركم شيء، واعلموا أن ناصيتي بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبسط إلا بإِذني وبعد أمري، وأنا معكمَا بحفظي ونصرني وتائيدي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: لما بعث الله عز وجل موسى إلى فرعون قال: رب أي شيء أقول؟ قال: قل هي شراهيا. قال الأعمش: فسر ذلك: أنا الحي قبل كل شيء والحي بعد كل شيء^(١)، إسنادهجيد، وشيء غريب «فَأَتَيْهِ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ» قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهم حتى أذن لهم بعد حجاب شديد.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار أن موسى وأخاه هارون خرجا فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه، وهو يقولان: إننا رسول رب العالمين فاذدوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغني سنتين يغدوان ويروحان لا يعلم بهما ولا يجرتى أحد على أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلاعنه ويضحكه، فقال له: أيها الملك إن على بابك رجلاً يقول قوله عجيبةً يزعم أن له إليها غيرك أرسله إليك. قال بيابي؟ قال: نعم، قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفي يده عصا، فلما وقف على فرعون قال: إني رسول رب العالمين، فعرفه فرعون.

وذكر السدي أنه لما قدم بلاد مصر ضاف أمه وأخاه، وهو لا يعرفانه، وكان طعامهما ليلتند الطعشل وهو اللفت، ثم عرفاه وسلمها عليه، فقال له موسى: يا هارون إن ربي قد أمرني أن آتني هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله وأمرك أن تعاونني. قال: افعل ما أمرك ربك، فذهبا وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى بباب القصر بعصا فسمع فرعون، فغضب وقال: من يجرتى على هذا الصنيع الشديد، فأخبره السدنة والبوابون بأن ه هنا رجلاً مجنوناً يقول إنه رسول الله، فقال علي به، فلما وقفوا بين يديه قالا وقال لهم ما ذكر الله في كتابه.

(١) انظر الدر المنشور ٤/٥٣٧.

وقوله: «قد جئناك بآية من ربك» أي بدلالة ومعجزة من ربك «والسلام على من اتبع الهدى» أي السلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله «بسم الله الرحمن الرحمن»، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاه الإسلام، فأسلم وسلم يؤتوك الله أجرك مرتين» وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتاباً صورته من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد فإني قد أشركتك في الأمر، فلك المدر ولي الوبر، ولكن قريشاً قوم يعتقدون، فكتب إليه رسول الله ﷺ «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمنتقين»^(١) ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون «والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى» أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: «فأاما من طغى وأثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى» [النازعات: ٣٧ - ٣٩] وقال تعالى: «فأنذركم ناراً تلظى لا يصلها إلا الأشقي الذي كذب وتولى» [الليل: ١٤ - ١٦] وقال تعالى: «فلا صدق ولا صلح ولكن كذب وتولى» [القيامة: ٣١ - ٣٢] أي كذب بقلبه، وتولى بفعله.

فَآلَ فَمَنْ رَبِّكُمَا يَنْهَا سَيِّدُنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ فَآلَ فَمَا بَالُ الْقُرُونُ الْأُولَىٰ فَآلَ عِلْمُهَا عِنْ دَرِيٍّ فِي كِتَابٍ لَا يَضُلُّ رَبِّيٍّ وَلَا يَنْسَىٰ

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الحالى إله كل شيء وربه وملائكة، قال «فمن ربكم يا موسى» أي الذي بعثك وأرسلك من هو، فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري «قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى». قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجه^(٢). وقال الضحاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة. وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: سوى خلق كل دابة.

وقال سعيد بن جبير في قوله: «أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، كقوله تعالى: «الذى قدر فھدى» [الأعلى: ٣] أي قدر قدرأً وهدى

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/٦٠٠ . ٦٠١

(٢) انظر تفسير الطبرى ٨/٤٢١ .

الخلق إلى إلهه، أي كتب الأعمال والأجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه.

يقول ربنا الذي خلق الخلوق وقدر القدر وجبل الخلية على ما أراد ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ أصل الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدي، شرع يحتاج بالقرون الأولى، أي الذين لم يعبدوا الله، أي بما بهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا رب كل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك، هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ﴿لا يصل ربي ولا ينسى﴾ أي لا يشد عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محظوظ، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك تعالى وتقدس وتتزه، فإن علم المخلوق يعترفه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنره نفسه عن ذلك.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ
شَقَّ بِهِ كُلُّوْا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
مِنْهَا خَلَقْتُكُمْ وَفِيهَا نَعِيْدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى وَلَقَدْ أَرَيْتَهُمْ إِذَا يَأْتِنَا كُلُّهَا فَكَذَّبُوا وَأَبَدَّوا

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ ثم اعرض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ وفي قراءة بعضهم مهاداً أي قراراً تستقرن عليهما، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها ﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فَجَاجًا سبلاً لِعَلِمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنياء: ٣١] ﴿وأنزل من السماء ماءً فآخر جنباً به أزواجاً من نبات شتى﴾ أي من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً وياتساً ﴿إن في ذلك آيات﴾ أي لدلائل وحججاً وبراهين ﴿لأولي النهى﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدهم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ أي من الأرض مبدئكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدهم وإليها تشيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبضم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٥٢] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال: منها خلقناكم، ثم أخذ أخرى، وقال: وفيها نعيدهم، ثم أخرى، وقال: ومنها نخرجكم تارة أخرى. قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاكُمْ إِذَا يَأْتِنَا كُلُّهَا فَكَذَّبُوا وَأَبَدَّوا﴾ يعني فرعون أنه قامت

عليه الحجج والآيات والدلائل، وعاين ذلك وأبصره فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغاً، كما قال تعالى: «وجحدوا بها واستيقنوا أنفسهم ظلماً وعلوا» [النمل: ١٤] الآية.

قالَ أَجْهَنَّا لِتُخْرِحَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسُحْرِكَ يَكْمُوسَيْ ۝ فَلَمَّا أَتَيْنَكَ سِحْرٌ مِثْلُهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ تَعْنَ ۝ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا شَوَّى ۝ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّيَّةِ ۝ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحْيَ ۝

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، وزرع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتکاثرنا بهم ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه، «فاجعل بيننا وبينك موعداً» أي يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فتعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك **«قَالَ لَهُمْ مُوسَيْ ۝ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّيَّةِ ۝ وَهُوَ يَوْمُ عِيدِهِمْ وَنِيرِوْزِهِمْ ۝** (١) وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: **«وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ۝** أي جميعهم **«ضَحْيَ ۝** أي ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأجل وأبين وأوضح.

وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى، قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء. وقال السدي وقتادة وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم، ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح، وقال وهب بن منبه: قال فرعون: يا موسى أجعل بيننا وبينك أجلاً نظر فيه. قال موسى لم أأمر بهذا إنما أمرت بمناجتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك، فأوحى الله إلى موسى أن أجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو، قال فرعون: أجعله إلى أربعين يوماً ففعل، وقال مجاهد وقتادة: مكاناً سوى منصفاً. وقال السدي: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مكاناً سوى مستو بين الناس وما فيه لا يكون صوب ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستو حين يرى.

فَتَوَلَّ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَقَ ۝ قَالَ لَهُمْ مُوسَيْ وَيَلِكُمْ لَا تَقْتُرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْتَحِكُمْ بِعَذَابٍ ۝ وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْرَى ۝ فَنَزَّلْنَا عَوْنَوْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْ الْجَوَى ۝ قَالُوا إِنْ هَذَا إِنْ سَحْرٌ يُرِيدُ إِنْ أَنْ يُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِكُمْ بِسُحْرِهِمَا وَيَدْهَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۝ فَأَجْمَعُو كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَشْتَوْ صَفَا ۝ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ أَسْتَعْلَى ۝

(١) النوروز: من أعياد الفرس، وقد عرب إلى نيروز.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى، أي شرع في جمع السحرة من مداين مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: «وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم» [القصص: ٧٩]، أي اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكناً على عصاه ومعه أخيه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويهنهم في إجاده عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه وهو يعدهم وينهيهم، يقولون «أئن لنا لأجرأ إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين» [الشعراء: ٤١ - ٤٢] «قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً» أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة، وليس مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله «فيستحكم بعذاب» أي يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له «وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم» قيل معناه أنهم تشارروا فيما بينهم، فقاتل يقول ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقاتل يقول بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: «وأسروا النجوى» أي تناجووا فيما بينهم «قالوا إن هذا لساحران» وهذه لغة بعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ «إن هذين لساحران» وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعني موسى وهارون - ساحران عالمان، خبران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلبكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلا فرعون وجنته، فينتصرا عليه، ويخرجاك من أرضكم.

وقوله: «ويذهبا بطريقتكم المثلث» أي ويستبدلا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله: «ويذهبا بطريقتكم المثلث» يعني ملتهم الذي هم فيه والعيش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هشيم عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبي يحدث عن علي في قوله: «ويذهبا بطريقتكم المثلث» قال: يصرفا وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد «ويذهبا بطريقتكم المثلث» قال: أولوا الشرف والعقل والأستان. وقال أبو صالح: بطريقتكم المثلث أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلث يومئذ بنو إسرائيل، وكانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما. وقال عبد الرحمن بن زيد: بطريقتكم المثلث بالذي أنتم عليه. «فاجمعوا كيدهم ثم ائتوا صفائ» أي اجتمعوا كلكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبعروا

الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه **﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ اسْتَعْلَى﴾** أي منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

قَالُوا يَمْوَسَى إِمَّا أَنْ تُلقَى وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوْا فَإِذَا حَبَالُهُمْ وَعَصَيْهِمْ يَخْيَلُ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَهْمَّ تَسْعِي﴾ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى** ﴿فُلِنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعَلَى﴾ **وَالْقَمَّا مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حِيثُ أَنَّ** **فَأَلْقَى السَّحْرَةُ سُجْدًا قَالُوا إِمَّا** **بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى**

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام، أنهم قالوا لموسى **﴿إِمَّا أَنْ تُلقَى وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقَوْا﴾** أي أنت أول لئنري ماذا تصنعون من السحر، ولاظهر للناس جلية أمرهم **﴿فَإِذَا حَبَالُهُمْ وَعَصَيْهِمْ يَخْيَلُ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَهْمَّ تَسْعِي﴾** وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا **﴿قَالُوا بَعْزَةُ فَرَعُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾** [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: **﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسُحْرٍ عَظِيمٍ﴾** [الأعراف: ١١٦] وقال ه هنا: **﴿فَإِذَا حَبَالُهُمْ وَعَصَيْهِمْ يَخْيَلُ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَهْمَّ تَسْعِي﴾** وذلك أنهم أودعواها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتتميد، بحيث يخلي للناظر أنها تسعي باختيارها، وإنما كان حيلة، وكانوا جمأً غفيراً وجمعوا كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلأً حتى صار الوادي ملاناً حياماً يركب بعضها بعضاً.

وقوله: **﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾** أي خاف على الناس أن يفتتوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألق ما في يمينك يعني عصاك، فإذا هي تلتف ما صنعوا وذلك أنها صارت تبيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضلاس، فجعلت تتبع تلك العبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلتفته وابتلعه، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهراً ضحوا، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: **﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حِيثُ أَنَّ**.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن موسى الشيباني حدثنا حماد بن خالد حدثنا ابن معاذ أحسبه الصائغ عن الحسن عن جندب عن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: **إِذَا أَخْذَتُمْ يَعْنِي السَّاحِرَ فَاقْتُلُوهُ ثُمَّ قُرَأُ** **﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حِيثُ أَنَّ** قال: لا يؤمن به حيث وجد^(١) وقد روى أصله الترمذى موقعاً ومرفوعاً. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، و**﴿قَالُوا آمَنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾** [الشعراء: ٤٧]

(١) أخرجه الترمذى في الحدود بباب . ٢٧

[٤٨]، ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء ببرة. وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبي بزة: كانوا سبعين ألفاً، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامنة: كان سحرة فرعون تسعه عشر ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال كعب الأخبار: كانوا اثني عشر ألفاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن علي بن حمزة، حدثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوبي عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعي: لما خر السحرة سجداً، رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، قال: وذكر عن سعيد بن سلام، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قوله: «فالقى السحرة سجداً» قال: رأوا منازلهم تبني لهم وهم في سجودهم، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

قالَ إِنَّمَا تَمَنْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ لَكِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْتُكُمْ السِّحْرَ فَلَا تَقْطَعُنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلَافِ
وَلَا صَلِيبَتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَعْلَمْنَ أَيْنَا أَشَدُ عَذَابًا وَأَبْقَى [١] قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْتُنِ مَا أَنْتَ قَاضِ إِنَّمَا لَقَضَى هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا [٢] إِنَّمَا أَنْتَ بِرِبِّنَا لِغَفْرَانَاهَا حَطَبِنَا وَمَا
أَكْهَتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٣]

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضور الناس كلهم، وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فهدهدهم وتوعدهم وقال: «إِنَّمَا تَمَنْتُ لَكُمْ» أي صدقتموه «قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» أي ما أمرتكم بذلك وأفتقتم على في ذلك، وقال قوله لا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب «إِنَّه لَكَبِيرٌ كُمْ الْسِّحْرُ» أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لظهوره، كما قال تعالى في الآية الأخرى: «إِنَّه لَمَكْرٌ مَكْرُتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوهُ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسُوفَ تَعْلَمُونَ» [الأعراف: ١٢٣]، ثم أخذ يهدهدهم فقال: «لَا قْطَعْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلَافِ وَلَا صَلِيبَتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» أي لأجعلنكم مثلة، ولا أقتلنكم ولا أشهرنكم، قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله «وَلَعْلَمْنَ أَيْنَا أَشَدُ عَذَابًا وَأَبْقَى» أي أنتم تقولون: إنني وقومي على ضلاله وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صاح عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل و«قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ

البيّنات» أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، «والذي فطرنا» يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيّنات، يعنون لا نختارك على فاطرنا وحالتنا الذي أنشأنا من العدم المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت.

«فاقتصر ما أنت قاض» أي فافعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك، «إنما تقضي هذه الحياة الدنيا» أي إنما لك تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار «إنا آمنا بربرنا ليغفر لنا خططيانا» أي ما كان منا من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من الحسر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: «وما أكرهتنا عليه من السحر» قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً منبني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا: «آمنا بربرنا ليغفر لنا خططيانا وما أكرهتنا عليه من السحر» وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: «والله خير وأبقى» أي خير لنا منك «وابقى» أي أدول ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا، وهو رواية عن ابن إسحاق رحمه الله. وقال محمد بن كعب القرظي «والله خير» أي لنا منك إن أطيع «وابقى» أي منك عذاباً إن عصي، وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك، وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

إِنَّمَا مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِمُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۚ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَقَدْ عَمِلَ الصَّلَاحَتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلُوُّ ۖ جَنَّتُ عَدَنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْمَاهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلُنَّ فِيهَا وَذَلِكَ حَرَاءُ مَنْ تَزَّكَ ۖ

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحدرونه من نعمة الله وعداته الدائمة السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: «إنه من يأت رببه مجرماً» أي يلقى الله يوم القيمة وهو مجرم «فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى» قوله: «لا يقضى عليهم فيما يموتون ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور» [فاطر: ٣٦] وقال: «ويتجنبها الأشقي الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى» [الأعلى: ١١ - ١٣].

وقال تعالى: «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كثون» [الزخرف: ٧٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل^(١): حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي نصرة عن أبي سعيد الخدراني قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أنس تصيبهم النار بذنبهم فتみてهم إماثة حتى إذا صاروا فحماً أذن في

الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبتو على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كان رسول الله ﷺ كان بالبادية^(١)، وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من روایة شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبي سلمة سعيد بن يزيد به.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حيان، سمعت سليمان التيمي عن أبي نصرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتأتى على هذه الآية «إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى» قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تسمهم ثم يقوم الشفاعة فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى بهم نهراً يقال له الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل».

وقوله تعالى: «ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات» أي ومن لقي ربه يوم المعاش مؤمناً القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله «فأولئك لهم الدرجات العلى» أي الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عفان، أئبنا همام، حدثنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلىها درجة، ومنها تخرج الأنهر الأربع، والعرش فوقها، فإذا سألتهم الله فأسألوه الفردوس»^(٣) ورواه الترمذى من حديث يزيد بن هارون عن همام به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، أخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة في كل درجة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلبي، في كل درجة أمير يرون له الفضل والسؤدد.

وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليرون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم - قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء قال - بلى والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٤) وفي السنن: وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعموا^(٥). وقوله: «جنتات عدن» أي إقامة، وهي بدل من الدرجات العلى «تجري من تحتها الأنهر

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٠٦، وابن ماجه في الزهد بباب ٣٧.

(٢) المسند ٣١٦/٥.

(٣) أخرجه الترمذى في صفة الجنة بباب ٤.

(٤) أخرجه البخارى في بدء الخلق باب ٨، والرفاق باب ٥١، ومسلم في الجنة حديث ١١.

(٥) أخرجه أبو داود في الحروف باب ١٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١١، وأحمد في المسند ٢٦/٣.

خالدين فيها» أي ماكثين أبداً «وذلك جزاء من تزكي» أي ظهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له. واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خير وطلب.

ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر عبادِي فاضرب لهم طريقاً في البحرين يبسأ لا تخاف دركاً ولا تخشى ^{٧٧} فأتبعهم فرعون بجنوده فغشىهم من اليم ما غشىهم ^{٧٨} وأضل فرعون قومه وما هدى ^{٧٩}

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويدهب بهم من قبضة فرعون، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة، وذلك أن موسى لما خرج بنى إسرائيل أصبحوا ليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل في المدائن حاشرين، أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه، يقول: «إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغاظون» [الشعراء: ٥٣ - ٥٥].

ثم لما جمع جنده واستوستق له جيشه، ساق في طلبهم فأتبعوهم مشرقين، أي عند طلوع الشمس «فلما تراءى الجمعان» أي نظر كل من الغريقين إلى الآخر «قال أصحاب موسى إننا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين» [الشعراء: ٦٢ - ٦٠] ووقف موسى بنى إسرائيل البحر أمامهم، وفرعون ورائهم، فعند ذلك أوحى الله إليه «أن اضرب لهم طريقاً في البحرين يبسأ» فضرب البحر بعصاه، وقال: انطلق علي يا ذن الله، «فانطلق فكان كل فرق كالطود العظيم» [الشعراء: ٦٣]، أي الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفتحته حتى صار يمساً كوجه الأرض، فلهذا قال: «فاضرب لهم طريقاً في البحر يبسأ لا تخاف دركاً» أي من فرعون «ولا تخشى» يعني من البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى: «فأتبعهم فرعون بجنوده فغشىهم من اليم» أي البحر «ما غشىهم» أي الذي هو معروف ومشهور، وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: «والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى» [النجم: ٥٤ - ٥٥] وقال الشاعر: [رجز]

أنا أبو النجم وشعري شعري^(١)

أي الذي يعرف وهو مشهور. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك «يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وبئس الورد المورود» [هود: ٩٨].

(١) الرجز لأبي النجم في أمالي المرتضى ١/٣٥٠، وخزانة الأدب ١/٤٣٩، والخاصيص ٣/٣٣٧، والدرر ١/١٨٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٦١٠، وشرح شواهد المغني ٢/٩٤٧، وشرح المفصل ١/٩٨، والنصف ١/١٠، وهمع الهوامع ١/٦٠، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٨/٣٠٧، ٩/٤١٢، ٥/٧٩، والدرر ٥/٤١٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٠٣، ٢٩٠، ومغني الليب ١/٣٢٩، ٢/٤٣٧، ٣/٤٣٥. وهمع الهوامع ٢/٥٩.

يَبْنَى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَبْجَثَنَّكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَأَعْذَنَّكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ
وَالسَّلَوَى نَبَّأْ كُلُّوا مِنْ طِبَّتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَلَا تَطْغُوا فِيهِ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ عَصْبِيٌّ وَمَنْ يَحِلِّ
عَلَيْهِ عَصْبِيٌّ فَقَدْ هَوَى وَإِنِّي لِغَفَارٍ لِمَنْ تَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَلِحًا مُهْتَدِيٌّ

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ومنته الجسم، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: «وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظَرُونَ» [البقرة: ٥٠] وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نَحْنُ أُولَى بِمُوسَى فَصَوْمُوهُ»^(١) رواه مسلم أيضاً في صحيحه.

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها^(٢)، فالمن حلوي كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم فإذا خذلوا من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: «كُلُّوا مِنْ طَيَّاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغُوا فِيهِ فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضِيبٌ» أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقتم، ولا تطغوا في رزقكم فتأخذواه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به «فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضِيبٌ» أي أغضب عليكم «وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضِيبٌ فَقَدْ هَوَى» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي فقد شقي. وقال شفي بن مانع: إن في جهنم قصراً يرمي الكافر من أعلىه، فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله «وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضِيبٌ فَقَدْ هَوَى» رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: «وَإِنِّي لِغَفَارٍ لِمَنْ تَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا» أي كل من تاب إلى، تبت عليه من أي ذنب كان، حتى أنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله تعالى: «تَابَ» أي رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق. وقوله: «وَآمَنَ» أي يقلبه. «وَعَمِلَ صَالِحًا» أي بجواره. وقوله: «ثُمَّ اهْتَدَى» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي ثم لم يشکك. وقال سعيد بن جبير «ثُمَّ اهْتَدَى» أي استقام على السنة والجماعة وروي نحوه عن

(١) آخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٠، باب ٢، ومسلم في الصيام حديث ١٢٧، ١٢٨.

(٢) في تفسير الآية ٥٧ من سورة البقرة، والآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

مجاحد والضحاك وغير واحد من السلف وقال قتادة **﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾** أي لزم الإسلام حتى يموت وقال سفيان الثوري **﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾** أي علم أن لهذا ثواباً، وثم هنا لترتيب الخبر على الخبر، قوله : **﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الظِّنَّ أَمْنَوْا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمةِ﴾** [البلد: ١٧].

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى **﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أُثْرِيٍ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِرَضْيٍ** **﴿قَالَ فَإِنَّا**
فَدَفَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ **﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضِبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقُولُ اللَّهُ**
يَعْدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفْطَالَ عَيْنِكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرْدَدْتُمْ أَنْ يَكُلَّ عَلَيْكُمْ غَصْبُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ
مَوْعِدِي **﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْتَهَا فَكَذَّلَكَ الْقَوْمُ**
السَّامِرِيُّ **﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدَ الْمُحَوَّرِ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ** **﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَا**
يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُهُمْ ضَرًا وَلَا نَعْمًا

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون **﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ**
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعُلْنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ تَجْهَلُونَ إِنْ هُؤُلَاءِ مُتَّبِرُّوْمَا هُمْ
فِيهِ وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٧] وواعده ربه ثلاثين ليلة، ثم أتبعها عشرة،
فَتَمَتْ أَرْبَعينَ لَيْلَةَ، أَيْ يَصُومُهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أحاه هارون، وللهذا قال
تعالى : **﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أُثْرِيٍ** **﴿أَيْ قَادِمُونَ يَنْزَلُونَ قَرِيبًا**
مِنَ الطُّورِ **﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِرَضْيٍ** **﴿أَيْ لَتَرَدَادَ عَنِ رَضَا** **﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ**
وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ **﴿أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيُّهُ مُوسَى بِمَا كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْحَدِيثِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعِبَادَتِهِمْ**
الْعَجْلُ الَّذِي عَمِلَهُ لَهُمْ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ.

وفي الكتب الإسرائيلية أنه كان اسمه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى: **﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا**
لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرَ قَوْمَكَ يَأْخُذُونَا بِأَحْسَنِهَا سَأْرِيكُمْ دَارُ الْفَاسِقِينَ [الأعراف: ١٤٥]
أَيْ عَاقِبَةُ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِي الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِيِّ.

وقوله : **﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضِبَنَ أَسْفًا** **﴿أَيْ بَعْدَمَا أَخْبَرَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فِي غَايَةِ**
الْغَضْبِ وَالْحَقْنِ عَلَيْهِمْ، هُوَ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْاعْتِنَاءِ بِأَمْرِهِمْ، وَتَسْلِمُ التَّوْرَةُ الَّتِي فِيهَا
شَرِيعَتُهُمْ، وَفِيهَا شَرْفُهُمْ، وَهُمْ قَوْمٌ قدْ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، مَا يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ لِهِ لَبُ وَحَزْمٌ بَطْلَانٌ
مَا هُمْ فِيهِ وَسْخَافَةٌ عَقْوَلُهُمْ وَأَذْهَانُهُمْ، وَلَهُذَا قَالَ : رَجَعَ إِلَيْهِمْ غَضِبَنَ أَسْفًا، وَالْأَسْفُ شَدَّةُ
الْغَضْبِ. وَقَالَ مجَاهِدٌ : غَضِبَنَ أَسْفًا أَيْ جَزِيعًا، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسَّدِيُّ : أَسْفًا حَزِينًا عَلَىٰ مَا صَنَعَ
قَوْمَهُ مِنْ بَعْدِهِ **﴿قَالَ يَا قَوْمَ الَّلَّهِ يَعْدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا** **﴿أَيْ أَمَا وَعَدُوكُمْ عَلَىٰ لِسَانِي كُلُّ خَيْرٍ فِي**

الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله.

﴿أَفْطَالُ عَلَيْكُمُ الْعِهْد﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم، ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَّ عَلَيْكُمْ غَضْبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ أَمْ هُنَّا بِمَعْنَى بَلْ، وَهِيَ لِلإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَعَدُولِ إِلَى الثَّانِيِّ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: بَلْ أَرَدْتُمْ بِصَنْعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحْلَّ عَلَيْكُمْ غَضْبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مُوعِدِيِّ، قَالُوا أَيُّ بْنُ إِسْرَائِيلَ فِي جَوَابِ مَا أَنْبَهُمْ مُوسَى وَقَرْعَهُمْ ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكُمْ بِمِلْكَنَا﴾ أَيْ عَنْ قَدْرَتِنَا وَاختِيارِنَا، ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْعَذْرِ الْبَارِدِ، يَخْبِرُونَهُ عَنْ تُورِّعِهِمْ عَمَّا كَانُ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حَلِيِّ الْقَبْطِ الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَعْتَارُوهُ مِنْهُمْ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مَصْرَ، فَقَذَفُنَا هَا أَيْ أَقْتَنَا هَا عَنَا.

وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار، وهي في رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس، إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كلها في تلك الحفيرة، ويجعل حجراً واحداً، حتى إذا رجع موسى عليه السلام، رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامي فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل من هارون أن يدعوه أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له، فقال السامي عند ذلك: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ عَجَلًا، فَكَانَ عَجَلًا لَهُ خُوارُ أَيْ صَوْتُ اسْتَدْرَاجًا، وَإِمْهَالًاً وَمَحْنَةً وَاخْتِبَارًاً، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّلَكَ الْقَنْيَ السَّامِيِّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسْدًا لَهُ خُوار﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبادة بن البختري، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد عن سماك عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس أن هارون مر بالسامي و هو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه ما سأله على ما في نفسه، ومضى هارون. وقال السامي: اللهم إني أسألك ان يخور فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم. ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: أعمل ما ينفع ولا يضر. وقال السدي كان يخور ويمشي فقالوا: أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنْسِي﴾ أي نسيه هنا ذهب يتطلبه، كذا تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقال سماك عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَنْسِي﴾، أي نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم.

وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن جبیر عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله، يقول الله: ﴿فَنْسِي﴾ أي ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامي. قال الله تعالى رداً عليهم وتقريراً لهم وبيناناً لفضحهم وسخافة عقولهم فيما ذهبا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ

لهم ضرًا ولا نفعاً» أي العجل، أفلأ يرون أنه لا يجيئهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوا، «ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعاً»، أي في دنياهم ولا في آخرهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره. فيخرج من فمه فيسمع له صوت.

وقد تقدم في حديث الفتون عن الحسن البصري أن هذا العجل اسمه بهمومت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقواها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة^(١).

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلٍ يَقُولُ إِنَّمَا فَتَنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَلَا يُعَذِّبُنِي وَلَطَيِعُوكُمْ أَمْرِي فَالْأَوْلَى نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَذَافِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إليهم، إنما هذا فتنة لكم وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد «فاتبعوني وأطيعونا أمري» أي فيما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه، «قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى» أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

قَالَ يَنْهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتُمْ ضَلَّوْا لَا تَتَبَعَنْ أَفْعَصِيتَ أَمْرِي قَالَ يَبْتَئُمُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْمِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي حَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاء عند ذلك غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في سورة الأعراف بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث «ليس الخبر كالمعاينة» وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: «ما منعك إذ رأيتم ضلوا لا تتبعون» أي فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع «أفعصيت أمري» أي فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: «اخلفني في قومي وأصلاح ولا تتبع سبيل المفسدين» [الأعراف: ١٤٢].

«قال يا ابن أم» ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبيه، لأن ذكر الأم هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: «يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي» الآية، هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٨، وأحمد في المستند ٩٣/٢، ١١٤.

الجسيم، قال: «إني خشيت» أن أتبعدك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقتم بينهم «ولم ترقب قولي» أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيناً له^(١).

قَالَ فَمَا حَطَبُكَ يَسْمِيرِيَّةَ قَالَ بَصَرْتِ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبضَتْ قَبْضَةً مِنْ أَثْرِ الرَّسُولِ فَبَدَّتْهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَأَذَّهَبَ فَإِنَّكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولُ لَا إِسْمَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلُفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِنْهَاكِ الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاهَنَا لَنْ حَرَقَنَا ثُمَّ لَنْ تَسْقِنَنَا فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَّا هُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسَعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال محمد بن إسحاق عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان السامری رجلاً من اهل باجرما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الاسلام معبني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر، وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان، وقال قتادة: كان من قرية ساما.

«قال بصرت بما لم يبصروا به» أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون «فقبضت قبضة من أثر الرسول» أي من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمارة بن العمار، أخبرني عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل عن السدي عن أبي بن عمارة عن علي رضي الله عنه قال: إن جبريل عليه السلام لما نزل فصعد بموسى عليه السلام إلى السماء، بصر به السامری من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس، قال: وحمل جبريل موسى عليهما السلام خلفه حتى إذا دنا من باب السماء صعد وكتب الله الألواح، وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح، فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال: نزل موسى فأخذ العجل فأحرقه، غريب.

وقال مجاهد: «فقبضت قبضة من أثر الرسول» قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملة الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامری، أي ألقى ما كان في يده على حليةبني إسرائيل، فانسرب عجلًا جسداً له خوار حفيظ الريح فيه فهو خواره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المديني، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة أن السامری رأى الرسول، فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء فقتلت له كن فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول فيبيست

(١) انظر تفسير الطبری ٤٤٩ / ٨

أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات.

وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامي: إنما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجتمعوه فجمعواه، فأوقدوا عليه فذاب، فرأه السامي فألقى في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت كن فيكون، فقدف القبضة وقال كن فكان عجلًا جسداً له خوار، فقال: «هذا إلهكم وإله موسى» ولهذا قال «فنبذتها» أي ألقيتها مع من ألقى «وكذلك سوت لي نفسي» أي حسته وأعجبها، إذا ذاك «قال فاذب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس» أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تamas الناس ولا يمسونك « وإن لك موعداً» أي يوم القيمة «لن تخلفه» أي لا محيد لك عنه. وقال قنادة «أن تقول لا مساس» قال: عقوبة لهم وبقائهم اليوم يقولون لا مساس^(١).

وقوله: «إن لك موعداً لن تخلفه» قال الحسن وقناة وأبو نهيك: لن تغيب عنه. وقوله: «وانظر إلى إلهك» أي معبودك «الذي ظلت عليه عاكفاً» أي أقمت على عبادته يعني العجل «لنحرقه» قال الضحاك عن ابن عباس والسدي: سحله بالمبارد وألقاه على النار. وقال قنادة: استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا، فحرقه بالنار، ثم القى رماده في البحر، ولهذا قال: «ثم لتنسفه في اليم نفأ». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنباء إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن عن علي رضي الله عنه قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامي فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلًا، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد، فبرده بها وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء من كان يعبد العجل إلا أصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، وهكذا قال السدي، وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفتون بسط ذلك.

وقوله تعالى: «إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً» يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ولا تبني العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبد له. وقوله: «وسع كل شيء علماً» نصب على التمييز، أي هو عالم بكل شيء، «أحاط بكل شيء علماً» [الطلاق: ١٢]، و«أحصى كل شيء عدداً» [الجن: ٢٨]، فلا «يعزب عنه مثقال ذرة» [سبأ: ٣]، «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في كلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» [الأنعام: ٥٩]، «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين» [هود: ٦]، والأيات

في هذا كثيرة جداً.

كذلك نقص عليك من أبناء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرٌ مَنْ أعرض عنده فِإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِزْقًا حَالِيْنَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْلًا

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجندوه على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا وقد آتيناك من لدنا، أي من عندنا ذكراً، وهو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يأنبه الباطل من بين يديه ولا خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي لم يعط النبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بـمحمد ﷺ كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه.

ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أعرض عنه﴾ أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضله وبهديه إلى سوء الجحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ أعرض عنه فِإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِزْقًا﴾ أي إثماً كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لَا تَذَرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي ومن خالفه وأعرض عنه، ضل وشقى في الدنيا والنار موعده يوم القيمة، ولهذا قال: ﴿مَنْ أعرض عنه فِإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِزْقًا حَالِيْنَ فِيهِ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاكاً ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْلًا﴾ أي بئس الحمل حملهم.

يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الْصُّورِ وَخَسِرُ الْمُجْرِمُونَ يَوْمَئِذٍ رُّزْقًا يَتَخَفَّقُونَ يَنْهَمُ إِنْ لَيَتَمَمُ إِلَّا عَشَرًا يَتَخَنَّعُ أَعْنَامُ يِمَّا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْلَاهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيَتَمَمُ إِلَّا يَوْمًا

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قرن ينفع فيه»^(١). وقد جاء في حديث الصور من روایة أبي هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السموات والأرض، ينفع فيه إسرافيل عليه السلام وجاء في الحديث «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»^(٢).

(١) أخرجه الترمذى في القيمة باب ٨، وتفسير سورة ٣٩، باب ٨، والدارمى في الرفاق باب ٧٩، وأحمد فى المسند ٢/١٦٢، ١٩٢.

(٢) أخرجه الترمذى في القيمة باب ٨، وتفسير سورة ٣٩، باب ٧، وأحمد فى المسند ١/٣٢٦، ٧/٣، ٣٧٤/٤.

وقوله: «ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً» قيل: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأحوال «يتخافتون بينهم» قال ابن عباس: يتشارون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض: إن ليشت إلا عشرًا أي في الدار الدنيا، لقد كان ليشك فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها، قال الله تعالى: «نحن أعلم بما يقولون» أي في حال تناجيهم بينهم «إذ يقول أمثلهم طريقة» أي العاقل الكامل فيهم «إن ليشت إلا يوماً» أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها، كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيمة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة» - إلى قوله - «ولكنكم كتمت لا تعلمون» [الروم: ٥٥ - ٥٦] وقال تعالى: «أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم التذير» [فاطر: ٣٧] الآية، وقال تعالى: «كم ليشت في الأرض عدد سنين قالوا بثنا يوماً أو بعض يوم فسائل العادين قال إن ليشت إلا قليلاً لو أنكم كتمت علمون» [المؤمنون: ١١٤ - ١١٥] أي إنما كان ليشك فيها قليلاً، لو كتمت علمون لأثرتم الباقى على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقى.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسَفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَدْرِرُهَا قَاعًا صَفَصَفَ لَا تَرَى فِيهَا عَوْجًا وَلَا أَمْتَا يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي لَا عِوجَ لَهُ وَخَسْعَتِ الْأَصْوَاتُ لِرَحْمَنٍ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا

يقول تعالى: «ويسألونك عن الجبال» أي هل تبقى يوم القيمة أو تنزول؟ «فقل ينسفها ربِّي نسفاً» أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسيراً «فيذرها» أي الأرض «قاعاً صفصفاً» أي بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: «لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً» أي لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وفتادة وغير واحد من السلف.

«يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له» أي يوم يرون هذه الأحوال والأحوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حينما أمرروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أفعى لهم ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا» [مريم: ٣٨] وقال: «مهطعين إلى الداع» [القمر: ١٠٥] وقال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيمة في ظلمة، ويطوي السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت بؤمنه، فذلك قوله: «يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له» وقال قتادة: لا عوج له، لا يميلون

عنه. وقال أبو صالح: لا عوج له أى لا عوج عنه.

وقوله: «وَخَشِعْتُ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ» قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السدي «فَلَا تسمِعُ إِلَّا هَمْسًا» قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام، وكذا قال عكرمة ومجاحد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «فَلَا تسمِعُ إِلَّا هَمْسًا» الصوت الخفي، وهو رواية عن عكرمة والضحاك. وقال سعيد بن جبير «فَلَا تسمِعُ إِلَّا هَمْسًا» الحديث وسره ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: «يُوْمَ يَأْتِ
لَا تَكُلُّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ» [هود: ١٠٥].

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُوبُ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا وَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا

يقول تعالى: «يَوْمَئِذٍ» أي يوم القيمة «لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ» أي عنده «إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا» قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُشْفِعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِنَا» [البقرة: ٢٥٥]، قوله: «وَكُمْ
مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرْضِيَ»
[النَّجْم: ٢٦]، وقال: «وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيتِهِ مُشْفَقُونَ» [الأَنْبِيَاء: ٢٨].
وقال: «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عَنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ لَهُ» [سَبَا: ٢٣]، وقال: «يُوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ
وَالْمَلَائِكَةُ صَفَّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا» [النَّبَا: ٣٨].

وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلق على الله عز وجل أنه قال «آتَيْتُ الْعَرْشَ، وَأَخْرَجْتُهُ سَاجِدًا، وَيَفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَمَّدٍ لَا أَحْصِيهَا إِلَّا
فِي دُنْيَا مَا شَاءَ أَنْ يَدْعُنِي، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفِعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تَسْمِعُ، وَاشْفُعْ تَشْفُعَ - فَيَحِدُّ
لِي حَدًّا، فَأَدْخِلْهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ» ذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر
الأنبياء^(١).

وفي الحديث أيضًا يقول تعالى أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان،
فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان،
أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٣، والتوكيد باب ١٩، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٦، وأحمد في المسند ١١٦/٣، ٢٤٤.

إيمان^(١) الحديث.

وقوله: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» أي يحيط علمًا بالخلافة كلهم «ولا يحيطون به علمًا» قوله: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» [البقرة: ٢٥٥]. قوله: «وَعَنْتِ الوجوه لِلْحِيِّ الْقِيَمِ» قال ابن عباس وغير واحد: حضرت وذلت واستسلمت الخلافة لجبارها الحي الذي لا يموت، القيمة الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به. قوله: «وَقَدْ خَابَ مِنْ حَمْلِ الظُّلْمِ» أي يوم القيمة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتضي للشاة الجماء من الشاة القراء، وفي الحديث «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم» وفي الصحيح «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيمة»^(٢)، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: «إِنَّ الشَّرَكَ لِظُلْمٍ عَظِيمٍ» [لقمان: ١٣]. قوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِن الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً» لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي لا يزداد في سيناتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم النقص.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا فُرْقَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لِعَالَمِ يَقُولُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذَكْرًا فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيِهِ قُلْ رَبِّ رَزْنِي عَلَمًا

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي، «وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقوون» أي يتذكرون المأثم والمحارم والفواحش «أو يحدث لهم ذكرًا» وهو إيجاد الطاعة و فعل القربات «فتعالى الله الملك الحق» أي تزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعده حق، ووعيده حق ورسله حق، والجنة حق والنار حق وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإذدار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيِهِ»، قوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيمة «لَا تَحْرِكْ بَهْ لِسَانَكَ لَتَعْجَلْ بَهْ إِنْ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقَرَآنَهُ فَإِذَا قَرَآنَاهُ فَاتِّبِعْ قَرَآنَهُ ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بِيَانَهُ» [القيمة: ١٦ - ١٩] وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، كان يعالج

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، وأحمد في المسند ٩٤/٣.

(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ٥٧.

من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية^(١) يعني أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لثلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تحرك به لسانك لتعجل به إِنَّ عَلَيْنَا جُمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿إِذَا قرأتَه فاتِّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال في هذه الآية ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضِي إِلَيْكَ وَحْيَهُ﴾ أي بل أنت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده ﴿وَقُلْ رَبُّ زَدْنِي عِلْمًا﴾ أي زدني منك علمًا، قال ابن عيينة رحمه الله ولم يزل عليه في زيادة حتى توفاه الله عز وجل، ولهذا جاء في الحديث ﴿إِنَّ اللَّهَ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِهِ، حَتَّىٰ كَانَ الْوَحْيُ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَوْمَ تَوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ عليه^(٢)﴾ وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نمير عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله عليه يقول «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، والحمد لله على كل حال»^(٣). وأخرجه الترمذى عن أبي كريب، عن عبد الله بن نمير به. وقال: غريب من هذا الوجه، ورواه البزار عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسى بن عبيدة به، وزاد في آخره «وأعوذ بالله من حال أهل النار».

وَلَقَدْ عَهَدْنَا إِلَىٰ إِدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ يَحْدُدْ لَهُ عَزَمًا لِمَنْ وَلَذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى لِمَنْ فَقُلْنَا يَتَعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّ لَكَ وَلِرَوْحَكَ فَلَا يَخْرُجُنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَسْقُحُ لِمَنْ إِنَّ لَكَ أَلَا تَجْمُعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى لِمَنْ وَأَنَّكَ لَا تَقْطُمُوا فِيهَا وَلَا تَصْنَحُ لِمَنْ فَوَسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَعَادُمُ هَلْ أَدْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْحَلْدِ وَمَلِكٌ لَا يَبْلُ لِمَنْ فَأَكَ لَا مَهَابِدَتْ لَهُ مَسَوَّءَةَ تَهْمَمَا وَطَفِقَ يَعْصِيَنَّ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَمَ أَدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى لِمَنْ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى لِمَنْ

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسى، وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه. وقال مجاهد والحسن: ترك. قوله: ﴿وَإِذَا قلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم، وتكريمه وما فضلته به على كثير من خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وفي الحجر والكهف^(٤)، وسيأتي في آخر سورة طه

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي باب ٤، والتوحيد باب ٤٣، ومسلم في الصلاة حديث ١٤٨، والنمسائي في الافتتاح باب ٣٧، وأحمد في المسند ٣٤٣ / ١.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب ١، ومسلم في التفسير حديث ١، وأحمد في المسند ٢٣٦ / ٣.

(٣) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ١٢٨ وابن ماجه في المقدمة باب ٢٣، والدعاء باب ٢.

(٤) انظر تفسير الآيات ٣٠ - ٣٨ من سورة البقرة، والآيات ١١ - ٢٤ من سورة الأعراف، والآيات ٢٨ - ٤٠

من سورة الحجر، والآيات ٦١ - ٦٥ من سورة الإسراء والآية ٥٠ من سورة الكهف.

﴿ص﴾^(١) يذكر تعالى فيها خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبيّن عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قدি�ماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسُجِّدُوا إِلَى إِبْلِيسِ أُبَيٍ﴾ أي امتنع واستكبر ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمْ إِنَّ هَذَا عَدُوُّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني حواء عليهما السلام ﴿فَلَا يَخْرُجُنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقِي﴾ أي إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك هنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِي﴾ إنما قرن بين الجوع والعرى، لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمُئُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ وهذا ن أيضاً متقابلان، فالظلماء حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمْ هَلْ أَدْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَلْدِ وَمَلْكُ لَا يَبْلِي﴾ قد تقدم أنه دلاهما بغور ﴿وَقَاسِمُهُمَا إِنِّي لِكُمَا لَمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلوا من كل الشمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلوا منها وكانت شجرة الخلد، يعني التي من أكل منها خلد ودام مكثه، وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن أبي الضحاك، سمعت أبي هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسيرراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، وهي شجرة الخلد» ورواه الإمام أحمد^(٢).

وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدِتْ لَهُمَا سُوَاتِهِمَا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس، وأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة فتازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر، فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء، أرأيت إن بت ورجعت أعادتي إلى الجنة؟ قال: نعم» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلْمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً.

وقوله: ﴿وَطَقَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرْقِ الْجَنَّةِ﴾ قال مجاهد: يرقعان كهيئه الثوب، وكذا قال قتادة والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَطَقَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرْقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ينزعن ورق التين فيجعلانه على سواتهما. قوله: ﴿وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أبوبن النجار عن يحيى بن أبي كثير،

(١) الآيات ٧١ - ٨٥ من سورة ﴿ص﴾.

(٢) المستند / ٤٥٥، ٤٦٢.

عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره الله علي قبل أن يخلقني؟ - قال رسول الله ﷺ - فحج آدم موسى»^(١)، وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي ذئاب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبو هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتاج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذي خلقت الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك، قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفلتوني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ - فحج آدم موسى»، قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

قالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَيْعًا بَعْضُكُمْ لِعَضِّ عَدُوٍّ فَإِنَّمَا يَأْتِنَّكُمْ مَنِي هَدَى فَمَنْ أَتَعَ هَدَى فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَخَسْرَانَ يَوْمَ الْقِيَمةِ أَعْمَى قَالَ
رَبِّ لِمَ حَسْرَتِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ إِنَّمَا فَسَيِّدُكَ الْيَوْمُ نَسْنَى

يقول تعالى لأَدَمَ وَهَوَاءَ وَإِبْلِيسَ: اهبطوا منها جميـعاً، أي من الجنة كلـكم، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة «بعضكم لبعض عدو» قال: آدم وذرتهـ، وإبـليس وذرتهـ. قوله: «فـإـنـما يـأـتـنـكـمـ مـنـيـ هـدـىـ فـمـنـ أـتـعـ هـدـىـ فـلـاـ يـضـلـلـ» قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان «فـمـنـ اـتـعـ هـدـىـ فـلـاـ يـضـلـلـ ولا يـشـقـىـ» قال ابن عباس: لا يـضـلـلـ في الدـنـيـاـ ولا يـشـقـىـ في الـآخـرـةـ «وـمـنـ أـعـرـضـ عـنـ ذـكـرـيـ» أي خالـفـ أـمـرـيـ وـمـاـ أـنـزـلـتـهـ عـلـىـ رـسـوـلـيـ أـعـرـضـ عـنـهـ وـتـنـاسـاهـ وـأـخـذـ مـنـ غـيـرـهـ هـدـاـهـ «فـإـنـ لـهـ مـعـيـشـةـ ضـنـكـاـ» أي ضـنـكـاـ فيـ الدـنـيـاـ، فـلـاـ طـمـانـيـةـ لـهـ وـلـاـ اـنـشـرـاحـ لـصـدـرـهـ، بلـ صـدـرـهـ ضـيقـ حـرـجـ لـضـلـالـهـ، وـإـنـ تـنـعـمـ ظـاهـرـهـ وـلـبـسـ ماـ شـاءـ وـأـكـلـ ماـ شـاءـ وـسـكـنـ حـيـثـ شـاءـ، فـإـنـ قـلـبـهـ مـاـ لـمـ يـخـلـصـ إـلـىـ الـيـقـيـنـ وـالـهـدـىـ فـهـوـ فـيـ قـلـقـ وـحـيـرـةـ وـشـكـ، فـلـاـ يـزاـلـ فـيـ رـبـيـةـ يـتـرـدـدـ فـهـذـاـ مـنـ ضـنـكـ الـمـعـيـشـةـ.

قال علي بن أبي طلحـةـ عنـ ابنـ عـباسـ «فـإـنـ لـهـ مـعـيـشـةـ ضـنـكـاـ» قال: الشـقاءـ^(٢). وقال العوفي

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٠، باب ١، ٣.

(٢) انظر تفسير الطبرـيـ ٤٧٠ / ٨.

عن ابن عباس : ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةً ضِنْكًا﴾ قال : كلما أعطيته عبداً من عبادي قل أو كثر ، لا يتقني فيه ، فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة ، وقال أيضاً : إن قوماً ضللاً أعرضوا عن الحق وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين ، فكانت معيشتهم ضنكًا ، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفاً لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتکذیب ، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به ، اشتدت عليه معيشته ، فذلك الضنك . وقال الضحاك : هو العمل السيء والرزق الخبيث ، وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار .

وقال سفيان بن عيينة عن أبي حازم عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قوله : ﴿مَعِيشَةً ضِنْكًا﴾ قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه ، وقال أبو حاتم الرازي : النعمان بن أبي عياش يكفي أبا سلمة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، أبنانا الوليد ، أبنانا عبد الله بن لهيعة ، عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله عز وجل ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةً ضِنْكًا﴾ قال : ضمة القبر له ، والموقف أصح .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا الريبع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج أبو السمح عن ابن حجيرة واسمه عبد الرحمن عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «المؤمن في قبره في روضة خضراء ، ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر ، أتدرون فيما أنزلت هذه الآية ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةً ضِنْكًا﴾ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «عذاب الكافر في قبره ، والذي نفسي بيده إنه ليس له عليه تسعه وتسعون تينياً . أتدرون ما التين؟ تسعه وتسعون حبة ، لكل حبة سبعة رؤوس ينفحون في جسمه ويسعونه ويختذلونه إلى يوم يبعثون» رفعه منكر جداً .

وقال البزار : حدثنا محمد بن يحيى الأذدي : حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن ابن حجيرة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل : ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةً ضِنْكًا﴾ قال «المعيشة الضنك الذي قال الله إنه يسلط عليه تسعه وتسعون حبة ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». وقال أيضاً : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةً ضِنْكًا﴾ قال : «عذاب القبر» إسناد جيد .

وقوله : ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي : لا حجة له ، وقال عكرمة : عمى عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر وال بصيرة أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عَمِيًّا وَبِكُمَاً مَوَاهِمْ جَهَنَّمَ﴾ [الإسراء : ٩٧] الآية ، ولهذا يقول : ﴿رَبِّنِي حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتَ بَصِيرًا﴾ أي في الدنيا ﴿فَالَّذِي أَتَنَا آيَاتِنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تَنْسِي﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بлагتها إليك ، تناستها وأعرضت عنها

وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان مت وعداً عليه من جهة أخرى فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عيسى بن فائد عن رجل عن سعد بن عبادة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل قرأ القرآن فنسقه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أخذم»، ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد عن عيسى بن فائد عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ ذكر مثله سواء.

وَذَلِكَ بَحْرٌ مِّنْ أَسْرَارَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِأَيْنَتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُ وَأَقِيمٌ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وما لهم من واق﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ أي أشد مما من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»^(٢).

أَفَلَمْ يَهْدِهِمْ كُمْ أَهْلَكَاهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَسْهُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ لَذِكْرًا وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجْلَ مُسَمًّى فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَيَّحْ حَمَدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الْشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَّا يَأْتِيَ إِلَيْهِ فَسِيحَ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَكُمْ تَرَضَىٰ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِهِمْ لِهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِمَا جَهَّتْهُمْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ كُمْ أَهْلَكَنَا مِنَ الْأَمْمِ الْمَكْذِبِينَ بِالرَّسُلِ قَبْلَهُمْ، فَبَادُوا فَلَيْسَ لَهُمْ بِاقيَةٍ وَلَا عَيْنٍ وَلَا أَثْرٍ، كُمَا يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارِهِمُ الْخَالِيَةِ الَّتِي خَلَفُوهُمْ فِيهَا﴾ [إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ لَذِكْرًا] أي العقول يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي التلوب التي في الصدور﴿ [الحج: ٤٦] وقال في سورة الم السجدة: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِهِمْ كُمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَسْهُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦] الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجْلَ مُسَمًّى﴾ أي لو لا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله

(١) المستند / ٥، ٢٨٥، ٣٢٣، ٣٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في اللعن حديث ٤، وأبو داود في الطلاق باب ٢٧، والترمذى في تفسير سورة ٢٤، باب ٢، والطلاق باب ٢٢، والدارمى في النكاح باب ٣٩، وأحمد في المستند / ١، ٣١٠، ١٩/٢.

تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة، ولهذا قال لبيه مسلياً له: «فاصبر على ما يقولون» أي من تكذبهم لك «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس» يعني صلاة الفجر «وقبل غروبها» يعني صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة القدر، فقال: «إنكم سترون ربيكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»^(١) ثم قرأ هذه الآية.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عمارة بن رؤبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلتج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» رواه مسلم^(٣) من حديث عبد الملك بن عمير به، وفي المسند والسنن عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين»^(٤).

وقوله: «ومن آناء الليل فسبح» أي من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، «وأطراف النهار» في مقابلة آناء الليل «لعلك ترضى» كما قال تعالى: «ولسوف يعطيك ربك فترضي» [الضحى: ٥] وفي الصحيح «يقول الله تعالى يا أهل الجنة، فيقولون: ليك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيت؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسطخ عليكم بعده أبداً»^(٥) وفي الحديث الآخر «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه: فيقولون: وما هو؟ ألم يببس وجوهنا ويُثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة، فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة»^(٦).

وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَعَنَا يَهُ زَرْفَاجَ مِنْهُمْ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الْأَدْنَى لِفَتْحِهِمْ فِيَهُ وَرِزْقُ رَبِّكَ حِيرَ وَبَنَى لَهُمْ وَأَصْرَ

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب ٢٦، والرقاق باب ٥٢، والتوحيد باب ٢٤، ومسلم في المساجد حديث ٢١١.

(٢) المسند ٤/١٣٦، ٤/٢٦١.

(٣) كتاب الصلاة حديث ١٣، ٢١.

(٤) أخرجه الترمذى في الجنة باب ١٧، وتفسير سورة ٧٥ باب ٢، وأحمد في المسند ٢/١٣، ٦٤، ٤٥٠.

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٧، والرقاق باب ٥١، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢، والجنة حديث ٩.

(٦) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٠، باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ٤/٣٣٣.

أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبَرَ عَنْهَا لَا سَتَّلَكَ رِزْقًا تَحْنُ نَرْزِقَكَ وَالعَنْقَبَةُ لِلنَّقْوَىٰ

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراً لهم فيه من التعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمه حائلة، لخاترهم بذلك وقليل من عبادي الشكور. وقال مجاهد: «أزواجاً منهم»، يعني الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك» [الحجر: ٨٧ - ٨٨] الآية، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف، كما قال تعالى: «ولسوف يعطيك ربك فرضي» [الضحى: ٥] ولهذا قال: «ورزق ربك خير وأبقى».

وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منها (١)، فرأه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير (٢)، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ (٣) وأهاب (٤) معلقة، فابتدرت عيناً عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أو لئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» (٥) فكان يبكي أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخل لنفسه شيئاً لغد.

قال ابن أبي حاتم: أبناؤنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخواف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال «بركات الأرض». وقال قتادة والسدسي: زهرة الحياة الدنيا، يعني زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة: «لتفتنهم فيه» لنبتليهم. وقوله: «وأمر أهلك بالصلة واصطببر عليها» أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» [التحريم: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفاً، وكان له ساعة من الليل يصلّي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام يعني أهله، وقال «وأمر أهلك بالصلة واصطببر عليها».

(١) آلى منها: أي أقسم لا يدخل عليهن شهراً.

(٢) الرُّمال، بضم الراء: مارُمل: أي ما نسج.

(٣) القرَّظ: ما يدبغ به.

(٤) الأَهَبَ، جمع إهاب: وهو الجلد من البقر، والغنم، مالم يدبغ.

(٥) أخرجه البخاري في المظالم باب ٢٥، وتفسیر سورة ٦٦.

وقوله: «لا نسألك رزقاً نحن نرزقك» يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب» [الطلاق: ٢ - ٣] وقال تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» - إلى قوله - «إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ولهذا قال: «لا نسألك رزقاً نحن نرزقك». وقال الثوري: «لا نسألك رزقاً»، أي لا نكلفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا حفص بن غياث عن هشام عن أبيه أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفاً، فإذا رجع إلى أهله، فدخل الدار فرأى «ولا تمدن عينيك» - إلى قوله - «نحن نرزقك» ثم يقول: الصلاة. الصلاة رحمة الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطري، حدثنا سيار، حدثنا جعفر عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: يا أهلاه صلوا، صلوا. قال ثابت: وكانت الأبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، وقد روى الترمذى وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة عن أبيه عن أبي خالد الوالبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فترك، وإن لم تفعل، ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فترك»^(١) وروى ابن ماجه من حديث الضحاك عن الأسود عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يباشر الله في أي أوديته هلك»^(٢)، وروي أيضاً من حديث شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبىان، عن أبيه عن زيد بن ثابت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٣).

وقوله: «والعاقبة للنتقى» أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنى في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفة، وأن ديننا قد طاب»^(٤).

وَقَالُواْ تُولَا يَأْتِينَا بِإِيمَانٍ مِّنْ رَّبِّهِمْ أَوْ مِمَّا فِي الصُّحْفِ أَلْأَوَّلِينَ ۖ وَلَوْ أَنَّا أَفْلَحْنَاهُمْ بِعَذَابٍ

(١) أخرجه الترمذى في القيامة باب ٣٠، وابن ماجه في الزهد باب ٢، وأحمد في المسند ٢/٣٥٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٢.

(٤) أخرجه سلم في الرؤيا حديث ١٨.

مِنْ قَبْلِهِ، لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعُهُ أَيَّتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلَ وَنَخْرُجَ [١٣] قُلْ كُلُّ مُتَرَّضِّصٍ فَتَرِبُصُوا فَسَتَّعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابَ الصِّرَاطَ السَّوِيِّ وَمَنْ أَهْتَدَى [١٤]

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قوله: ﴿لولا﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ تَأْتُهُمْ بِيَنَةً مَا فِي الصَّفَحِ الْأَوَّلِ﴾ يعني القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة ولم يدرس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهممن عليها يصدق الصحيح ويبيّن خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتِ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوْ لَمْ يَكْفُمُهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ يَتْلُى عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرِي لِقَوْمٍ يَؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩ - ٥٠] وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحدها أواه الله إلىه، فأرجو أن تكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة»^(١) وإنما ذكر ه هنا أعظم الآيات التي أعطيتها عليه السلام، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو موعظ في كتبه ومقرر في موضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ونزل عليهم هذا الكتاب العظيم، لكانوا قالوا: ﴿رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال: ﴿فَنَتَّبِعُهُ أَيَّاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلَ وَنَخْرُجَ﴾ يبيّن تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءُوهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧] كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارِكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لِعْلَكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأనعام: ١٥٧ - ١٥٥] وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونَ أَهْدِيٌّ مِّنْ إِحْدَى الْأَمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] الآية، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠] الآيتين، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وع纳ه ﴿كُلُّ مُتَرَّضِّصٍ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَتَرِبُصُوا﴾ أي فانتظروا ﴿فَسَتَّعْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسُوفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مِنْ أَضْلَلَ سِبِّيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشَرِ﴾ [القمر: ٢٦].

آخر تفسير سورة طه وله الحمد والمنة ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة الأنبياء وله الحمد.

(١) آخرجه البخاري في الاعتصام بباب ١، وفضائل القرآن بباب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٣٩.

سورة الانبياء

وهي مكية

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، ثنا غندر، ثنا شعبة عن أبي اسحاق سمعت عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال بنو إسرائيل والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول وهن من تلادي^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفَلَةٍ مُعْرَضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّنْ ذِكْرٍ مِّنْ رَبِّهِمْ تُخَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمْعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِئَةَ فُلُوْبُهُمْ وَأَسْرُوا الْجَنَوَى الَّذِينَ ظَمَوْهُ هُنَّ إِلَّا بَشَرٌ مِّنْنَا مَفْتَأْتُونَ الْسِّخْرَى وَأَنْتُمْ تُبَصِّرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَاتُلُوا أَصْنَعْتُ أَحْلَامَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَيَأْتِنَا بِآيَاتِهِ كَمَا أَرْسَلَ الْأَوْلَوْنَ ﴿٥﴾ مَا أَمْنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَّةٍ أَهْلَكْتَهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هذا تنبية من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها. وقال النسائي: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي، حدثنا أيوب معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ «في غفلة معرضون» قال: «في الدنيا». وقال تعالى: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» [النحل: ١] وقال «اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا» [القمر: ١ - ٢] الآية، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبا نواس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول: [مجزوء الكامل]

النَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمِنَى تَطْحَبِنْ^(٢)

فقيل له: من أين أخذ هذا؟ قال من قول الله تعالى: «أقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» وروي في ترجمة عامر بن ربيعة من طريق موسى بن عبيد الأتمي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٧، باب ١، وسورة ٢١، باب ١، وفضائل القرآن باب ٦.

(٢) البيت في ديوان أبي العتاهية ص ٤٢٩، وهو بلا نسبة في كتاب العين ٣/٢٩٠.

مشواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن اقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذلتنا عن الدنيا ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾.

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شا بهم من الكفار، فقال ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ أي جديد إنزاله ﴿إلا استمعوه وهو يلعيون﴾ كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوا وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يشب، رواه البخاري^(١) بصحوة.

وقوله: ﴿وأسروا الجوى الذين ظلموا﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ يعنيون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحى دونهم، ولهذا قال: ﴿افتأنون السحر وأنتم تبصرون﴾ أي أفتبتعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واحتلقوا من الكذب.

﴿قال ربى يعلم القول في السماء والأرض﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقوله: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد. قوله: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واحتلاظهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ [الإسراء: ٤٨] والفرقان: ٩.

وقوله ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ يعنيون كنافقة صالح وأيات موسى وعيسى وقد قال الله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ [الإسراء: ٥٩] الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكتناها أفهم يؤمنون﴾ أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيهم الرسول آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا، فأهلكتناهم بذلك أفحؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى

(١) آخره البخاري في الاعتصام بباب ٢٥، والتوجيد بباب ٤٢.

وأبهر وأقطع وأفهـر مما شوهـد معـ غيره منـ الأنـبياءـ ، صـلـواتـ اللهـ وـسـلامـهـ عـلـيـهـمـ أـجـمـعـينـ .

قال ابن أبي حاتم رحمـهـ اللهـ ذـكـرـ عنـ زـيدـ بنـ الحـبابـ ، حـدـثـنـاـ اـبـنـ لـهـيـعـةـ : حـدـثـنـاـ الـحـارـثـ بـنـ يـزـيدـ الـحـضـرـمـيـ عـنـ عـلـيـ بـنـ رـبـاحـ الـلـخـمـيـ ، حـدـثـنـيـ مـنـ شـهـدـ عـبـادـةـ بـنـ الصـامـتـ يـقـولـ : كـنـاـ فـيـ المسـجـدـ وـمـعـنـاـ أـبـوـ بـكـرـ الصـدـيقـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ يـقـرـئـ بـعـضـنـاـ بـعـضـاـ قـرـآنـ ، فـجـاءـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ أـبـيـ اـبـنـ سـلـولـ وـمـعـهـ نـمـرـقـةـ وـزـرـبـيـةـ ، فـوـضـعـ وـاتـكـاـ ، وـكـانـ صـبـيـحـاـ فـصـيـحـاـ جـدـلـاـ ، فـقـالـ : يـاـ أـبـاـ بـكـرـ ، قـلـ لـمـحـمـدـ يـأـتـيـنـاـ بـأـيـةـ كـمـاـ جـاءـ الـأـوـلـوـنـ ، جـاءـ مـوـسـىـ بـالـأـلـوـاحـ ، وـجـاءـ دـوـادـ بـالـزـبـورـ ، وـجـاءـ صـالـحـ بـالـنـافـقـةـ ، وـجـاءـ عـيسـىـ بـالـإـنـجـيلـ وـبـالـمـائـدـةـ ، فـبـكـىـ أـبـوـ بـكـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ .

فـخـرـجـ رـسـولـ اللـهـ نـبـيـهـ فـقـالـ أـبـوـ بـكـرـ : قـوـمـواـ بـنـاـ إـلـىـ رـسـولـ اللـهـ نـبـيـهـ نـسـتـغـيـثـ بـهـ مـنـ هـذـاـ الـمـنـافـقـ ، فـقـالـ رـسـولـ اللـهـ نـبـيـهـ : إـنـهـ لـاـ يـقـامـ لـيـ إـنـماـ يـقـامـ لـهـ عـزـ وـجـلـ » فـقـلـنـاـ : يـاـ رـسـولـ اللـهـ إـنـاـ لـقـيـنـاـ مـنـ هـذـاـ الـمـنـافـقـ ، فـقـالـ : إـنـ جـبـرـيـلـ قـالـ لـيـ اـخـرـجـ فـأـخـبـرـ بـنـعـمـ اللـهـ التـيـ أـنـعـمـ بـهـ عـلـيـكـ ، وـفـضـيـلـتـهـ التـيـ فـضـلـتـ بـهـ ، فـبـشـرـنـيـ أـنـيـ بـعـثـتـ إـلـىـ الـأـحـمـرـ وـالـأـسـوـدـ ، وـأـمـرـنـيـ أـنـ أـنـذـرـ الـجـنـ ، وـأـتـانـيـ كـتـابـهـ وـأـنـاـ أـمـيـ ، وـغـفـرـ ذـنـبـيـ مـاـ تـقـدـمـ وـمـاـ تـأـخـرـ ، وـذـكـرـ اـسـمـيـ فـيـ الـأـذـانـ ، وـأـمـدـنـيـ بـالـمـلـائـكـةـ ، وـأـتـانـيـ النـصـرـ ، وـجـعـلـ الرـعـبـ أـمـامـيـ ، وـأـتـانـيـ الـكـوـثـرـ ، وـجـعـلـ حـوـضـيـ مـنـ أـكـثـرـ الـحـيـاضـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ وـرـوـدـاـ ، وـوـدـنـيـ الـمـقـامـ الـمـحـمـودـ وـالـنـاسـ مـهـطـعـونـ مـقـنـعـونـ رـؤـوسـهـمـ ، وـجـعـلـنـيـ فـيـ أـوـلـ زـمـرـةـ تـخـرـجـ مـنـ النـاسـ ، وـأـدـخـلـ فـيـ شـفـاعـتـيـ سـبـعـيـنـ أـلـفـاـ مـنـ أـمـتـيـ الـجـنـةـ بـغـيرـ حـسـابـ ، وـأـتـانـيـ السـلـطـانـ وـالـمـلـكـ ، وـجـعـلـنـيـ فـيـ أـعـلـىـ غـرـفـةـ فـيـ الـجـنـةـ فـيـ جـنـاتـ الـتـعـيمـ ، فـلـيـسـ فـوـقـيـ أـحـدـ إـلـاـ الـمـلـائـكـةـ الـذـيـنـ يـحـمـلـوـنـ الـعـرـشـ ، وـأـحـلـ لـيـ وـلـأـمـتـيـ الـغـنـائـمـ وـلـمـ تـحلـ لـأـحـدـ كـانـ قـبـلـنـاـ » وـهـذـاـ الـحـدـيـثـ غـرـيبـ جـداـ .

وـمـاـ أـرـسـلـنـاـ قـبـلـكـ إـلـاـ رـجـالـاـ نـوـحـيـ إـلـيـهـمـ فـكـلـمـوـاـ أـهـلـ الـذـكـرـ إـنـ كـنـتـ لـاـ تـعـلـمـوـتـ وـمـاـ جـعـلـنـهـمـ جـسـداـ لـاـ يـأـكـلـوـنـ الـطـعـامـ وـمـاـ كـانـوـاـ خـلـلـيـنـ ثـمـ صـدـقـتـهـمـ الـوـعـدـ فـأـنـجـيـنـهـمـ وـمـنـ نـشـاءـ وـأـهـلـكـنـاـ الـمـسـرـفـيـنـ

يـقـولـ تـعـالـيـ رـادـاـ عـلـىـ مـنـ أـنـكـرـ بـعـثـةـ الرـسـلـ مـنـ الـبـشـرـ : «وـمـاـ أـرـسـلـنـاـ قـبـلـكـ إـلـاـ رـجـالـاـ نـوـحـيـ إـلـيـهـمـ» أيـ جـمـيعـ الرـسـلـ الـذـيـنـ تـقـدـمـوـاـ كـانـوـاـ رـجـالـاـ مـنـ الـبـشـرـ لـمـ يـكـنـ فـيـهـمـ أـحـدـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ ، كـمـ قـالـ فـيـ الـآـيـةـ الـأـخـرـيـ «وـمـاـ أـرـسـلـنـاـ قـبـلـكـ إـلـاـ رـجـالـاـ نـوـحـيـ إـلـيـهـمـ مـنـ أـهـلـ الـقـرـىـ» [يـوـسـفـ : ١٠٩] وـقـالـ تـعـالـيـ : «قـلـ مـاـ كـنـتـ بـدـعـاـ مـنـ الرـسـلـ» [الـاحـقـافـ : ٩] وـقـالـ تـعـالـيـ حـكـاـيـةـ عـمـنـ تـقـدـمـ مـنـ الـأـمـمـ ، لـأـنـهـمـ أـنـكـرـوـاـ ذـلـكـ فـقـالـوـاـ «أـبـشـرـ يـهـدـوـنـاـ» [الـتـغـابـنـ : ٦] وـلـهـذـاـ قـالـ تـعـالـيـ : «فـاسـأـلـوـاـ أـهـلـ الـذـكـرـ إـنـ كـنـتـ لـاـ تـعـلـمـوـنـ» أيـ اـسـأـلـوـاـ أـهـلـ الـعـلـمـ مـنـ الـأـمـمـ كـالـيـهـوـدـ وـالـنـصـارـىـ وـسـائـرـ الـطـوـائـفـ : هـلـ كـانـ الرـسـلـ الـذـيـنـ أـتـوـهـمـ بـشـرـاـ أوـ مـلـائـكـةـ ؟ وـإـنـمـاـ كـانـوـاـ بـشـرـاـ ، وـذـلـكـ مـنـ تـمـامـ نـعـمةـ اللـهـ عـلـىـ خـلـقـهـ إـذـ بـعـثـ فـيـهـمـ رـسـلـاـ مـنـهـمـ يـتـمـكـنـوـنـ مـنـ تـنـاـوـلـ الـبـلـاغـ مـنـهـمـ وـالـأـخـذـ عـنـهـ .

وقوله: «وَمَا جعلناهُمْ جسداً لَا يأكلون الطعام» أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما قال تعالى: «وَمَا أرسلنا قبلك من المرسلين إلَّا إِنَّهُمْ لِيأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» [الفرقان: ٢٠] أي قد كانوا بشرأً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توههم المشركون في قولهم «مَا لِهُنَّا رَسُولٌ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلِكًا فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يَلْقَى إِلَيْهِ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا» [الفرقان: ٧-٨] الآية.

وقوله: «وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ» أي في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون «وَمَا جعلنا لبشر من قبلك الخلد» [الأنبياء: ٣٤] وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، قوله: «ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدُ» أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده و فعل ذلك، ولهذا قال «فَانجِينَا هُمْ مِنْ نَشَاءِ» أي أتباعهم من المؤمنين «وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ» أي المكذبين بما جاءت به الرسل.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَكُمْ قَصَمْنَا مِنْ قُرْبَةٍ كَانَتْ طَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا أَخَرِينَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَنْسَانًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَضُونَ ﴿٣﴾ لَا تَرْكَضُوا وَارْجِعُوهُ إِلَى مَا أُنْرِقَتْ فِيهِ وَمَسِكْنِكُمْ لَعْلَكُمْ شَكُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا يُوَلِّنَا إِنَّا كُنَّا طَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَمَا زالتِ تِلْكَ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا أَخْمَدِينَ ﴿٦﴾

يقول تعالى منبهأً على شرف القرآن ومحرضأً لهم على معرفة قدره: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ» قال ابن عباس: شرفكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم^(١)، «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أي هذه النعمة، وتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: «وَإِنَّهُ لِذِكْرِ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسُوفَ تَسْأَلُونَ» [الزخرف: ٤٤]. وقوله «وَكُمْ قَصَمْنَا مِنْ قُرْبَةٍ كَانَتْ طَالِمَةً» هذه صيغة تكثير، كما قال: «وَكُمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقَرْوَنَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ» [الإسراء: ١٧] وقال تعالى: «وَكَانُوا مِنْ قُرْبَةٍ أَهْلَكْنَا هُنَّا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عِروْشَهَا» [الحج: ٤٥] الآية.

وقوله «وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا أَخَرِينَ» أي أمة أخرى بعدهم «فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَنْسَانًا» أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم «إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَضُونَ» أي يفرون هاربين «لَا تَرْكَضُوا وَارْجِعُوهُ إِلَى مَا أُنْرِقَتْ فِيهِ وَمَسِكْنِكُمْ» هذا تهكم بهم نزاراً، أي قيل لهم نزاراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعم والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قنادة استهزاء بهم، «لَعْلَكُمْ تَسْأَلُونَ» أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، «قَالُوا يَا وَلِلَّهِ إِنَّا كُنَّا طَالِمِينَ» اعترفوا بذنباتهم حين لا ينفعهم ذلك، «فَمَا زالتِ تِلْكَ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا أَخْمَدِينَ»

(١) انظر تفسير الطبرى . ٨/٩

دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين» أي ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم هجيراً هم حتى حصدناهم حصداً، وخدمت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِينِ^{١١} لَوْ أَرَدْنَا أَن نَنْجِذَهُمْ لَا نَجِذِّنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَعَلِينَ^{١٢} بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَطْرِيلِ فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصْنَعُونَ^{١٣} وَلَمْ يَمْنَ في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ^{١٤} لَا يَسْتَحْسِرُونَ^{١٥} يُسَيِّحُونَ الْيَلَلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ^{١٦}

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي بالعدل والقسط، «ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى» [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك علينا ولا لعباً كما قال: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» [ص: ٢٧] قوله تعالى: «لو أردنا أن نتخذ لهؤلاء من لدننا إن كنا فاعلين» قال ابن أبي نجح عن مجاهد «لو أردنا أن نتخذ لهؤلاء من لدننا» يعني من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً. وقال الحسن وقتادة وغيرهما «لو أردنا أن نتخذ لهؤلاء» اللهو المرأة بلسان أهل اليمن^(١). وقال إبراهيم التخعي «لا تخذناء» من الحور العين.

وقال عكرمة والسدي: والمراد باللهو هنا الولد، وهذا الذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار» [الزمر: ٤] فنره نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزيز أو الملائكة سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

وقوله: «إن كنا فاعلين» قال قتادة والسدي وإبراهيم التخعي ومغيرة بن مقعد: أي ما كنا فاعلين. وقال مجاهد كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار. قوله: «بل نفذ بالحق على الباطل» أي نبين الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال: «فيدمعه فإذا هو زاهق» أي ذاهب مضمحل «ولكم الوييل» أي أيها القائلون لله ولد «مما تصفون» أي تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودائهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: «وله من في السموات والأرض ومن عنده» يعني الملائكة «لا يستكرون عن عبادته» أي لا يستنكفون عنها، كما قال: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً» [النساء: ١٧٢].

وقوله: «ولا يستحسرون» أي لا يتبعون ولا يملون «يسبحون الليل والنهر لا يفترون».

فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطعون قصداً وعملاً، قادرُون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يعصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يَؤْمِرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، أئبنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حرام قال: بینا رسول الله رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تتطىء وما فيها موضع شبر إلا وعلىه ملك ساجد أو قائماً غريب، ولم يخرجوه.»

ثم رواه - أعني ابن أبي حاتم - من طريق يزيد بن أبي زريع عن سعيد عن قتادة مرسلاً. وقال أبو إسحاق عن حسان بن مخارق عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله تعالى للملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل. فقال: من هذا الغلام؟ فقالوا منبني عبد المطلب، قال فقبل رأسي ثم قال: يابني إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس أليس تتكلم وأنت تنفس وتمشي وأنت تنفس؟^(١)

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنَشِّرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنَشِّرُونَ﴾ أي أهـم يحيـون الموتـي ويـنشرـونـهم من الأرضـ، أي لا يـقدـرونـ على شيءـ من ذلكـ، فـكيفـ جـعلـوهاـ اللهـ نـداـ وـعبدـوهاـ معـهـ؟ ثـمـ أـخـبـرـ تعالىـ أنهـ لوـ كانـ فيـ الـجـودـ آـلـهـةـ غـيرـهـ لـفسـدـ السـموـاتـ والأـرـضـ، فـقالـ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ﴾ أيـ فيـ السـموـاتـ والأـرـضـ ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كـقولـهـ تعالىـ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وقال هـنـاـ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أيـ عـماـ يـقولـونـ أنـ لهـ ولـداـ أوـ شـريـكاـ سـبـحانـهـ وـتعـالـيـ وـتقـدـسـ وـتـنـزـهـ عـنـ الذـيـ يـفـتروـنـ وـيـأـفـكونـ عـلـوـاـ كـبـيراـ.

وقوله ﴿لَا يُسَأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أيـ هوـ الحـاكـمـ الـذـيـ لاـ مـعـقـبـ لـحـكمـهـ، ولاـ يـعـتـرـضـ عـلـيـهـ أـحـدـ لـعـظـمـتـهـ وـجـلالـهـ وـكـبـرـيـائـهـ وـعـلـمـهـ وـحـكـمـتـهـ وـعـدـلـهـ وـلـطـفـهـ، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أيـ وـهـوـ سـائـلـ خـلقـهـ عـمـاـ يـعـمـلـونـ كـقولـهـ: ﴿فَوَرِبِكَ لِنَسَأْلِهِمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣] وهذا كـقولـهـ تعالىـ: ﴿وَهُوَ يَجْعَلُ وَلَا يَجْعَلُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

(١) انظر تفسير الطبرى . ١٤/٩

أَمْ أَتَخْدِلُوْمِنْ دُونِهِ إِلَّاهَهُ قُلْ هَاتُوا بِرْهَنَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِيْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعَرِّضُونَ هَذِهِ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ هَذِهِ

يقول تعالى: «أَمْ اتَخْدِلُوا مِنْ دُونِهِ إِلَّاهَهُ قُلْ» يا محمد «هَاتُوا بِرْهَنَكُمْ» أي دليلكم على ما تقولون «هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي» يعني القرآن «وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي» يعني الكتب المقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كلنبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» كما قال: «وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ أَلَّاهَهُ يَعْبُدُونِ» [الزخرف: ٤٥] وقال «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ» [النَّحْل: ٣٦] فكلنبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا يرون لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

وَقَالُوا أَتَخْدِلُ الرَّحْمَنَ وَلَدَّا سُبْحَنَنَّ بَلْ عِبَادُ مُكْرَمُونَ هَذِهِ لَا يَسْقِيُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ هَذِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيتِهِ مُشْفِقُونَ هَذِهِ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنَّهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ هَذِهِ

يقول تعالى ردأ على من زعم أن له تعالى وتقديس ولدا من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: «سَبَحَانَهُ بَلْ عِبَادُ مُكْرَمُونَ» أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلاً «لَا يَسْقِيُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»

وقوله: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى» قوله «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [البقرة: ٢٥٥]. قوله: «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عَنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ لَهُ» [سباء: ٢٣] في آيات كثيرة في معنى ذلك «وَهُمْ مِنْ خَشِيتِهِ» أي من خوفه ورهبته «مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنَّهُ مِنْ دُونِهِ» أي من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله «فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» أي كل من قال ذلك، وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه، قوله «قُلْ إِنْ كَانَ لِرَحْمَنَ وَلَدٌ فَأَنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ» [الزخرف: ٨١]، قوله «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِي حِبْطَنْ عَمْلَكَ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [الزمر: ٦٥]

أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتَاقًا فَفَتَّقْنَا لَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِي حَاجَةٍ سُبْلًا لِعَكْلِهِمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقَفًا مَحْفُظًا ۝ وَهُمْ عَنِ اءِيَّهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ ۝

يقول تعالى منهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه، ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقاً متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأ茅طرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء: [المتقارب]

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد^(١)

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار^(٢). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا حاتم عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقتا هما. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسألته فقال ابن عباس: نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجح الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى في القرآن علماً، صدق هكذا كانت، قال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتى في القرآن علماً. وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر فأ茅طرت، وكانت هذه رتقاً لا تنبت فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبي صالح الحنفي عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَا هُمَا﴾ قال: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين، وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض

(١) البيت لأبي العتاهية في ديوان ص ١٠٤، وтاج العروس (عنه).

(٢) انظر تفسير الطبرى . ٢١/٩

متamasitin^(١). وقال سعيد بن جبیر: بل كانت السماء والأرض ملتقطتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن وقتادة: كانتا جمیعاً ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: «وجعلنا من الماء كل شيء حي» أي أصل كل الأحياء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة أنه قال: يا نبی الله إذا رأیتك قرت عینی وطابت نفسی، فأخربنا عن كل شيء قال: «كل شيء خلق من ماء».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يزيد، حدثنا همام عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسی وقرت عینی، فأنبئني عن كل شيء ، قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت أنتئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نiam، ثم ادخل الجنة بسلام» ورواه أيضاً عن عبد الصمد وعفان وبهز عن همام، تفرد به أحمد، وهذا إسناد على شرط الصحاحين إلا أن أبي ميمونة من رجال السنن واسمہ سليم، والترمذی يصحح له، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً، والله أعلم.

وقوله: «وجعلنا في الأرض رواسي» أي جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لثلا تمید بالناس، أي يتضطرب وتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع. فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلائل، ولهذا قال: «أن تميد بهم» أي لثلا تميد بهم. وقوله: «وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً» أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طريقاً من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة يسلك الناس فيها من هننا إلى هننا، ولهذا قال: «لعلهم يهتدون».

وقوله: «وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً» أي على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: «والسماء بنيناها بأيدي وإننا لموسعون» [الذاريات: ٤٧] وقال: «والسماء وما بنها» [الشمس: ٥] «أنتم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» [ق: ٦] والبناء هو صب القبة، كما قال رسول الله ﷺ «بني الإسلام على خمس»^(٣) أي خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهد العرب «محفوظاً» أي عالياً محروساً أن ينال. وقال

(١) انظر تفسير الطبری ١٩/٤، ٢٠.

(٢) المسند ٢٩٥.

(٣) آخرجه البخاري في الإيمان باب ١، ٢، ومسلم في الإيمان حديث ١٩ - ٢٢.

مجاهد: مرفوعاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثني أبي عن أشعث يعني ابن إسحاق القمي عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال رجل: يا رسول الله ما هذه السماء؟ قال: «موج مكفوف عنكم» إسناده غريب.

وقوله: «وَهُمْ عَنِ آيَاتِهَا مَعْرُضُونَ» قوله: «وَكَأْيَنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُنَّ عَنْهَا مَعْرُضُونَ» [يوسف: ١٠٥] أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة، فتسرير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها. وقد ذكر ابن أبي الدنيا رحمة الله في كتابه التفكير والاعتبار: أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامه، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يحصل لغيره، فشكى ذلك إلى أمه فقالت له: يا بني فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه؟ فقال: لا والله ما أعلمه، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا ولا هممت، قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم كثيراً.

قالت: فمن هننا أتيت، ثم قال منها على بعض آياته: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» أي هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر «وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ» هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر «وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ» أي يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: «فَالَّقِيلُ الْإِصْبَاحُ وَجْعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيِّ» [الأనعام: ٩٦].

وَمَا جَعَلْنَا لِلنَّاسِ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٢﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا لِلنَّاسِ مِنْ قَبْلِكَ» أي يا محمد «الخلد» أي في الدنيا بل «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن، لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً. وقد قال تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا لِلنَّاسِ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ» [الكهف: ٨٢]. قوله: «أَفَإِنَّ مَتَّ» أي يا محمد «فَهُمُ الْخَالِدُونَ» أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وقد روی عن الشافعی

رحمه الله أن أنسد واستشهد بهذين البيتين : [الطوبل]

تمنى رجالاً أن أموت وإن أُمِتْ فتلوك سيل لست فيها بأوحدٍ^(١)
 فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى تهياً لأخرى مثلها فكأن قد
 وقوله : «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى ، فننظر
 من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقسط ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس :
 «ونبلوكم» يقول نبليكم «بالشر والخير فتنة» بالشدة والرخاء ، والصحة والسلق ، والغنى
 والفقير ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة^(٢) . وقوله : «إلينا
 ترجعون» أي فنجازيكم بأعمالكم.

وإِذَا رَأَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهْذَانَ الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهَتُكُمْ وَهُمْ
 يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُوكَ حَلَقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيَكُمْ إِيمَانِي فَلَا سَعَى حُلُونَ
 يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه «وإذا رأك الذين كفروا» يعني كفار قريش كأبي
 جهل وأشباهه «إن يتخذونك إلا هزوا» أي يستهزئون بك ويتجاهلونك ، يقولون : «أهذا الذي
 يذكر آلهتكم» يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفة أحلامكم ، قال تعالى : «وهم بذكرة
 الرحمن هم كافرون» أي وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله ، كما قال في الآية
 الأخرى «وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولاً إن كاد ليضلنا عن آلهتنا
 لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً» [الفرقان : ٤١ - ٤٢].

وقوله : «خلق الإنسان من عجل» كما قال في الآية الأخرى : «وكان الإنسان عجولاً»
 [الإسراء : ١١] أي في الأمور . قال مجاهد : خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم
 خلق الخلائق ، فلما أحيى الروح عينيه ولسانه ورأسه ، ولم يبلغ أسفله ، قال : يا رب استعجل
 بخلقي قبل غروب الشمس . وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أحمد بن سنان . حدثنا يزيد بن
 هارون ، أباينا محمد بن علقة بن وقاص الليثي عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال
 رسول الله ﷺ : «خير يوم طلت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه دخل الجنة وفيه
 أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي - وبغض أصابعه يقللها -
 فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه» .

(١) البيتان للإمام الشافعي في ملحق ديوانه ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، والبيت الأول للشافعي في تاج العروس (وحد) ، ولإمام علي في ديوانه ص ٦٧ ، ولظرفة بن العبد في بهجة المجالس ٧٤٦/٢ ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في كتاب العين (وحد) ، والبيت الثاني لظرفة بن العبد في بهجة المجالس ٧٤٧/٢ وبلا نسبة في لسان العرب (خلف) ، ونواود القالي ص ٢١٨ وتاج العروس (خلف) .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٦/٩ .

قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: «خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون» والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامة عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: «خلق الإنسان من عجل» لأنه تعالى ي ملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: «سأريكم آياتي» أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني «فلا تستعجلون».

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يُكَفَّرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٢﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبَهَّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» قال الله تعالى: «لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفيون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم» أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا بها . ولو يعلمون حين يغشون العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم «لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل» [الزمر: ١٦] «لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش» [الأعراف: ٤١] وقال في هذه الآية: «حين لا يكفيون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم» وقال: «سراب لهم من قطران وتغشى وجوههم النار» [إبراهيم: ٥٠] فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم «ولا هم ينتصرون» أي لا ناصر لهم، كما قال: «وما لهم من الله من واق» [الرعد: ٣٤]. قوله: «بل تأتهم بغنة» أي «تأتهم النار بغنة» أي فجأة، «فتبهتهم» ي تذعرهم، فيستسلمون لها حائرين ولا يدركون ما يصنعون، «فلا يستطيعون ردّها» أي ليس لهم حيلة في ذلك، «ولا هم ينظرون» أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَئَ بِرُسُلِنِ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَفَرُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُمُكُمْ بِالْأَيْلَى وَالْهَارِبِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْنَاطُونَ ﴿٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ مُّؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ تَسْعَهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَ يَشْكُوبُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتکذيب «ولقد استهزئ» برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: «ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أثأهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبا المسلمين» [الأنعام: ٣٤] ثم ذكر

تعالى نعمته على عبيده في حفظه بالليل والنهار، وكلاءه وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره، كما قال الشاعر: [رجز]

جارية لم تلبس المرققا ولم تدق من القول الفستقا^(١)

أي لم تدق بدل القول الفستق. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مَعْرُضُونَ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وألائه، ثم قال ﴿أَمْ لَهُمْ أَلْهَةٌ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقرير وتوبخ، أي أللهم ألهة تمنعهم وتتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِعُونَ نَصْرًا لِنَفْسِهِمْ﴾ أن هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا لَهُمْ مَنْ يَصْحِبُهُنَّ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: ولا هم منا يصحبون أي يجرون. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير. وقال غيره: ولا هم منا يصحبون يمتعون.

بَلْ مَنْعَنَا هَذِلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتَى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمْ مُغْنَبُونَ ﴿١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنذِرْنَاكُمْ بِالْوَحْيٍ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٢﴾ وَلَئِنْ مَسَّتُمْ نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ لَيَقُولُنَّ يَوْمَنَا إِنَّا كُنَّا ظَلَمِينَ ﴿٣﴾ وَتَضَعُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُنْظَلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِنْكُمْ حَكِيمٌ مِنْ خَرْدِلِ أَنِينَا يَهْمَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، ثم قال واعظاً لهم ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتَى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لِعَلِيهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧] وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى أفالاً يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ النَّالُونَ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفalon الأخسرون والأرذلون.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنذِرْنَاكُمْ بِالْوَحْيٍ﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتم به من العذاب

(١) الرجز لرؤبة في ديوانه ص ١٨٠، ولأبي نخيلة في شرح شواهد المغني ٢/٧٣٥، والشعر والشعراء ٢/٦٠٦، ولسان العرب (سكت)، (فستق)، (بقل)، ونواج العروس (فستق)، ولهميان بن قحافة في المخصوص ١١/١٣٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٣٢٩، والجني الداني ص ٣١١، وجواهر الأدب ص ٢٧٥، وشرح شواهد المغني ١/٣٢٤، وشرح ابن عقيل ص ٣٦٠، ومغني اللبيب ١/٣٢٠.

والنکال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يسمع الصم الدعاء إِذَا مَا يندرون﴾ وقوله: ﴿وَلَئِنْ مَسْتَهُمْ نَفْحَةً مِّنْ عَذَابٍ رِّبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كَانَ الظَّالِمُونَ﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعرفن بذنبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقَسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ إِنْ تَكُ حَسْنَةٌ يَضَاعِفُهَا وَيَوْئِطُ مِنْ لَدْنِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وقال لقمان: ﴿يَا بْنَى إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بَهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلماتان حفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك عن ليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الجبلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِّنْ أَمْتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنَشَّرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سَجْلًا، كُلُّ سَجْلٍ مَدُ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمْتَكَ كَتْبِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا يَا رَبَّ. قَالَ: أَفَلَكَ عَذْرٌ أَوْ حَسْنَةٌ؟ قَالَ: فِيهِتِ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبَّ، فَيَقُولُ: بَلِى إِنَّكَ عَنَّنَا حَسْنَةً وَاحِدَةً لَا ظُلْمٌ عَلَيْكَ الْيَوْمُ، فَتَخْرُجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رسولَ اللَّهِ فَيَقُولُ أَحْضَرُوهُ، فَيَقُولُ يَا رَبَّ فِي هَذِهِ الْبَطَاقَةِ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتَوْضِعُ السَّجَلَاتِ فِي كَفَةٍ وَالْبَطَاقَةِ فِي كَفَةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّجَلَاتِ وَثَقَلَتِ الْبَطَاقَةُ، قَالَ: وَلَا يَثْقَلُ شَيْءٌ مَعَ بَسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»^(٣) ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «تَوْضِعُ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٥٨، ومسلم في الدعوات حديث ٣١.

(٢) المستند ٢/٢١٣.

(٣) أخرجه الترمذى في الإيمان باب ١٧، وابن ماجه في الزهد باب ٣٥.

(٤) المستند ٢/٢٢١، ٢٢٢.

الموازين يوم القيمة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصي عليه فيما يليل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار، قال: فإذا أذبر به إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان».

وقال الإمام أحمد^(١) أيضاً: حدثنا أبو نوح مراراً، أبناه ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهرى عن عروة عن عائشة أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونى ويعصونى، وأضربهم وأشتتهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك عصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنبهم، كان كفافاً لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم، كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنبهم، اقتضى لهم منك الفضل الذي بقي قبلك، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ماله لا يقرأ كتاب الله »ونفع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عباده - إنيأشهدك أنهم أحرار كلهم^(٢).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝ وَهَذَا ذِكْرٌ مَبَارِكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُشْكِرُونَ ۝

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهمما، وبين كتابيهما، ولهذا قال: «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان» قال مجاهد: يعني الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة. وقال قتادة: الحلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد يعني النصر^(٣):

وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخدفاً وإثابة وخاشية، ولهذا قال: «الفرقان وضياء وذكراً للمتقين» أي تذكيراً لهم وعظة، ثم وصفهم فقال: «الذين يخشون ربهم بالغيب» قوله: «من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب» [ق: ٥٠]. قوله: «إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير» [الملك: ١٢] «وهم من الساعة مشفكون» أي خائفون وجلوون، ثم قال تعالى: «وهذا ذكر مبارك أنزلناه» يعني

(١) المستند ٦، ٢٨١، ٢٨٠.

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٢١، باب ٢.

(٣) انظر هذه الآثار في تفسير الطبرى ٣٤/٩.

القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنْتَمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي أفتذرونـه وهو في غاية الجلاء والظهور؟

﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِّنْ قَبْلُ وَكَنَّا بِهِ عَلِمِينَ ﴾إِذْ قَالَ لِأَيْهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَتَرْتَهَا عَاكِفُونَ ﴾قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَبَدِينَ ﴾فَقَالَ لَقَدْ كُثُرَ أَسْنَرُ وَأَبَاوْكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾قَالُوا أَحْتَسْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنَّ مِنَ الْلَّاعِبِينَ ﴾فَقَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَإِنَّا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشهـ من قبلـ، أيـ من صغرـهـ ألهـمهـ الحقـ والـحجـةـ عـلـىـ قـوـمـهـ،ـ كماـ قالـ تـعـالـىـ:ـ «ـوـتـلـكـ حـجـتـاـ آـتـيـنـاـهـ إـبـرـاهـيمـ عـلـىـ قـوـمـهـ»ـ [ـالـأـنـعـامـ:ـ ٨ـ٣ـ]ـ وماـ يـذـكـرـ مـنـ الـأـخـبـارـ عـنـهـ فـيـ إـدـخـالـ أـبـيهـ لـهـ فـيـ السـرـبـ وـهـوـ رـضـيعـ،ـ وـأـنـ خـرـجـ بـعـدـ أـيـامـ فـنـظـرـ إـلـىـ الـكـوـكـبـ وـالـمـخـلـوقـاتـ فـبـصـرـ فـيـهـ،ـ وـمـاـ قـصـهـ كـثـيرـ مـنـ الـمـفـسـرـينـ وـغـيـرـهـمـ فـعـامـتـهـاـ أـحـادـيـثـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ،ـ فـمـاـ وـافـقـ مـنـهـ الـحـقـ،ـ مـمـاـ بـأـيـدـيـنـاـ عـنـ الـمـعـصـومـ،ـ قـبـلـنـاـ لـمـوـافـقـتـهـ الصـحـيـحـ،ـ وـمـاـ خـالـفـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ رـدـنـاهـ،ـ وـمـاـ لـيـسـ فـيـهـ مـوـافـقـةـ وـلـاـ مـخـالـفـةـ لـاـ نـصـدـقـهـ وـلـاـ نـكـذـبـهـ بـلـ نـجـعـلـهـ وـقـفـاـ،ـ وـمـاـ كـانـ مـنـ هـذـاـ الضـرـبـ مـنـهـ فـقـدـ رـخـصـ كـثـيرـ مـنـ السـلـفـ فـيـ روـايـهـ،ـ وـكـثـيرـ مـنـ ذـلـكـ مـاـ لـاـ فـائـدـةـ فـيـهـ وـلـاـ حـاـصـلـ لـهـ مـاـ لـاـ يـنـتـفـعـ بـهـ فـيـ الدـيـنـ،ـ وـلـوـ كـانـتـ فـائـدـتـهـ تـعـودـ عـلـىـ الـمـكـلـفـينـ فـيـ دـيـنـهـ لـبـيـتـهـ هـذـهـ الـشـرـعـةـ الـكـامـلـةـ الشـامـلـةـ،ـ وـالـذـيـ نـسـلـكـهـ فـيـ هـذـهـ التـفـسـيرـ الـإـعـراضـ عـنـ كـثـيرـ مـنـ الـأـحـادـيـثـ الـإـسـرـائـيلـيـةـ لـمـاـ فـيـهـ مـنـ تـضـيـعـ الزـمـانـ،ـ وـلـمـ اـشـتـمـلـ عـلـيـهـ كـثـيرـ مـنـهـ مـنـ الـكـذـبـ الـمـروـجـ عـلـيـهـمـ،ـ فـإـنـهـمـ لـاـ تـفـرقـ عـنـهـمـ بـيـنـ صـحـيـحـهـاـ وـسـقـيـمـهـاـ،ـ كـمـاـ حـرـرـهـ الـأـئـمـةـ الـحـفـاظـ الـمـتـقـنـونـ مـنـ هـذـهـ الـأـمـةـ.ـ وـالـمـقـصـودـ هـنـاـ أـنـ اللهـ تـعـالـىـ أـخـبـرـ أـنـ قـدـ آـتـيـ إـبـرـاهـيمـ رـشـهـ مـنـ قـبـلـ،ـ أـيـ مـنـ قـبـلـ ذـلـكـ.

وقولـهـ:ـ «ـوـكـنـاـ بـهـ عـالـمـينـ»ـ أـيـ وـكـانـ أـهـلـاـ لـذـلـكـ،ـ ثـمـ قـالـ:ـ «ـإـذـ قـالـ لـأـيـهـ وـقـوـمـهـ مـاـ هـذـهـ التـمـاثـيلـ الـتـيـ أـنـتـمـ لـهـاـ عـاكـفـوـنـ»ـ هـذـاـ هـوـ الرـشـدـ الـذـيـ أـوتـيـهـ مـنـ صـغـرـهـ الـإـنـكـارـ عـلـىـ قـوـمـهـ فـيـ عـبـادـةـ الـأـصـنـامـ مـنـ دـوـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ،ـ فـقـالـ:ـ «ـمـاـ هـذـهـ التـمـاثـيلـ الـتـيـ أـنـتـ لـهـاـ عـاكـفـوـنـ»ـ أـيـ مـعـتـكـفـوـنـ عـلـىـ عـبـادـتـهـ.ـ وـقـالـ اـبـنـ أـبـيـ حـاتـمـ:ـ حـدـثـنـاـ الـحـسـنـ بـنـ مـوـضـيـعـ الـصـبـاحـ،ـ حـدـثـنـاـ أـبـوـ مـعـاوـيـةـ الـضـرـيرـ،ـ حـدـثـنـاـ سـعـيدـ بـنـ طـرـيفـ عـنـ الـأـصـبـحـ بـنـ نـبـاتـةـ قـالـ:ـ مـرـ عـلـيـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ عـلـىـ قـوـمـ يـلـعـبـونـ بـالـشـطـرـنـجـ،ـ فـقـالـ:ـ مـاـ هـذـهـ التـمـاثـيلـ الـتـيـ أـنـتـ لـهـاـ عـاكـفـوـنـ،ـ لـأـنـ يـمـسـ أـحـدـكـمـ جـمـراـ حـتـىـ يـطـفـأـ خـيـرـ لـهـ مـنـ أـنـ يـمـسـهـاـ (ـقـالـوـاـ وـجـدـنـاـ آـبـاءـنـاـ لـهـاـ عـابـدـيـنـ)ـ لـمـ يـكـنـ لـهـمـ حـجـةـ سـوـىـ صـنـيـعـ آـبـائـهـمـ الـضـلـالـ.

ولـهـذاـ قـالـ:ـ «ـلـقـدـ كـنـتـمـ أـنـتـمـ وـآـبـاؤـكـمـ فـيـ ضـلـالـ مـبـيـنـ»ـ أـيـ الـكـلـامـ مـعـ آـبـائـكـمـ الـذـينـ اـحـتـجـجـتـمـ بـصـنـيـعـهـمـ كـالـكـلـامـ مـعـكـمـ،ـ فـأـنـتـمـ وـهـمـ فـيـ ضـلـالـ عـلـىـ غـيـرـ الطـرـيقـ الـمـسـتـقـيمـ،ـ فـلـمـاـ سـفـهـ أـحـلـامـهـمـ تـفـسـيـرـ اـبـنـ كـثـيرـ جـ/ـ٥ـ مـ/ـ٢ـ٠ـ

وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجْئَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمُاعِنِ﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقاً فيه، فإنما لم نسمع به قبلك ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وأناأشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وَتَالَّهُ لَأَكِيدَنَ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿فَجَعَلُوكُمْ جُذَادًا إِلَّا كَيْرَارَ لَهُمْ لَعَانُهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ قالوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَيَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ قالوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَنَهُمْ يَشَهِّدُونَ ﴿قَالُوا إِنَّا فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَكِيدَنَ أَصْنَامَكُمْ هَذَا فَسْلُوكُهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرصن على أذاهم وتكسرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يابني لو خرجت معنا إلى عيدهنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان بعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض، وقال: إني سقيم فجعلوا يمرون عليه وهو صريح فيقولون: مه^(١)، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاءهم قال: ﴿تَالَّهُ لَأَكِيدَنَ أَصْنَامَكُم﴾ فسمعه أولئك^(٢). وقال ابن إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس، قال: ﴿تَالَّهُ لَأَكِيدَنَ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم.

وقوله: ﴿فَجَعَلُوكُمْ جُذَادًا﴾ أي حطاماً كسرها كلها، إلا كثيراً لهم يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرِبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣]. قوله ﴿لَعَانُهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبارهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لِمَنِ الظَّالِمِينَ﴾ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لِمَنِ الظَّالِمِينَ﴾ أي في صنيعه هذا، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَيَّ ذَكْرَهُمْ يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم: سمعنا فتىً أي شاباً، يذكرهم يقال له إبراهيم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أöttى

(١) مه: أي ما بك؟ .

(٢) انظر تفسير الطبرى . ٣٧/٩

العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية ﴿فَالْوَالِيَا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرْهُمْ يَقَالْ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله ﴿فَالْوَالِيَا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيْنِ النَّاسِ﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملا الأكبر بحضورة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام. التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ ﴿فَالْوَالِيَا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتَّنَا يَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ بَلْ فَعَلْتَهُ كَبِيرْهُمْ هَذَا﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعرفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلات: ثنتين في ذات الله قوله: ﴿بَلْ فَعَلْتَهُ كَبِيرْهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - قال - وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبارية ومعه سارة، إذ نزل متزلاً فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك ؟ قال: أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلى، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذًا شديداً، فقال: ادعني الله لي ولا أضرك، فدعت له، فأرسل فأهوى إليها، فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ ذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعني الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بآنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطتها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها، انقتل من صلاته، وقال: مهميم. قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر». قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء^(١).

فَرَجَعُوا إِلَيْهِ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ۝ ثُمَّ نَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَنُوكُلَّاءِ يَنْطِقُونَ ۝ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ ۝ أَفَلَمْ يَرَوْكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ۝

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فَرَجَعُوا إِلَيْهِ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ نَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ

(١) أخرج البخاري في الأنبياء باب ٨، والنكاح باب ١٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٤.

علمت ما هؤلاء ينطقون». قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، فقالوا «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون».

وقال السدي «ثم نكسوا على رؤوسهم» أي في الفتنة. وقال ابن زيد: أي في الرأي، وقول قتادة أظهر في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون» فكيف تقول لنا سلوكهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك «أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم» أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تضر، فلم تعبدوها من دون الله؟ «أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلأ تعقلون» أي أفلأ تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر. فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه» [الأنعام: ٩٣] الآية.

قَالُواْ حَرَقُوهُ وَانصِرُواْ الْهَتَّكِمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِيْكُمْ ۝ قُلْنَا يَنَارٌ كُوْنِيْرَدَا وَسَلَّمًا عَلَىْ إِبْرَاهِيمَ ۝
وَأَرَادُواْ يَهُهِ، كَيْدَا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝

لما دحضرت حجتهم وبيان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملتهم، فقالوا: «حرقوه وانصروا للهتم إن كنتم فاعلين»، فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جوبة^(١) من الأرض وأضروها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد. قال شعيب الجبائي، اسمه هيزن: فخشف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيمة، فلما ألقوه قال: حسيبي الله ونعم الوكيل، كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسيبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسيبي الله ونعم الوكيل.

وروى الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو هشام، حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك» ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت، سبحانك لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك، وقال شعيب الجبائي: كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة، فالله أعلم، وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى.

وقال سعيد بن جبير - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال: لما ألقى إبراهيم، جعل خازن

المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله ﷺ يا نار كوني بربداً وسلاماً على إبراهيم ﷺ قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفت^(١). وقال كعب الأحبار: لم يتضمن أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه^(٢).

وقال الشوري عن الأعمش، عن علي بن شيخ، عن علي بن أبي طالب ﷺ قلنا يا نار كوني بربداً وسلاماً على إبراهيم ﷺ قال: لا تضره. وقال ابن عباس وأبو العالية: لو لا أن الله عز وجل قال: وسلاماً لآذى إبراهيم بربدها، وقال جوير عن الضحاك: كوني بربداً وسلاماً على إبراهيم، قالوا: صنعوا له حظيرة من حطب جزل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصب منها شيء حتى أخمدتها الله، قال: ويدركون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يصب منها شيء غير ذلك. وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مهران، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى في النار، فقال: كان فيها إما خمسين وإماأربعين، قال: ما كنت أياماً ولiali قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها^(٣).

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار: وجده يرشح جبينه، قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم. وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأته عن النار، إلا الوزغ، وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله، وسماه فويستقا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله ابن أخي ابن وهب، حدثني عمي، حدثنا جرير بن حازم أن نافعاً حدثه قال: حدثني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة، فرأيت في بيتها رمحاً، فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ، فإنه كان ينفع على إبراهيم» فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

وقوله: «وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرین» أي المغلوبين الأسفلين، لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك، وقال عطية العوفي: لما ألقى إبراهيم في النار، جاء ملوكهم لينظر إليه، فطارت شرارة فوقعت على إيهامه، فأحرقته مثل الصوفة.

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٣/٩.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٤/٩.

(٣) انظر الدر المثور ٤/٥٧٩.

وَجَعَلْنَاكُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَجَعَلْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَةً وَلَمْ يَجْعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَجَعَلْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَةً وَلَمْ يَجْعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٧﴾ الْصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ وَكَانُوا لِلنَّاسِ عَادِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَوْطًا أَئِنَّهُ حَكَمَ وَعَلَمَ وَجَعَلَنَاهُ مِنَ الْفَرِيزِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْءًا فَسَقَيْنَاهُمْ ﴿٧٩﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها. كما قال الربيع بن أنس عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله: «إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» قال: الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة، وكذا قال أبو العالية أيضاً وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأنجاه الله إلى الشام، وكان يقال للشام عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرضي زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مرريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال.

وقال كعب الأحبار في قوله: «إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» إلى حران. وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم، فتروجها على أن لا يغيرها، رواه ابن جرير، وهو غريب، والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده. وقال العوفي عن ابن عباس: إلى مكة، لا تسمع إلى قوله: «إن أول بيت وضع للناس للذي يبكيه مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً»^(١) [آل عمران: ٩٦].

وقوله: «وَوَهَبْنَا لِهِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً» قال عطاء ومجاهد وعطاء وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: «فَبَشَّرَنَا هَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً، فقال «رب هب لي من الصالحين» فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، «وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ أي الجميع أهل خير وصلاح، «وَجَعَلْنَاكُمْ أَئِمَّةً» أي يقتدى بهم.

«يهدون بأمرنا» أي يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: «أَوْهَبْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَةً وَلَمْ يَجْعَلْنَا صَالِحِينَ» من باب عطف الخاص على العام، «وَكَانُوا لِلنَّاسِ عَادِينَ» أي فاعلين لما يأمرن الناس به، ثم عطف بذلك لوطن، وهو لوطن بن هاران بن آزر. كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: «فَآمَنَ لَهُ لَوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مَهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي»

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٦/٩

[العنكبوت: ٢٦] فَاتَّاهُ اللَّهُ حِكْمًا وَعِلْمًا، وَأُوحِيَ إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ نَبِيًّاً وَبَعَثَهُ إِلَى سَدُومَ وَأَعْمَالِهَا، فَخَالَفُوهُ وَكَذَبُوهُ، فَأَهْلَكُوهُمُ اللَّهُ وَدَمَرَ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَصَ خَبْرَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلَهُذَا قَالَ: ﴿وَنَجَيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيرِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سُوءً فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وَنَوْحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦٠ وَاصْرَنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا وَعَلَيْنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سُوءً فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٧٦١

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوا **﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِي مَغْلُوبٌ فَإِنْتَ صَرِيفٌ﴾** [القمر: ١٠] **﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّنِي لَا تَنْذِرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا إِنِّي إِنْ تَذْرِهِمْ يَضْلُّوْنِي عَبَادِكَ وَلَا يَلْدُوْنِي إِلَّا فَاجِرًا﴾** [نوح: ٢٦ - ٢٧] ولهذا قال هنـا: **﴿إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾** أي الذين آمنوا به، كما قال: **﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مِنْ سَبْقِ عَلَيْهِ الْقَوْلِ وَمِنْ آمِنَ وَمِنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾** [هود: ٤٠]. قوله: **﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾** أي من الشدة والتکذیب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهـم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه ويتوافقون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافـه، قوله: **﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾** أي ونجيناـه وخلصـناه متـصرـاً من القـوم **﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سُوءً فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي أهـلـكـهم الله بـعـامـةـ، ولـمـ يـقـ على وجه الأرض منهم أحد، كما دعا عليهمـ نـبـيـهمـ.

وَدَاؤُدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمُانَ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنْمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِهِمْ شَهِيدِينَ ٧٦٢ فَفَهَمْنَاهُمَا سَلِيمَانَ وَكُلَّا إِلَيْنَا حِكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاؤُدَ الْجَيَالَ يُسِّحِّنَ وَالظَّرِيرَ وَكُنَّا فَعِلْمِينَ ٧٦٣ وَعَلِمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسِ لَكُمْ لِنُحْسِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَتَتْمُ شَكِرْنَاهُنَّ ٧٦٤ وَسَلِيمَانَ الْيَمَّ عَاصِفَةَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَاهُ فَكُنَّا يُكْلِلُ شَيْءَ عَلَيْمِينَ ٧٦٥ وَمِنَ الشَّيَّاطِينِ مِنْ يَعْوُضُونَ لَهُوَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكَنَالَهُمْ حَكْيَطِينَ ٧٦٦

قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود: كان ذلك الحـرثـ كـمـاـ قدـ تـدـلتـ عـنـاقـيـدـ^(١) ، وكـذـاـ قالـ شـريـعـ . وـقـالـ اـبـنـ عـباسـ: النـفـشـ الرـعـيـ . وـقـالـ شـريـعـ وـالـزـهـرـيـ وـقـتـادـةـ: النـفـشـ لاـ يـكونـ إـلاـ بالـلـلـلـيـلـ ، زـادـ قـتـادـةـ: وـالـهـمـلـ بـالـنـهـارـ . وـقـالـ اـبـنـ جـرـيرـ: حـدـثـنـاـ أـبـوـ كـرـيـبـ وـهـارـونـ بـنـ إـدـرـيسـ الأـصـمـ ، قـالـاـ حـدـثـنـاـ الـمـحـارـبـيـ عنـ أـشـعـثـ عنـ أـبـيـ إـسـحـاقـ عنـ مـرـةـ عنـ أـبـيـ مـسـعـودـ فـيـ قـوـلـهـ: **﴿وَدَاؤُدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمُانَ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنْمُ الْقَوْمِ﴾** قالـ: كـرمـ قدـ أـبـتـتـ عـنـاقـيـدـهـ فأـفـسـدـتـهـ ، قالـ: فـقضـىـ دـاؤـدـ بـالـغـنـمـ لـصـاحـبـ الـكـرـمـ ، فـقـالـ سـلـيمـانـ: غـيرـ هـذـاـ يـاـ نـبـيـ اللهـ: قالـ:

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٩/٩.

وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: «ففهمناها سليمان» وكذا روى العوفي عن ابن عباس.

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد: حدثني خليفة عن ابن عباس قال: قضى داود بالغنم لصحاب الحrust فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا، فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحrust، فيكون له أولادها وألبانها وسلاموها^(١) ومنافعها، ويذر أصحاب الغنم لأهل الحrust مثل حرثهم، فإذا بلغ الحrust الذي كان عليه، أخذه أصحاب الحrust وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خديج عن أبي إسحاق عن مرة عن مسروق قال: الحrust الذي نفشت فيه غنم القوم، إنما كان كرماً نفشت فيه الغنم فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود فأعطاهن رقباها، فقال سليمان: لا بل تؤخذ الغنم فيعطيها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذى كان ليلة نفشت فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم، وهكذا قال شريح ومرة ومجاحد وقتادة وابن زيد وغير واحد.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل عن عامر قال: جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد بريء صاحب الشياه، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ «وداود وسليمان إذ يحكمان في الحrust» الآية، وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن الزهري، عن حرام بن محيصة، أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها^(٣)، وقد علل هذا الحديث وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الأحكام، وبالله التوفيق.

وقوله: «ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً» قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد عن حميد أن إيساً بن معاوية لما استقضى أتاها الحسن فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار،

(١) سلاموها: أي سمنها.

(٢) تفسير الطبرى ٥١ / ٩.

(٣) آخرجه أبو داود في البيوع باب ٩٠، وابن ماجه في الأحكام باب ١٣، ومالك في الأقضية حديث ٣٦، وأحمد في المسند ٤ / ٢٩٥، ٤٣٥ / ٥ . ٣٧

ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوِدُ وَسَلِيمَانٌ إِذْ يُحَكِّمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتِ فِيهِ غَنِمَ الْقَوْمُ وَكَنَا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ فائنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثم قال: - يعني الحسن -: إن الله اتخذ على الحكم ثلاثة: لا يستتروا به ثمناً قليلاً، ولا يتبعوا فيه الهوى، ولا يخشوا فيه أحداً، ثم تلا ﴿يَا دَاوِدَ إِنَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَبْغِيَ الْهَوْى فَيُضْلِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿فَلَا تَخْشُو النَّاسَ وَلَا خُشُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثُمنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر»^(١) فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار»^(٢)، و قريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد^(٣) في مسنده حيث قال: حدثنا علي بن حفص ، أخبرنا ورقاء عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يبينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد البنين فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينكمما: فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها لا تشنقه، فقضى به للصغرى»^(٤) وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وبوب عليه النسائي في كتاب القضاء: [باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعمل الحق].

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طريق الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد، عن ابن عباس، فذكر قصة مطولة، ملخصها: أن امرأة حسنت في زمانبني إسرائيل ، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم ، فاتفقوا فيما

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بباب ٢١، ٢٢، ومسلم في الأقضية حديث ١٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية باب ٢، وابن ماجه في الأحكام باب ٣.

(٣) المستند ٣٢٢/٢، ٣٤٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٤٠، ومسلم في الأقضية حديث ٢٠، والنمسائي في القضاة باب ١٤.

بينهم عليها، فشهدوا عليها عند دواد عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وأخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان فرقوا بينهم، فسأل أولهم ما كان لون الكلب؟ فقال أسود، فعزله واستدعى الآخر فسألة عن لونه، فقال: أحمر، وقال الآخر: أغبر، وقال الآخر: أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكي ذلك لداود عليه السلام فاستدعي من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلقو عليه فأمر بقتلهم.

وقوله: «وسخروا مع داود الجبال يسبحن والطير» الآية، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاويه، وترد عليه الجبال تأويها، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «القد أُتي هذا مزماراً من مزامير آل داود» قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبّراً^(١). وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صبح ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه، ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام: «القد أُتي مزماراً من مزامير آل داود».

وقوله: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم» يعني صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح: وهو أول من سردها حلقاً، كما قال تعالى: «وَالْأَنَّا لِهِ الْحَدِيدُ أَنْ اعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدْرَ فِي السَّرْدِ» [سيا: ١٠ - ١١] أي لا توسع الحلقة فتلقى المسمار ولا تغاظ المسمار فتقذ الحلقة، ولهذا قال: «لتحصنكم من بأسكم» يعني في القتال «فهل أنت شاكرون» أي نعم الله عليكم لما أهلم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله: «ولسليمان الريح عاصفة» أي وسخروا لسليمان الريح العاصفة «تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها» يعني أرض الشام «وَكُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالَمِينَ» وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسرير به، وتظلله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع الآلة وحشمه، قال الله تعالى: «فَسخروا لِهِ الرِّيحُ تجري بِأَمْرِهِ رَحَاءً حِيثُ أَصَابَ» [ص: ٣٦] وقال تعالى: «غَدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحَهَا شَهْرٌ» [سيا: ١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبي سنان عن سعيد بن جبير قال: كان

(١) أخرج القسم الأول من الحديث: البخاري في فضائل القرآن باب ٣١، ومسلم في المسافرين حديث ٢٣٥، ٢٣٦، والترمذى في المناقب باب ٥٥، والنسائي في الافتتاح باب ٨٣، وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٦، والدارمى في الصلاة باب ١٧١، وفضائل القرآن باب ٣٤، وأحمد في المسند ٣٦٩/٢، ٤٥٠، ٤٥١، ٣٥٩، ٣٧/٦، ٣٤٩/٥.

يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فنظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله عليه السلام. قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجمع كالطود العظيم كالجبل، ثم يأمر بفراسه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفروس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه ما يلتقط يميناً ولا شمalaً، تعظيم الله عز وجل، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله عز وجل، حتى تضنه الريح حيث شاء أن تضنه.

وقوله: «وَمِن الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوِيُ النَّاسَ إِلَيْهِ وَالْجَوَاهِرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ» أي غير ذلك، كما قال تعالى: «وَالشَّيَاطِينِ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَواصٍ وَآخَرِينَ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ» [ص: ٣٧ - ٣٨]. قوله: «وَكُنَا لَهُمْ حَافِظِينَ» أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاوز أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: «وَآخَرِينَ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ».

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضرُّ وَإِنَّمَا أَرْحَمُ الرَّحِيمُونَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفَنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعْهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَدَكَرَ لِلْعَنَدِينَ

يدرك تعالى عن أيوب عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد ومنازل مرضية، فابتلى في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلى في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنها، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وافرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي عليه السلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»^(١).

وفي الحديث الآخر «يتبلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»^(٢) وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر. وبه يضرب المثل في ذلك. وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق شيء له أحسن الذكر، ثم قال: أحمسك رب الأرباب، الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من

(١) آخرجه الترمذى في الزهد باب ٥٧، وابن ماجه في الفتنة باب ٢٣، والدارمى في الرقاق باب ٦٧ وأحمد في المستند ١٧٢ / ١٧٤ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥ .

(٢) راجع التخريج السابق.

قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، ولو علم عدوي إيليس بالذى صنعت حسديني . قال : فلقي إيليس من ذلك منكرا^(١) . قال : وقال أیوب عليه السلام : يا رب إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على باي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك ، وأنه كان يوطأ لي الفراش فاتركها ، وأقول لنفسي يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفراش ما تركت ذلك إلا ابتلاء وجهك . رواه ابن أبي حاتم.

وقد روى عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة، ساقها ابن حرير وابن أبي حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخرى المفسرين ، وفيها غرابة تركناها لحال الطول ، وقد روى أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثم اختلفوا في السبب المهييج له على هذا الدعاء ، فقال الحسن وقتادة : ابلي أیوب عليه السلام سبع سنين وأشهرًا ، ملقى على كنasse بنى إسرائيل ، تختلف الدواب في جسده ، ففرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن عليه الثناء .

وقال وهب بن منبه : مكث في البلاء ثلاث سنين ، لا يزيد ولا ينقص وقال السدي : تساقط لحم أیوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام ، فكانت امرأته تقوم عليه وتؤيه بالرماد يكون فيه ، فقالت له امرأته لما طال وجعه : يا أیوب لو دعوت ربك يفرج عنك ، فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ، فهو قليل الله أن أصبر له سبعين سنة ، فجزعت من ذلك ، فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتؤيه بما تصيب فنطعمه ، وإن إيليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين ، كانا صديقين له وأخوين ، فأتاهمما فقال : أخوكما أیوب أصابه من البلاء كذا وكذا ، فأتياه وزوراه ، وأحملما معهما من خمر أرضكما ، فإنه إن شرب منه برىء ، فأتياه فلما نظرا إليه بكيا ، فقال : من أنتما ؟ فقالا : نحن فلان وفلان ، فرحب بهما وقال : مرحباً بمن لا يghostوني عند البلاء ، فقالا : يا أیوب لعلك كنت تسر شيئاً وتطهر غيره ، فلذلك ابتلاك الله ؟ فرفع رأسه إلى السماء فقال : هو يعلم ، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره ، ولكن ربى ابتلاني لينظر أصبر أم أجزع . فقالا له : يا أیوب اشرب من خمرنا ، فإنك إن شربت منه برأت .

قال : فغضب ، وقال : جاءكم الخبيث فأمركم بهذا ؟ كلامكم وطعامكم وشرابكم على حرام ، فقاما من عنده ، وخرجت امرأته تعمل للناس ، فخربت لأهل بيته صبي ، فجعلت لهم قرصاً ، وكان ابنهم نائماً ، فكرهوا أن يوقظوه فوهبوا لها ، فأدت به إلى أیوب فأنكره وقال : ما كنت تأتيني بهذا ، مما بالك اليوم ؟ فأخبرته الخبر ، قال : فعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله ، فانطلقى به إليه ، فأقبلت حتى بلغت درجة القوم ، فنطحتها شاة لهم ، فقالت : تعس أیوب الخطاء ، فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي على أهله لا يقبل منهم شيئاً غيره ، فقالت : رحمه الله ، يعني أیوب ،

فُدِعَتْ إِلَيْهِ الْقَرْصَ وَرَجَعَتْ، ثُمَّ إِنْ إِبْلِيسَ أَتَاهَا فِي صُورَةِ طَبِيبٍ، فَقَالَ لَهَا: إِنْ زُوْجَكَ قَدْ طَالَ سَقْمَهُ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَبْرُأَ فَلْيَأْخُذْ ذَبَابًا فَلِيَذْبَحْهُ بِاسْمِ صَنْمِ بْنِ فَلَانَ، فَإِنْ يَبْرُأَ وَيَتُوبَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ ذَلِكَ لِأَيُوبَ.

فَقَالَ: قَدْ أَتَاكَ الْخَبِيثُ، اللَّهُ عَلَيَّ إِنْ بَرَأْتَ أَنْ أَجْلِدَكَ مَائِهَ جَلْدَةً، فَخَرَجَتْ تَسْعَى عَلَيْهِ، فَحَظَرَ عَنْهَا الرِّزْقُ، فَجَعَلَتْ لَا تَأْتِي أَهْلَ بَيْتِ فِيرِيدُونَهَا، فَلَمَّا اشْتَدَ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَخَافَتْ عَلَى أَيُوبَ الْجَوْعَ حَلَقَتْ مِنْ شَعْرِهَا قَرْنَاءَ فَبَاعَتْهُ مِنْ صَبَيَّةَ مِنْ بَنَاتِ الْأَشْرَافِ، فَأَعْطَوْهَا طَعَامًا طَيْبًا كَثِيرًا، فَأَتَتْ بِهِ إِلَيْهِ أَيُوبَ، فَلَمَّا رَأَهُ أَنْكَرَهُ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ قَالَتْ: أَعْمَلْتُ لِأَنَاسٍ فَأَطْعَمُونِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدْ خَرَجَتْ فَطَلَبَتْ أَنْ تَعْمَلْ فَلَمْ تَجِدْ، فَحَلَقَتْ أَيْضًا قَرْنَاءَ فَبَاعَتْهُ مِنْ تَلْكَ الْجَارِيَّةِ، فَأَعْطَوْهَا أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَأَتَتْ بِهِ أَيُوبَ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ حَتَّى أَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، فَوَضَعَتْ خَمَارَهَا، فَلَمَّا رَأَى رَأْسَهَا مَحْلُوقًا جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: «نَادَى رَبِّهِ أَنِّي مَسْنِي الْضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمَ: حَدَثَنَا أَبِي، حَدَثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَثَنَا حَمَادٌ، حَدَثَنَا أَبُو عُمَرَانَ الْجُوَنِيَّ عَنْ نُوفَ الْبَكَالِيِّ أَنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي عَرَجَ فِي أَيُوبَ كَانَ يُقَالُ لَهُ مَسْوَطٌ، قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةُ أَيُوبَ تَقُولُ: ادْعُ اللَّهَ فِي شَفِيكَ، فَجَعَلَ لَا يَدْعُو حَتَّى مَرَّ بِهِ نَفْرٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا بِذَنْبٍ عَظِيمٍ أَصَابَهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: «نَادَى رَبِّهِ أَنِّي مَسْنِي الْضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» . وَحَدَثَنَا أَبِي سَلْمَةَ، حَدَثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبِيدِ بْنِ عَمِيرٍ قَالَ: كَانَ لِأَيُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْوَانٌ، فَجَاءُهُمْ يَوْمًا فَلَمْ يَسْتَطِعُوا أَنْ يَدْنُوا مِنْهُ مِنْ رِيحِهِ، فَقَاماً مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالُوا أَحَدُهُمَا لِلآخرَ: لَوْ كَانَ اللَّهُ عَلِمَ مِنْ أَيُوبَ خَيْرًا مَا ابْتَلَاهُ بِهَذَا، فَجَزَعَ أَيُوبُ مِنْ قَوْلِهِمَا جَزَعًا لَمْ يَجِزَعْ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَبْتَلْ لِي لَيْلَةً قَطُّ شَبَّعَانَ وَأَنَا أَعْلَمُ مَكَانًا جَائِعًا، فَصَدَقَنِي، فَصَدَقَ مِنَ السَّمَاءِ وَهُمَا يَسْمَعَانَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ يَكُنْ لِي قَمِيصًا قَطُّ، وَأَنَا أَعْلَمُ مَكَانًا عَارَ، فَصَدَقَنِي، فَصَدَقَ مِنَ السَّمَاءِ وَهُمَا يَسْمَعَانَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بِعَزْتِكَ، ثُمَّ خَرَ ساجِدًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بِعَزْتِكَ لَا أَرْفَعُ رَأْسِي أَبْدًا حَتَّى تَكْشِفَ عَنِّي، فَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى كَشَفَ عَنْهُ.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ مَرْفُوعًا بِنَحْوِ هَذَا، فَقَالَ: أَخْبَرَنَا يُونُسَ بْنَ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ عَقِيلٍ عَنْ الزَّهْرِيِّ عَنْ أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُوبَ لَبِثَ بِهِ بِلَاؤهُ ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخْصِ إِخْوَانِهِ لَهُ، كَانَا يَغْدوانِ إِلَيْهِ وَيَرْجِعُانَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللَّهُ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُوبَ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهِ: وَمَا ذَكَرَ؟ قَالَ: مِنْ ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللَّهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرْ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ لَهُ، فَقَالَ أَيُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ يَعْلَمُ أَنِّي

كنت أمر على الرجلين يتنازعان في ذكر الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن «اركض برجلك هذا مغسل بارد وشراب» رفع هذا الحديث غريب جداً.

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتحنح أيوب فجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان هنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، فجعلت تكلمه ساعة. فقال: ويحك أنا أيوب. قالت: أنسخر مني يا عبد الله؟ فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي، وبه قال ابن عباس، ورد عليه ماله ولده عياناً ومثلهم معهم. وقال وهب بن منه: أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك، ومثلهم معهم. فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم.

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن مزوق، حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده و يجعله في ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك» أصله في الصحيحين وسيأتي في موضوع آخر.

وقوله: «وآتيناه أهله ومثلهم معهم» قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً، وروي مثله عن ابن مسعود ومجاحد، وبه قال الحسن وقتادة، وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب، وقد سماها ابن عساكر في تاريخه رحمة الله تعالى: قال: ويقال اسمها ليا بنت مِنَّشًا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال ليا بنت يعقوب عليه السلام زوجة أيوب كانت معه بأرض البنية، وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلكم؟ قال: لا بل اتركهم لي في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلكم في الدنيا.

وقال حماد بن زيد عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال: أُوتى أجرهم في الآخرة وأعطي مثلكم في الدنيا. قال: فحدثت به مطراً، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم، وكذا روي عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف، والله أعلم. قوله: «رحمة من عندنا» أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به «وذكرى للعبددين» أي وجعلناه في ذلك قدوة لثلاث يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلاءه لعباده بما

يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكَفْلِ كُلُّ مَنْ أَصْنَدَنَّ [٨٦] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الْأَصْنَانِ [٨٧]

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مرريم، وكذلك إدريس عليه السلام، وأما ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهونبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحًا، وكان ملكاً عادلاً، وحكمًا مقوسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. قال ابن جريج عن مجاهد في قوله: «وذا الكفل» قال: رجل صالح غيرنبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمه لهم ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذاك الكفل، وكذلك روى ابن أبي نجيع عن مجاهد أيضاً.

وروى ابن جرير^(١): حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يفعل، فجمع الناس فقال: من يتقبل مني بثلاث استخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب؟ قال: فقام رجل تزدريه الأعين فقال: أنا، فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه. قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بغلان فأعياهم ذلك، فقال: دعوني وإيه، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة^(٢) - وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة، فدق الباب.

قال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم، قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه فقال: إن بيبي وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا بي وفعلوا بي، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح^(٣) وذهب القائلة، فقال: إذا رحت فأتنى أخذ لك بحقك، فانطلق وراح، فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب فقال: من هذا؟ قال: الشيخ الكبير المظلوم، ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى، قال: إنهم أخبرت قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك، وإذا قمت جحدوني، قال: فانطلق، فإذا رحت فأتنى.

قال: ففاتته القائلة، فراح يجعل ينتظره ولا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله:

(١) تفسير الطبرى ٧١/٩.

(٢) القائلة: نصف النهار.

(٣) الرواح: آخر النهار.

لَا تدع أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق على النوم، فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل: وراءك، وراءك، قال: إني قد أتيته أمس وذكرت له أمري، فقال: لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه، فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخله، قال: واستيقظ الرجل، فقال: يا فلان ألم أمرك؟ قال: أما من قبلني والله فلم تؤت فانظر من أين أتيت، قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه. وإذا الرجل معه في البيت فعرفه، فقال: أعدوا الله؟ قال: نعم، أعييتك في كل شيء ففعلت ما ترى لأعضاك، فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير بن إسحاق عن داود عن مجاهد بمثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن مسلم قال: قال ابن عباس: كان قاض فيبني إسرائيل فحضره الموت فقال: من يقوم مقامي على أن لا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا، فسمي ذا الكفل، قال: فكان ليه جميعاً يصلني، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس، قال: وله ساعة يقيلها، قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين له على رجال حق، وقد غلبني عليه، قالوا: كما أنت حتى يستيقظ، قال: وهو فوق نائم، قال: فجعل يصبح عمداً حتى يوقيمه، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين له على رجال حق، قال: فاذهب فقل له يعطيك.

قال: قد أبي، قال: اذهب أنت إليه، قال: فذهب ثم جاء من الغد فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، فذهب ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرج فعل الله بك تجيء كل يوم حين ينام لا تدعه ينام، قال: فجعل يصبح من أجل أبي إنسان مسكين لو كنت غنياً، قال: فسمع أيضاً فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربني، قال: امش حتى أجيء معك، قال: فهو ممسك بيده فلما رأه ذهب معه ثر يده ففر. وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابي حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذه القصة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن كنانة بن الأحسن قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفلنبي ولكن كان - يعني فيبني إسرائيل - رجل صالح يصلني كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلني كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل، وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق عن معاذ عن قتادة قال: قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد^(١) حديثاً غريباً فقال: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عذّ سبع مرات، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأنت امرأة فأعطيها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مiquid الرجل من أمرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نزل فقال: أذهب بي بالدنارير لك، ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً، فمات من ليته، فأصبح مكتوباً على بابه: «غفر الله للكفل» هكذا وقع في هذه الرواية الكفل من غير إضافة، والله أعلم، وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلطف الحديث إن كل الكفل، ولم يقل ذو الكفل فلعله رجل آخر والله أعلم.

وَذَا الْنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَلَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَدَىٰ فِي الظُّلْمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَعْنَتْهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ شُجِّي
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

هذه القصة مذكورة هنا وفي سورة الصافات^(٢) وفي سورة **«ن»**^(٣)، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلات، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواثيدهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه، ورغت الإبل وفصانها، وخارت البقر وأولادها، وثفت الغنم وسخالها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمِنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونَسٌ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرَيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعَنَّهُمْ إِلَى حِينٍ» [يونس: ٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلجمت بهم، وخفقوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفرون منه، فوقيعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمَدْحُسِينَ» [الصافات: ١٤١] أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيما قاله ابن

(١) المسند / ٢٣ / ٢.

(٢) الآيات ١٣٩ - ١٤٨.

(٣) سورة القلم الآيات ٤٨ - ٥٠.

مسعود - حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً.

وقوله: «وَذَهَبَ النُّونُ» يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. قوله: «إِذْ ذَهَبَ مَغَاضِبًا» قال الضحاك لقومه: «فَظْنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ» أي نضيق عليه في بطن الحوت، يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: «وَمَنْ قَدْرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلَيْنِفِقْ مَا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سِيَّجَعُ اللَّهُ بَعْدَ عَسْرٍ سِرَا» [الطلاق: ٧] وقال عطية العوفي: «فَظْنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ»، أي نضيق عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدر وقدر بمعنى واحد، وقال الشاعر: [الطويل]

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يكن فلك الأمر

ومنه قوله تعالى: «فَالْتَّقِيَ الماءَ عَلَى أَمْرِ قَدْ قَدْرَ» [القمر: ١٢] أي قدر. «فَنَادَى فِي الظُّلَمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، وكذا روي عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة. وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت آخر في ظلمة البحر، قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» وقال عوف الأعرابي: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله فلما تحرك سجد مكانه، ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس. وقال سعيد بن أبي الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جرير^(١).

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ حَبْسَ يُونَسَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْحَوْتِ أَنْ خَذِهِ وَلَا تَخْدُشْ لَهُ لَحْمًاً وَلَا تَكْسِرْ لَهُ عَظْمًاً، فَلَمَّا اتَّهَى بِهِ إِلَى أَسْفَلِ الْبَحْرِ سَمِعَ يُونَسَ حَسَّاً فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا هَذَا؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ إِنَّ هَذَا تَسْبِيحُ دُوَابِ الْبَحْرِ، قَالَ: وَسَبِّحْ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، فَسَمِعَتِ الْمَلَائِكَةَ تَسْبِيحَهُ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْتًا ضَعِيفًا بِأَرْضِ غَرْبَيَّةِ، قَالَ: ذَلِكَ عَبْدِي يُونَسُ عَصَانِي فَجَبَسْتَهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ، قَالُوا: الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ إِلَيْكُمْ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلِيَلَةٍ عَمَلَ صَالِحًا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَشَفَعُوكُمْ عَنْهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ الْحَوْتَ فَقَدْفَهُ فِي السَّاحِلِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَهُوَ سَقِيمٌ» رَوَاهُ

ابن جرير^(١)، ورواه البزار في مسنده من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب، ثنا عمي، حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي قال: سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا رب ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبده يومن الذي لم ينزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة، قالوا: يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلـي، فأمرـ الحوت فطرحـه في العراء.

وقوله: «فاستجبنا له ونجيناـه من الغم» أي آخر جناهـ من بـطـنـ الـحـوتـ وتـلـكـ الـظـلـمـاتـ «وـكـذـلـكـ نـجـيـ المؤـمـنـينـ» أي إذا كانواـ فيـ الشـدائـدـ وـدـعـونـاـ منـيـنـ إـلـيـنـاـ ولاـ سـيـماـ إـذـاـ دـعـواـ بـهـذاـ الدـعـاءـ فيـ حالـ الـبـلـاءـ، فقدـ جاءـ التـرغـيبـ فيـ الدـعـاءـ بـهـ عنـ سـيدـ الـأـنـبـيـاءـ.

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمданـيـ، حدثـناـ إـبرـاهـيمـ بـنـ سـعـدـ، حدـثـنـيـ وـالـدـيـ مـحـمـدـ عـنـ أـبـيـ سـعـدـ هـوـ اـبـنـ أـبـيـ وـقـاصـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ: مـرـرتـ بـعـثـمـانـ بـنـ عـفـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ فـيـ الـمـسـجـدـ، فـسـلـمـتـ عـلـيـهـ، فـمـلـأـ عـيـنـيـ مـنـيـ شـمـ لـمـ يـرـدـ عـلـيـ السـلـامـ، فـأـتـيـتـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ فـقـلـتـ: يـاـ أـمـيـ الـمـؤـمـنـينـ هـلـ حـدـثـ فـيـ إـلـاسـلـامـ شـيـءـ، مـرـتـيـنـ قـالـ: لـاـ وـمـاـ ذـاـكـ؟ قـلـتـ لـاـ، إـلـاـ أـنـيـ مـرـتـ بـعـثـمـانـ آنـفـاـ فـيـ الـمـسـجـدـ فـسـلـمـتـ عـلـيـهـ فـمـلـأـ عـيـنـيـ مـنـيـ شـمـ لـمـ يـرـدـ عـلـيـ السـلـامـ، قـالـ: فـأـرـسـلـ عـمـرـ إـلـىـ عـشـمـانـ فـدـعـاهـ، قـالـ: مـاـ مـعـكـ أـنـ لـاـ تـكـوـنـ رـدـدـتـ عـلـيـ أـخـيـكـ السـلـامـ؟ قـالـ: مـاـ فـعـلـتـ، قـالـ سـعـدـ: قـلـتـ بـلـيـ حـتـىـ حـلـفـ وـحـلـفـتـ.

قال: شـمـ إنـ عـشـمـانـ ذـكـرـ فـقـالـ بـلـيـ وـأـسـغـفـرـ اللـهـ وـأـتـوـبـ إـلـيـهـ، إـنـكـ مـرـتـ بـيـ آنـفـاـ وـأـنـاـ أـحـدـ ثـنـيـ بـكـلـمـةـ سـمـعـتـهاـ مـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ، لـاـ وـالـلـهـ مـاـ ذـكـرـتـهـ قـطـ إـلـاـ تـغـشـيـ بـصـرـيـ وـقـلـبـيـ غـشاـوـةـ، قـالـ سـعـدـ: فـأـنـاـ أـنـبـئـكـ بـهـاـ، إـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ ذـكـرـ لـنـاـ أـوـلـ دـعـوـةـ، ثـمـ جـاءـ أـعـرـابـيـ فـشـغـلـهـ حـتـىـ قـامـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـاتـبـعـهـ، فـلـمـ أـشـفـقـتـ أـنـ يـسـبـقـنـيـ إـلـىـ مـنـزـلـهـ ضـرـبـتـ بـقـدـمـيـ الـأـرـضـ، فـالـتـفـتـ إـلـيـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـقـالـ: «مـنـ هـذـاـ، أـبـوـ إـسـحـاقـ؟» قـالـ: قـلـتـ نـعـمـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ، قـالـ: «فـمـهـ؟ قـلـتـ: لـاـ وـالـلـهـ إـلـاـ أـنـكـ ذـكـرـتـ لـنـاـ أـوـلـ دـعـوـةـ، ثـمـ جـاءـ هـذـاـ أـعـرـابـيـ فـشـغـلـكـ، قـالـ: «نـعـمـ دـعـوـةـ ذـيـ

(١) تفسير الطبرـيـ ٩/٧٧ـ، ٧٨ـ.

(٢) المسند ١/١٧٠ـ.

النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَحَانَكَ إِنِّي كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنَّه لم يدع بها مسلم ربه في شيءٍ قط إلا استجاب له^(١) ورواه الترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطسب، قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يومن استجيب له» قال أبو سعيد: يزيد به ﴿وَكَذَلِكَ ننجي المؤمنين﴾.

وقال ابن جرير^(٢): حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يومن بن متى» قال قلت يا رسول الله. هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس بن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَحَانَكَ إِنِّي كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَا مِنَ الْفَمِ وَكَذَلِكَ ننجي المؤمنين﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريج، حدثنا داود بن المحبر بن قحدم المقدسي عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن فقلت: يا أبا سعيد اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابن أخي أما تقرأ القرآن قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونَ إِذْ ذَهَبَ مَغَاضِبًا﴾ - إلى قوله - ﴿وَكَذَلِكَ ننجي المؤمنين﴾ ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

وَذَكَرْيَا إِذْ نَادَ رَبَّهُ رَبِّي لَا تَذَرْنِي فَكَرِدَأَوَأَنَّ خَرْ الْوَرِيشَينَ ﴿٤﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَاغِبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَائِشِعِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى عن عبد زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم^(٣) وفي سورة آل عمران^(٤) أيضاً، وه هنا أختصر منها ﴿إذ

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ٨١.

(٢) تفسير الطبرى ٧٨/٩.

(٣) انظر تفسير الآيات ٢ - ١٥ من سورة مريم.

(٤) انظر تفسير الآيات ٤١ - ٣٧ من سورة آل عمران.

نادي ربه ﴿أَيْ خَفِيَةٌ عَنْ قَوْمٍ﴾ **﴿رَبِّ لَا تُذَرْنِي فِرْدَأً﴾** أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس **﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** دعاء وثناء مناسب للمسألة، قال الله تعالى : **﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾** أي امرأته، قال ابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن طلحة بن عمرو عن عطاء : كان في لسانها طول ، فأصلحها الله وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ، وهكذا قال محمد بن كعب والسدي ، والأظهر من السياق الأول .

وقوله : **«إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»** أي في عمل القربات و فعل الطاعات **﴿وَيَدْعُونَا رَغْبًاٰ وَرَهْبًا﴾** قال الشوري : رغباً فيما عندنا ورهباً مما عندنا **﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي مصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد : مؤمنين حقاً . وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً . وعن مجاهد أيضاً : خائعين أي متواضعين . وقال الحسن وقتادة والضحاك : خائعين أي متذلللين لله عز وجل ، وكل هذه الأقوال متقاربة .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن عبد الله القرشي عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضي الله عنه . ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتشنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرفة ، وتجمعوا الإلحاد بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثني على زكريا وأهل بيته فقال : **«إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًاٰ وَرَهْبًاٰ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**

وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَّهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلنَّبِيِّنَ (٤١)

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنهما إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب فإنهما إيجاد ولد من اثنى بلا ذكر ، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم ، وهنها ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله : **﴿وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَّهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾** [التحريم : ١٢] .

وقوله **﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** أي دلالة على أن الله على كل شيء قادر ، وأنه يخلق ما يشاء ، **﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [سورة التحريم : ٨٢] ، وهذا قوله : **﴿وَلَنْجَعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾** [مريم : ٢١] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن علي ، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن شعيب يعني ابن بشر ، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله :

﴿للعالمين﴾ قال : العالمين الجن والإنس .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَجَدَةً وَإِنَّ رَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۖ وَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَجَعُونَ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفَّارًا لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كُلُّ كَبُورٍ ۝

قال ابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : «إن هذه أمتكم أمة واحدة» يقول : دينكم دين واحد وقال الحسن البصري في هذه الآية بين لهم ما يتقون وما يأتون ، ثم قال : «إن هذه أمتكم أمة واحدة» أي سنتكم سنة واحدة ، فقوله إن هذه إن واسمها ، وأمتكم خبر إن ، أي هذه شريعتكم التي بنت لكم ووضحت لكم . وقوله أمة واحدة نصب على الحال ، ولهذا قال : «أنا ربكم فاعبدون» كما قال : «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً» - إلى قوله - «أنا ربكم فاتقون» [المؤمنون : ٥١ - ٥٢] وقال رسول الله ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»^(١) يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» [المائدة : ٤٨] .

وقوله : «وتقطعوا أمرهم بينهم» أي اختلفت الأمم على رسالتها فمن بين مصدق لهم ومكذب ، ولهذا قال : «كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ» أي يوم القيمة ، فيجازي كل بحسب عمله ، إن خيراً فخير وإن شرًا فشر ، ولهذا قال : «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» أي قلبه مصدق وعمل صالحًا «فَلَا كُفَّارًا لِسَعْيِهِ» كقوله : «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً» [الكهف : ٣٠] أي لا يكفر سعيه وهو عمله بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال : «وَإِنَّا لَهُ كَانِتُوْنَا قَدْ كَتَبَ جَمِيعَ عَمَلِهِ فَلَا يُضِيعُ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ» .

وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرِيَّةٍ أَهْلَكَنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجٌ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخْصَةٌ أَيْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَئِنَا قَدْ كُنَّا فِي عَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَاهِرِيْمِنَ ۝

يقول تعالى : «وحرام على قرية» قال ابن عباس : وجب ، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنفسهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيمة ، هكذا صرخ به ابن عباس وأبو جعفر الباقي وقتادة وغير واحد . وفي رواية عن ابن عباس : أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول أظاهر ، والله أعلم . وقوله : «حتى إذا فتحت يأجوج وMagog» قد قدمنا أنهم من سلالة آدم

(١) أخرجه أحمد في المستند ٤٦٣ / ٢ ، ٥٤١ . وأولاد العلات : الذين أمهانهم مختلفة وأبواهم واحد ، أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة .

عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث، أي أبي الترك، والترك شرذمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وقال: ﴿هذا رحمة من ربِّي فإذا جاء وعد ربِّي جعله دكاء وكان وعد ربِّي حقاً وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ [الكهف: ٩٨ - ٩٩] الآية، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد، والحدب هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم لأن السامع مشاهد لذلك ﴿ولا يبنثك مثل خبير﴾ هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عبيد الله بن يزيد قال: رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

[فالحديث الأول] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قنادة، عن محمود بن ليد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿تفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسَلُونَ﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون منهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواثيدهم، ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء.

قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة، في بينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أنعنائهم كنف الجراد الذي يخرج في أنعنائه، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجبر رجل منهم محتبساً نفسه قد أوطتها على أنه مقتول فينزل فيجددهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا عشر المسلمين ألا أبشركم إن الله عز وجل قد كفاكتم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويحرسون مواثيدهم، مما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط، ورواه ابن ماجه^(٣) من حديث يونس بن بكير، عن ابن إسحاق به.

(١) تفسير الطبرى / ٩ / ٨٤.

(٢) المستند / ٣ / ٧٧.

(٣) كتاب الفتنة باب ٢٣.

[الحديث الثاني] قال الإمام أحمد^(١) أيضاً: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه، أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخضن فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل.

قال: «غير الدجال أخواني عليكم. فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل أمرىء حجيج نفسه، والله خليفي على كل مسلم، وإن شاب جعد قحط عينه طافية، وإنه يخرج خلة بين الشام وال العراق فعاث يميناً وشمالاً يا عباد الله اثروا - قلنا: يا رسول الله ما لبته في الأرض؟ - قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم شهر، يوم كجمعة، وسائر أيامكم» قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا أقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله مما إسراعه في الأرض؟ قال كالغيث اشتد به الريح، قال: فيمز بالحى فيدعوه فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى، أ美的ه خواصر، وأسبغه ضروعاً، ويمر بالحى فيدعوه فيردون عليه قوله، فتبتعه أموالهم فيصيبحون محملين ليس لهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك فتبتعه كنوزها كيعاسب النحل - .

قال - ويأمر برجل فيقتل، فيضرره بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل إليه، فيبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عيسى ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودين واضعاً يديه على أجنحة ملkin، فتبتعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقي - قال - فيبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحوّز عبادي إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج وmajjوج، كما قال تعالى: «وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ» فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم نفراً في رقبتهم فيصيبحون موتى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم وتنهم .

فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتظرهم حيث شاء الله، قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: فتظرهم بالمهبل، قال ابن جابر: فقلت يا أبا يزيد، وأين المهبل؟ قال: مطلع الشمس . قال: «ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ويقال للأرض: أنتي ثمرك ودرى بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكتفي الفئام من الناس ،

واللقطة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: في بينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت أباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهرجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة^(١)، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به . وقال الترمذى: حسن صحيح .

[الحديث الثالث] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو عن ابن حرملة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب، فقال: «إنكم تقولون لا عدو لكم، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج: عراض الوجه، صغار العيون، صهب الشفاف، من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرفة»، وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي، عن خالة له، عن النبي ﷺ، فذكره مثله سواء .

[الحديث الرابع] قد تقدم في آخر تفسير سورة الأعراف من روایة الإمام أحمد عن هشيم، عن العوام، عن جبلة بن سحيم، عن موثر بن عفازة، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام - قال فتذاكر وامر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجيتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج ومعي قضيابان، فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رأني حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله .

قال: فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم - قال - فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطئون بلادهم، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه - قال - ثم يرجع الناس إلى يشكونهم فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويسميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، فيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً» .

ورواه ابن ماجه^(٣) عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به نحوه، وزاد: قال العوام: ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل «حتى إذا فتحت يأجوج

(١) أخرجه مسلم في الفتنة حديث ١١٠ ، والترمذى في الفتنة باب ٥٩ ، وابن ماجه في الفتنة باب ٣٣ .

(٢) المستند ٢٧١ / ٥ .

(٣) كتاب الفتنة باب ٣٣ .

ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون^(١) ورواه ابن جرير^(٢) هنا من حديث جبلة به . والأحاديث في هذا كثيرة جداً والآثار عن السلف كذلك .

وقد روی ابن جریر^(٢) وابن أبي حاتم من حديث معمراً عن غير واحد، عن حمید بن هلال، عن أبي الصيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غداً فتخرج فيعيده الله كما كان، فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غداً فتخرج إن شاء الله، فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوها، فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان هنا مرة ماء، فيفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء، ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مخصبة بالدماء، فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء، فيدعون عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقول: اللهم لا طاقة ولا يد لنا بهم، فاكتفناهم بما شئت.

فيسلط الله عليهم دوداً يقال له النغف، فيفرس رقبهم، ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمناقيرها فلتقيهم في البحر، ويبعث الله عيناً يقال لها الحياة يظهر الله الأرض وينتها، حتى إن الرمانة ليُشَعِّ منها السكن، وقيل: وما السكن يا كعب؟ قال: أهل البيت، قال: فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصريح أن ذا السويقتين يريده، قال فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة أو بين السبعمائة والثمانمائة حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله ريحًا يمانية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج الناس، فيتسافدون كما تتسافد البهائم، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع، قال كعب: فمن قال بعد قوله هذا شيئاً أو بعد علمي هذا شيئاً فهو المتكلف، وهذا من أحسن سيارات كعب الأحبار لما شهد له من صحيح الأخبار .

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» انفرد بإخراجه البخاري^(٤) قوله: «واقترب الوعد الحق» يعني يوم القيمة إذا حصلت هذه الأهوال والزلزال والبلابل، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت وقعت، قال الكافرون: «هذا يوم عسر» [القرآن: ٨]، ولهذا قال تعالى: «إِنَّمَا يُخَالِقُونَ أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا» أي من شدة ما يشاهدونه من

(١) تفسير الطبرى ٩/٨٥، ٨٦.

(٢) تفسير الطبرى ٩/٨٦.

(٣) المستند ٣/٢٧، ٢٨.

(٤) كتاب الحج باب .

الأمور العظام ﴿يا ويلنا﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي في الدنيا ﴿بل كان ظالمين﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ
إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ
الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا
أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَخْزِنُهُمُ الْفَرَغُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَأْتِيكَةُ هَذَا
يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينه من عبادة الأصنام والأوثان: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» قال ابن عباس: أي وقودها^(١) يعني قوله: «وقودها الناس والحجارة» [التحرير: ٦] وقال ابن عباس أيضاً: حصب جهنم يعني شجر جهنم، وفي رواية قال: «حصب جهنم» يعني حطب جهنم بالزنوجية. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطتها، وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهمما، وقال الضحاك: حصب جهنم أي ما يرمي به فيها، وكذا قال غيره، والجمعى قريب. قوله: «أنت لهم لـها واردون» أي داخلون «لو كان هؤلاء آلهة ما ورودها» يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذت ملوكها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها «وكل فيها خالدون» أي العابدون ومعبداتهم كلهم فيها خالدون «لهم فيها زفير» كما قال تعالى: «لهم فيها زفير وشهيق» [هود: ١٠٦] والزفير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوح أنفاسهم «وهم فيها لا يسمعون».

قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عبد الرحمن يعني المسعودي عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله «لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون» ورواه ابن جرير من حديث حجاج بن محمد عن المسعودي عن يوسف بن خباب عن ابن مسعود، فذكره.

وقوله: «إن الذين سبقت لهم منا الحسنة» قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره السعادة «أولئك عنها مبعدون» لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذلك السعداء من المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: «للذين أحسنوا الحسنة وزيادة» [يونس: ٢٦] وقال: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» [الرحمن: ٦٠] فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله

(١) انظر تفسير الطبرى ٨٩/٩.

ما بآدم وثوابهم، ونواجههم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها﴾ أي حقيقها في الأحساد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن أبيه عن الحريري عن أبي عثمان ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قال حس حس. وقوله: ﴿وهم فيما اشتهرت أنفسهم خالدون﴾ فسلمتهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمданى عن ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير عن النعمان بن بشير قال: وسمر مع علي ذات ليلة، فقرأ ﴿إن الذين سبقت لهم ملائكة عندها مبعدون﴾ قال: أنا منهم وعمر منهم وعثمان منهم والزبير منهم طلحة منهم عبد الرحمن منهم، أو قال: سعد منهم، قال: أقيمت الصلاة، فقام وأظنه يجر ثوبه وهو يقول: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾.

وقال شعبة عن أبي بشر عن يوسف المكي عن محمد بن حاطب قال: سمعت علياً يقول في قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم ملائكة عندها مبعدون﴾ قال: عثمان وأصحابه، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد، وليس بابن ماهك عن محمد بن حاطب عن علي ذكره ولفظه عثمان منهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم ملائكة عندها مبعدون﴾ فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرأة هو أسرع من البرق، ويقى الكفار فيها جشياً، فهذا مطابق لما ذكرناه.

وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزيز والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إن الذين سبقت لهم ملائكة وعيسى﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل، وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج.

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم ملائكة عندها مبعدون﴾ قال نزلت في عيسى ابن مريم وعزيز عليهم السلام، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد بن طريف عن الأصبهي عن علي في قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم ملائكة عندها مبعدون﴾ قال: كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم إسناده ضعيف. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أولئك عندها مبعدون﴾ قال: عيسى وعزيز والملائكة. وقال الضحاك: عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر.

وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد، وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك

حديثاً غريباً جداً، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرخاني، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبي سليم عن مغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقْتُ لَهُم مِّنَا الْحَسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا يَبْعَدُونَ» قال: عيسى وعزير والملائكة، وذكر بعضهم قصة ابن الزبعرى ومناظرة المشركين قال أبو بكر بن مردوية: حدثنا محمد بن علي بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عريرة، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، حدثنا الحكم يعني ابن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارْدُونَ» فقال ابن الزبعرى: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت «وَلَمَا ضَرَبَ ابْنَ مَرِيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمٍ مِّنْهُ يَصْدُورُونَ وَقَالُوا أَلَّهُمَا خَيْرٌ أُمُّهُ مَا ضَرَبْتُهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصْمُونَ» ثم نزلت «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقْتُ لَهُم مِّنَا الْحَسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا يَبْعَدُونَ» رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه الأحاديث المختارة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان يعني الثوري عن الأعمش عن أصحابه عن ابن عباس قال: لما نزلت: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارْدُونَ» قال المشركون: فالملائكة وعزير وعيسى يعبدون من دون الله فنزلت «لَوْ كَانَ هُؤُلَاءِ آلَهَةً مَا وَرَدُوهَا» الآلة التي يعبدون «وَكُلُّ نَبِيٍّ خَالِدُونَ» وروي عن أبي كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل ذلك وقال: فنزلت «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقْتُ لَهُم مِّنَا الْحَسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا يَبْعَدُونَ».

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله في كتاب السيرة: وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارْدُونَ» - إلى قوله - «هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ» ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي حتى جلس معهم، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفأ ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتاج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ عَبْدِهِ، إِنَّمَا يَبْعَدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمْرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ».

وأنزل الله ﷺ «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقُتْ لَهُم مِنَ الْحَسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ» أي عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم من يعبدون من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنَ وَلَدًا سَبَحَانَهُ بِلَ عَيَادٌ مَكْرُونٌ» - إلى قوله - «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِنِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» [الأنبياء: ٢٦] ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الولي ومن حضره من حجته وخصوصيته «وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنَ مَرِيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يَصْدُونَ وَقَالُوا أَلَهُتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصْمُونَ إِنَّهُ أَبْعَدُ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِ إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا» [الزخرف: ٥٩] أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وابراء الأسمام ، فكفى به دليلاً على علم الساعة ، يقول : «فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمٌ» [الزخرف: ٦١] وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير ، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم للأصنام التي هي جماد لا تعقل ، ليكون ذلك تقريراً وتوبيناً لعبادتها ، ولهذا قال : «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبٌ جَهَنَّمُ» فكيف يورد على هذا المسيح وعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده ، وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب^(١) ، وقد أسلم عبد الله بن الزبير بعد ذلك ، وكان من الشعراء المشهورين ، وقد كان يهاجمي المسلمين أولاً ثم قال معذراً : [الخفيف]

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنْ لَسَانِي
رَاتِقٌ مَا فَتَقْتَ إِذْ أَنَا بُورٌ^(٢)
إِذْ أَجَارِيَ الشَّيْطَانُ فِي سِنِّ الْغَيِّ
وَمِنْ مَالِ مِلَّهُ مُبْتُرُورٌ

وقوله : «لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزْعُ الْأَكْبَرُ» قيل : المراد بذلك الموت ، رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء وقيل : المراد بالفزع الأكبر النفحة في الصور ، قاله العوفي عن ابن عباس وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني ، واختاره ابن جرير في تفسيره ، وقيل : حين يؤمر بالعبد إلى النار ، قاله الحسن البصري ، وقيل : حين تطبق النار على أهلها ، قاله سعيد بن جبیر وابن جرير ، وقيل : حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، قاله أبو بكر الهمذاني فيما رواه ابن أبي

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٥٨-٣٦٠، وتفسير الطبرى ٩/٩١، ٩٢.

(٢) البيتان في ديوان عبد الله بن الزبير ص ٣٦ ، والبيت الأول من لسان العرب (بور) ، وجمهرة اللغة ص ١٠٢٠ ، والمخصص ٣/٤٨ ، ٧/٣٠ ، ١٤/٣٢ ، ١١/٣٣ ، وتأج العروس (ملك) ، ومقاييس اللغة ١/٣١٦ ، وسمط اللآلبي ص ٣٨٨ ، وهو لعبد الله بن رواحة في ديوانه ص ٩٥ ، ولعبد الله بن رواحة أو عبد الله بن الزبير في تاج العروس (بور) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٣٠ ، وتهذيب اللغة ١٥/٢٦٧.

حاتم عنه، قوله ﴿وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كتمتُم توعدون﴾ يعني يقول لهم الملائكة تبشيرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿هذا يومكم الذي كتمتُم توعدون﴾ أي فأملوا ما يسركم.

يَوْمَ نَطْرُو الْكَمَاءَ كَطْيَ السِّجْلِ لِكُتُبٍ كَمَا بَدَانَا أَوَّلَ خَلْقٍ تُعِيدُمْ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَلَعِلَّكُمْ

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيمة ﴿يَوْمَ نَطْرُو السَّمَاءَ كَطْيَ السِّجْلِ لِكُتُبٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد قال البخاري: حدثنا مقدم بن محمد، حدثني عمي القاسم بن يحيى عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَيْنِ وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ»^(١) انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي، حدثنا محمد بن سلمة عن أبي واصل عن أبي المليح الأزدي عن أبي الجوزاء الأزدي عن ابن عباس قال: يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخلية والأرضين السبع بما فيها من الخلية يطوي ذلك كله بيمنيه يكون ذلك كله في يديه بمنزلة خردلة.

وقوله: ﴿كَطْيَ السِّجْلِ لِكُتُبٍ﴾ قيل: المراد بالسجل الكتاب، وقيل المراد بالسجل هئانا ملك من الملائكة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي عن أبيه عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْرُو السَّمَاءَ كَطْيَ السِّجْلِ لِكُتُبٍ﴾ قال: السجل ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: أكتبها نوراً، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان به.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك، وقال السدي في هذه الآية السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعه إلى يوم القيمة، وقيل: المراد به اسم رجل صحابي كان يكتب للنبي ﷺ الوحي.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا نصر بن علي الجهمي، حدثنا نوح بن قيس عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ﴿يَوْمَ نَطْرُو السَّمَاءَ كَطْيَ السِّجْلِ لِكُتُبٍ﴾ قال: السجل هو الرجل، قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب هو العوذى عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: السجل كاتب للنبي ﷺ، وهكذا رواه أبو داود والنسائي، كلآهما عن قتيبة بن سعد عن نوح بن قيس عن يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك عن أبي

(١) آخر جه البخاري في التوحيد باب ٦.

الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **السجل كاتب للنبي ﷺ**، ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهمي، كما تقدم، ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النكري عن أبيه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى **السجل**، وهو قوله: «**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب**» قال: كما يطوي السجل الكتاب كذلك تطوى السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ.

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: **أنبأنا أبو بكر البرقاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي أن حمدان بن سعيد، حدثهم عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: السجل كاتب للنبي ﷺ**، وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً، وقد صرخ جماعة من الحفاظ بوضعه وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي فسح الله في عمره ونسأ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدته والله الحمد.

وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير^(١) للإنكار على هذا الحديث، ورد أتم رد، وقال: لا يعرف في الصحابة أحد اسمه **السجل**، وكتاب النبي ﷺ معروفون وليس فيهم أحد اسمه **السجل**، وصدق رحمة الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث، وأما من ذكره في أسماء الصحابة، فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره، والله أعلم، وال الصحيح عن ابن عباس أن **السجل** هي الصحفة، قاله علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: «**فلما أسلموا وتله للجبن**» [الصافات: ١٠٣] أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: «**كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنما كنا فاعلين**» يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلاق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم. وذلك واجب الوجع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: «إنا كنا فاعلين». وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا وكيع وابن جعفر المعني قالاً حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعدة: فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفة عراً غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً

(١) تفسير الطبرى ٩٥/٩

(٢) المسند ٢٣٥/١

عليها، إننا كنا فاعلين»^(١) وذكر تمام الحديث، أخر جاه في الصحيحين من حديث شعبة، ذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه، وقد روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عائشة عن رسول الله ﷺ نحو ذلك، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: «كما بدأنا أول خلق نعيده» قال: يهلك كل شيء كما كان أول مرة^(٢).

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادُ الْصَّالِحِينَ إِنَّ فِي هَذَا لِكَلْغَا لِقَوْمٍ عَجِيدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلنَّاسِ

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباد الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: «إن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» [الأعراف: ١٢٨] وقال: «إنا لننصر رسالنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» [غافر: ٥١] وقال: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولم يمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم» [النور: ٥٥] وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدريّة وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر».

قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر» فقال الزبور: التوراة والإنجيل، والقرآن وقال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، والذكر التوراة. وعن ابن عباس: الذكر القرآن، وقال سعيد بن جبير: الذكر الذي في السماء. وقال مجاهد: الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمّة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون. وقال مجاهد عن ابن عباس «أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» قال: أرض الجنة، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري، وقال أبو الدرداء نحن الصالحون. وقال السدي: هم المؤمنون.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥، باب ١٤، وسورة ٢١ باب ٢، والرقاق باب ٤٥، ومسلم في الجنة حديث ٥٨، والترمذى في القيامة باب ٣، وتفسير سورة ٢١، باب ٤، والنمساني في الجنائز باب ١١٩.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٩٦/٩.

وقوله: «إِنَّ فِي هَذَا لِبْلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ» أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وأثروا طاعة الله على طاعة الشيطان، وشهوات أنفسهم.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نَعْمَةَ اللَّهِ كُفَّارًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارَ جَهَنَّمْ يَصْلُونَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ» [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩] وقال تعالى في صفة القرآن: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقَرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يَنادِونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» [فصلت: ٤٤] وقال مسلم في صحيحه حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ادع على المشركين. قال «إِنِّي لَمْ أُبْعِثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً» انفرد بإخراجه مسلم^(١). وفي الحديث الآخر «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَهَدَا»^(٢) رواه عبد الله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. قال إبراهيم الحربي. وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر أبا هريرة. وكذا قال البخاري وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلأً.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن سعيد الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً، ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحكم، كلاهما عن بكير بن محمد بن إبراهيم الصوفي، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري عن أبيأسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَهَدَا» ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود عن سفيان بن عيينة عن مسعود عن سعيد بن خالد، عن رجل عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعْثَنِي رَحْمَةً مَهَدَا بَعَثْتُ بِرْفَعَ قَوْمًا وَخَفْضَ أَخْرَيْنَ».

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوري وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفة عن حمزة: يا عشر قريش إن محمداً نزل يشرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تمرروا طريقه

(١) كتاب البر حديث .٨٧

(٢) آخر جه الدارمي في المقدمة باب .٣

أو تقاريوه، فإنه كالأسد الضاري، إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسب، والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم قد عرفتم عداوة أبني قيلة يعني الأوس والخزرج، فهو عدو استعان بعده، فقال له مطعم بن عدي: يا أبا الحكم والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً، ولا أصدق موعداً من أخيكم الذي طردم، وإذا فعلتم الذي فعلتم، فكونوا أكفر الناس عنه.

قال أبو سفيان بن الحارث: كونوا أشد ما كنتم عليه إن أبني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، وإن أطعتموني الجأتموهم حير كنانة أو تخرجوه محمداً من بين ظهرانيهم، فيكون وحيداً مطروضاً، وأما أبنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المذلة إلا سواء وساكفيكم حدكم، وقال:

سأنج جانباً مني غليظاً
على ما كان من قُرْبٍ وبعدِ
 رجال الخزرجية أهل ذلٍ إذا ما كان هزلٌ بعد جدٍ

بلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال «والذي نفسي بيده، لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدبنهم وهم كارهون، إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماهي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاسر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقد» وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثني عمرو بن قيس عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، ف جاء حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة إن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أمتي سببه في غضبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون، وإنما بعثني الله رحمة للعالمين فأجعلها صلاة عليه يوم القيمة».

ورواه أبو داود^(٢) عن أحمد بن يونس عن زائدة، فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير^(٣): حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق عن المسعودي عن رجل يقال له سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عو في مما أصاب الأمم من الخسف والقذف.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد وهو سعيد بن المربزان البقال

(١) المستند ٤٣٧/٥.

(٢) كتاب السنة باب ١٠.

(٣) تفسير الطبرى ١٠٠/٩.

عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس فذکرہ بنحوه، والله أعلم، وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان ابن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي عن أبيوبن سوید عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعید بن جبیر عن ابن عباس «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف.

**قُلْ إِنَّمَا يُوحَنُ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَّا هُوَ وَجَدُّ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ فَإِنْ تَوْلُوا فَقُلْ
إِذْنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِيبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿٢﴾ إِنَّمَا يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنْ
الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَنَعَ إِلَى حِينٍ ﴿٤﴾ قَلْ رَبِّ
أَحْكُمُ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا أَرْحَمَنَ الْمُسْتَعَنَ عَلَى مَا تَصْفُونَ ﴿٥﴾**

يقول تعالى آمراً رسوله صلواته وسلمه عليه أن يقول للمشركين «إنما يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون» أي متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له «فإن تولوا» أي تركوا ما دعوتهم إليه «فقل آذنكم على سوء» أي أعلمتمكم أنني حرب لكم كما أنكم حرب لي بريء منكم كما أنتم براء مني، كقوله: «فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعلمون» [يونس: ٤١] وقال: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سوء» [الأنفال: ٥٨] أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السوء، وهكذا ه هنا «فإن تولوا فقل آذنكم على سوء» أي أعلمتمكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

وقوله: «وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون» أي هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا بعيده «إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون» أي إن الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره العباد وما يسرؤن، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أحجارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل. وقوله: «وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين» أي وما أدرى لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال ابن جرير^(١): لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى، وحكاه عن ابن عباس فالله أعلم «قال رب احکم بالحق» أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال فتادة: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» [الأعراف: ٨٩] وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك، وعن مالك عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً «قال رب احکم بالحق». وقوله: «وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون» أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام والله الحمد والمنة.

سورة الحج

سُورَةُ الْحِجَّةِ

يَتَأْيَهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوُنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرَضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَّرًا وَمَا هُمْ بِسُكَّرٍ وَلَا كُنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدًا ۝

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أحوال يوم القيمة وزلازلها وأحوالها، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيمة، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدادهم؟ كما قال تعالى: «إذا زللت الأرض زلالها وأخرجت الأرض أثقالها» [الزلزلة: ١ - ٢] وقال تعالى: «وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجَبَالُ فَدَكَتَا دَكَةً وَاحِدَةً، فَيُوْمَنَذَ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ» [الحاقة: ١٤ - ١٥] الآية، وقال تعالى: «إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بسأً» [الواقعة: ٥٤ - ٥٦] الآية، فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقة في قوله: «إن زلزلة الساعة شيء عظيم» قال: قبل الساعة، ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري عن منصور والأعمش عن إبراهيم عن علقة فذكره، قال: وروي عن الشعبي وإبراهيم وعييد بن عمير نحو ذلك. وقال أبو كدينة عن عطاء بن عامر الشعبي «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيمة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور من روایة إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واسعه على فيه شاخص بيصره إلى العرش يتضرر متى يؤمر» قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الصور؟ قال: قرن. قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفع فيه ثلاثة نفحات: الأولى نفحة الفرع، والثانية نفحة الصقع، والثالثة نفحة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفحة الأولى». فيقول: انفع نفحة

(١) تفسير الطبرى ١٠٤/٩.

الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هُؤُلَاءِ إِلَّا صِحَّةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوْاقٍ﴾ فتسرير الجبال فتكون سراباً، وترج الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُرْجَفُ الْرَّاجِفَةُ تَبْعَدُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبُ يَوْمَئِذٍ وَاجْفَةً﴾ فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر تضربها الأمواج تكُوُنُها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح فيمتد الناس على ظهرها.

فتدهل المراضع وتضع الحوامل، ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب في وجوهها فترجع، ويولى الناس مدربين ينادي بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُولَوْنَ مُدَبِّرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ عَاصِمٍ وَمِنْ يَضْلِلُ اللَّهُ فِيمَالَهُ مِنْ هَادِ﴾ [غافر: ٣٢ - ٣٣] فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، ورأوا أمراً عظيماً، فأخذتهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به. ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وقمرها، وانتشرت نجومها ثم كشطت عنهم - قال رسول الله ﷺ: «وَالْأَمْوَاتُ لَا يَعْلَمُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول ﴿فَفَزَعَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقام لهم شر ذلك اليوم وأمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رِبَّكُمْ إِنَّ زِلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مَرْضَعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلَهَا وَتَرِي النَّاسَ سَكَارِيَّ وَمَا هُمْ بِسَكَارِيَّ وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير^(١) وابن أبي حاتم وغير واحد مطولاً جداً، والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة أضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال أشراط الساعة ونحو ذلك، والله أعلم، وقال آخرون بل ذلك هول وفزع وزلزال وبليال كائن يوم القيمة في العرصات بعد القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

[الأول] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى عن هشام، حدثنا قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير^(٣) رفع بهاتين الآيتين صوته. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رِبَّكُمْ إِنَّ زِلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مَرْضَعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلَهَا وَتَرِي النَّاسَ سَكَارِيَّ وَمَا هُمْ بِسَكَارِيَّ وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا

(١) تفسير الطبراني ١٠٥ / ٩.

(٢) المسند ٤ / ٤٣٥.

(٣) تفاوت بين أصحابه السير: أي بعدوا عن بعضهم.

المطبي^(١)، وعرفوا أنه عند قول ي قوله، فلما دنوا حوله قال: «أندرون أي يوم ذاك، ذاك يوم ينادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم ابعث بعثك إلى النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسمعاته وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه^(٢) حتى ما أوضحوا بضاحكة^(٣)، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا وأعملوا، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج وأجوج، ومن هلك منبني آدم وبني إبليس».

قال: فسرى عنهم^(٤)، ثم قال: «أعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة^(٥) في ذراع الدابة»^(٦) وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننهما عن محمد بن بشار عن يحيى وهوقطان، عن هشام وهو الدستوائى عن قتادة به بنحوه، وقال الترمذى: حسن صحيح.

[طريق آخر] لهذا الحديث. قال الترمذى^(٧): حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جدعان عن الحسن عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت: «يا أيها الناس اتقوا ربكم» - إلى قوله - «ولكن عذاب الله شديد» قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: «أندرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم». قال - ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: تسمعاته وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمين ي يكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية»، قال: ف يؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت، وإن كملت من المنافقين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» - فكبروا ثم قال - «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» - فكبروا ثم قال - «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا ثم قال: ولا أدرى قال الثلثين أم لا.

وكذا رواه الإمام أحمد^(٨) عن سفيان بن عيينة به. ثم قال الترمذى أيضاً: هذا حديث حسن

(١) خعوا المطبي: أي دفعوها لتسرع.

(٢) أبلس أصحابه: أي احتاروا وسكتوا.

(٣) ما أوضحوا بضاحكة: الضاحكة: الأسنان والأضراس الخلفية التي تبدو عند الضحك.

(٤) سري عنهم: أي كشف وأزيل عنهم وارتاحوا.

(٥) الرقمة، بفتح الراء، وسكون القاف: الدائرة الثالثة في ذراع الدابة من الداخل.

(٦) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٢٢، باب ٢.

(٧) كتاب التفسير، تفسير سورة ٢٢، باب ١.

(٨) المستد / ٤٣٢.

صحيح . وقد روي عن سعيد بن أبي عروبة عن الحسن عن عمران بن الحصين وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد العدوبي عن عمران بن الحصين فذكره ، وهكذا روى ابن جرير عن بندار عن غندر عن عوف عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة قرأ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رِبَّكُمْ إِن زِلْزَلَةً السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث ذكر نحو سياق ابن جدعان ، والله أعلم .

[الحديث الثاني] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن الطباع ، حدثنا أبو سفيان المعمري ، عن معمر عن قتادة عن أنس قال : نزلت ﴿إِن زِلْزَلَةً السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر ، يعني نحو سياق الحسن عن عمران غير أنه قال : ومن هلك من كفرة الجن والإنس . ورواه ابن جرير^(١) بطوله من حديث معمر .

[الحديث الثالث] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعني ابن العوام ، حدثنا هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه ، وقال فيه «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة - ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة - ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا ، وزاد أيضاً «وإنما أنتم جزء من ألف جزء» .

[الحديث الرابع] قال البخاري^(٢) عند تفسير هذه الآية : حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ : «يقول الله تعالى يوم القيمة : يا آدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادي بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحيثئذ تضع الحامل حملها ويшиб الوليد ﴿وَتَرَى النَّاسَ سَكَارِي وَمَا هُم بِسَكَارِي وَلَكُن عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ : «من يأجوج وأmajog و Majog تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإنني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة - فكبّرنا ثم قال - ثلث أهل الجنة - فكبّرنا ثم قال - شطر أهل الجنة» فكبّرنا^(٣) ، وقد وراث البخاري أيضاً في غير هذا الموضوع ، ومسلم والنسيائي في تفسيره من طرق عن الأعمش به .

(١) تفسير الطبرى ٩/١٠٧.

(٢) كتاب التفسير ، تفسير سورة ٢٢ ، باب ١ .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٥ ، ٤٦ ، ٣٢ ، والتوحيد باب ٣٧٩ ، ومسلم في الإيمان حديث ٣٧٩ ، والفتن حدث ١١٦ .

[الحديث الخامس] قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عمارة بن محمد ابن أخت سفيان الثوري وعيادة المعنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيمة منادياً ينادي: يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يا رب من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعه وتسعون» فقال رجل من القوم: من هذا الناجي منا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: «هل تدركون ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير» انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

[الحديث السادس] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى عن حاتم بن أبي صفيرة، حدثنا ابن أبي مليكة أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إنكم تحشرون إلى الله يوم القيمة حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، قال «يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك»^(٣) آخر جاه في الصحيحين.

[الحديث السابع] قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه، يوم القيمة؟ قال: «يا عائشة أما عند ثلاثة فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأما عند تطوير الكتب إما يعطي بيمنه وإما يعطي بشماله فلا، وحين يخرج عنق من النار فينطوي عليهم ويتعظ عليهم ويقول ذلك العنق: وكلت ثلاثة، وكلت ثلاثة، وكلت ثلاثة، وكلت بمن ادعى مع الله إليها آخر، وكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، وكلت بكل جبار عنيد - قال - فينطوي عليهم. ويرميهم في غمرات جهنم، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف، عليه كاللباب وحسك يأخذن من شاء الله، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجوايد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب سلم، سلم. فناج مسلم، ومخدوش مسلم، مكور في النار على وجهه».

والأحاديث في أحوال يوم القيمة والأثار كثيرة جداً لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: «إِن زلزلة الساعة شيء عظيم» أي أمر عظيم، وخطب جليل، وطارق مفزع، وحدث هائل، وكائن عجيب، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفرج، كما قال تعالى: «هَذَا إِنَّمَا المؤمنون وزلزلوا زلزاً شديداً» [الأحزاب: ١١].

ثم قال تعالى: «يُوْمَ تُرَوَّنُهَا» هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسر الله: «تذهب كل

(١) المستند ١/٣٨٨.

(٢) المستند ٦/٥٣.

(٣) آخر جه البخاري في الرقاق باب ٤٥، ومسلم في الجنة حديث ٥٦.

(٤) المستند ٦/١١٠.

مَرْضَعَةً عِمَّا أَرْضَعْتَ^١ أَيْ فَتَشْتَغِلُ لَهُولِ مَا تَرَى عَنْ أَحَبِ النَّاسِ إِلَيْهَا، وَالَّتِي هِيَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ تَدْهِشُ عَنْهُ فِي حَالٍ إِرْضَاعِهَا لَهُ، وَلَهُذَا قَالَ: «كُلُّ مَرْضَعَةٍ» وَلَمْ يقلْ مَرْضَعُ، وَقَالَ: «عِمَّا أَرْضَعْتَ^٢ أَيْ عَنْ رَضِيعِهَا قَبْلَ فَطَامِهِ.

وَقَوْلُهُ: «وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا» أَيْ قَبْلَ تَمامِهِ لَشَدَّةِ الْهُولِ «وَتَرَى النَّاسَ سَكَارِيٍّ» وَقَرَىءَ «سَكَارِيٌّ» أَيْ مِنْ شَدَّةِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ قَدْ دَهَشَتْ عُقُولُهُمْ، وَغَابَتْ أَذْهَانُهُمْ، فَمِنْ رَاهِمِهِمْ حَسْبُ أَنَّهُمْ سَكَارِيٌّ «وَمَا هُمْ بِسَكَارِيٍّ وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ».

وَمَنْ أَنَّاسٍ مَنْ يُهَاجِدُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبَعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ^٣ كُتُبَ عَلَيْهِ أَنَّمُ مَنْ تَوَلَّهُ فَأَنَّهُ يُضْلِلُهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ^٤

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلال الدعاة إلى البدع بالأهواء والأراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» أَيْ عِلْمٌ صَحِيحٌ «وَيَتَّبَعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتُبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّهُ» أَيْ كُتُبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّهُ^١ قال مجاهد: يعني الشيطان^(١)، يعني كتب عليه كتابة قدرية «أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّهُ» أَيْ اتبَعَهُ وَقَدْلَهُ «فَأَنَّهُ يُضْلِلُهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» أَيْ يضلله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المقلق المزعج، وقد قال السدي عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكذلك قال ابن جريج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن مسلم البصري، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمرا، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خباء قريش أخبرنا عن ربكم من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ ففعقت السماء فعقة - والفعقة في كلام العرب الرعد - فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه. وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أى شيء هو من درأ من يا قوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

يَكَيِّنُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِتَبْيَنَ لَكُمْ وَنُقْرِرُ فِي الْأَرْضَ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ تُسَمَّى ثُمَّ تُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّ كُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرْدَدُ إِلَى أَرْذِلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَايِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَرَتْ وَرَيَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

كُلَّ رَوْحٍ يَهِيجُ فَذَلِكَ يَأْنَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَإِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِنَّ السَّاعَةَ إِمَائِيَّةٌ لَأَرَبَّ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَنْ فِي الْقُبورِ

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعد بما يشاهد من بدهى للخلق فقال: «يا أيها الناس إن كتم في رب» أي في شك «من البعث» وهو المعد، وقيام الأرواح والأجساد، يوم القيمة «فإنما خلقناكم من تراب» أي أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام «ثم من نطفة» أي ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين «ثم من علقة ثم من مضغة» وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليها ما يجتمع إليها، ثم تقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: «ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة» أي كما تشاهدونها «لتبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى» أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: «مخلقة وغير مخلقة» قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق^(١)، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفح فيها الروح وسوهاها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح، وذكر وأثنى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد.

كما ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطنه أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفح فيه الروح»^(٢).

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير^(٣) من حديث داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقة عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم، أخذها ملك بكفه فقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة وقدفتها الأرحام دماً، وإن قيل: مخلقة قال: أي رب ذكر أو أثنى، شقي أو سعيد، ما الأجل وما الآخر، وبأي أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال من رازقك؟ فتقول الله، فيقال له: اذهب إلى أم

(١) انظر تفسير الطبرى ١١٠/٩.

(٢) أخرجه البخارى في الأنبياء باب ١، ومسلم في القدر حديث ١.

(٣) تفسير الطبرى ١١٠/٩.

الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة ، قال : فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل رزقها وتطأ أثراها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك المكان ، ثم تلا عامر الشعبي « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البيت فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً ، وإن كانت مخلقة نكست في الخلق .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسد يبلغ به النبي ﷺ قال : « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين يوماً أو خمس وأربعين ، فيقول : أي رب أشقي أم سعيد ؟ فيقول الله ويكتبان ، فيقول : أذكر أم أثني ؟ فيقول الله ويكتبان ، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا يتقصّ »^(١) ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ومن طريق آخر عن أبي الطفيل بنحو معناه .

وقوله : « ثم نخرجكم طفلاً » أي ضعيفاً في بدنـه وسمعـه وبصرـه وبطشه وعقلـه ، ثم يعطيـه الله القوـة شيئاً فشيـئاً ، ويـلطـفـ به ويـحـنـ عـلـيـهـ والـدـيـهـ فيـ آـنـاءـ الـلـيـلـ وأـطـرـافـ الـنـهـارـ ، ولـهـذا قال : « ثم لـتـبـلـغـواـ أـشـدـكـمـ » أي يـتـكـامـلـ القـوـيـ وـيـتـزـاـيدـ ، ويـصـلـ إـلـىـ عـنـفـوـانـ الشـيـابـ وـحـسـنـ الـمـظـهـرـ ، « وـمـنـكـمـ مـنـ يـتـوـفـيـ » أي فيـ حـالـ شـيـابـهـ وـقـوـاهـ ، « وـمـنـكـمـ مـنـ يـرـدـ إـلـىـ أـرـذـلـ الـعـمـرـ » وهو الشـيـخـوـخـةـ وـالـهـرـمـ وـضـعـفـ الـقـوـةـ وـالـعـقـلـ وـالـفـهـمـ وـتـنـاقـصـ الـأـحـوـالـ منـ الـخـرـفـ وـضـعـفـ الـفـكـرـ ، ولـهـذا قال : « لـكـيـلاـ يـعـلـمـ مـنـ بـعـدـ عـلـمـ شـيـئـاً » كما قال تعالى : « اللـهـ الـذـيـ خـلـقـكـمـ مـنـ ضـعـفـ ثـمـ جـعـلـ مـنـ بـعـدـ ضـعـفـ قـوـةـ ثـمـ جـعـلـ مـنـ بـعـدـ قـوـةـ ضـعـفـاًـ وـشـيـئـاًـ يـخـلـقـ مـاـ يـشـاءـ وـهـوـ الـعـلـيمـ الـقـدـيرـ » [الروم : ٥٤].

وقد قال الحافظ أبو يعلى بن علي بن المثنى الموصلي في مستنه : حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا خالد الزيارات ، حدثني داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنباري عن أنس بن مالك رفع الحديث قال : « المولود حتى يبلغ الحنث^(٢) ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالدته ، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه ، فإذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظوا وأن يشددوا ، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث : الجنون والجذام والبرص ، فإذا بلغ الخمسين ، خفف الله حسابه ، فإذا بلغ الستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب . فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء . فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه في أهل بيته ، وكتب أمين الله وكان أسير الله في أرضه ، فإذا

(١) أخرجه مسلم في القدر حديث ٢ ، وأحمد في المستند ٧ / ٤ .

(٢) يبلغ الحنث : أي يبلغ مبلغ الرجال .

بلغ أرذل العمر لكيلاً يعلم من بعد علم شيئاً كتب الله مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه».

هذا حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة، ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل^(١) في مسنده موقوفاً ومرفوعاً، فقال: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العامري، عن عمرو بن حعفر عن أنس قال: «إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمنه الله من أنواع البلايا: من الجنون، والبرص، والجدام، فإذا بلغ الخمسين لين الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنبابة يحبه الله عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحى عنه سيئاته وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسيير الله في أرضه وشفع في أهله» ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامري عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ مثله.

رواه الإمام أحمد^(٢) أيضاً: حدثنا أنس بن عياض، حدثني يوسف بن أبي بردة الأنباري عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمراً يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون، والبرص، والجدام» وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء، رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله بن شبيب عن أبي شيبة عن عبد الله بن عبد الملك عن أبي قتادة العدوبي، عن ابن أخي الزهري عن عممه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعاً من البلاء: الجنون، والبرص، والجدام، فإذا بلغ سبعين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنبابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسيير الله وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسيير الله في أرضه وشفع في أهل بيته».

وقوله: **﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾** هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهايدة، وهي المقحمة التي لا ينبت فيها شيء. وقال قتادة: غبراء متهمشة. وقال السدي: ميتة، **﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾** أي فإذا أنزل الله عليها المطر، اهتزت أي تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها، وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات

(١) المسند / ٨٩.

(٢) المسند / ٣٢١٧.

النبات في اختلاف ألوانها وطعمها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِيج﴾ أي حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَق﴾ أي الخالق المدير الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمَحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي كائنَة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنْ فِي الْقِبْرَى﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قَلْ يَحْيِيْهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوْلَى مَرَةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَتَمْتُمْ مِنْهُ تَوْقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات في هذا كثيرة.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة قال: أَبِنَانَا يَعْلَى بْنُ عَطَاءِ عَنْ وَكِيعِ بْنِ حَدْسٍ عَنْ عَمِهِ أَبِي رَزِينَ الْعَقِيلِيِّ وَاسْمُهُ لَقِيطُ بْنُ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْلَنَا بَرِّ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَنْتَظِرُ إِلَى الْقَمَرِ مَخْلِيًّا بِهِ؟» قَلَنَا: بَلِي، قَالَ: «فَالَّهُ أَعْظَمُ» قَالَ: قَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: «أَمَا مَرَرْتُ بِوَادِي أَهْلَكَ مَحْلًا؟»^(٢) قَالَ: بَلِي. قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِهِ يَهْتَرِ خَضْرًا؟^(٣) قَالَ: بَلِي. قَالَ «فَكَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَذَلِكَ آيَتِهِ فِي خَلْقِهِ».

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به.

ثم رواه الإمام أحمد^(٤) أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أَبِنَانَا ابْنُ الْمَبَارِكِ، أَبِنَانَا عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبي رزين العقيلاني قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى؟ قَالَ «أَمَرْتُ بِأَرْضٍ مِنْ أَرْضِ قَوْمِكَ مَجْدِبَةٍ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِهَا مَخْصَبَةً؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ «كَذَلِكَ النَّشُورُ» وَاللَّهُ أَعْلَمْ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حدثنا أَبِي عَبِيسٍ بْنِ مَرْحُومٍ، حدثنا بَكِيرٌ بْنُ السَّمِيطِ عَنْ قَتَادَةِ عَنْ أَبِي الحجاج عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمَبِينُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنْ فِي الْقِبْرَى دَخْلَ الْجَنَّةِ.

وَمَنْ أَنَّاسٌ مَنْ يَجْدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۚ ثَانِيَ عَطْنَيْهِ لِيُضْلَلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١) المسند ١١/٤.

(٢) المحل: انقطاع المطر، وقيل: أرض محل، وزمن محل وما محل.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

(٤) المسند ١١/٤.

لَهُ فِي الدُّنْيَا حَزْنٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ
لِلْعَبِيدِ

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريده» ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال: «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير» أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى. قوله: «ثاني عطفه» قال ابن عباس وغيره: مستكبر عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم «ثاني عطفه» أي لا وي عنقه^(١) وهي رقبته، يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق، ويثنى رقبته استكباراً، كقوله تعالى: «وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركته» [الذاريات: ٣٩ - ٣٨] الآية، وقال تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً» [النساء: ٦١] وقال تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفرون لكم رسول الله لروا رؤوسهم ورأيتمهم يصدون وهم مستكبرون» [المافقون: ٥] وقال لقمان لابنه «ولا تصرخ خدك للناس» [لقمان: ١٨] أي تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: «وإذا تلتلي عليه آياتنا ولی مستكبراً» [لقمان: ٧] الآية.

وقوله: «ليضل عن سبيل الله» قال بعضهم: هذه لام العاقبة، لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جلبناه على هذا الخلق الذي لنجعله ممن يضل عن سبيل الله. ثم قال تعالى: «له في الدنيا حزني» وهو الإهانة والذلة، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاء الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همه ومبلاع علمه «ونذيقه يوم القيمة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك» أي يقال له هذا تجريعاً وتوبيناً «وأن الله ليس بظلم للعبد» كقوله تعالى: «خذوه فاعتلوه إلى سوء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنت به تمرتون» [الدخان: ٤٧ - ٥٠]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أئبنا هشام عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة.

وَمَنَ الَّذِيْسَ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَانَهُ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُمِينُ ﴿١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الْضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٢﴾ يَدْعُوا مِنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿٣﴾

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: «على حرف» على شك، وقال غيرهم: على طرف، ومنه

حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشرم. وقال البخاري^(١): حدثنا إبراهيم بن العمارث، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا إسرائيل عن أبي حصين عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنج خيله قال: هذا دين سوء.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي عن أبيه عن أشعث بن إسحاق القمي عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكون به وإن وجدوا عام جدوة وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله على نبيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ إِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَانُهُ﴾ الآية.

وقال العوفي عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبئر، فإن صبح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً ولدت امرأته غلاماً رضي به، واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، ﴿وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة البلاء، أي وإن أصابه وجع المدينة ولو لدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرآ، وذلك الفتنة^(٢)، وهكذا ذكر قنادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر^(٣). وقال مجاهد في قوله: ﴿أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي ارتد كافراً.

وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَة﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمَبِين﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة قوله: ﴿يُدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ أي من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾. قوله: ﴿يُدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَنْزَبَ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن.

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٢٢، باب ٢.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١١٥/٩.

(٣) انظر تفسير الطبرى ١١٦/٩.

وقوله: «لِبَئْسُ الْمُولَى وَلِبَئْسُ الْعَشِيرِ» قال مجاهد: يعني الوثن^(١)، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني ولياً وناصراً، «وَلِبَئْسُ الْعَشِيرِ» وهو المخالف والمعاشر، واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب «مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حُرْفٍ فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَانَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ» قوله مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

إِنَّ اللَّهَ يُدِخِّلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْنَّهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يُرِيدُ

لما ذكر أهل الضلال الأشقياء عطف بذلك الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقوليهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعلموا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكينة الدرجات العالىات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال: «إِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يُرِيدُ».

مَنْ كَانَ يَظْلَمُ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَيُمَدَّدَ سَبَبُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعَ فَلَيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَ كَيْدُهُ مَا يَغْيِطُ وَكَذَلِكَ أَنْزَلَنَا إِلَيْهِ بَيْتَنَا وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب أي بحبل «إِلَى السَّمَاءِ» أي سماء بيته «ثُمَّ لِيَقْطَعَ» يقول ثم ليختنق به، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «فَلَيُمَدَّ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ» أي ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء «ثُمَّ لِيَقْطَعَ» ذلك عنه إن قدر على ذلك، وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: «إِنَّا لَنَصْرَ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [غافر: ٥٢ - ٥١] الآية، ولهذا قال: «فَلَيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَ كَيْدُهُ مَا يَغْيِطُ» قال السدي: يعني من شأن محمد عليه السلام.

وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيط. قوله: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلَنَا» أي القرآن «أَيَّاتٍ بَيِّنَاتٍ» أي واصحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس، «وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ» أي يصل من يشاء ويهدي من يشاء، ولو الحكمة التامة والحججة القاطعة في ذلك «لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ» [الأنياء: ٢٣] أما هو فلحكمة ورحمته وعدله وعلمه وقوته وعظمته لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

(١) انظر تفسير الطبرى ١١٧/٩.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالْمَجْوُسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَشِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين، وقد قدمنا في سورة البقرة^(١) التعريف بهم واختلاف الناس فيهم، والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره، فإنه تعالى: «يفصل بينهم يوم النهاية» ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم.

أَتَرَأَتِ اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنَّجْمُ وَالْبَلَلُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ هُنَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَرٌ إِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: «أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً له وهم داخرون» [النحل: ٤٨] وقال ه هنا: «ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض» أي من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير « وإن من شيء إلا يسجح بحمده» [الإسراء: ٤٤] قوله: «والشمس والقمر والنجمون» إنما ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عبدت من دون الله فيبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا للذي خلقهن» [فصلت: ٣٧] الآية.

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأنم فيوشك أن يقال لها ارجعني من حيث جئت»^(٢) وفي المسند وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه في حديث الكسوف «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له»^(٣).

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا سمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم

(١) انظر تفسير الآية ٦٢ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري في بده الخلق باب ٤، ومسلم في الإيمان حديث ٢٥٠، ٢٥١.

(٣) أخرجه أبو داود في الاستسقاء باب ٣، والنسائي في الكسوف باب ١٦، وابن ماجه في الإقامة باب ١٥٢، وأحمد في المسند ٤/٢٦٧، ٢٦٩.

لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه^(١)، وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل، وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأنني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فقرأ رسول الله ﷺ: سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة^(٢)، رواه الترمذى وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

وقوله: «والدواب» أي الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ، نهى عن اتخاذ ظهور الدواب مثابر^(٣)، فرب مركوبة خير وأكثر ذكرًا لله تعالى من راكبها.

وقوله: «وکثير من الناس» أي يسجد الله طوعاً مختاراً متبعاً بذلك «وکثير حق عليه العذاب» أي من امتنع وأبى واستكبر «ومن يهـن الله فـما له من مـكرـم إن الله يـفـعـل ما يـشـاء» وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال: قيل لعلي: إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له علي: يا عبد الله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث يشاء أو حيث شاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضررت الذي فيه عيناك بالسيف.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا وليه أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبىت فلي النار»^(٤) رواه مسلم.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا أبو سعيد مولىبني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لهيعة، قال: حدثنا مشرح بن هاعان أبو مصعب المعافري قال: سمعت عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال «نعم فمن

(١) انظر تفسير الطبرى ١٢٢/٩.

(٢) أخرجه الترمذى في الجمعة باب ٥٥، والدعوات باب ٣٣، وابن ماجه في الإقامة باب ٧٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٥٥.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٣٣، وابن ماجه في الإقامة باب ٧٠، وأحمد في المسند ٦/٤٠٠.

(٥) المسند ٤/١٥١، ١٥٢.

لم يسجد بهما فلا يقرأهما»^(١) ورواه أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن لهيعة به . وقال الترمذى : ليس بقوى ، وفي هذا نظر ، فإن ابن لهيعة قد صرخ فيه بالسمع ، وأكثر ما نعموا عليه تدليسه .

وقد قال أبو داود في المراسيل : حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، أبأنا ابن وهب ، أخبرني معاوية بن صالح عن عامر بن ج شب عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين» ثم قال أبو داود : وقد أسندا هذا ، يعني من غير هذا الوجه ولا يصح . وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي : حدثني ابن أبي داود ، حدثنا يزيد بن عبد الله ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو ، حدثنا حفص بن عنان ، حدثني نافع قال : حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدين في الحج وهو بالجابة ، وقال : إن هذه فضلت بسجدتين .

وروى أبو داود وابن ماجه من حديث الحارث بن سعيد العتqi عن عبد الله بن منين عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاثة في المفصل وفي سورة الحج^(٢) سجدة ، فهذه شواهد يشد بعضها ببعض .

هَذَا هُنَّا خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رِبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ شَيْءٌ مِّنْ نَارٍ يُصَبَّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ الْحَمِيمُ ۝ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجَلُودُ ۝ وَلَمَّا مَقَامَعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ كُلُّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمِّ أَعْيُدُهُ فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝

ثبت في الصحيحين من حديث أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي ذر : أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية «هذا خصمان اختصموا في ربهم» نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم بربوا في بدر^(٣) ، لفظ البخاري عند تفسيرها ، ثم قال البخاري^(٤) : حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبي ، حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجشو بين يدي الرحمن للخصوصة يوم القيمة ، قال قيس : وفيهم نزلت : «هذا خصمان اختصموا في ربهم» قال : هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعيادة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . انفرد به البخاري .

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله : «هذا خصمان اختصموا في ربهم» قال : اختص المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبيانا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن

(١) أخرجه الترمذى في الجمعة باب ٥٤ .

(٢) أخرجه أبو داود في السجود باب ١ ، وابن ماجه في الإقامة باب ٧١ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٢ ، باب ٣ ، ومسلم في التفسير حديث ٣٤ .

(٤) كتاب التفسير ، تفسير سورة ٢٢ ، باب ٣ .

أولى بالله منكم، وقال المسلمين: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم، فأفلج^(١) الله الإسلام على من ناواه، وأنزل هذان خصماني اختصموا في ربهم^{*} وكذا روى العوفي عن ابن عباس: قال شعبة عن قتادة في قوله: هذان خصماني اختصموا في ربهم^{*} قال: مصدق ومكذب وقال ابن أبي نجح عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: هذان خصماني اختصموا في ربهم^{*} قال: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة. وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن، ولهذا قال فالذين كفروا قطعوا لهم ثياب من نار^{*} أي فصلت لهم مقطوعات من النار، قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود^{*} أي إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبير: هو النحاس المذاب، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم، وكذلك تذوب جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.

وقال ابن جرير^(٢): حدثني محمد بن المثنى، حدثني إبراهيم أبو إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن ابن حجرية، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسللت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان^(٣) ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك وقال: حسن صحيح، وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي نعيم عن ابن المبارك به. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبي الحواري.

قال: سمعت عبد الله بن السري قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجده تكرهه، قال: فيرفع مقدمة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، كذلك قوله: يصهر به ما في بطونهم والجلود^{*}.

وقوله: ولهم مقامع من حديد^{*} قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن

(١) أفلج: أي نصر.

(٢) تفسير الطبرى ١٢٥/٩.

(٣) أخرجه الترمذى في جهنم باب ٤.

(٤) المستند المستند ٢٩/٣.

لهيعة، حديثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مقعماً من حديد وضع في الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقوله من الأرض» وقال الإمام أحمد^(١): حديثنا موسى بن داود، حديثنا ابن لهيعة، حديثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لو ضرب الجبل بمقعم من حديد لتفتت، ثم عاد كما كان، ولو أن دلواً من غساقي يهرأق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا» وقال ابن عباس في قوله: «ولهم مقامع من حديد» قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور^(٢).

وقوله: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها» قال الأعمش عن أبي طبيان عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها» وقال زيد بن أسلم في هذه الآية «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها» قال: بلغني أن أهل النار لا يتفسرون، وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعاها. وقوله: «وذوقوا عذاب الحريق» كقوله: «وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كتم به تكذبون» ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولًا وفعلًا.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَكَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرَيرٌ ۚ وَهُدُوا إِلَى الْطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ۝

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عيادةً بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنkal والحريق والأغلال وما أعد لهم من الشيب من النار، ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة، فقال: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها أنهار» أي تترعرع في أكتافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا «يحلون فيها» من الحلية «من أساور من ذهب ولؤلؤ» أي في أيديهم، كما قاله النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبليغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الموضوع»^(٣). وقال كعب الأبخار: إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته يصوغ لأهل الجنة الحلبي منذ خلقه الله إلى يوم القيمة لو أبرز قلب منها - أي سوار منها - لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر.

(١) المستند ٨٣/٣.

(٢) الثبور: الهلاك.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٤٠، والنسائي في الطهارة باب ١٠٩، وأحمد في المستند ٢/٢٢٢، .٣٧١

وقوله: «ولباسهم فيها حرير» في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير استبرقة وستدسه، كما قال: «عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهراً إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً» [الإنسان: ٢١ - ٢٢] وفي الصحيح «لا تلبسو الحرير ولا الدبياج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(١) قال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: «ولباسهم فيها حرير». قوله: «وهدوا إلى الطيب من القول» كقوله تعالى: «وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحبّتهم فيها سلام» [إبراهيم: ٢٣] قوله: «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» [الرعد: ٢٣ - ٢٤] قوله: «لا يسمعون فيها لفواً ولا تأثيمًا إلا قيلاً سلامًا سلامًا» [الواقعة: ٢٥ - ٢٦] فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، قوله: «ويلقون فيها تحيّة وسلامًا» [الفرقان: ٧٥] لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم: «ذوقوا عذاب الحرير».

وقوله: «وهدوا إلى صراط الحميد» أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم كما جاء في الحديث الصحيح «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»^(٢) وقد قال بعض المفسرين في قوله: «وهدوا إلى الطيب من القول» أي القرآن وقيل: لا إله إلا الله وقيل: الأذكار المشروعة «وهدوا إلى صراط الحميد» أي الطريق المستقيم في الدنيا وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَكْفُ فِيهِ
وَالْبَادُ وَمَنْ يُرِدُ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمُ نُذَقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه «وما كانوا أولياء إن أولياؤه إلا المتقون» [الأنفال: ٣٤] الآية، وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله» [البقرة: ٢١٧] وقال ههنا: «إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام» أي ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا

(١) أخرجه البخاري في اللباس باب ٢٥، ومسلم في اللباس حديث ١١، ١٢.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة حديث ١٨، ١٩، والدارمي في الرفاق باب ١٠٤، وأحمد في المسند ٣٤٩/٣، ٣٥٤، ٣٨٤.

التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨] أي ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الذى جعلناه للناس سواء العاکف فيه والباد﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿سواء العاکف فيه والباد﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكنها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿سواء العاکف فيه والباد﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد: ﴿سواء العاکف فيه والباد﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهرى عن علي بن الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع؟» ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»^(١) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشتري من صفوان بن أمية داراً بمكة، فجعلها سجنًا، بأربعة آلاف درهم، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، عن عثمان بن أبي سليمان عن علقة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوابق من احتاج سكن ومن استغنى أسكن^(٢).

وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الکراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبوب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امراً تاجرًا، فأردت أن أتخذ بابين يحسان لي ظهري، قال: فلك ذلك إذاً. وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة لا تتخذوا للدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء.

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٤، والفرائض باب ٢٦، ومسلم في الفرائض حديث ١، وابن ماجه في الفرائض باب ٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسبات باب ١٠٢.

قال: وأخبرنا معمر عمن سمع عطاء يقول: «سواء العاكف فيه والباد» قال: ينزلون حيث شاؤوا، وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح عن عبد الله بن عمرو موقوفاً من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً» وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا تؤجر جماعاً بين الأدلة، والله أعلم. قوله: «ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هنا زائدة، كقوله: «تنتب بالدهن» [المؤمنون: ٢٠] أي تبت الدهن، وكذا قوله: «ومن يرد فيه بالحاد» تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى: [الكامل]

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا بين المراجل والصرير الأجرد^(١)

وقال الآخر: [الطوبل]

بوا ديمان ينبع الشَّتَّ صدرُه وأسفلِه بالمرْخِ الشَّبهانِ^(٢)

والآجود أنه ضمن الفعل ه هنا يعني بهم ، ولهذا عداه بالياء فقال: «ومن يرد فيه بالحاد» ي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار: قوله: «بظلم» أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج عن ابن عباس هو التعمد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: بظلم يشرك ، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله ، وكذا قال قتادة وغير واحد . وقال العوفي عن ابن عباس: بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل ، فتضلل من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم ، وقال مجاهد: بظلم يعمل فيه عملاً سيئاً ، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه ، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره ، حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شعبة عن السدي أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله يعني ابن مسعود في قوله: «ومن يرد فيه بالحاد بظلم» قال: لو أن رجلاً أراد فيه بالحاد بظلم وهو بعدن أبين ، لأذاقه الله من العذاب الأليم ، قال شعبة: هو رفعه لنا وأنا لا أرفعه لكم . قال يزيد: هو قد رفعه ، ورواه أحمد عن يزيد بن هارون به .

قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ، ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة

(١) يروى البيت:

ضمنت لنا أعيجاته أرماحنا ملء المراجل والصرير الأجردا
وهو للأعشى في ديوانه ص ٣٤ ، ولسان العرب (جرد) ، وتهذيب اللغة ٦٤٠ / ١٠ ، وناتج العروس (جرد) ، وتفسير الطبرى برواية ابن كثير ١٣٠ / ٩ .

(٢) البيت للأحوال اليسكري في لسان العرب (شبة) وبلا نسبة في لسان العرب (شت)، وتهذيب اللغة ٩٣ / ٦ ، وناتج العروس (شت)، وجمهرة اللغة ص ٨٣ ، ١٢٣٦ ، ٤٠٤ / ٣ ، ومجمل اللغة ١٩٦ / ٣ ، وديوان الأدب ٢١ / ٢ ، وتفسير الطبرى ١٣٠ / ٩ .

على وقته من كلام ابن مسعود، وكذلك رواه أسباط وسفيان الثوري عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود موقفاً، والله أعلم.

وقال الثوري عن السدي عن مرة عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجالاً بعدن أبین هم أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأداقه الله من العذاب الأليم، وكذا قال الضحاك بن مزاحم، وقال سفيان الثوري عن منصور، عن مجاهد: إلحاد فيه لا والله وبلي والله، وروي عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو مثله، وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه، وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس في قوله: «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم» قال: تجارة الأمير فيه. وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد.

وقال حبيب بن أبي ثابت: «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم» قال: المحتكر بمكة، وكذا قال غير واحد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أئبنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى، عن عممه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «احتياط الطعام بمكة إلحاد» وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكيير، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس في قوله الله: «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم» قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين: أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخرتا في الأنساب فغضبت عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم» يعني من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعني بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلال منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، «ترميهم بحجارة من سجيل يجعلهم كعصف مأكول» [الفيل: ٤ - ٥]، أي دمرهم وجعلهم عبرة ونکالاً لكل من أراده بسوء، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وأخرهم»^(١) الحديث.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن كنافة، حدثنا إسحاق بن سعيد عن أبيه قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير فقال: يا ابن الزبير إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو توزن ذنبه بذنب الثقلين لرجحت»

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٤٩، ومسلم في الفتن حديث ٦ - ٨.

(٢) المستند ١٣٦ / ٢.

فانظر لا تكن هو، وقال^(١) أيضاً في مسنده عبد الله بن عمرو بن العاص: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فاني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها وينحل به رجل من قريش، لو وزنت ذنبه بذنب الثقلين لوزنها» قال: فانظر لا تكن هو، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

وَإِذْ بَوَأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتَنِي لِلطَّائِفَيْنِ
وَالْقَائِمَيْنَ وَالرُّكْعَ السُّجُودُ [٢] وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَنِ كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْنِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ [٣]

هذا فيه تقرير وتبيين لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوا إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بنائه، واستدل به كثيراً من قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(٤).

وقد قال الله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذي بيكة مباركا» [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]
الآيتين، وقال تعالى: «وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين
والركع السجود» [البقرة: ٢١٥] وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصلاح والآثار بما
أغنى عن إعادته هنا، وقال تعالى ههنا «أن لا تشرك بي شيئاً» أي ابنه على اسمه وحدى
«وطهر بيتي» قال قتادة ومجاهد: من الشرك للطائفين والقائمين والركع السجود أي
اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص
العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل بيقعة من الأرض سواها «والقائمين» أي في الصلاة، ولهذا
قال: «والركع السجود» فقرن الطواف بالصلاحة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت،
فالطواف عنده والصلاحة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي
الحرب وفي التaffle في السفر، والله أعلم.

وقوله: «وأذن في الناس بالحج» أي ناد في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا
البيت الذي أمرناك بنائه، فذكر أنه قال: يا رب وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال:
ناد علينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي

(١) المسند ٢١٩/٢

(٢) أخرجه مسلم في المساجد حديث ١، وأحمد في المسند ٥/١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠.

قييس، وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخد بيته فحجوه ، فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجا به كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيمة ، لبيك اللهم لبيك ، وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبیر وغير واحد من السلف ، والله أعلم ، أوردها ابن جریر^(١) وابن أبي حاتم مطولة .

وقوله : «يأتك رجالاً وعلى كل ضامر» الآية ، قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً ، لأنه قدمهم في الذكر ، فدل على الاهتمام بهم وقوه هممهم وشدة عزمهم ، وقال وكيع عن أبي العميس ، عن أبي حلحلة ، عن محمد بن كعب ، عن ابن عباس قال : ما أساء علي شيء إلا أن وددت أني كنت حجت ماشياً ، لأن الله يقول : «يأتك رجالاً» والذى عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل ، اقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام . وقوله : «يأتين من كل فج» يعني طريق ، كما قال : «وجعلنا فيها فجاجاً سبلًا» [الأنبياء : ٣١] وقوله : «عميق» أي بعيد ، قاله مجاهد وعطاء والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان والثوري وغير واحد ، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم حيث قال في دعائه : «فاجعل أفتدة من الناس تهوي إلية» [إبراهيم : ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف ، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

**لِيَشْهُدُوا مَنَّدِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَمِ
فَكُلُّوا مِنْهَا وَاطِّعُمُوا الْبَاسِنَ الْمَقِيرَ ﴿٢﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا نَفَّثَهُمْ وَلَيُوْفُوا نَذْوَرَهُمْ وَلَيَطَوَّفُوا
بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣﴾**

قال ابن عباس : «ليشهدوا منافع لهم» قال : منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فرضبوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن ، والذبائح والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد : إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله : «ليس عليكم جناح أن بتغروا فضلاً من ربكم» [البقرة : ١٩٨] . وقوله : «ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» ، قال شعبة وهشيم عن أبي بشر ، عن سعيد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر ، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به . وروي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاحد وقتادة وعطاء وسعيد بن جبیر والحسن والضحاك وعطاء الخراساني وإبراهيم النخعي ، وهو مذهب الشافعی والمشهور عن أحمد بن حنبل .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن عرعرة ، حدثنا شعبة عن سليمان ، عن مسلم البطين ، عن

سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء»^(١)، رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه بنحوه. وقال الترمذى: حديث حسن، غريب، صحيح، وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر.

قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عثمان أبو عوانة عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتکبير والتحميد» وروي من وجه آخر عن مجاهد عن ابن عمر بنحوه. وقال البخارى^(٣): وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبّر الناس بتکبیرهما.

وقد روى أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا أَنَّ هَذَا هُوَ الْعَشْرُ الَّذِي أَقْسَمَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: «الْفَجْرُ وَاللَّيْلُ وَالْعَشْرُ» [الفجر: ١ - ٢]. وقال بعض السلف: أنه المراد بقوله: «وَأَتَمَّنَاها بِعَشْرٍ» [الأعراف: ١٤٢] وفي سنن أبي داود^(٤) أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم^(٥) عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: أحتسب على الله أن يكفر به السنة الماضية والآتية، ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله وبالجملة^(٦)، فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره، ويتميز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وتتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليلي ذاك أفضل، وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

- [قول ثان] في الأيام المعلمات. قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس: الأيام المعلمات يوم النحر وثلاثة أيام بعده، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أَحْمَدُ بن

(١) أخرجه البخاري في العيددين باب ١١، وأبو داود في الصوم باب ٦٠، والترمذى في الصوم باب ٥١، وابن ماجه في الصوم باب ٥٢.

(٢) المستند ٧٥/٢، ١٣١، ١٣٢.

(٣) كتاب العيددين باب ١١.

(٤) كتاب الصوم باب ٦٠.

(٥) كتاب الصيام حديث ١٩٦.

(٦) انظر أَحْمَدُ في المستند ٤/٣٥٠.

حنبل في رواية عنه.

[قول ثالث] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عجلان، حدثني نافع أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جمیعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات: يوم النحر، ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر، هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدي، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى: «على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» يعني ذكر الله عند ذبحها.

[قول رابع] أنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده، وهو مذهب أبي حنيفة. وقال ابن وهب: حدثي ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق.

وقوله: «على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام «ثمانية أزواج» [الأنعام: ١٤٣] الآية، قوله: «فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضحى، وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنية ببعضه فتطبخ، فأأكل من لحمها وحسا من مرقها^(١). قال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: أحب أن يأكل من أضحيته، لأن الله يقول: «فكلوا منها» قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك، وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم «فكلوا منها» قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للMuslimين، فمن شاء أكل ومن لم يشاً لم يأكل، وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك.

قال هشيم عن حصين عن مجاهد في قوله: «فكلوا منها» قال: هي كقوله: «إذا حللت فاصطادوا» [المائدة: ٢] «إذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض» ^(٢) [الجمعة: ١٠] وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضحى يصدق فيها بالنصف بقوله في هذه الآية: «فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» فجزأها نصفين: نصف للمضحي ونصف للقراء، والقول الآخر أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له وثلث يهديه وثلث يتصدق به، لقوله تعالى في الآية الأخرى: «فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر» [الحج: ٣٦] وسيأتي الكلام عليها عندها إن شاء الله وبه الثقة.

(١) أخرجه مسلم في الحج حديث ١٤٧، وأبو داود في المنساك باب ٥٦، والترمذمي في الحج باب ٦، وابن ماجه في المنساك باب ٨٤، والأضحى باب ١٥، والدارمي في المنساك باب ٣٤.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٣٨/٩.

وقوله: ﴿البائسُ الفقير﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس والفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده، وقال قتادة: هو الزمن، وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير. قوله: ﴿لَمْ يَقْضُوا تَفْتَهُم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وهو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك، وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه، وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي. وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿لَمْ يَقْضُوا تَفْتَهُم﴾ قال: التفت المنسك.

وقوله: ﴿وَلِيَوْفُوا نُذُورَهُم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني نحر ما نذر من أمر البدن. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَلِيَوْفُوا نُذُورَهُم﴾ نذر الحج والعهد وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج. وقال إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد ﴿وَلِيَوْفُوا نُذُورَهُم﴾ قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد ﴿وَلِيَوْفُوا نُذُورَهُم﴾ كل نذر إلى أجل وقال عكرمة ﴿وَلِيَوْفُوا نُذُورَهُم﴾ قال: حجهم. وكذا روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم: حدثنا أبي. حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلِيَوْفُوا نُذُورَهُم﴾ قال: نذور الحج، فكل من دخل الحج فعلية من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمي الجamar على ما أمروا به، وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلِيَطْوُفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد عن أبي حمزة قال: قال لي بن عباس: أقرأ سورة الحج يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَطْوُفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المنسك الطواف بالبيت العتيق.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى مني يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرمها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أضاف فطاف بالبيت، وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف^(١) إلا أنه خف عن المرأة الحائض.

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم الفقة، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة، ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان عن هشام بن حجر عن رجل عن ابن عباس

(١) أخرجه أبو داود في المنسك باب ٨٢، ومالك في الحج حديث ١٢٢، وأحمد في المسند ٤١٦/٣، ٤١٧.

قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ طاف رسول الله ﷺ من ورائه، وقال قتادة عن الحسن البصري في قوله: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال: لأنّه أول بيت وضع للناس، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق لأنّه اعتق يوم الغرق زمان نوح، وقال خصيف: إنما سمي بالبيت العتيق لأنّه لم يظهر عليه جبار فقط.

وقال ابن أبي نجيح وليث عن مجاهد: اعتق من الجبارة أن يسلطوا عليه، وكذا قال قتادة. وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن مسلم عن مجاهد: لأنّه لم يرده أحد بسوء إلا هلك، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق لأنّ الله أعتقه من الجبارة.

وقال الترمذى^(١): حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرني الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن محمد بن عروة عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق لأنّه لم يظهر عليه جبار» وكذا رواه ابن جرير^(٢) عن محمد بن سهل النجاري عن عبد الله بن صالح به، وقال: إن كان صحيحاً، وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسلأ.

ذَلِكَ وَمَنْ يَعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَاحْلَتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَكَ الْزُورِ حُفَّاءَ لِلَّهِ غَيْرُ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَ مُخَرَّجًا مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطُفُهُ الْطَّيْرُ أَوْ تَهُوِي بِهِ الْرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما لفاعلها من الثواب الجزييل ﴿وَمَنْ يَعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ﴾ أي ومن يجتنب معااصيه، ومحارمه ويكون ارتکابها عظيماً في نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي فله على ذلك خير كثير، وثواب جزييل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزييل، كذلك على تلك المحرمات واجتناب المحظورات، قال ابن جرير: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يَعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ﴾ قال: الحرماء مكة والحج والعمراء وما نهى الله عنه من معااصيه كلها، وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَاحْلَتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي أحلتنا لكم جميع الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام. قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي من تحريم الميتة والمدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنحرفة الآية، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة. قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَكَ الْزُورِ﴾ من ه هنا لبيان

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٢٢، باب ٣.

(٢) تفسير الطبرى ١٤٢/٩.

الجنس ، أي اجتبوا الرجل الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور ، كقوله : «**فَلِإِنْمَا حَرَمَ رَبُّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشَرِّكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [الأعراف : ٢٣]** ومنه شهادة الزور . وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال : «أَلَا أَنْبَثُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قلنا : بلى يا رسول الله قال : «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكتأً فجلس فقال - ألا وقول الزور . ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا مروان بن معاوية الفزاروي ، أئبنا سفيان بن زياد عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فقال : «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثلثاً ، ثم قرأ «**فَاجْتَبَوْا الرَّجُسَ مِنَ الْأُوْثَانِ وَاجْتَبَوْا قَوْلَ الزَّورِ**» وهكذا رواه الترمذى^(٣) عن أحمد بن منيع عن مروان بن معاوية به ، ثم قال : غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد ، وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث ولا نعرف لأيمن بن خريم ساماً من النبي ﷺ .

وقال الإمام أحمد^(٤) أيضاً : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا سفيان العصفرى عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأستدي عن خريم بن فاتك الأستدي قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فلما انصرف قام قائماً فقال : «عدلت شهادة الزور إشراك بالله عز وجل» ثم تلا هذه الآية «**فَاجْتَبَوْا الرَّجُسَ مِنَ الْأُوْثَانِ وَاجْتَبَوْا قَوْلَ الزَّورِ حَنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**» وقال سفيان الثوري عن عاصم بن أبي النجود عن وائل بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : تعدل شهادة الزور إشراك بالله ، ثم قرأ هذه الآية .

وقوله : «**حَنْفَاءَ اللَّهِ**» أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصدًا إلى الحق ، ولهذا قال : «**غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**» ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى ، فقال : «**وَمَنْ يَشْرُكُ بِاللهِ فَكَأْنَمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ**» أي سقط منها «**فَتَخْطُنَهُ الطَّيْرُ**» أي تقطعه الطيور في الهواء «أو تهوي به الريح في مكان سحيق» أي بعيد مهلك لمن هو فيه ، ولهذا جاء في حديث البراء : إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء ، فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحاً من هناك ، ثم قرأ هذه الآية ، وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم بحروفه وألفاظه وطريقه . وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام . وهو قوله : «**فَلَمَنْ دَعَوْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنَرَدْ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي**

(١) أخرجه البخاري في الاستتابة باب ١ ، ومسلم في الإيمان حديث ١٤٣ ، ١٤٤.

(٢) المستند ١٧٨/٤ ، ٢٣٣.

(٣) كتاب الشهادات باب ٣.

(٤) المستند ٣٢١/٤ ، ٣٢١.

استهونه الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى ﴿[الأنعام: ٧١] الآية﴾.

ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنْتَفِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ

يقول تعالى هذا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس: تعظيمها استحسمانها واستحسانها^(١). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشعج، حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ليلى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستحسان والاستحسان والاستعظام. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمون، رواه البخاري^(٢)، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفرا أحب إلى الله من دم سوداين» رواه أحمد^(٣) وابن ماجه، قالوا: والعفراء هي البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزيء أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ صحي بكشين أملحين أقرنين^(٤)، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ صحي بكش أقرن فحيل، يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد^(٥)، رواه أهل السنن وصححه الترمذى - أي فيه نكتة سوداء في هذه الأماكن.

وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ صحي بكشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوعين^(٦)، وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: صحي رسول الله ﷺ بكشين أقرنين أملحين موجوعين^(٧). قيل: هما الخصيان، وقيل اللذان رض خصيابهما ولم يقطعهما، والله أعلم.

وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نصحي بمقابلة ولا مداربة ولا شرقاء ولا خرقاء^(٨)، رواه أحمد وأهل السنن، وصححه

(١) انظر تفسير الطبرى ١٤٦/٩.

(٢) كتاب الأضاحى باب ٧.

(٣) المستند ٤١٧/٢.

(٤) أخرجه البخارى في الحج باب ١١٧، ١١٩، ١١٩، ومسلم في الأضاحى حديث ١٧، ١٨.

(٥) أخرجه أبو داود في الأضاحى باب ٣، والترمذى في الأضاحى باب ٤، والنمسائي في الضحايا باب ١٤، وابن ماجه في الأضاحى باب ٤.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الأضاحى باب ٤، وأحمد في المستند ٨/٦، ٣٩١.

(٧) أخرجه أبو داود في الأضاحى باب ٤، وابن ماجه في الأضاحى باب ١.

(٨) أخرجه أبو داود في الأضاحى باب ٦، والترمذى في الأضاحى باب ٦، والنمسائي في الضحايا باب ١٢ =

الترمذى ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نضحي بأعضب القرن والأذن^(١)، وقال سعيد بن المسيب: العضب النصف فأكثر، وقال بعض أهل اللغة: إن كسر قرنها الأعلى فهي قصماء، فاما العضب فهو كسر الأسفل، وعصب الأذن قطع بعضها. وعند الشافعى أن الأضحية بذلك مجزئة لكن تكره. وقال أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعصاب القرن والأذن لهذا الحديث. وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ وإنما أجزاء، والله أعلم.

وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة من مؤخر أذنها، والشرقاء هي التي قطعت أذنها طولاً، قاله الشافعى، وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمة أذنها خرقاً مدوراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز في الأضحى: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ظلّعها، والكسيرة التي لاتنقى»^(٢) رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذى، وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي لأن الشاء يسبونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث.

وأختلف قول الشافعى في المريضة مرضاً يسيراً على قولين، وروى أبو داود عن عتبة بن عبد السلامي أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة والمستأصلة والبخقاء والمشيعة والكسراء^(٣)، فالنصفرة قيل الهزيلة، وقيل المستأصلة الأذن، والمستأصلة مكسورة القرن، والبخقاء هي العوراء، والمشيعة هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها، والكسراء العرجاء، وهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء، فاما إن طرأ العيب بعد تعين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعى خلافاً لأبي حنيفة.

وقد روى الإمام أحمدر^(٤) عن أبي سعيد قال: اشتريت كبشًا أضحي به، فعدا الذئب فأخذ الألية، فسألت النبي ﷺ فقال: «صح به» ولهذا جاء في الحديث أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف

= ١٤ ، وابن ماجه في الأضحى باب ٨.

(١) أخرجه الترمذى في الأضحى باب ٩، وأبو داود في الأضحى باب ٦، والنمساني في الضحايا باب ١٢، وابن ماجه في الأضحى باب ٨، وأحمد في المسند ١/٨٣، ١٠٩، ١٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الأضحى باب ٥، والنمساني في الضحايا باب ٦، وابن ماجه في الأضحى باب ٨، والدارمى في الأضحى باب ٣، ومالك في الضحايا حديث ١، وأحمد في المسند ٤/٢٨٤، ٢٨٩، ٣٠١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأضحى باب ٦، وأحمد في المسند ٤/١٨٥.

(٤) المسند ٢/٣٢.

العين والأذن^(١)، أي أن تكون الهدية أو الأضحية سميّة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال: أهدي عمر نجيباً فأعطي بها ثلاثة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أهديت نجيباً فأعطيت بها ثلاثة دينار، فأبى لها وأشاري بشمنها بدنًا؟ قال: لا «انحرها إياها»^(٢) وقال الضحاك عن ابن عباس البدن من شعائر الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله: «لكم فيها منافع» أي لكم في البدن منافع من لبنيها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى. قال مقسم عن ابن عباس في قوله: «لكم فيها منافع إلى أجل مسمى» قال: ما لم تسم بدنًا. وقال مجاهد في قوله: «لكم فيها منافع إلى أجل مسمى» قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدنًا أو هدية ذهب ذلك كله، وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم. وقال آخرون: بل له أن يتفع بها وإن كانت هدية إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا يسوق بدنًا قال «اركبها» قال: إنها بدنًا. قال «اركبها ويبحك»^(٣) في الثانية أو الثالثة. وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجهت إليها»^(٤) وقال شعبة عن زهير عن أبي ثابت الأعمي عن المغيرة بن حذف عن علي أنه رأى رجلًا يسوق بدنًا ومعها ولدها فقال: لا تشرب من لبنيها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم التحر فاذبها ولدها.

وقوله: «ثم محلها إلى البيت العتيق» أي محل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: «هدياً بالغ الكعبة» [المائدة: ٨٥] وقال: «والهدى معكوفاً أن يبلغ محله» [الفتح: ٢٥] وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريباً، والله الحمد. وقال ابن جريج عن عطاء قال: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: «ثم محلها إلى البيت العتيق».

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ كَائِنِيْذِكْرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيَّةِ الْأَعْنَمِ فَإِنَّهُمْ إِلَهٌ وَحْدَهُ فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَشَرِّرُ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ إِذَا ذِكْرُ اللَّهِ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَصَدَرُّهُمْ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقْبِرُ

(١) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ٦، والترمذى في الأضاحي باب ٩، والنسائي في الضحايا باب ٨، ١١، وابن ماجه في الأضاحي باب ٨، وأحمد في المستند ١/٩٥، ١٠٥، ١٠٨، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في المتناسك باب ١٥، وأحمد في المستند ٢/١٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في الحج باب ١١٢، ومسلم في الحج حديث ٣٧١.

(٤) أخرجه مسلم في الحج حديث ٣٧٣.

الصَّلَاةُ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسب وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ قال: عيداً . وقال عكرمة: ذبحاً . وقال زيد بن أسلم في قوله: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها .

وقوله: ﴿لِذِكْرِهِ اسْمُ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكتابتين أملحين أقرنين، فسمى وكبر ووضع رجله على صفاهما^(١). وقال الإمام أحمد بن حنبل^(٢): حدثنا يزيد بن هارون، أبناؤنا سلام بن مسکین عن عائذ الله المجاشعي عن أبي داود - وهو نفيع بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال: قلت أو قالوا: يا رسول الله ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة قال فالصوف؟ قال «بكل شعرة من الصوف حسنة»^(٣) وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه من حديث سلام بن مسکین به .

وقوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أي معبدكم واحد وإن تنوّعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُهُ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وَبَشَّرَ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين . وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين . وقال السدي: الوجلين . وقال عمرو بن أوس: المخبتين الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا^(٤) . وقال الثوري ﴿وَبَشَّرَ السُّخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن بما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجْلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابُوهُمْ﴾ أي من المصائب .

قال الحسن البصري: والله لننصرن أو لنهلكن ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةُ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضاً وقرأ ابن السميق ﴿وَالْمُقِيمِنِ الصَّلَاةُ﴾ بالنصب وعن الحسن البصري ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةُ﴾ وإنما حذفت النون هنا تخفيفاً، ولو حذفت بالإضافة لوجب حفظ الصلاة ولكن على سبيل التخفيف، فنصبت، أي المؤذين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي باب ٩، ١٣، ١٤، ١٨، ومسلم في الأضاحي حديث ١٧، ١٨ .

(٢) المستند ٣٦٨ / ٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي باب ٣، والترمذى في الأضاحي باب ١ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ١٥١ / ٩ .

وأرقائهم وفقرائهم ومحاويعهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله كما تقدم تفسيره في سورة براءة^(١).

وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَّاتِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَتْ حُنُوبًا فَكُلُّوْهَا وَاطْعُمُوا الْقَانِيْنَ وَالْمُعَرَّى كَذَلِكَ سَخَنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ

يقول تعالى ممتناً على عباده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا أمين البيت الحرام﴾ [المائدة: ٢] الآية، قال ابن جريج، قال عطاء في قوله: ﴿وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَّاتِرِ اللَّهِ﴾ قال البقرة والبعير، وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري، وقال مجاهد: وإنما البدن من الإبل.

(قلت) أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تجزيء البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشتراك في الأضحى البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(٢). وقال إسحاق بن راهويه وغيره: بل تجزيء البقرة والبعير عن عشرة، وقد ورد به حديث في مسندي الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرهما، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة، وعن سليمان بن يزيد الكعبي عن هشام بن عمرو عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم، وإنها لتأتي يوم القيمة بقرونها وأظلالها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بممكان قبل أن يقع على الأرض، فطبيوا بها نفساً»^(٣) رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه، وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول لكم: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾. وعن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد» رواه الدارقطني في سننه. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع، وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن

(١) انظر تفسير الآيات ٦٧ - ٧٥ - ٧٩ من سورة براءة.

(٢) أخرجه مسلم في الحج حديث ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٣. والنسائي في الصحاح باب ١٦، وأحمد في المسند ٢٧٥١.

(٣) أخرجه الترمذى في الأضحى باب ١، وابن ماجه في الأضحى باب ٣.

جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحة، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنِي وعمن لم يُضْحَ منْ أُمّتي»^(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عباس عن جابر قال: ضَحَى رسول الله ﷺ بكشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحبتي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك عن محمد وأمته» ثم سمي الله وكبير وذبح^(٢).

وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشتري كشين سمينين أقرنين أملحين فإذا صلى وخطب الناس، أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه، فذبحة بنفسه بالمدبة، ثم يقول: «اللهم هذا عن أمتي جميعها: من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ» ثم يؤتى بالأخر فيذبحة بنفسه، ثم يقول «هذا عن محمد وأل محمد» فيطعمهما جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منها^(٣)، رواه أحمد وابن ماجه.

وقال الأعمش عن أبي طبيان عن ابن عباس في قوله: «فاذكروا اسم الله عليها صواف» قال: قياماً على ثلاثة قوائم، معقوله يدها اليسرى، يقول: باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله، اللهم منك ولك، وكذلك روي عن مجاهد وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو هذا. وقال ليث عن مجاهد: إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاثة، وروى ابن أبي نجيع عنه نحوه. وقال الضحاك: تعقل رجل واحدة ف تكون على ثلاثة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أanax بدنـه وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيدة، سنة أبي القاسم ﷺ^(٤)، وعن جابر أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقوله اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها، رواه أبو داود^(٥). وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار أن سالم بن عبد الله قال لسلامان بن عبد الملك: قف من شقها الأيمن وانحر من شقها الأيسر.

وفي صحيح مسلم عن جابر في صفة حجة الوداع قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثة

(١) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ٣، والترمذى في الأضاحي باب ٢٠، وأحمد في المستند ٣٥٦/٣ . ٣٦٢

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي باب ٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي باب ١ ، ٩ ، وأحمد في المستند ٣٩١ ، ٨ / ٦ . ٣٩٢

(٤) أخرجه البخاري في الحجج باب ١١٨ ، ومسلم في الحجج حديث ٢٧٩ ، ٢٨١ .

(٥) كتاب المناسبات باب ٢٠ .

وستين بذنة جعل بطنها بحرية في يده^(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود «صوافن» أي معقلة قياماً. وقال سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد من قرأها صوافن قال: معقوله، ومن قرأها صواف قال تصف بين يديها، وقال طاوس والحسن وغيرهما «فاذكروا اسم الله عليها صوافي» يعني خالصة الله عز وجل، وكذا رواه مالك عن الزهري. وقال عبد الرحمن بن زيد: صوافي ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: «فإذا وجبت جنوبها» قال ابن أبي نجيع عن مجاهد: يعني سقطت إلى الأرض، وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان وقال العوفي عن ابن عباس: فإذا وجبت جنوبها يعني نحرت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فإذا وجبت جنوبها، يعني ماتت، وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البذنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها. وقد جاء في حديث مرفوع «لا تعجلوا النفوس أن ترثق» وقد رواه الثوري في جامعه عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن فرافصة الحنفي، عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك، وبؤرده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، ولبيح أحدكم شفتره، ولبيح ذبيحته»^(٢) وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة»^(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه.

وقوله: «فكروا منها وأطعموا القانع والمعتر» قال بعض السلف: قوله: «فكروا منها» أمر إباحة. وقال مالك: يستحب ذلك، وقال غيره: يجب، وهو وجه لبعض الشافعية. واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر، فقال العوفي عن ابن عباس: القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل، وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: القانع المتعطف، والمعتر السائل، وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه. وقال ابن عباس وعكرمة وزيد بن أسلم وابن الكلبي والحسن البصري وقاتل بن حيان ومالك بن أنس: القانع هو الذي يقنع إليك ويسألك، والمعتر الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك، وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبير: القانع هو السائل، قال: أما سمعت قول الشماخ: [الوافر]

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ في صحيح مسلم.

(٢) أخرجه مسلم في الصيد حديث ٥٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ٢٤، والترمذى في الصيد باب ١٢، وابن ماجه في الصيد باب ٨، والدارمي في الصيد باب ٩، وأحمد في المسند ٢١٨/٥.

لِمَالِ الْمَرءِ يُضْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ أَعْفُ مِنَ الْقُنْوِعِ^(١)

قال: يعني من السؤال، وبه قال ابن زيد. وقال زيد بن أسلم: القانع المسكين الذي يطوف، والمعتر الصديق والضعف الذي يزور، وهو رواية عن ابنه عبد الله بن زيد أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك، والمعتر الذي يعتريك من الناس، وعنده: أن القانع هو الطامع، والمعتر هو الذي يعتري بالبدن من غني أو فقير، وعن عكرمة نحوه، وعنده: القانع أهل مكة، واختار ابن جرير أن القانع هو السائل، لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم. وقد احتاج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يصدق به على الفقراء، لأنه تعالى قال: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَ».

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلات، فكروا وادخرموا ما بدا لكم». وفي رواية «فكروا وادخرموا وتصدقوا». وفي رواية «فكروا وأطعموا وتصدقوا»^(٢). والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ النَّفِيرَ» [الحج: ٢٨] ولقوله في الحديث: فكروا وادخرموا وتصدقوا» فإن أكل الكل، فقيل: لا يضمن شيئاً، وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل يضمن نصفها وقيل ثلثها. وقيل أدنى جزء منها، وهو المشهور من مذهب الشافعية. وأما الجلود ففي مسند أحمد^(٣) عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي «فكروا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها ولا تبعوها» ومن العلماء من رخص في بيعها، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

[مسألة] عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمَنَا هَذَا أَنَّ

(١) البيت للشماخ في ديوانه ص ٢٢١، ولسان العرب (ضيع)، (قنع)، وتهذيب اللغة ١/٢٥٩، ٣/٧١، وجمهرة اللغة ص ٩٤٢، وكتاب العين ١/١٧٠، ومقاييس اللغة ٥/٣٣، وكتاب الجيم ٣/٧٨، وأساس البلاغة (فقر)، وحماسة البحتري ص ٢١٦، وبلا نسبة في لسان العرب (فقر)، (ضيع)، والمخصص ١٢/٢٨٧، ونتاج العروس (فقر)، (ضيع)، (كنع)، (حلف).

(٢) أخرجه البخاري في الأضاحي باب ١٦، ومسلم في الأضاحي حديث ٣٧، وأبو داود في الأضاحي باب ١، والترمذى في الأضاحي باب ١٤، والنمساني في الضحايا باب ٣٦، وابن ماجه في الأضاحي باب ١٦، وأحمد في المسند ٣/٢٣، ٤٨، ٦٦، ٦٣، ٥٧، ٤٨، ٣٨٨، ٨٥، ٣٥٥، ٧٥/٥، ٧٦، ٧٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٥١/٦.

(٣) المسند ٤/١٥.

نصلي، ثم نرجع فنتحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس هو من النسك في شيء^(١) آخر جاه، فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت ذبح الأضاحى إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في صحيح مسلم: وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام. وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع بالذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار لتيسير الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى لحديث جابر بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق كلها ذبح» رواه أحمد^(٢) وابن حبان.

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة، وبه قال إبراهيم النخعى وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وهو قول غريب. وقوله: «كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرنون» يقول تعالى من أجل هذا «سخرناها لكم» أي دللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شتم ركبتم، وإن شتم حلبتهم، وإن شتم ذبحتم، كما قال تعالى: «أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما علمت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون» - إلى قوله - «أفلا يشكرون» [يس: ٧١ - ٧٣] وقال في هذه الآية الكريمة: «كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرنون».

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لَحْوَهَا وَلَا دَمَاؤُهَا وَلَكِنَّ بَنَالَهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا اللَّهُ لِتُشَكِّرُوا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبِشَّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لذكره عند ذبحها، فإنه الحالى الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لأنهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ووضعوا عليها من دمائها، فقال تعالى: «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج قال: كان أهل الجahلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله ﷺ «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم» أي يتقبل ذلك ويجزى عليه، كما جاء في الصحيح «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى

(١) أخرجه البخاري في العيدين باب ٨، ١٠، ومسلم في الأضاحى حديث ٧.

(٢) المسند ٨٢/٤.

قلوبكم وأعمالكم^(١)). وجاء في الحديث «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم في الحديث، رواه ابن ماجه والترمذى، وحسنه عن عائشة مرفوعاً، فمعنى أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله وليس له معنى يتبارد عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم.

وقال وكيع عن يحيى بن مسلم أبي الضحاك: سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحي، فقال: «لن ينال الله لحومها ولا دمائها» إن شئت فبع، وإن شئت فامسك، وإن شئت فتصدق. قوله: «كذلك سخرها لكم» أي من أجل ذلك سخر لكم البدن «لتکبروا الله على ما هداكم» أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه. قوله: «وبشر المحسنين» أي وبشر يا محمد المحسنين أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربهم عز وجل.

[مسألة] وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً، واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبي هريرة مرفوعاً: «من وجد سعة فلم يضع، فلا يقربن مصلانا»^(٢) على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل، وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي، رواه الترمذى. وقال الشافعى وأحمد: لا تجب الأضحية بل هي مستحبة لما جاء في الحديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة» وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته، فأسقط ذلك وجوبها عنهم. وقال أبو سريحة: كنت جاراً لأبي بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما، وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محللة أو بيت، سقطت عن الباقي لأن المقصود إظهار الشعار.

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذى عن مخنف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيته في كل عام أضحة وعتيره، هل تدرؤن ما العتير؟ هي التي تدعونها الرجبية»^(٣) وقد تكلم في إسناده. وقال أبو أيوب: كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، فإذا كانوا ويطعمون حتى تباهى الناس، فصار كما ترى، رواه الترمذى وصححه وابن ماجه، وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله، رواه البخارى.

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٣، وابن ماجه في الزهد باب ٩، وأحمد في المستند ٢٨٥ / ٢، ٥٣٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي باب ٢، وأحمد في المستند ٣٢١ / ٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ٦، والترمذى في الأضاحي باب ١٨، وابن ماجه في الأضاحي باب ٢، وأحمد في المستند ٤٢١٥ / ٥، ٧٦.

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مسنة، إلا أن يعسر عليكم فذبحوا جذعة من الضأن»^(١) ومن هنال ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزيء، وقابلة الأوزاعي فذهب إلى أن الجذع يجزيء من كل جنس، وهو غريبان. والذي عليه الجمهور إنما يجزيء الثاني من الإبل والبقر والمعز، أو الجذع من الضأن، فأما الثاني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة، ومن البقر ما له ستة وستان ودخل في الثالثة، ويقال ما له ثلاثة ودخل في الرابعة، ومن المعز ما له ستة، وأما الجذع من الضأن فقيل ما له سنة، ويقال عشرة أشهر، ويقال ثمانية، ويقال ستة أشهر، وهو أقل ما قيل في سنة، وما دونه فهو حمل، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم. والجذع شعر ظهره نائم. قد انفرق صدعين والله أعلم.

إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانِ كُفُورٍ

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكتئلهم وينصرهم، كما قال تعالى: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدِهِ» [ال Zimmerman: ٣٦] وقال: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بِالْعَمَرِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» [الطلاق: ٣] وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانِ كُفُورٍ» أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال، والكفر الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ أُخْرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ بِعَيْرٍ حَقَّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِعَيْرٍ لَهُمْ أَنْتَصَرُوا صَوْمَعُ وَبَيْعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَسْتَرِّ إِنَّ اللَّهَ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

قال العوفي عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة^(٢). وقال مجاهد والضحاك، وغير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية. وقال ابن جرير^(٣): حدثني يحيى بن داود الواسطي، حدثنا إسحاق بن يوسف عن سفيان عن الأعمش عن مسلم هو البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير» قال

(١) أخرجه مسلم في الأضاحي حديث ١٣.

(٢) انظر تفسير الطبراني ١٦١/٩.

(٣) تفسير الطبراني ١٦١/٩.

أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قاتل.

وقال الإمام أحمد^(١) عن إسحاق بن يوسف الأزرق به، وزاد: قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال^(٢). ورواه الترمذى والنسائى في التفسير من سنتيهما وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف، زاد الترمذى ووكيع كلامهما عن سفيان الثورى به. وقال الترمذى: حديث حسن، وقد رواه غير واحد عن الثورى وليس فيه ابن عباس.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ قَاتَلٍ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قاتل، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الظَّنِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فَدَاءَ حَتَّىٰ تَضَعُّ الْحَرَبُ أَوْزَارُهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تُنْصَرُ مِنْهُمْ وَلَكُنْ لَيَلِلُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يَضُلَّ أَعْمَالُهُمْ سَيِّدُهُمْ يَهْدِيهِمْ وَيَصْلِحُ بَالَّهُمْ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرْفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦] وقال تعالى: ﴿فَاتَّلُوْهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَخْرُجُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفُعُ صَدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبه: ١٤ - ١٥] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَرْكُوا وَلَمَا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَجْهَهُ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [التوبه: ١٦] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال: ﴿وَلَنَبْلُونَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] والآيات في هذا كثيرة.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِ الْمُقْدِيرُ﴾ وقد فعل، وإنما شرع تعالى للجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمين وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ. وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي، يعنيون أهل مني، ليالي مني فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر بهذا» فلما بعث المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله، وشدروا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وأخرون إلى المدينة، فلما استقرروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجأون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَدْنِ لِلَّذِينَ يَقْاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِ الْمُقْدِيرُ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني محمداً وأصحابه

(١) المسند ٢١٦.

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٢٢، باب ٤، ٥، والنسائى في الجهاد بباب ١.

﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقْمَدُ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ١٥] ولهذا لما كان المسلمون يرتجوزون في بناء الخندق ويقولون:

[رجز]

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدِينَا
فَأَنْزَلْنَاهُ سَكِينَةً عَلَيْنَا
إِنَّ الْأَلْى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا
فَيَوْمَ قُهْقِهَةِ رَسُولُ اللَّهِ وَيَقُولُ مَعَهُمْ أَخْرُ كُلِّ قَافِيَةٍ، إِنَّمَا قَالُوا:
* إِذَا أَرَادُوا فَتَنَّةَ أَيْنَ * *

يقول: أبينا يمد بها صوته، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي لو لا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكتف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدة الأرض والأهلk القوي الضعيف ﴿لَهُدَمَتْ صَوَامِعَ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجروس، وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق ﴿وَبَيْع﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر وقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم. وحكى ابن جبیر عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود، وحكى السدي عن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى. وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب والأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي لل المسلمين. قوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقال

وقوله: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها صلوتا^(١). وحكى السدي عن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى. وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب والأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي لل المسلمين. قوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقال

(١) الرجز لعبد الله بن رواحة في ديوانه ص ١٠٨ ، ولعامر بن الأكوع في المقاصد النحوية ٤/٤٥١ ، وله أو عبد الله في الدرر ٤/٢٣٦ ، وشرح شواهد المغني ١/٢٨٧ ، وبلا نسبة في الأزهية ص ١٦٧ ، وشرح الأسموني ٣/٥٩٣ ، وشرح المفصل ٣/١١٨ ، وهمع الهوامع ٢/٤٣ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٩/١٦٥ .

ابن جرير^(١): الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عمراً وأكثر عباداً وهم ذو الفهد الصحيح.

وقوله: «ولينصرن الله من ينصره» كقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم» [محمد: ٧ - ٨]. وقوله: «إن الله لقوى عزيز» وصف نفسه بالقوة والعزّة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرأً، وبعزته لا يقهـرهـ قـاهرـ ولا يعلـبهـ غالـبـ، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصـرهـ فهو المنصور وعدوه هو المقهـورـ، قال الله تعالى: «ولقد سبقت كلمتنا لـعبادـنا المرسلـينـ إنـهمـ لهمـ المنصورـونـ وإنـ جـنـدـناـ لـهـمـ الغـالـبـونـ» [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] وقال تعالى: «كتب الله لأغلـبـنـ أناـ ورـسـليـ إنـ اللهـ لـقـوىـ عـزـيزـ» [المجادلة: ٢١].

الذين إِنْ مَكَثُوكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوكُمُ الصَّلَاةَ وَأَتُوكُمُ الزَّكَوَةَ وَأَمْرُوكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلِلَّهِ عَنِّيـةـةـ الـأـمـرـ

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الريبع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فيما نزلت «الذين إِنْ مَكَثُوكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوكُمُ الصَّلَاةَ وَأَتُوكُمُ الزَّكَوَةَ وَأَمْرُوكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» فآخر جـنـدـناـ بـغـيرـ حقـ إلاـ أنـ قـالـناـ: ربـناـ اللهـ ثـمـ مـكـنـاـ فـيـ الـأـرـضـ، فـأـقـمـنـاـ الصـلـاـةـ وـأـتـيـنـاـ الزـكـاـةـ، وـأـمـرـنـاـ بـالـمـعـرـفـ، وـنـهـيـنـاـ عـنـ الـمـنـكـرـ، وـلـهـ عـاقـبةـ الـأـمـرـ فـهيـ لـيـ وـلـأـصـحـابـ. وقال أبو العالية: هـمـ أـصـحـابـ محمدـ

وقال الصباح بن سوادة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: «الذين إِنْ مَكَثُوكُمْ فِي الْأَرْضِ» الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم ألا يؤخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ بعضكم من بعض، وأن يهدىكم لـتـيـ هـيـ أـقـومـ ماـ اـسـطـاعـ، وـإـنـ عـلـيـكـمـ مـنـ ذـلـكـ الطـاعـةـ غـيرـ المـبـرـوزـةـ وـلـاـ مـسـكـرـهـ بـهـ، وـلـاـ مـخـالـفـ سـرـهاـ عـلـانـيـتهاـ. وقال عطيـةـ العـوـفـيـ: هذه الآية كـوـلـهـ: «وـعـدـ اللهـ الذـينـ آمـنـواـ مـنـكـمـ وـعـمـلـواـ الصـالـحـاتـ لـيـسـخـلـفـنـهـمـ فـيـ الـأـرـضـ» [النور: ٥٥] وـقـوـلـهـ: «وـلـهـ عـاقـبةـ الـأـمـرـ» كـوـلـهـ تعالىـ: «وـالـعـاقـبةـ لـلـمـتـقـنـينـ» [القصص: ٨٣]. وقال زيد بن أسلم «وـلـهـ عـاقـبةـ الـأـمـرـ» وـعـنـدـ اللهـ ثـوابـ ماـ صـنـعـواـ.

وَإِن يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَابُ مَدْيَنٍ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ لَمْ أَخْذُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ كَيْرٌ فَكَائِنٌ مِنْ قَرِيقَةٍ أَهْلَكَنَاها وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبَرِّ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ إِدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْنَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْنَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالقه من قومه: «وَإِن يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ» - إلى أن قال - «وَكَذَّبَ مُوسَى» أي مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات «فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ» أي أنظرتهم وأخرتهم، «ثُمَّ أَخْذُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ كَيْرٌ كَذَّبَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمَعَاقِبِي لَهُمْ؟! وَذَكَرَ بَعْضُ السَّلْفِ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ قَوْلِ فَرَعُونَ لِقَوْمِهِ: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، وَبَيْنَ إِهْلَكَ اللَّهِ لَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً.

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» ثم قرأ «وَكَذَّلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرْبَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»^(١) ثم قال تعالى: «فَكَائِنٌ مِنْ قَرِيقَةٍ أَهْلَكَنَاها» أي كم من قرية أهلكتها «وَهِيَ ظَالِمَةٌ» أي مكذبة لرسلها «فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» قال الصحاح: سقوفها، أي قد خربت وتعطلت حواضرها «وَبَرِّ مُعَطَّلَةٍ» أي لا يستقي منها، ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها «وَقَصْرٌ مَشِيدٌ» قال عكرمة يعني المبيض بالجص، وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك. وقال آخرون: هو المنيف المرتفع. وقال آخرون: المشيد المنبع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصاته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى: «أَيُّنَّا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بِرْوَجٍ مَشِيدَةٍ» [هود: ١٠٢].

وقوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» أي بأيديهم وبفكيرهم أيضاً، وذلك كاف كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكير والاعتبار: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سح في الأرض، ثم اطلب الآثار والعبور، حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا. وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أحى قلبك بالمواعظ، ونوره بالتفكير، وموته بالزهد، وقوه باليقين، وذله بالموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذرته صولة الدهر وفحش تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٥، ومسلم في البر حديث ٦٢، والترمذني في تفسير سورة ١١، باب ٢.

كان قبله، وسيره في ديارهم وأثارهم، وانظر ما فعلوا وأين حلواً وعم انقلبوا، أي فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال.

﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي فيعتبرون بها «فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور» أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصرة، وإن كانت القوة البصرية سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدرى ما الخبر، وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الأندلسى الشترى، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

نادى به الناعيان الشيبُ والكُبُرُ
في رأسك الوعيان السمعُ والبصرُ
لم يهدِه الهدِيان العينُ والأَثَرُ
أعلىَ ولا النيرانُ الشمْسُ والقمرُ
فراقها الثاويان الْبَدُوُّ والحضرُ
يا من يُصِيخُ إِلَى داعيِ الشقاءِ وَقَدْ
إِنْ كُنْتَ لَا تسمعُ الذُّكْرَ فَقِيمُ تُرِي
لِيسُ الْأَصْمَمُ وَلَا الْأَعْمَى سُوِيْ رَجُلٌ
لَا الدهرُ يَقِنُ وَلَا الدُّنْيَا وَلَا الْفَلَكُ إِلَّا
لِيَرْحَلُنَّ عَنِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَرِهَا

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلُفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَافِلٌ سَنَةً مَمَّا تَعْدُونَ
وَكَائِنٌ مِّنْ قَرِيبٍ أَمْ لَيْتَ هَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخْذَتْهَا وَإِنَّ الْمَصِيرُ
إِلَيْكَ

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ» أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتُنَا بِعِذَابَ أَلِيمٍ» [الأناضول: ٣٢] «وَقَالَوْ رَبُّنَا عَجَلْ لَنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» [ص: ١٦]. قوله: «وَلَنْ يَخْلُفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» أي الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه. قال الأصمسي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاءه عمرو بن عبيد فقال: يا أبي عمرو، هل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا، فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لوماً، وعن الإيعاد كرماً، أما سمعت قول الشاعر: [الطويل]

وَلَا يَرْهَبُ ابنَ الْعَمِّ وَالْجَارَ سَطْوَتِي
فَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتَهُ أَوْ وَعَدْتَهُ لِمَخْلُفٍ إِيْعَادِي وَمِنْجُزٍ مَوْعِدِي
وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَافِلٌ سَنَةً مَمَّا تَعْدُونَ» أي هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه

(١) البيتان لعامر بن الطفيلي في ديوانه ص ٥٨، ولسان العرب (ختا)، (وعد)، (ختا)، وتابع العروس (ختا)، وبلا نسبة في إنباه الرواة ٤/١٣٩، ومراتب التحويين ص ٣٨، وتابع العروس (وحد).

لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأملئ ، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَائِنٌ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخْذَتْهَا وَإِلَيْهِ الْمُصِير﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسينأة عام»^(١) ورواه الترمذى والنسائي من حديث الشورى عن محمد بن عمرو به ، وقال الترمذى: حسن صحيح . وقد رواه ابن جرير^(٢) عن أبي هريرة موقوفاً فقال: حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا سعيد الجريري عن أبي نصرة عن سمير بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم ، قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال أو ما تقرأ القرآن؟ قلت ، بلى ، قال: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ﴾.

وقال أبو داود^(٣) في آخر كتاب الملاحم من سنته: حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّي لأرجو أن لا تعجز أمتى عند ربيها أن يؤخرهم نصف يوم» قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسينأة سنة . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسرائيل عن سمّاك ، عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض . ورواه ابن جرير عن ابن شمار عن ابن المهدى ، وبه قال مجاهد وعكرمة ، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية ، وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يرجع إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعودون» [السجدة: ٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ، حدثنا عارم محمد بن الفضل ، حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن عتيق عن محمد بن سيرين ، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ﴾ وجعل أجل الدنيا ستة أيام ، وجعل الساعة في اليوم السابع ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ﴾ . فقد مضت الستة الأيام وأنتم في اليوم السابع فمثل ذلك كمثل الحال إذا دخلت شهرها ففي آية لحظة ولدت كان تماماً^(٤).

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

(١) أخرج الترمذى في الزهد باب ٣٧ ، وابن ماجه في الزهد باب ٦ .

(٢) تفسير الطبرى ١٧١/٩ .

(٣) كتاب الملاحم باب ١٨ ، وأخرجه أحمد في المسند ١/١٧٠ .

(٤) انظر الدر المشور ٤/٦٥٩ .

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ سَعَواً فِي أَيَّاتِنَا مَعَاجِزِنَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به «قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين» أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم، بين يدي عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء آخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار «لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب» [الرعد: ٤١] « وإنما أنا لكم نذير مبين فالذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم «لهم مغفرة ورزق كريم» أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم. قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: «ورزق كريم» فهو الجنة.

قوله: «والذين سعوا في آياتنا معاجزين» قال مجاهد: يبطرون الناس عن متابعة النبي ﷺ، وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين. وقال ابن عباس: معاجزين مراغمين «أولئك أصحاب الجحيم» وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون» [النحل: ٨٨].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيًّا إِلَّا ذَنَبَ فِي أَنْفُسِهِ فَإِنَّمَا نَهَا
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ شَرٌّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْكَتْهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكْمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً
لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ وَالْفَاسِدَةُ قَوْلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شَقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٢﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا
الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيَرْمُوا بِهِ فَتَحْسَبَ لَهُمْ عَزَّعٌ وَلَمْ يَلْفِتُهُمْ وَلَمْ يَأْتُوا إِلَيْنَا مُسْكِنٌ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٣﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرانيق^(١)، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فلما بلغ هذا الموضع «أفرأيتم اللات والعزى ومنة الثالثة الأخرى» [النجم: ١٩ - ٢٠] قال: فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلي وأن شفاعتهن ترجى، قالوا: ما ذكر الله بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي إلا إذا ذنبنا

(١) الغرانيق: في الأصل الذكور في طيور الماء، واحدتها: غرناوق، سمي الطائر به لياضه، وكان العرب يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع.

ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله علیم حکیم» .

رواه ابن حجرير^(١) عن بندار عن غندر عن شعبة به بنحوه، وهو مرسلاً، وقد رواه البزار في مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب الشك في الحديث، أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة النجم حتى انتهى إلى «أَفَرَأَيْتَ الْلَّاتِ وَالْعَزِيزَ» وذكر بقيتها، ثم قال البزار: لا نعلمه يروى متصلة إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور، وإنما يروى هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ثم رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية وعن السدي مرسلاً، وكذا رواه ابن حجرير عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس مرسلاً أيضاً.

وقال قتادة: كان النبي ﷺ يصلی عند المقام إذ نعس، فألقى الشيطان على لسانه وإن شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلي، فحفظها المشركون وأجرى الشيطان أن النبي ﷺ قد قرأها: فذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله ﷺ **«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ** الآية، فدحر الله الشيطان.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آهتنا بخير أقرناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آهتنا من الشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ أشد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم، فكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله سورة النجم قال: «أَفَرَأَيْتَ الْلَّاتِ وَالْعَزِيزَ وَمِنَةَ الْثَالِثَةِ الْأُخْرَى الْكَمَ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأَثْنَى» [النجم: ١٩ - ٢٠] ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: وإنهن لهن الغرانيق العلي، وإن شفاعتهن لهي التي ترجى، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقدت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك.

غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع على كفه تراباً فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين، فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم آهتهم، ففشت تلك الكلمة في

الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة، فأقبلوا سرعاً، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحکم الله آياته وحفظه من الفريدة، وقال الله: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحکم الله آياته والله علیم حکیم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذین فی قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمین لفی شفاق بعيد» فلما بين الله قضاءه، وبرأه من سبع الشيطان، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين، واشتدوا عليهم، وهذا أيضاً مرسل.

وفي تفسير ابن جریر عن الزہری عن أبي بکر بن عبد الرحمن بن العارث بن هشام نحوه، وقد رواه الحافظ أبو بکر البیهقی في كتابه دلائل النبوة، فلم يجز به موسی بن عقبة ساقه من مغازیه بنحوه، قال: وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة.

(قلت) وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومتقطعتات، والله أعلم. وقد ساقها البغوي في تفسيره مجموعة من کلام ابن عباس ومحمد بن کعب القرظی وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأله هنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حکی أجویة عن الناس من ألطافها أن الشیطان أوقع في مسامع المشرکین ذلك فنوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنیع الشیطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم.

ووهكذا تنوّعت أجویة المتكلمين عن هذا بتقدیر صحته. وقد تعرض القاضي عیاض رحمه الله في كتاب الشفاء لهذا، وأجاب بما حاصله أنها كذلك لشبوتها. وقوله: «إلا إذا تمنى ألقى الشیطان في أمنيته» هذا فيه تسليمة من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، أي لا يهیدنك ذلك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلین والأنبیاء.

قال البخاری^(۱): قال ابن عباس «في أمنيته» إذا حدث ألقى الشیطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشیطان «ثم يحکم الله آياته». قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «إذا تمنى ألقى الشیطان في أمنيته» يقول: إذا حدث ألقى الشیطان في حديثه. وقال مجاهد «إذا تمنى» يعني إذا قال، ويقال أمنيته قراءته «إلا أمانی» يقولون ولا يكتبون. قال البغوي وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: «تمنی» أي تلا وقرأ كتاب الله «وألقى الشیطان في أمنيته» أي في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل: [الطویل]

تمنی کتاب الله أول لیلةٍ وآخرها لاقی حمام المقادیر^(۲)

(۱) كتاب التفسير، تفسير سورة ۲۲، في الترجمة.

(۲) البيت لحسان بن ثابت في تفسير البحر المحيط ۳۸۲/۶، وليس في دیوانه، وبلا نسبة في لسان العرب =

وقال الضحاك: «إذا أتمنى» إذا تلا. قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام. وقوله «فينسخ الله ما يلقي الشيطان» حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: «والله علیم» أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفي عليه خافية «حکیم» أي في تقديره وخلقه وأمره، له الحکمة التامة والمحجة البالغة، ولهذا قال: «ليجعل ما يلقي الشیطان فتنۃ للذین فی قلوبہم مرض» أي شک وشرك وكفر ونفاق، كالمرشکین حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشیطان. قال ابن جریح: «الذین فی قلوبہم مرض» هم المنافقون، «والقاسیة قلوبہم» هم المرشکون.

وقال مقاتل بن حیان: هم اليهود «وإن الظالمين لفی شاقق بعيد» أي في ضلال ومخالفۃ وعناد بعيد، أي من الحق والصواب، «وليعلم الذین أتوا العلم أنه الحق من ربک فیؤمّنا به» أي وليعلم الذین أتوا العلم النافع الذي يفرقوں به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحیناه إليک هو الحق من ربک الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به وغيره بل هو كتاب حکیم «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزیل من حکیم حمید».

وقوله: «فیؤمّنا به» أي يصدقونه وينقادوا له، «فتختب لـه قلوبہم» أي تخضع وتذلل له قلوبہم، «وإن الله لهاد الذین آمنوا إلى صراط مستقیم» أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدھم إلى الحق واتباعه ويوفیھم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهدیھم الصراط المستقیم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحرجھم عن العذاب الأليم والدرکات.

وَلَا يَرَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي حَرَيْثَةٍ مِّنْهُ حَقَّ تَأْلِيمُهُمُ السَّاعَةُ بَعْتَدَهُ أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقْيِمٍ ۝
الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّتَ النَّعِيمِ ۝
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا إِعْلَيْنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمُّ ۝

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مريء، أي في شك من هذا القرآن، قاله ابن جریح واختاره ابن جریر^(١). وقال سعید بن جبیر وابن زید منه، أي مما ألقى الشیطان «حتى تأتیھم الساعۃ بعنة» قال مجاهد: فجأة، وقال قنادة «بعثة» بعثت القوم أمر الله وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسدون.

= (من)، ومقاييس اللغة ٥/٢٧٧، وكتاب العین ٨/٣٩٠، ونجاج العروس (من).

(١) تفسیر الطبری ٩/١٨٠.

وقوله: «أو يأتهيم عذاب يوم عقيم» قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير. قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهم: هو يوم القيامة، لا ليل له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: «الملك يوئذ الله يحكم بينهم» قوله: «مالك يوم الدين» [الفاتحة: ٤].

وقوله: «الملك يومئذ الحق للرحمٰن وكان يوماً على الكافرين عسيراً» [الفرقان: ٢٦] «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» أي كفرت قلوبهم بالحق وجدوا به، وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكروا عن اتباعهم «فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ» أي مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيِّدِ الْخَلُونَ جَهَنَّمْ دَاخِرِينَ» [غافر: ٦] أي صاغرين.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا إِلَيْرِزَقْنَاهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلًا يَرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَوَقَ بِهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ

يخبر تعالى عن خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلبًا لما عنده، وترك الأوطان والأهليين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ثم قتلوا، أو في الجهاد، أو ماتوا أي حتف أنفسهم أي من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزييل والثناء الجميل، كما قال تعالى: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» [النساء: ١٠٠]. قوله: «لِيَرْزَقْنَاهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا» أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلًا يَرْضُونَهُ» أي الجنة كما قال تعالى: «فَأُمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ فَرْوَحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ» [الواقعة: ٨٨] - ٨٩ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرِّزق وجنة النعيم، كما قال ههنا: «لِيَرْزَقْنَاهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا» ثم قال «لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلًا يَرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ» أي بمن يهاجر وي jihad في سبيله وبين من يستحق ذلك «حَلِيمٌ» أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنب، ويکفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه.

فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربِّه يرزق كما قال تعالى: «وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزَقُونَ» [آل عمران: ١٦٩]

والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم، وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن ابن الحارث - يعني عبد الكريما - عن ابن عقبة يعني أبو عبيدة بن عبد الرحمن قال: قال حدثنا شرحبيل بن السمط: طال رياطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بي سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مربطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفتانيين، واقرئوا إن شتم ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرني همام أنه سمع أبو قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان: كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنباري صاحب رسول الله ﷺ، فمر بجنازتين إحداهما قتيل، والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفريهما بعثت؟ اسمعوا كتاب الله ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا﴾ حتى بلغ آخر الآية.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أبأنا ابن لهيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشعbanي أن عبد الرحمن بن جحdm الخولاني حدثه أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين أحدهما أصيب بمنجنيق، والآخر متوفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفريهما بعثت إن الله يقول: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً﴾ الآيتين. فما تبتغي أيها العبد إذا دخلت مدخلاً ترضاه، ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالي من أي حفريهما بعثت.

ورواه ابن جرير^(١) عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب، أخبرني عبد الرحمن بن شريح عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأربع، فخرج بجنازتي رجلين، أحدهما قتيل والآخر متوفي، فذكر نحو ما تقدم. وقوله: «ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به» الآية، ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لثلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم، فقاتلتهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿إن الله لغفور لغفور﴾.

ذَلِكَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِوَلْجِ الْيَلَى فِي النَّهَارِ وَبِوَلْجِ النَّهَارِ فِي الْأَيَّلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
 ذَلِكَ يَأْتِيَ اللَّهُ هُوَ الْعَزُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُورِهِ هُوَ الْبَطَلُ وَأَنَّ اللَّهُ هُوَ أَعْلَى
 الْكَبِيرِ ﴿٢﴾

يقول تعالى منبهًا على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكِ
 الْمُلْكِ تَؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَعْزِيزُ
 إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تَوْلِيجُ الْلَّيلِ فِي النَّهَارِ وَتَوْلِيجُ النَّهَارِ فِي
 الْلَّيلِ وَتَخْرُجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيْتِ وَتَرْزُقُ مِنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل في
 النهار والنهر في الليل إدخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار
 كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع بأقوال عباده. بصير بهم، لا يخفى عليه منهم
 خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ولما بين أنه المتصروف في الوجود، الحاكم الذي لا
 معقب لحكمه قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي الإله الحق الذي لا تبني العبادة إلا له، لأنَّه ذو
 السلطان العظيم الذي ما شاء كان، وما لم يشاً لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وَأَنَّ
 مَا يَدْعُونَ مِنْ دُورِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى
 فهو باطل، لأنَّه لا يملك ضرًا ولا نفعًا. قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ كما قال ﴿وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته،
 لا إله إلا هو، ولا رب سواه، لأنَّه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير
 الذي لا أكبر منه، تعالى وتنزه عزوجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَسِيرٌ ﴿٣﴾
 لَهُ مَا
 فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنَىُ الْحَمِيدُ ﴿٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَحَرَ لَكُمْ مَا فِي
 الْأَرْضِ وَأَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِيَ
 لَهُوَ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُحِيِّكُمْ إِنَّ الْإِنْسَنَ لَكَفُورٌ ﴿٦﴾

وهذا أيضًا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتشير سحاباً فيمطر على
 الأرض الجرز التي لا بذات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء ممحلة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْها الماءَ
 اهتزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]. قوله: ﴿فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ الفاء هنا للتعقيب، وتعقيب
 كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مُضَغَةً﴾ [المؤمنون:
 ١٤] الآية، وقد ثبت في الصحيحين أنَّ بين كل شيئين أربعين يوماً^(١)، ومع هذا هو معقب

(١) انظر الحديث بلفظه مع تخرجه عند تفسير الآية الخامسة من سورة الحج.

بالفاء، وهكذا ههنا قال ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحولها. وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، ولا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿ألا يسجدوا الله الذي يخرج الخبر في السموات والأرض﴾ [النمل: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمهها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ [يونس: ٦١] ولهذا قال أمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل في قصيده: [الطوبل]

وقولا له من ينتدح في البر في الشري؟
فيصبح منه البقل يهتز رايها
ويخرج منه حبه في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه عبد لديه، وقوله: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أي من حيوان وجمامد وزروع وثمار، كما قال: ﴿وسرح لكم ما في السموات وما في الأرض جمِيعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣] أي من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿والfolk تجري في البحر بأمره﴾ أي بتسخيره وتسييره، أي في البحر العجاج وتلطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إن الله بالناس لرعوف رحيم﴾ أي مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾ كقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكتتم أمواتاً فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ [البقرة: ٢٨]. وقوله: ﴿فل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه﴾ [الجاثية: ٢٦]. وقوله: ﴿قالوا ربنا أمنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون الله أنداداً وتبعدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصريف ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ أي يوم القيمة ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أي جحود.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكَأً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَزِّعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ عَلَى هُدَىٰ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، قال ابن جرير^(١): يعني لكل أمة نبي منسكاً، قال: وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر، قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتردد الناس إليها وعكرفهم عليها، فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً، فيكون المراد بقوله فلا ينazuنك في الأمر أي هؤلاء المشركين، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكاً جعلاً قدرياً كما قال: «ولكل وجهة هو موليها» [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هنا: «هم ناسكوه» أي فاعلوه، فالضمير هنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: «وادع إلى ربك إنك
على هدى مستقيم» أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصد، وهذا كقوله:
«ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك» [القصص: ٨٧].

وقوله: «وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون». قوله: «وإن كذبواك فقل لي عملي
ولكم عملكم أنت بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون» [يونس: ٤١]. قوله: «الله أعلم
بما تعملون» تهديد شديد ووعيد أكيد، قوله: «هو أعلم بما تفتقرون فيه كفى به شهيداً بيّني
وبينكم» [الاحقاف: ٨] ولهذا قال: «الله يحكم بينكم يوم القيمة فيما كتم فيه تختلفون»
وهذه كقوله تعالى: «فلذلك فادع واستقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله
من كتاب» [الشورى: ١٥]. الآية.

أَنَّهُ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى على علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(٢).

(١) تفسير الطبرى ١٨٥/٩.

(٢) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٦. ولفظه: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض».

وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال و ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجري القلم بما هو كائن إلى يوم القيمة»^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن بكر، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى: اكتب، فقال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم الساعة، فجري القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيمة، فذلك قوله للنبي ﷺ: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علمًا، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: «إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُزِيلْ يَهُ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُ يَهُ عِلْمٌ وَمَا لِظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧﴾ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ مَا يَنْتَنِي بَيْنَتَنِي تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الظَّالِمِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَلَوَّنُ عَلَيْهِمْ مَا يَنْتَنِي قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ يَشْرِّي مِنْ ذَلِكُمُ الْأَنَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الظَّالِمِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوه وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني حجة وبرهاناً، قوله: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابَهُ عَنْ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يَفْلُحُ الْكَافِرُونَ» [المؤمنون: ١١٧] ولهذا قال ه هنا: «مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ» أي ولا علم لهم فيما اختلقوا واتفقوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم.

ولهذا توعدهم تعالى بقوله: «وَمَا لِظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال، ثم قال: «وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيْنَاتٍ» أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسلي الكرام حق وصدق «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَلَوَّنُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسيطرون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء «قُلْ» أي يا محمد لهؤلاء «أَفَأَنْتُمْ كُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَلِكُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الظَّالِمِينَ كَفَرُوا» أي النار وعذابها

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٦ ، والترمذمي في القدر باب ١٧ ، وتفسير سورة ٦٨ ، وأحمد في المسند . ٢١٧/٥

ونكالها أشد وأشق وأظم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تناولون منهم إن نلتكم بزعمكم وإرادتكم قوله: «وبش المصير» أي وبئس النار مقيلاً ومنزلًا ومرجعاً وموئلاً ومقاماً «إنها ساءت مسترداً ومقاماً» [الفرقان: ٦٦].

يَتَأْيَهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثْلُ فَاسْتَمْعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ أَحْجَمُمُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلِبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقْدِدُهُ وَمَنْهُ ضَعْفَكَ الظَّالِمُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌ عَزِيزٌ

يقول تعالى منهاً على حقاره الأصنام وسخافة عقول عابديها «يا أيها الناس ضرب مثل» أي لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به «فاستمعوا له» أي أنصتوا وتفهموا «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له» أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك.

كما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة». وأخرجه صاحبا الصحيح من طريق عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»^(٢).

ثم قال تعالى أيضاً: «وَإِنْ يَسْلِبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقْدِدُهُ مِنْهُ» أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والإنتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقها، ولهذا قال: «ضعف الطالب والمطلوب» قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق.

وقال السدي وغيره: الطالب العابد، والمطلوب الصنم، ثم قال: «ما قدروا الله حق قدره» أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌ عَزِيزٌ» أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء «وَهُوَ الَّذِي يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْيِدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ» [الروم: ٢٧] «إِنْ بَطَشْ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعْيِدُ» [البروج: ١٢ - ١٣] «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّиِّنِ» [الذاريات: ٥٨]. قوله: «عزِيزٌ» أي قد عز كل شيء فقهه وغله، فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

(١) المسند ٣٩١ / ٢.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس باب ٩٠، والتوحيد باب ٥٦، ومسلم في اللباس حديث ١٠١.

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته «إن الله سميع بصير» أي سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بما يستحق ذلك منهم، كما قال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» [الأنعام: ١٢٤]، قوله: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور» أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفي عليه شيء من أمورهم، كما قال: «عالم الغيب فلا يظهر على غبيه أحداً» - إلى قوله - «وأحصى كل شيء عدداً» [الجن: ٢٨] فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس» [المائدة: ٦٧] الآية.

يَتَائِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَأَسْجَدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَفَعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وَجَاهُدُوا فِي الْحَقِّ حِمَاكِدَهُ هُوَ اجْتَبَيْكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلَّهُ أَيْكُمْ إِنَّ رَهْبَمْ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ فَاقِمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكُوَةَ وَأَعْصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَدُكُمْ فَتَعْمَلُ الْمُؤْمِنُ وَنَعْمَلُ النَّاصِيرُ ﴿٢﴾

اختلاف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها، أم لا؟ على قولين، وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ «فصلت سورة الحج بسجدين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»^(١). قوله: «وجاهدوا في الله حق جهاده» أي بأموالكم وأسلحكم وأنفسكم، كما قال تعالى: «اتقوا الله حق تقانه» [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: «هو اجتباك» أي يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلتم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكم شرع «وما جعل عليكم في الدين من حرج» أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومحاجاً، فالصلوة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى اثنين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتصلى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعدر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال عليه السلام: «بعثت

(١) أخرجه الترمذى في الجمعة باب ٥٤، وأحمد في المسند ١٥١ / ٤، ١٥٢.

بالحنينية السمححة»^(١) وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن «بُشّراً ولا تنفراً ويسّراً ولا تعسّراً»^(٢)، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: «وما جعل عليكم في الدين من حرج» يعني من ضيق.

وقوله: «ملة أبيكم إبراهيم» قال ابن جرير^(٣): نصب على تقدير «ما جعل عليكم في الدين من حرج» أي من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم. «قلت» وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: «قل إني هداني ربِّي إلى صراط مستقيم ديناً قياماً ملة إبراهيم حنيفاً» [الأنعام: ١٦١] الآية، وقوله: «هو سماكم المسلمين من قبل» وفي هذا قال الإمام عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله: «هو سماكم المسلمين من قبل» قال: الله عز وجل، وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «هو سماكم المسلمين من قبل» يعني إبراهيم، وذلك قوله: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» [البقرة: ١٢٨] قال ابن جرير: وهذا لا وجه له، لأنَّه من المعلوم أنَّ إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: «هو سماكم المسلمين من قبل ونِي هذا» قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، «وفي هذا» يعني القرآن، وكذا قال غيره.

(قلت) وهذا هو الصواب، لأنَّه تعالى قال: «هو اجتباك وما جعل عليكم في الدين من حرج» ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منتهِ تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتلى على الأخبار والرهبان، فقال: «هو سماكم المسلمين من قبل» أي من قبل هذا القرآن «وفي هذا» روى النسائي عند تفسير هذه الآية: أباً شام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أباً شام معاوية بن سلام أنَّ أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبي سلام أنه أخبره، قال: أخبرني الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جهنم» قال رجل: يا رسول الله ﷺ وإن صام وصلى؟ قال «نعم وإن صام وصلى» فادعوا بدعاوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله، وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم

(١) آخرجه أحمد في المسند ٥/٢٦٦، ٦/١١٦، ٢٢٣.

(٢) آخرجه البخاري في الجهاد باب ١٦٤، والمغازي باب ٦٠، والأدب باب ٨٠، والأحكام باب ٢٢، ومسلم في الجهاد حديث ٧١، وأبو داود في الأدب باب ١٧، والدارمي في المقدمة باب ٢٤، وأحمد في المسند ٣/١٣١، ٤/٢٠٩، ٣٩٩، ٤/٤١٢، ٤١٧.

(٣) تفسير الطبرى ٩/١٩٣.

لعلكم تتقون﴿ [البقرة: ٢١] من سورة البقرة، ولهذا قال ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعذالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيمة ﴿شهداء على الناس﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيمة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته .

وقوله ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة. وقوله ﴿واعتصموا بالله﴾ [الحج: ٧٨] أي اعتصدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتآيدوا به ﴿هو مولاكم﴾ أي حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى: ابن آدم اذكريني إذا غضبت، اذكريك إذا غضبت فلا أحمقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الحج والله الحمد والمنة .

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ حَشِيعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوعِ قَدِيلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِتَرْوِيْجِهِمْ حَفَظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَدِيْمُ مَلَوِيْمٍ ۝ فَمَنْ أَبْتَغَنَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لَا مُنْتَهِيهِمْ وَعَنْهُمْ رَأْعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُوَ عَلَىٰ صَلَوةِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْوَرِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرِدَوْسَ هُمْ فِيهَا حَلَالُ الدُّنْوَنَ ۝

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أملى علي يonus بن يزيد الأيلي عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري؟ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوبي التحل، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال «اللهم زدنا ولا تقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأثثنا ولا تؤثر علينا، وارض عننا وأرضنا». ثم قال - لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ: «قد أفلح المؤمنون» حتى ختم العشر، ورواه الترمذى في تفسيره، والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرزاق به، وقال الترمذى: منكر لا نعرف أحداً رواه غير يonus بن سليم، ويonus لا نعرفه.

وقال النسائي في تفسيره: أبناؤنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر عن أبي عمران عن يزيد بن يابونوس قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت «قد أفلح المؤمنون» - حتى انتهت إلى - «والذين هم على صلواتهم يحافظون» قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

وقد روی عن كعب الأحبار ومجاحد وأبي العالية وغيرهم: لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها: تكلمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون» قال كعب الأحبار: لما أعد لهم من الكرامة فيها. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه^(٢).

وقد روی ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، فقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب عن الجزييري عن أبي نصرة، عن أبي سعيد

(١) المستند ١/٣٤.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٩/١٩٦.

قال: خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها وقال لها: تكلمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون» فدخلتها الملائكة، فقالت: طوبى لك منزل الملوك، ثم قال: وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العمري، حدثنا عدي بن الفضل، حدثنا الجريري عن أبي نصرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطتها المسك - قال البزار: ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث - حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطتها المسك». فقال لها: تكلمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون» فقالت الملائكة: طوبى لك منزل الملوك» ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل وليس هو بالحافظ. وهو شيخ متقدم الموت.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قال لها: تكلمي، فقالت «قد أفلح المؤمنون» بقية عن الحجازيين ضعيف. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجات بن العارث، حدثنا حماد بن عيسى العبسي، عن إسماعيل السدي عن أبي صالح عن ابن عباس يرفعه «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودللي فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: «قد أفلح المؤمنون» قال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل».

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البزار، حدثنا محمد بن زياد الكلبي، حدثنا يعيش بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده: لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطتها المسك، وحصباوتها اللؤلؤ، وحشيشتها الزعفران، ثم قال لها انطقي، قالت: «قد أفلح المؤمنون» فقال الله: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل» ثم تلا رسول الله ﷺ: «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» [الحجر: ٩].

وقوله تعالى: «قد أفلح المؤمنون» أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف «الذين هم في صلاتهم خاشعون» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «خائفون ساكتون»، وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوع خشوع القلب، وكذا قال إبراهيم النخعي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح، وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم، إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون» خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم.

قال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مصلاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلاً أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لما واشتغل بها عما عداها وأثرها على غيرها، وحيث ت تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسيائي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حبب إلى الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة»^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا وكيع، حدثنا مسعود عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال: يا بلال «أرحنا بالصلاه» وقال الإمام أحمد^(٣) أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار، فحضرت الصلاه، فقال: يا جارية اثنيني بوضوء لعلي أصلح فأستريح، فرانا أنكرنا عليه ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاه».

وقوله: «والذين هم عن اللغو معرضون» أي عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لافائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: «إذا مروا باللغو مروا كراماً» [الفرقان: ٧٢] قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وفهم عن ذلك. قوله: «والذين هم للزكاة فاعلون» الأكثرون على أن المراد بالزكاة ه هنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: «وأنوا حقه يوم حصاده» [الأنعام: ١٤١] وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ه هنا زكاة النفس من الشرك والذنس، بقوله: «قد أفلح من زakah و قد خاب من دساه» [الشمس: ٩ - ١٠] وك قوله «وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة» [فصلت: ٦ - ٧] على أحد القولين في تفسيرهما، وقد يحتمل أن يكون كلاً الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله «والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام

(١) أخرجه النسيائي في عشرة النساء بباب ١، وأحمد في المسند ١٢٨ / ٣، ١٩٩، ٢٨٥.

(٢) المسند ٣٦٤ / ٥.

(٣) المسند ٣٧١ / ٥.

فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحالها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما أحاله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولُوكُهُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المعذبون.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكتها وقالت: تأولت آية من كتاب الله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فأتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ: تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها، قال: فغرب العبد وجز رأسه، وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم، هذا أثر غريب منقطع، ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة وهو ه هنا أليق، وإنما حرمتها على الرجال معاملة لها بتنقض قصدها، والله أعلم.

وقد استدل الإمام الشافعي رحمة الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفَرِوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولُوكُهُمُ الْعَادُونَ﴾ وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجزي عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيمة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين، ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب الله عليه الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغشا، والمؤذن جيرانه حتى يلعنه، والناكح حللة جاره» هذا حديث غريب، وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أو فوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ ﴿آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَثَ كَذَبٌ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتَمِنَ خَانَ﴾^(٢). قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ﴾ أي يواطرون عليها في مواقتها، كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلوة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(٣). أخرجاه في الصحيحين. وفي مستدرك الحاكم قال: «الصلوة في أول وقتها».

(١) تفسير الطبراني ٤٤٦/٤.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات باب ٢٨، ومسلم في الإيمان حديث ١٠٧، ١٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في مواقف الصلاة باب ٥، والجهاد باب ١، والأدب باب ١، والتوحيد باب ٤٨، ومسلم في الإيمان حديث ١٣٧، ١٤٠.

وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَواتِهِمْ يَحْفَظُونَ» يعني في مواقيت الصلاة، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جير وعكرمة. وقال قنادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاوة واختتمها بالصلاوة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَا تَحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يَحْفَظُ عَلَى الْوَضْوَءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(١) ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطَ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله متزلان: متزل في الجنة، ومتزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة متزلاً، فذلك قوله: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ»» وقال ابن حجر عن ليث عن مجاهد «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ» قال: ما من عبد إلا وله متزلان: متزل في الجنة ومتزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة وبيني بيته الذي في النار. وروي عن سعيد بن جير نحو ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «يُجِيءُ اللَّهُ نَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذِنْبِوْبِ أَمْثَالِ الْجَبَالِ، فَيُغَفِّرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيُضَعِّفُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»^(٣)، وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصَارَىً، فَيُقَالُ: هَذَا فَكَاكُكْ مِنَ النَّارِ» فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبي بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك قال: فحلف له^(٤)، قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: «تَلَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عَبْدَنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» [مريم: ٦٣] وكقوله: «وَتَلَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [الزخرف: ٧٢] وقد قال مجاهد وسعيد بن جير، الجنة بالرومية هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة باب ٤، وأحمد في المستند ٥/٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤، والتوجيد باب ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في التوبية حديث ٥١.

(٤) أخرجه مسلم في التوبية حديث ٤٩.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا الْطَّفْةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعَكَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْعَكَةَ عَظِيمًا فَكَسَوْنَا الْعَظِيمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا أَخْرَى فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَلَقَيْنِ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ تَمُوتُنَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةَ تُبَعَثُونَ ۝

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال الأعمش عن المنهاج بن عمرو عن أبي يحيى عن ابن عباس «من سلالة من طين» قال: من صفة الماء. وقال مجاهد: من سلالة أي من مني آدم. وقال ابن جرير^(١): إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه وقال قتادة: استل آدم من الطين وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب^(٢)، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقْتُمْ مِّنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بِشَرٍ تُنْتَشِرُونَ» [الروم: ٢٠].

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عوف، حدثنا قسامه بن زهير عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَتِهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بْنُ آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَيْضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالْطَّيْبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»^(٤) وقد رواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الأعرابى به نحوه. وقال الترمذى: حسن صحيح «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً» هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال في الآية الأخرى: «وَبَدَأْ خَلْقُ إِلَيْنَا إِنْسَانَ مِنْ لَمْنَ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ» [السجدة: ٧-٨] أي ضعيف، كما قال: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاكُمْ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ» يعني الرحمة معد لذلك مهياً له «إِلَى قَدْرِ مَعْلُومٍ فَقَدْرُنَا فَنَعْمَ الْقَادِرُونَ» [المرسلات: ٢١ - ٢٠] أي مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال هنـا: «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً» أي ثـم صيرنا النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترأب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقـوة إلى السرة، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة، قال عكرمة: وهي دم «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعَكَةً» وهي قطعة كالبصـعة من اللحم لا شـكل فيها ولا تخطـيط «فَخَلَقْنَا الْمُضْعَكَةَ عَظِيمًا» يعني شـكلـتها ذات رأس ويدـين ورـجلـين بـعـظـامـها وـعـصـبـها وـعـروـقـها.

وقد أخرجه أبو داود في السنة بـاب ١٦ ، والترمذى في تفسير سورة ٢ ، بـاب ١ .

(١) تفسير الطبرى / ٩ / ٢٠٢.

(٢) الطين الـلـازـبـ: هو الطين اللاـصـقـ الصـلـبـ.

(٣) المسند / ٤ / ٤٠٠ ، ٤٠٦.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة بـاب ١٦ ، والترمذى في تفسير سورة ٢ ، بـاب ١ .

من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يليل إلا عجب الذنب^(١) منه خلق ومنه يركب»^(٢) «فكسونا العظام لحمة» أي وجعلنا على ذلك ما يستره ويشهده ويقويه «ثم أنشأناه خلقاً آخر» أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب «فتبارك الله أحسن الخالقين».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر يعني ابن كثير مولى بني هاشم، حدثنا زيد بن علي عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذا نمت النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفح فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: «ثم أنشأناه خلقاً آخر» يعني نفخنا فيه الروح، وروي عن أبي سعيد الخدري أنه نفح الروح، قال ابن عباس «ثم أنشأناه خلقاً آخر» يعني فنفحنا فيه الروح، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال العوفي عن ابن عباس «ثم أنشأناه خلقاً آخر» يعني نقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيئاً ثم هرماً. وعن قتادة والضحاك نحو ذلك، ولا منافاة فإنه من ابتداء نفح الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال، والله أعلم.

قال الإمام أحمد^(٣) في مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفح فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختتم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختتم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٤) آخر جاه من حديث سليمان بن مهران الأعمش.

(١) عجب الذنب: أصله.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣٩، باب ٣، وسورة ٧٨ باب ١، ومسلم في الفتن حديث ١٤١ - ١٤٣، وأبو داود في السنّة باب ٢٢، والنمسائي في الجنائز باب ١١٧، وابن ماجه في الزهد باب ٣٢، ومالك في الجنائز حديث ٤٩، وأحمد في المسند ٢/٣٢٢، ٤٢٨، ٤٩٩.

(٣) المسند ١/٣٨٢، ٤١٤ - ٤٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، والأنبياء باب ١، والقدر باب ١، والتوحيد باب ٢٨، ومسلم في القدر حديث ١.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن خيثمة قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود - إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تعود في الرحم ف تكون علقة.

وقال الإمام أحمد^(١) أيضاً: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنهنبي، فقال: لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا النبي، قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد من يخلق الإنسان؟ فقال «يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فاما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقال: هكذا كان يقول من قبلك.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب ماذا؟ أشقي أم سعيد، أو ذكر أم أنشى؟ فيقول الله، فيكتبهان، ويكتب عمله وأثره ومصيته ورزرقه، ثم تطوى الصحيفة فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص» وقد رواه مسلم^(٣) في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو هو ابن دينار به نحوه، ومن طريق آخر عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفارى ب نحوه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضعة، فإذا أراد الله خلقها قال: أي رب، ذكر أو أنشى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ قال: فذلك يكتب في بطن أمه»^(٤) آخر جاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به.

وقوله: «فتبارك الله أحسن الخالقين» يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: «فتبارك الله أحسن الخالقين».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا

(١) المسند / ٤٦٥ .

(٢) المسند / ٦ / ٤ .

(٣) كتاب القدر حديث ٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الحيسن باب ١٧ ، والأئم باب ١ ، والقدر باب ١ ، ومسلم في القدر حديث ٥ .

علي بن زيد عن أنس قال: قال عمر، يعني ابن الخطاب رضي الله عنه: وافت ربى ووافقني في أربع: نزلت هذه الآية ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ الآية، قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾^(١).

وقال أيضاً: حدثنا أبي حدثنا آدم بن أبي إِيَّاس ، حدثنا شيبان عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنباري قال: أملى علي رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ - إلى قوله - ﴿خلقا آخر﴾ فقال معاذ ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: «بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين» وفي إسناد جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَتَّوْفُوا﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبَعَّثُونَ﴾ يعني النشأة الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ يَنْشئُ النَّشَأَةَ الْآخِرَةَ﴾ يعني يوم المعاد. وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلاق، ويوفي كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شرًا فشر.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عِنِّ الْخَلْقِ عَنِيلِينَ

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذلك خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وهكذا في أول ألم السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿أَلَمْ ترَوْا كِيفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزَلُ الْأَمْرُ بِيَنْهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وهكذا قال ههنا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عِنِّ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي ويلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرض، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرماد والبحار والقفار

والأشجار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظَلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابْسٌ إِلَّا
فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِهِ لَقَدِيرُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمُّ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ
نَخْلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَّاكِهُ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٩﴾ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيِّئَةٍ تَبَدَّلُ بِالْأَدْهَنِ
وَصَبِغُ لِلَّآكِلِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعْبَةٌ شُقِّيْكُرٌ مَمَّا فِي بُطُونِهِنَّ وَلَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلُكِ تَحْمِلُونَ ﴿٣٢﴾

يدرك تعالى نعمه على عباده التي لا تعد ولا تحصى في إزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والمرسان، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والشمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزراعتها ولا تحتمل دمتها إزالة المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر ويقال لها الأرض الجرز، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخير الرحيم الغفور.

وقوله: «فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ» أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. قوله: «وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِهِ لَقَدِيرُونَ» أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباح والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا يتغذى به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتتفعون به لفعلنا، ولكن بلطنه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار ويسقي به الزروع والشمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغسلون منه وتتطهرون منه وتتنظرون، فله الحمد والمنة.

وقوله: «فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخْلٍ وَأَعْنَابٍ» يعني فأخرجننا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق «ذات بهجة» أي ذات منظر حسن. قوله: «مِنْ نَخْلٍ وَأَعْنَابٍ» أي فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل المحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الشمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. قوله: «لَكُمْ فِيهَا فَوَّاكِهُ كَثِيرٌ» أي من جميع الشمار، كما قال: «بَيْنَتِكُمْ بِهِ الْزَرْعُ
وَالْزَيْتُونُ وَالنَّخْلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الْثَمَرَاتِ» [النحل: ١١]. قوله: «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنة ونضجه ومنه تأكلون.

وقوله: «شجرة تخرج من طور سيناء» يعني الزيونة، والطور هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم، وطور سيناء هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلام الله عليه موسى بن عمران عليه السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. قوله: «تبث بالدهن» قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره تبت الدهن كما في قول العرب: ألقى فلان بيده، أي يده، وأما على قول من يضمن الفعل، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن، ولهذا قال: «وصبغ» أي أدم، قاله قتادة، «للأكلين» أي فيها ما يتغذى به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الشامي، عن أبي أسيد واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنباري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوه به، فإنه من شجرة مباركة».

وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اتدموا بالزيت وادهنوه به فإنه يخرج من شجرة مباركة»^(٢)، ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق. قال الترمذى: ولا يعرف إلا من حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عمر، وربما لم يذكره. قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبي حدثنا سفيان بن عيينة حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة عن أبيه عن جده قال: ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد، وأطعمتنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ.

وقوله: «إن لكم في الأنعام لعبرة نسيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعلى الفلك تحملون» يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: «وتتحمل أنقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم» [النحل: ٧] وقال تعالى: «أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلًا يشكرون» [يس: ٧١ - ٧٣].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ عَيْرَهُ أَفَلَا نَنْقُونَ فَقَالَ الْمَلَوُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ بُرِيَّدُ أَنْ يُنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَرْزَلَ مَلَئِكَةً مَا سَعَيْتُمْ

(١) المستند ٤٩٧ / ٣.

(٢) أخرجه الترمذى في الأطعمة باب ٤٣، وابن ماجه في الأطعمة باب ٣٤.

رَبَّهُنَا فِي سَابِقَاتِ الْأَوَّلِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهُ، جِئْنَاهُ فَتَرَبَصُوا بِهِ، حَتَّىٰ حَيْنَ إِنَّ

يُخْرِي تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ لِيُنذِرُهُمْ عِذَابَ اللَّهِ وَبِأَسْهِ الشَّدِيدِ، وَانْتِقَامَهُ مِنْ أَشْرَكَ بِهِ وَخَالِفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رَسْلَهُ ﴿فَتَالِ يا قَوْمٍ اسْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَقَوَّنُ﴾ أَيْ أَلَا تَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ فِي إِشْرَاكِكُمْ بِهِ؟ فَقَالَ الْمَلَأُ وَهُمُ الْسَّادَةُ وَالْأَكَابِرُ مِنْهُمْ ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنُونَ يَتَرَفَّعُ عَلَيْكُمْ، وَيَتَعَاظِمُ بَدْعَوْيُ النَّبُوَةِ، وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فَكِيفَ أُوحِيَ إِلَيْهِ دُونَكُمْ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أَيْ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ نَبِيًّا لَبَعْثَةً مَلِكًا مِنْ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ بَشَرًا مَا سَمِعْنَا بِهِنَا، أَيْ بَعْثَةُ الْبَشَرِ فِي أَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ، يَعْنُونَ بِهِنَا أَسْلَافَهُمْ وَأَجَادَادَهُمْ فِي الدَّهْرِ الْمَاضِيَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أَيْ مَجْنُونٌ فِيمَا يَزْعُمُهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ وَاحْتَصَرَهُ مِنْ بَيْنِكُمْ بِالْوَحْيِ ﴿فَتَرَبَصُوا بِهِ حَتَّىٰ حَيْنَ﴾ أَيْ انتَظَرُوهُ بِهِ رَبِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَاصْبَرُوهُ عَلَيْهِ مَدْهَىٰ حَتَّىٰ تَسْتَرِيَحُوا مِنْهُ.

قَالَ رَبِّ أَنْصُرِي مِمَّا كَذَّبُونَ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَصْبِعَ الْفَلَكَ يَأْعِينُنَا وَوَحْيَنَا فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرُنَا وَفَكَارَ الْتَّشُّعُرُ فَأَسْلَكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَهَلَّاكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرِقُونَ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنَّ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقْلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَنَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزَلَنِي مُنْزَلًا مُبَارِكًا وَأَنَّ خَيْرَ الْمُزَلِّينَ إِنَّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْتَ وَإِنْ كُنَّا مُمْسِلِينَ

يُخْرِي تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ دَعَا رَبَّهُ لِيُسْتَنصِرَهُ عَلَى قَوْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر﴾ [القمر: ١٠] وَقَالَ هُنَّا: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِصْنَعَةِ السَّفِينةِ وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ ذَكْرًا وَأَنْثِي مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَاةِ وَالنَّبَاتِ وَالثَّمَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا أَهْلَهُ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ بِالْهَلَّاكَ، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهِ كَابِنَهُ وَزَوْجَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرِقُونَ﴾ أَيْ عِنْدَ مَعايِنَةِ إِنْزَالِ الْمَطَرِ الْعَظِيمِ لَا تَأْخُذْنِكَ رَأْفَةً بِقَوْمِكَ وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَطَمْعٌ فِي تَأْخِيرِهِمْ لِعَلِيهِمْ يَؤْمِنُونَ، فَإِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ مُغْرِقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْطُّغْيَانِ، وَقَدْ تَقْدَمَتِ الْفَصْحَةُ مِبْسوَطَةً فِي سُورَةِ هُودَ بِمَا يَعْنِي عَنْ إِعَادَةِ ذَلِكَ هُنَّا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنَّ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقْلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظَهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نَعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سَبِّحُوا الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كَانَ لَهُ مَقْرَنٌ وَإِنَا إِلَى رَبِّنَا لَمْنَقْلِبُونَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ١٤ - ١٢] وَقَدْ امْتَنَّ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكِبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا﴾ [هُودٌ: ٤١] فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ابْتِداِءِ

سيره وعند انتهاءه، وقال تعالى: «وَقَالَ رَبُّ أَنْزَلَنِي مِنْ لَأْ سَارِكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَنْزَلِينَ». قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ» أي إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآيات أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء علیم بكل شيء. قوله: «وَإِنْ كُنَّا لِمُبْتَدِئِينَ» أي لمختربين للعباد بإرسال المرسلين.

ثُمَّ أَنْشَأَنَا مِنْ بَعْدِهِرْ قَرُونًا أَخْرَينَ {٢٧} فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ أَفَلَا يَنْقُونَ {٢٨} وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءَ الْآخِرَةِ وَأَرْفَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مُّتَكَبِّرٌ يَا كُلُّ مَنَّا كَلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِنَ شَرِيبَتِنَا {٢٩} وَلَيَنْ أَطْعَمُنَّ شَرًا مُّتَكَبِّرًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ {٣٠} أَيُعْدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا يَمْتَمُّ وَكُنْتُمْ تُرَايَا وَعَظِيمًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ {٣١} هَيَّاهَاتِ هَيَّاهَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ {٣٢} إِنْ هُنَّ إِلَّا حِكَانَا الْدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَعْنُ بِمَبْعَثِنَا {٣٣} إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَفْتَرَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَعْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ {٣٤} قَالَ رَبِّي أَنْصَرْنِي بِمَا كَذَبْنَا {٣٥} قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ {٣٦} فَأَخْذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَثَاءَ فَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٣٧}

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرین، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: «فَأَخْذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ» وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبواه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه شرًا مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بلقاء الله في القيمة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا: «أَيُعْدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مَتْمَ وَكَتْمَ تَرَايَا وَعَظِيمًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ هَيَّاهَاتِ هَيَّاهَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ» أي بعيد بعده ذلك «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَفْتَرَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» أي فيما جاءكم به من الرسالة والندارة والإخبار بالمعاد «وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ قَالَ رَبِّي أَنْصَرْنِي بِمَا كَذَبْنَا» أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه «قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ» أي بمخالفتك وع纳دك فيما جئتكم به «فَأَخْذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ» أي و كانوا يستحقون ذلك من الله بکفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرير العاصف القوي الباردة «تَدَمِرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يَرِي إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ» [الأحقاف: ٢٥]. قوله: «فَجَعَلْنَاهُمْ غَثَاءَ» أي صرعي هلكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا يتفع بشيء منه، «فَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» قوله: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ» [الزخرف: ٧٦] أي بکفرهم وعنادهم ومخالفتهم رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

ثُمَّ أَنْشَأَنَا مِنْ بَعْدِهِرْ قَرُونًا أَخْرَينَ {٢٧} مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْهَلَهَا وَمَا يَسْتَنْهُرُونَ {٢٨} ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْنَا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٍ رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَابْتَعَنَّ بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ حَادِثَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ {٢٩}

يقول تعالى: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُوناً آخَرِينَ» أي أمماً وخلافه «مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ» يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم أممأ بعد أممأ، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف، «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَنْرِي» قال ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى: «وَلَقَدْ بَعْثَنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هُدِيَ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الضَّلَالُ» [النحل: ٣٦]. قوله: «كُلُّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَبُوهُ» يعني جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: «يَا حَسْرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُؤُنَ» [يس: ٣٠]. قوله: «فَأَتَبْعَثْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا» أي أهلكناهم كقوله: «وَكُمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقَرْوَنَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ» [الإسراء: ١٧]. قوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ» أي أخباراً وأحاديث للناس كقوله: «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَمْزُقٍ» [سبأ: ١٩].

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَطَنَ مُهَمَّا إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِيًّا فَقَالُوا أَئُمُّنُ لِبَشَرٍ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمْ مَا لَنَا عَنِّدُونَ فَكَذَبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ الْمُهَلَّكِينَ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْنَدُونَ

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبيهم فأهلك الله فرعون ولملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قسم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أممأ بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقَرْوَنَ الْأَوَّلَى بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» [القصص: ٤٣].

وَجَعَلْنَا أَبْنَى مُرَيْمَ وَأَمْمَهُ أَيَّةً وَأَوْسَطَهُمَا إِلَيْ رَبِّوْرَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. قوله: «وَآوْيَنَاهُمَا إِلَيْ رَبِّوْرَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» قال الضحاك عن ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وفتادة.

قال ابن عباس: قوله: «ذات قرار» يقول ذات خصب «معين» يعني ماء ظاهرأ، وكذا

قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر وقتادة. وقال مجاهد: ربوة مستویة، وقال سعيد بن جبیر: «ذات قرار ومعین» استوی الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة: «ومعین» الماء الجاری. ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة: من أي أرض هي؟ فقال عبد الرحمن بن زید بن أسلم: ليس الربی إلا بمصر، والماء حين يسئل يكون الربی عليها القری، ولو لا الربی غرق القری، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا، وهو بعيد جداً.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله: «وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعین» قال: هي دمشق، قال: وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشعج، حدثنا وكيع عن إسرائیل عن سمّاك عن عكرمة عن ابن عباس «ذات قرار ومعین» قال: أنهار دمشق. وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد «وأويناهما إلى ربوة» قال: عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها. وقال عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن أبي عبد الله بن عمّ أبي هريرة قال: سمعت أبي هريرة يقول في قول الله تعالى: «إلى ربوة ذات قرار ومعین» قال: هي الرملة من فلسطين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا رواد بن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السيباني عن ابن وعلة عن كريب السحولي عن مرة البهزي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لرجل: «إنك تموت بالربوة، فمات بالرملة»، وهذا حديث غريب جداً وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: «وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعین» قال: المعین الماء الجاری، وهو النهر الذي قال الله تعالى: «قد جعل ربك تحتك سرياً» [مریم: ٢٤] وكذا قال الضحاك وقتادة: «إلى ربوة ذات قرار ومعین» وهو بيت المقدس، فهذا - والله أعلم - هو الأظہر، لأن المذکور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه ببعض، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار.

يَتَّبِعُهَا الرَّسُولُ كُلُّوْمِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْمٌ ۝ وَإِنَّهَذِهِ أَمْكَنُ أُمَّةٍ وَجَدَةٌ وَإِنَّ رَبِّكُمْ فَالنَّقْفُونَ ۝ فَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بِنَفْسِهِمْ زِبْرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ فَذَرُوهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ جِنٌ ۝ أَيْخَسِبُونَ أَنَّمَا نِيَّدُهُمْ بِهِ مِنْ تَمَّالٍ وَبَنَنٍ ۝ شَارَعُهُمْ فِي الْحَيَّاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قوله: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات» قال: أما والله ما أمركم بأصنفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى العلال منه. وقال سعيد بن جبیر والضحاك: «كلوا من الطيبات» يعني الحلال. وقال أبو إسحاق

السبيعي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه^(١).

وفي الصحيح «وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»^(٢). وفي الصحيح «إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده»^(٣). وفي الصحيحين «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس قال: بعثت إلى النبي ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها أني كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله أخت شداد فقالت: يا رسول الله بعثت إليك ببلين، مرثية لك من طول النهار، وشدة الحر، فرددت إلى الرسول فيه، فقال لها: «بذلك أمرت الرسل: أن لا تأكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً».

وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذى ومسند الإمام أحمد واللطف له، من حديث فضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم» وقال: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب فأئني يستجاب لذلك»^(٥) وقال الترمذى: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق.

وقوله: « وإن هذه أمتكم أمة واحدة» أي دينكم يا معاشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال « وأننا ربكم فاندون» وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء، وأن قوله «أمة واحدة» منصوب على الحال. قوله: «فقطعوا أمرهم بينهم زبراً» أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء «كل حزب بما لديهم فرحة» أي

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٢٠/٩.

(٢) أخرجه البخارى في التجارات باب ٥.

(٣) أخرجه البخارى في البيوع باب ١٥.

(٤) أخرجه البخارى في الصوم باب ٥٧، والأنبياء باب ٣٧، ومسلم في الصوم حديث ١٨٦، ١٨٧.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٦٥، والترمذى في تفسير سورة ٢، باب ٣٦، والأدب باب ٤١، وأحمد

في المسند ٣٢٨/٢.

يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: «فذرهم في غمرتهم» أي في غيهم وضلالهم «حتى حين» أي إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: «فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» [الطارق: ١٧] وقال تعالى: «فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهم الأمل فسوف يعلمون» [الحجر: ٣].

وقوله: «أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون» يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» [سبأ: ٣٠] لقد أخطأوا في ذلك ونحاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء، ولهذا قال: «بل لا يشعرون» كما قال تعالى: «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليذهبهم بها في الحياة الدنيا» [التوبه: ٥٥] الآية. وقال تعالى: «إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً» [آل عمران: ١٧٨] وقال تعالى: «فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنتدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم» [القلم: ٤٤ - ٤٥] الآية، وقال: «ذرني ومن خلقت وحيداً» - إلى قوله - «عندما» [المدثر: ١٦ - ١١] وقال تعالى: «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفي إلا من آمن وعمل صالحاً» [سبأ: ٣٧] الآية، والآيات في هذا كثيرة.

قال قتادة في قوله: «أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون» قال: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمданى، حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه» قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَحْشِيَّةِ رَبِّهِمْ شَسْفَيْرُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مَآءَتِوا وَقُلُّهُمْ وَجْهَةُ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِيعُونَ ۚ أُولَئِكَ سُدِّيْرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَكِيْفُونَ ۚ

(١) المستند ٣٨٧ / ١.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتْبِهِ﴾ [التحريم: ١٢] أي أيقنت أن ما كان، إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخد صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصرروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشراق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله الذين يؤمنون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلبي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذى^(٢) وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول بنحوه، وقال «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات» وقال الترمذى: وروي هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا، وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى والحسن البصري في تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْلَةٌ﴾ أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنهقرأها كذلك. قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جويرية، حدثنا إسماعيل المكي، حدثنا أبو خلف مولىبني جمع أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنعك أن تزورنا أو تلمينا؟ فقال: أخشى أن أملك، فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل: كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قال: آية آية؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا﴾ فقالت: أيهما أحب إليك؟ فقالت: والذي نفسي بيده

(١) المسند ٦/١٥٩، ٢٠٥.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٢٣، في الترجمة.

(٣) المسند ٦/٩٥.

لإحداهما أحب إلى من الدنيا جميعاً، أو الدنيا وما فيها. قالت وما هي؟ فقلت: «والذين يأتون ما أتوا» فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف، فيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف.

والمعنى على القراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر، لأنه قال: «أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها ساقطون» فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتضدين أو المقتصرين، والله أعلم.

وَلَا تُكْفِنَّ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا وَلَدِينَا كِتَبٌ يَنْطَقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ ۝ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَذِيلُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا أَخْدَنَا مَرْفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَعْتَزِزُونَ ۝ لَا يَخْرُقُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَ الْمُنْتَصِرِينَ ۝ فَذَ كَانَتْ إِيمَانِي لِتَلَىٰ عَيْنَكُمْ فَكَتُمْتُ عَلَىٰ أَعْقَلِكُمْ ثَنَكِصُونَ ۝ مَسْتَكِيدُنَّ يَهُ سَمِّرَا تَهْجِرُونَ ۝

يقول تعالى مخبراً عن عده في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيمة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: «ولدينا كتاب ينطق بالحق» يعني كتاب الأعمال، «وهم لا يظلمون» أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيغفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكراً على الكفار والمرتكبين من قريش: «بل قلوبهم في غمرة» أي في غفلة وضلاله «من هذا»، أي القرآن الذي أنزله على رسوله ﷺ.

وقوله: «ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون» قال الحكم بن أبيان عن عكرمة عن ابن عباس «ولهم أعمال» أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك «هم لها عاملون» قال: لا بد أن يعملوها، كما روي عن مجاهد والحسن وغير واحد. وقال آخر: «ولهم آخرون» ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون» أي قد كتب عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب، وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

وقوله: «حتى إذا أخذنا مترفيهم بللعذاب إذا هم يجأرون» يعني حتى إذا جاء مترفيهم وهم السعداء المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم «إذا هم يجأرون» أي يصرخون ويسغيثون كما قال تعالى: «وَذَرُوهُوَالْمَكْذُوبُونَ أُولَئِنَّ النَّعْمَةَ وَمَهْلِكُهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدِينَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا» [المزمول: ١١ - ١٣] الآية، وقال تعالى: «وَكُمْ أَهْلُكُمْ مِّنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنَادِهِمْ وَلَاتِ

حين مناص﴾ [ص: ٣].

وقوله ﴿لَا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكم سوء جارتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكتنم على أعقابكم تنكسون﴾ أي إذا دعitem أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مستكبرين به سامراً تهجرن﴾ في تفسيره قوله: [أحدهما] أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإياهم إيه استكباراً عليه، واحتقاراً له ولأهلة، فعلى هذا الضمير في به فيه ثلاثة أقوال [أحدهما] أنه الحرم أي مكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. [والثاني] أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويدركون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. [والثالث] أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجانون، فكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل المراد بقوله: ﴿مستكبرين به﴾ أي بالبيت يفتخرن به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال النسائي من التفسير في سنته: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبد الله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مستكبرين به سامراً تهجرن﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهل سامراً قال: كانوا يتکبرون ويسمرون فيه ولا يعمرون ويهجرون، وقد أطنب ابن أبي حاتم هنا بما هذا حاصله.

أَفَلَمْ يَدْرِوُ الْقَوْلَ أَرْجَاءَهُرَّ مَا لَرَبَّاتِ أَبَابَاتِهِمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ أَمْ لَمْ يَعْفُوا رَسُوكُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوكَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ يَهُدِيَّهُمْ جِنَّةُهُمْ بِالْحَقِّ وَكَثُرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْ تَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ الْمَسْكُورَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِتِ ﴿٤﴾ بَلْ أَلَيْتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعَرِّضُونَ ﴿٥﴾ أَمْ تَسْتَعْلِمُهُمْ خَيْرًا فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٦﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَكِبُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ رَحْمَنَهُمْ وَكَثُنَّا مَا بِهِمْ إِنْ ضَرَرُ لِلْجَوْفِ فِي طَغْيَاتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتديربهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آباءهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أن لهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن

يقابلوا النعمة التي أسدتها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجاء منهم من أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم.

وقال قتادة «أفلم يدبروا القول» إذ والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه منه فهلكوا عند ذلك.

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: «أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون» أي أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم أي أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهة فيه، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلمو، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعتبروا بذلك.

وقوله: «أم يقولون به جنة» يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن أي افتراء من عنده أو أن به جنوناً لا يدرى ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبداً الآتين ولهذا قال: «بل جاءهم بالحق وأكثراهم للحق كارهون» يحمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ويتحمل أن تكون خبرية مستأنفة والله أعلم.

وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال النبي الله ﷺ: « وإن كنت كارها ». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له «أسلم» فتصعده ذلك ، وكبر عليه، فقال له النبي الله ﷺ «أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث ، فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه ، فدعاك إلى طريق واسع سهل ، أكنت تتبعه؟ » قال: نعم . قال «فوالذي نفس محمد بيده إنك لفدي أوurer من ذلك الطريق لو قد كنت عليه ، وإنني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه» وذكر لنا أن النبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له «أسلم» فتصعده ذلك ، فقال له النبي الله ﷺ: «أرأيت لو كان فتياً أحدهما إذا حدثك صدفك ، وإذا ائتمته أدى إليك ، فهو أحب إليك أم فتاك الذي إذا حدثك كذبك وإذا ائتمته خانك ؟ » قال: بل فتاي الذي إذا حدثني صدقني وإذا ائتمته أدى إلي ، فقال النبي الله ﷺ «كذاكم أشتم عند ربكم»^(١).

وقوله: «ولو اتبع الحق أهواههم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن» قال مجاهد وأبو

صالح والسدى: الحق هو الله عز وجل، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسد السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: «لولا نَزَّلَ هذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ» ثم قال: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكُمْ» [الزخرف: ٣٢ - ٣١] وقال تعالى: «قُلْ لَوْ أَتَتْمَ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأْمَسْكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ» [الإسراء: ١٠٠] الآية. وقال تعالى: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلْكِ إِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نِعِيرًا» [النساء: ٥٣] ففي هذا كله تبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدييره لخلقه، تعالى وتقديس، فلا إله غيره ولا رب سواه، ولهذا قال: «بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ» أي القرآن «فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مَعْرُضُونَ».

وقوله: «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا» قال الحسن: أجرًا. وقال قتادة: جعلاً «فَخَرَاجٌ رَبِّكُمْ خَيْرٌ» أي أنت لا تسألكم أجراً ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتبس عند الله جزيل ثوابه، كما قال: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» [سبأ: ٤٧] وقال: «قُلْ مَا أَسْأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» [ص: ٨٦] وقال: «قُلْ لَا أَسْأَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المُودَةُ فِي التَّرْبِيَةِ» [الشورى: ٢٣] وقال: «وَجَاءَ مِنْ أَنْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمَ اتَّبَعُوا الْمَرْسِلِينَ اتَّبَعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا» [يس: ٢٠ - ٢١].

وقوله: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ» قال الإمام أحمد^(١): حديثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فيبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلقة حبرة، فقال: أرأيتم إن أوردتكم رياضاً معيشة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معيشة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمعوا، فقال لهم: ألم الفكك على تلك الحال فجعلتهم لي إن وردت بكم رياضاً معيشة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفه: صدق والله لتبعنه، وقالت طائفه: قد رضينا بهذا نقيم عليه.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حديثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن

عبد الله الأشعري، حديثاً حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار، وتغلبوني وتقاهمون فيها تقاصم الفراش والجناحب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض، فتردون علي معاً وأشتاتاً أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي أي رب أمتي، فيقال: يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعده، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرن أحدكم يأتي يوم القيمة يحمل شاة لها ثغاء ينادي: يا محمد يا محمد.

فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغت، ولأعرن أحدكم يأتي يوم القيمة يحمل بعيراً له رغاء ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت، ولأعرن أحدكم يأتي يوم القيمة يحمل فرساً لها حمامة فينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت، ولأعرن أحدكم يأتي يوم القيمة يحمل سقاء من أدم ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت» وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي (قلت) بل قد روى عنه أيضاً أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح، ووثقه النسائي وابن حبان.

وقوله: «وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كُبُونَ» أي لعادلون جائزون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها. وقوله: «وَلَوْ رَحْمَنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بَيْمَنْ مِنْ ضُرِّ لِلْجَوَافِي طَغَيَانَهُمْ يَعْمَهُونَ» يخبر تعالى عن غلظتهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولا استمرروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْهُمْ مَعْرُضُونَ» [الأفال: ٢٣] وقال: «وَلَوْ تَرَى إِذَا وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نَرَدْ وَلَا نَكْذِبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنُونَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يَخْفُونَ مِنْ قَبْلِهِ وَلَوْ رَدَوْ لَعَادُوا لَمَا نَهَوْهُ عَنِهِ - إِلَيْهِ قَوْلُهُ - بِمَبْعَثِيْنَ» [الأنعام: ٢٧ - ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ولو كان كيف يكون، قال الصحاح عن ابن عباس: كل ما فيه «لو» فهو مما لا يكون أبداً.

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَيَا أَسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَرُونَ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَعْدَادَ قَلِيلًا مَا تَشَكُّرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَكَ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي، وَيُمِيتُ وَلَهُ أَخْيَالُ أَئِلِيلٍ وَالنَّهَارُ أَفْلَأَ تَعْقِلُونَ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا إِذَا وَسْتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعَظِلَمًا أَعْنَا لِمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ

وَإِنَّا فَنَاهَنَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْنَطْرُ الْأَوَّلَيْنَ [٨٧]

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فما استكناوا لربهم وما يتضرعون﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿فما استكناوا﴾، أي ما خشعوا ﴿وما يتضرعون﴾ أي ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانِ تَضْرِبُوا وَلَكُنْ قَسْتَ قُلُوبَهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزي، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبي علي بن يزيد - يعني النحوي - عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلوز - يعني الوير والدم - فأنزل الله ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكناوا﴾ الآية، وكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل عن علي بن الحسين عن أبيه به، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا، فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان، حدثني وهب بن عمر بن كيسان قال حبس وهب بن منه فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله يقول: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكناوا لربهم وما يتضرعون﴾ قال: وصام وهب ثلاثة متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أحدث لنا فأحدثنا، يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مُبْلِسُون﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أُبْلِسُوا^(٢) من كل خير وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم، ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفهام، وهي العقول والفهم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكِرُون﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسَ لَوْ حَرَصَتْ بِمُؤْمِنِين﴾ [يوسف: ١٠٣] ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه^(٣) الخلقة وذرئه^(٤) لهم فيسائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٥٨.

(٢) أُبْلِسُوا: أي يشوا.

(٣) البرء: الخلق.

(٤) ذرئه: الخلق، وذرأ الشيء: كثره ومنه الذرية.

ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيمة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما بدأه، ولهذا قال: «وهو الذي يحيي ويميت» أي يحيي الرم ويفيت الأمم، «وله اختلاف الليل والنهر» أي وعن أمره تسخير الليل والنهر، كل منها يطلب الآخر طلباً حيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: «الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار» [يس: ٤٠] الآية.

وقوله: «أفلا تعقلون» أي أفلéis لكم عقول تدلّكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء وخضع له كل شيء، ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشهوا من قبلهم من المكذبين «بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئنما متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون» يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى «لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين» يعنيون الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واحتلاظهم وهذا الإنكار والتکذيب منهم كقوله إخباراً عنهم «أئنما كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذاً كرحة خاسرة فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة» [النازعات: ١١ - ١٤] وقال تعالى: «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونبي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عظيم» [يس: ٧٩ - ٧٧] الآيات.

قُل لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنِ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ الْأَسْمَاءِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقَوْنَ ﴿٧﴾ قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ بِحِيرَةٍ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنَّمَا تُسْحَرُونَ ﴿٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَلَّازُونَ ﴿١٠﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمسركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الدين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدلون بشيء، بل اعتقادوا أنهم يقربونهم إليه زلفى «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» [الزمآن: ٣] فقال: «قل لمن الأرض ومن فيها» أي من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات «إن كنتم تعلمون سيدقولون الله» أي فيعترفون لك بأن ذلك الله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك «قل أفالا

تذكرون》 أَنَّهُ لَا تَنْبِغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلخَالِقِ الرَّزَاقِ لَا لِغَيْرِهِ.

﴿فَلَمَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؟ أَيْ مَنْ هُوَ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلُوِّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيَّرَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ الْخَاصِّينَ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ مِنْهَا وَالْجَهَاتِ، وَمَنْ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، يَعْنِي الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «شَأنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ عَرَشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِيَدِهِ مُثْلَ الْقَبْةِ^(١)، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ «مَا السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُ السَّبْعِ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكَرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةً مُلْقَاتِهِ بِأَرْضِ فَلَّةٍ»، وَإِنَّ الْكَرْسِيِّ بِمَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كُلُّكُلَّةٍ فِي تِلْكَ الْفَلَّةِ وَلَهُذَا قَالَ بَعْضُ السَّلْفِ: إِنَّ مَسَافَةَ مَا بَيْنَ قَطْرِيِّ الْعَرْشِ مِنْ جَانِبِ إِلَى جَانِبِ مَسِيرَةِ خَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَارْتِفَاعُهُ عَنِ الْأَرْضِ السَّابِعةِ مَسِيرَةِ خَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَقَالَ الصَّحَّاْكُ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ: إِنَّمَا سُمِيَ عَرْشًا لِرَتِفَاعِهِ.

وَقَالَ الأَعْمَشُ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ: إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي الْعَرْشِ كَالْقَنْدِيلِ الْمَعْلَقِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَقَالَ مَجَاهِدُ: مَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةً فِي أَرْضِ فَلَّةٍ. وَقَالَ أَبِي حَاتَّمَ: حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ سَالِمَ، حَدَّثَنَا وَكِيعُ، حَدَّثَنَا سَفِيَّانُ الشَّوَّارِيُّ عَنْ عَمَّارِ الدَّهْنَيِّ عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِّينِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَّرٍ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ قَالَ: الْعَرْشُ لَا يَقْدِرُ قَدْرُهُ أَحَدٌ، وَفِي روَايَةِ: إِلَّا اللَّهُ أَعْزُّ وَجْلًا، وَقَالَ بَعْضُ السَّلْفِ: الْعَرْشُ مِنْ يَاقُوتَةِ حَمْرَاءٍ، وَلَهُذَا قَالَ هُنَّا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَيِّ الْكَبِيرِ. وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أَيِّ الْحَسْنِ الْبَهِيِّ، فَقَدْ جَمَعَ الْعَرْشَ بَيْنَ الْعَظَمَةِ فِي الإِتْسَاعِ وَالْعُلُوِّ وَالْحَسْنِ الْبَاهِرِ، وَلَهُذَا قَالَ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مِنْ يَاقُوتَةِ حَمْرَاءٍ. وَقَالَ أَبِي مُسْعُودَ: إِنَّ رَبِّكُمْ لَيْسَ عَنْهُ لَيلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورٍ وَجْهِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ قَلْ أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ أَيْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَفَلَا تَخَافُونَ عَقَابَهُ وَتَحْذِرُونَ عَذَابَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وَإِشْرَاكَكُمْ بِهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ أَبِي الدِّنَيَا الْقَرْشَيِّ فِي كِتَابِ التَّفْكِيرِ وَالْإِعْتِبَارِ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ عَنْ أَبِي عَمْرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَثِيرًا مَا يَحْدُثُ عَنْ امْرَأَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ مَعَهَا ابْنٌ لَهَا يَرْعِي غَنْمًا، فَقَالَ لَهَا ابْنُهَا: يَا أَمَّهُ مَنْ خَلَقَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ . قَالَ فَمَنْ خَلَقَ أَبِي؟ قَالَتْ: أَبِي . قَالَ: فَمَنْ خَلَقَنِي؟ قَالَتْ: اللَّهُ . قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ؟ قَالَتْ: اللَّهُ . قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ . قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْجَبَلَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ . قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ هَذِهِ الْغَنْمَ؟ قَالَتْ: اللَّهُ . قَالَ: فَإِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ شَأْنًا ثُمَّ أَقْرَأُ نَفْسَهُ مِنَ الْجَبَلِ فَتَقْطَعُ. قَالَ أَبِي عَمْرٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَثِيرًا مَا يَحْدُثُنَا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ فِي السَّنَةِ بَابِ ١٨.

هذا الحديث، قال عبد الله بن دينار: كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث، قلت: في إسناده عبد الله بن جعفر المديني والد الإمام علي بن المديني، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم.

﴿قُلْ مَنْ بِيْدِهِ مُلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بيده الملك ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذَ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا والذى نفسي بيده» وكان إذا اجتهد في اليمين قال «لا ومقلب القلوب» فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿وَهُوَ يَجْعَلُ وَلَا يَجْعَلُ عَلَيْهِ إِنْ كَتَمُوا مَا تَعْلَمُوا﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يحفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يَجْعَلُ وَلَا يَجْعَلُ عَلَيْهِ﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشاً لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ﴾ [الأنياء: ٢٣] أي لا يسأل عما يفعل لعظنته وكبرياته وغلوته وحكمته وعدله، فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوْرِبِكَ لِنَسَانَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعرفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنِّي تَسْحَرُونَ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حَسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يَفْلُحُ الْكَافِرُونَ﴾ فالمسركون لا يفعلون ذلك عن دليلقادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلالة، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآباءهم وأسلفهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

مَا أَنْهَدَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ فَتَعَلَّمُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود، والشاهد أن الوجود منتظم متsonق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه البعض في غاية الكمال ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَنَاقُوتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى، وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد

منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هنا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب والأخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعِلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبَّانَ اللَّهَ عَمَّا يَصْفُونَ﴾ أي عمما يقول الظالمون المعتدلون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يَشَرِّكُونَ﴾ أي تقدس وتترى وتعالى وعز وجل عمما يقول الظالمون والجاحدون.

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِينَ مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَبْغِي لَنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَإِنَّا عَلَى أَن نُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لِتَذَدِّرُونَ ادْفَعْ بِالَّتِي هِي أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ تَخْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَتِ الشَّيَاطِينُ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ

يقول تعالى أمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم «رب إما تريني ما يوعدون» أي إن عاقبهم وأناأشاهد ذلك، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه «إذا أردت بقوم فتنة فتوقي إليك غير مفتون»^(١). وقوله تعالى: «وإنما على أن نريك ما نعدهم لقادرون» أي لو شئنا لأربناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن. ثم قال تعالى مرشدًا له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صدقة وبغضه محبة، فقال تعالى: «ادفع بالتي هي أحسن السيئة» وهذا كما قال في الآية الأخرى: «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنهولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا» [فصلت: ٣٤ - ٣٥ الآية، اي وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة «إلا الذين صبروا» اي على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم القبيح «وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم» أي في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعرفة، وقد قدمتنا عند الاستعاذه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزَهُ وَنَفْخَهُ»^(٢).

وقوله تعالى: «وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَن يَحْضُرُونَ» أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٣٨، باب ٢، ٤، وأحمد في المسند ٥/٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١١٩، والترمذى في المواقف باب ٦٥، وابن ماجه في الإقامة باب ٢، وأحمد في المسند ١/٤٠٣، ٤٠٤، ٢٥٣/٥، ٥٠/٣، ٢٥٦/٦.

ومن الغرق، وأعوذ بك من أن يتخطبني الشيطان عند الموت»^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمها كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «باسم الله، أَعُوذ بالكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرنون» قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فلعلها في عنقه^(٣). ورواه أبو داود والترمذى والنمسائى من حديث محمد بن إسحاق. وقال الترمذى: حسن غريب.

حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتَ قَالَ رَبِّ أَرْجِعُونِ لَعَلَّ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكَتْ كَلَّا إِنَّهَا كَلْمَةٌ هُوَ قَاءٌ لِيَهَا وَمِنْ وَرَاءِهِمْ بَرَزَ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُبَعَثُونَ

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفترطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: «رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلاماً» كما قال تعالى: «وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدهم الموت» - إلى قوله - «والله خير بما تعملون» [المنافقون: ١٠ - ١١] وقال تعالى: «وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب» - إلى قوله - «ما لكم من زوال» [إبراهيم: ٤٤] وقال تعالى: «يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسائل ربنا بالحق فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل» [الأعراف: ٥٣] وقال تعالى: «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمينا فارجعوا نعمل صالحاً إنما موقنون» [السجدة: ١٢] وقال تعالى: «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا» - إلى قوله - «ولئنهم لكاذبون» [الأنعام: ٢٧ - ٢٨] وقال تعالى: «ولو ترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل» [الشورى: ٤٤] وقال تعالى: «قالوا ربنا أمتنا اثنين وأحيطنا اثنين فاعتربنا بذنبنا فهل إلى خروج من سبيل» [غافر: ١١ - ١٢] والأية بعدها. وقال تعالى: «وهم يصطرون فيها ربنا آخر جنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا بما للظالمين من نصير» [فاطر: ٣٧] فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجاوبون عند الاحتضار ويوم الشور وقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم.

وقوله هنا: «**كلا إنها كلمة هو قائلها**» كلا حرف رد وجزر، أي لا نجيئه إلى ما طلب

(١) أخرجه أبو داود في الوتر بباب ٣٢.

(٢) المسند ٢/ ١٨١.

(٣) أخرجه أبو داود في الطبع باب ١٩ ، والترمذى في الدعوات باب ٩٣.

ولا نقبل منه. قوله تعالى: «إنها كلمة هو قائلها» قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لابد أن يقولها لا محالة كل محضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا، أي لأنها كلمة، أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحًا هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحًا ولكن يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون» قال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرأً عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار.

وقال محمد بن كعب القرظي: «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت» قال: فيقول الجبار: «كلا إنها كلمة هو قائلها» وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا، يقول الله تعالى: كلا كذبت. وقال قتادة في قوله تعالى: «حتى إذا جاء أحدهم الموت» قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله، وعن محمد بن كعب القرظي نحوه.

وقال محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل - يعني ابن عياض - عن ليث عن طلحة بن مصرف، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول: رب ارجعون أتوب وأعمل صالحًا، قال: فيقال قد عمرت ما كنت معمرًا، قال: فيضيق عليه قبره ويلتهم، فهو كالمنهوش ينام ويفزع، تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها^(١).

وقال أيضًا: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثني سلمة بن تمام، حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم، حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون». وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: «ومن ورائهم» يعني أمامهم. وقال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون، وفي قوله تعالى: «ومن ورائهم برزخ» تهديد لهؤلاء المحضررين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال

تعالى : «من ورائهم جهنم» [الجاثية: ١٠] وقال تعالى : «ومن ورائه عذاب غليظ» [إبراهيم: ١٧]. قوله تعالى : «إلى يوم يبعثون» أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء في الحديث «فلا يزال معذبًا فيها»^(١) أي في الأرض .

فَإِذَا نَفَخْتَ فِي الْأُصُورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَكَ فَمَنْ تَقْتَلَ مَوْلَانِيهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ حَفَّتْ مَوْلَانِيهِ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَلِدُونَ تَلْفَعُ وُجُوهُهُمُ الْأَنَارُ وَهُمْ فِيهَا كَلِيلُوْكَ

يخبر تعالى أنه إذا نفح في الصور نفحة النشور ، وقام الناس من القبور «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» أي لا تنفع الأنساب يومئذ ولا يرثي والد لولده ولا يلوى عليه ، قال الله تعالى : «ولا يسأل حميم حميمًا يبصرونهم» [المعارج: ١٠ - ١١] أي لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره ، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة ، قال الله تعالى : «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه» [عبس: ٣٧ - ٣٤] الآية ، وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيمة جمع الله الأولين والآخرين ، ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليأخذ حقه - قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو زوجته وإن كان صغيراً ، ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى : «فإذا نفح في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» رواه ابن أبي حاتم .

وقال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا أبو سعيد مولىبني هاشم ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبد الله بن أبي رافع عن المسور - هو ابن مخرمة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «فاطمة بضعة مني ، يقبضني ما يقبضها ، وي Rosenstein ما ي Rosensteinها ، وإن الأنساب تنقطع يوم القيمة إلا نسي وسببي وصهري» وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال : «فاطمة بضعة مني ، يربيني ما يربها ، ويؤذني ما آذها»^(٣) .

وقال الإمام أحمد^(٤) : حدثنا أبو عامر ، حدثنا زهير عن عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبي سعيد الخدرى عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر : «ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بل والله إن رحми موصولة في الدنيا والآخرة ،

(١) آخرجه الترمذى في الجنائز باب ٧٠.

(٢) المسند ٤/٣٢٣.

(٣) آخرجه البخارى في النكاح باب ١٠٩ ، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٩٣ .

(٤) المسند ٣/١٨ .

إِنَّمَا أَيُّهَا النَّاسُ فَرطٌ لَكُمْ إِذَا جَتَّمْ » قالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، فَأَقُولُ لَهُمْ : أَمَا السَّبُّ فَقَدْ عَرَفْتُ وَلَكُنْكُمْ أَحَدُهُمْ بعْدِي وَارْتَدَدْتُمُ الْقَهْقِرِيَّ « وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مُسْنَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَرَ بْنَ الْخَطَابِ مِنْ طَرِيقِ مُتَعَدِّدَةِ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا تَزَوَّجَ أُمَّ كَلْثُومَ بِنْتَ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ مَا يَبِي إِلَّا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « كُلُّ سَبٍّ وَنَسْبٍ إِنَّمَا مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا سَبِيبٍ وَنَسْبِيٍّ » رَوَاهُ الطَّبرَانِيُّ وَالبَزَارُ وَالْهَشَمُ بْنُ كَلِيبٍ وَالْبَيْهَقِيُّ ، وَالْحَافِظُ الضِّيَاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ وَذَكَرَ أَنَّهُ أَصْدَقُهَا أَرْبِعِينَ أَلْفًاً إِعْظَامًاً وَإِكْرَامًاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَقَدْ رُوِيَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَكِرٍ فِي تَرْجِمَةِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ زَوْجِ زَيْنَبِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْقَاسِمِ الْبَغْوَى : حَدَّثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْأَقْطَعِ ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ عَنْ إِبْرَاهِيمِ بْنِ يَزِيدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَادِ بْنِ جَعْفَرٍ سَمِعْتُ ابْنَ عَمْرٍو يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ نَسْبٍ وَصَهْرٍ يُنْقَطِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا سَبِيبٍ وَصَهْرِيٍّ » وَرَوَى فِيهَا مِنْ طَرِيقِ عَمَارِ بْنِ سَيْفٍ عَنْ هَشَامِ بْنِ عَرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرُو مَرْفُوعًا « سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِي وَلَا يَتَزَوَّجَ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ فَأَعْطَانِي ذَلِكَ » وَمِنْ حَدِيثِ عَمَارِ بْنِ سَيْفٍ عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرُو .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أَيْ مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيَّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَاسٍ ، « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أَيْ الَّذِينَ فَازُوا فَنْجَوْا مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلُوا الْجَنَّةَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَاسٍ : أُولَئِكَ الَّذِينَ فَازُوا بِمَا طَلَبُوا ، وَنَجَوا مِنْ شَرِّ مَا هُرِبُوا « وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ » أَيْ ثَقَلَتْ سَيَّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ « فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ » أَيْ خَابُوا وَهَلَكُوا وَفَازُوا بِالصِّفَقَةِ الْخَاسِرَةِ . وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبَزَارُ : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي الْحَارِثِ ، حَدَّثَنَا دَاؤِدُ بْنُ الْمُحْبَرِ ، حَدَّثَنَا صَالِحُ الْمَرِيِّ عَنْ ثَابِتِ الْبَنَانِيِّ وَجَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ وَمُنْصُورِ بْنِ زَادَانَ عَنْ أَنَّسِ بْنِ مَالِكٍ يَرْفَعُهُ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ مَلِكًا مُوكِلاً بِالْمِيزَانِ ، فَيُؤْتِي بِاَدَمَ فَيُوقَفُ بَيْنَ كَفَتَيِ الْمِيزَانِ ، فَإِنْ ثَقَلَ مِيزَانُهُ نَادَى مَلِكٌ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ : سَعْدُ فَلَانَ سَعَادَةٌ لَا يُشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَإِنْ خَفَ مِيزَانُهُ نَادَى مَلِكٌ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ : شَقِيُّ فَلَانَ شَقاْوَةٌ لَا يُسْعَدُ بَعْدَهَا أَبَدًا ، إِسْنَادُهُ ضَيِّعَفٌ فَإِنْ دَاؤِدُ بْنُ الْمُحْبَرَ ضَعِيفٌ مُتَرَوِّكٌ ، وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى : « فِي جَهَنَّمِ الْخَالِدُونَ » أَيْ مَا كَثُونَ فِيهَا دَائِمُونَ مُقِيمُونَ فَلَا يَظْعَنُونَ « تَلْفُحُ وَجْوهِهِمُ النَّارِ » كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَتَغْشَى وَجْوهِهِمُ النَّارِ » [إِبْرَاهِيمٌ : ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى : « لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُونَ عَنْ وَجْوهِهِمُ النَّارِ وَلَا عَنْ ظَهُورِهِمْ » [الْأَنْبِيَاءُ : ٣٩] الْآيَةُ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا فَرُوْهُ بْنُ أَبِي الْمُغَرَّبِ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ بْنَ الْأَصْبَهَانِيَّ عَنْ أَبِي سَنَانٍ ضَرَارَ بْنِ مَرْأَةٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْهَذِيلِ عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَا سَيَقَ لَهَا أَهْلَهَا تَلَقَّاهُمْ لَهُبَّهَا ، ثُمَّ تَلَفَّهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَقِنْ لَهُمْ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ

على العرقوب» وقال ابن مروديه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزار، حدثنا الخضر بن علي بن يونسقطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضرقطان، حدثنا سعيد بن سعيد المقبري عن أخيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: «تلفح وجوههم النار» قال: تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم.

وقوله تعالى: «وهم فيها كالحون» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني عابسون^(١). وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود «وهم فيها كالحون» قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفاته^(٢). وقال الإمام أحمد^(٣): أخبرنا علي بن إسحاق أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله، أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «وهم فيها كالحون» - قال - تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلية حتى تبلغ سرتها^(٤) ورواه الترمذى عن سويد بن نصر عن عبد الله بن المبارك به، وقال: حسن غريب.

أَلَمْ تَكُنْ مَا يَنْتَيْ تُنْلَى عَلَيْكُمْ فَكَتَبْتُ بِهَا شَكَنْبُونَ ﴿١﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شَقْوَتُنَا وَكُنَّا فَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٢﴾ رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٣﴾

هذا تقرير من الله وتوجيه لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقهم في ذلك، فقال تعالى: «أَلَمْ تكن آياتي تتنى عليكم فكتبت بها تكذبون» أي قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزالت شبهكم، ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ» [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: «وَمَا كَنَا مُعذِّبِينَ حَتَّى نُبَثِّ رَسُولًا» [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: «كُلُّمَا أَلْقَى فِيهَا فُوجٌ سَأَلُوكُمْ خَرْزَتِهَا أَلَمْ يَأْتُكُمْ نَذِيرًا» - إلى قوله - «فَسَحَقَ الْأَصْحَابَ السَّعِيرَ» [الملك: ٨-١١] ولهذا قالوا: «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضاللين» أي قد قاتلت علينا الحجة، ولكن كنا أشقي من أن نقاد لها ونتبعها، فضلتنا عنها ولم نرزقها. ثم قالوا: «ربنا آخر جننا منها فإن عدنا فإننا ظالمون» أي أردنا إلى الدين، فإن عدنا إلى ما سلف منها فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: «فَاعْرَفُنَا بِذَنْبِنَا فَهَلْ إِلَى خَرْجَوْنَ مِنْ سَبِيلٍ» - إلى قوله - «فَالْحَكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» [غافر: ١١-١٢] أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

(١) انظر تفسير الطبرى ٩/٤٤٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٩/٤٤٦.

(٣) المسند ٣/٨٨.

(٤) أخرجه الترمذى في جهنم باب ٥، وتفسير سورة ٢٣، باب ٤.

قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فِي قِبْلَةِ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبِّنَا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاجِحِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَعَّكُونَ إِنِّي جَرِيتُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرْتُمُهُمْ هُمُ الظَّاهِرُونَ

هذا جواب من الله تعالى للكافر إذا سألهوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول **(اخسووا فيها)** أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أدلاء ، **«ولا تكلمون»** أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي . قال العوفي عن ابن عباس **«اخسووا فيها ولا تكلمون»** قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان المروزي ، حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون ، قال هانت دعوئتم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون **«ربنا غلت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون»** قال : فيسكنت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم **«اخسووا فيها ولا تكلمون»** قال : فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم ، قال : فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وأخرها شهيق .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل ، حدثنا أبو الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود : إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعني من جهنم ، غير وجههم وألوانهم ، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول : يا رب ، فيقول الله : من عرف أحداً فليخرجه ، فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحداً ، فيناديه الرجل : يا فلان أنا فلان ، فيقول ما أعرفك ، قال : فعند ذلك يقولون **«ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون»** فعند ذلك يقول الله تعالى : **«اخسووا فيها ولا تكلمون»** فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد .

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه ، فقال تعالى : **«إِنَّهُ كَانَ فِي قِبْلَةِ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبِّنَا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاجِحِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا** أي فسخرتهم منهم في دعائهم إياي وتضررهم إلي **«حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي»** أي حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي **«وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَعَّكُونَ»** أي من صنيعهم وعبادتهم ، كما قال تعالى : **«إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الظَّالِمِينَ** آمنوا بضررهم وإذا مروا بهم يتغامزون **»** [المطففين : ٢٩ - ٣٠] أي يلمزونهم استهزاء : ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين ، فقال تعالى : **«إِنِّي جَرِيتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا»** أي على أذاكم لهم

واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

قَلَّ كُمْ لِيَشْتَمُّ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَقَلَ الْعَادِينَ ۝ قَلَّ إِنْ لِيَشْتَمُّ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا وَأَنْكُمْ إِلَنَّا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَقَعَنَّا إِلَهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝

يقول تعالى منبهًا لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقدون ﴿قَالَ كُمْ لِيَشْتَمُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلُوا أَيِ الْحَاسِبِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنْ لِيَشْتَمُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اي لما أثترتم الفاني على الباقى ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ولا استحققت من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير ، حدثنا الوليد ، حدثنا صفوان عن أبيع بن عبد الكلاعي أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ كُمْ لِيَشْتَمُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ - قَالَ - لَنَعَمْ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ رَحْمَتِي وَرَضْوَانِي وَجَنِّتِي امْكَثْتُمُ فِيهَا خَالِدِينَ مُخْلِدِينَ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ النَّارِ كُمْ لِيَشْتَمُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَيَقُولُ: بَئْسَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ، نَارِي وَسُخْطِي امْكَثْتُمُ فِيهَا خَالِدِينَ مُخْلِدِينَ» .

وقوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا﴾ أي أفظنتم أنكم مخلوقون عبثًا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل : للعبث ، أي لتعلموا وتعيشوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿وَأَنْكُمْ إِلَنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرْكَ سَدِي﴾ [القيمة : ٣٦] يعني هملاً . وقوله : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً ، فإنه الملك الحق المتباه عن ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [ق : ٧] .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا علي بن محمد الطنافي ، حدثنا إسحاق بن سليمان شيخ من أهل العراق ، أربأنا شعيب بن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما

بعد، أيها الناس إنكم لم تخلقاً عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاذاً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي عبد آخر جهه الله من رحمته، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بياق وقليلًا بكثير وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهاكين، وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديًّا ورائحاً إلى الله عزوجل، قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، ووجه الحساب، مرتنهن بعمله، غني عمما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله قبل انتقامه مواثيقه ونزول الموت بكم، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن نصير الخولاني، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حنش بن عبد الله أن رجلاً مصاباً مر به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثاً وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ حتى ختم السورة فبراً، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بِمَاذَا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال».

وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثاً وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ قال: فقرأنها فغمضنا وسلمنا.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن حنيس عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق، وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة، والسموات مطويات بيمنيه، سبحانه وتعالى عما يشركون، باسم الله مجرها ومرساها، إن ربى لغفور رحيم».

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهَاهَا لَآخَرَ لَا يَرْهَنَ لَهُ يَدَهُ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۖ ۚ وَقُلْ
رَبِّ آغْفِرْ وَأَرْحَمْ وَلَنْتَ خَيْرَ الْرَّحِيمِينَ ۖ ۖ

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهَاهَا لَآخَرَ لَا يَرْهَنَ لَهُ يَدَهُ﴾ وهذه جملة معتبرة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي الله يحاسبه على ذلك،

ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي لديه يوم القيمة لا فلاح لهم ولا نجاة. قال قاتدة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فَأَيُّهُمْ إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدُعُوتُهُ كَشْفَهُ عَنْكَ؟» قال: الله عز وجل. قال «فَأَيُّهُمْ إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَدُعُوتُهُ أَعْطَاكَهَا؟» . قال: الله عز وجل، قال: «فَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ هُؤُلَاءِ مَعَهُ، أَمْ حَسِبْتَ أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِ؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، فقال رسول الله ﷺ «تَعْلَمُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ» فقال الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلاً خصمني، هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذى في جامعه مسندًا عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله ﷺ نحو ذلك. قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ إِذَا أَطْلَقْ وَمَعْنَاهُ مَحْوُ الذَّنْبِ وَسْتِرْهُ عَنِ النَّاسِ، وَالرَّحْمَةُ مَعْنَاهَا أَنْ يَسْدِدَهُ وَيَوْفِقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ﴾.

آخر تفسير سورة المؤمنون.

فهرس المحتويات

سورة الإسراء

٣ الآية: ١
٤٢ الآيات: ٢ و ٣
٤٣ الآيات: ٤ - ٤
٤٥ الآيات: ٩ - ١١
٤٦ الآية: ١٢
٤٧ الآيات: ١٣ و ١٤
٤٩ الآية: ١٥
٥٧ الآيات: ١٦ و ١٧
٥٨ الآيات: ١٨ - ٢١
٥٩ الآيات: ٢٢ - ٢٤
٦٢ الآية: ٢٥
٦٣ الآيات: ٢٦ - ٢٨
٦٤ الآيات: ٢٩ و ٣٠
٦٦ الآيات: ٣١ و ٣٢
٦٧ الآية: ٣٣
٦٨ الآيات: ٣٤ و ٣٥
٦٩ الآيات: ٣٦ - ٣٨
٧١ الآيات: ٣٩ و ٤٠
٧٢ الآيات: ٤١ - ٤٤
٧٥ الآيات: ٤٥ و ٤٦
٧٦ الآيات: ٤٧ و ٤٨

٧٨	الآيات: ٤٩ - ٥٢
٨٠	الآيات: ٥٣ - ٥٥
٨١	الآياتان: ٥٦ و ٥٧
٨٢	الآياتان: ٥٨ و ٥٩
٨٤	الآية: ٦٠
٨٥	الآياتان: ٦١ و ٦٢
٨٦	الآيات: ٦٣ - ٦٥
٨٧	الآية: ٦٦
٨٨	الآيات: ٦٧ - ٦٩
٨٩	الآية: ٧٠
٩٠	الآياتان: ٧١ و ٧٢
٩١	الآيات: ٧٣ - ٧٧
٩٢	الآياتان: ٧٨ و ٧٩
١٠٢	الآياتان: ٨٠ و ٨١
١٠٣	الآيات: ٨٢ - ٨٤
١٠٤	الآية: ٨٥
١٠٧	الآيات: ٨٦ - ٨٩
١٠٨	الآيات: ٩٠ - ٩٣
١١١	الآياتان: ٩٤ و ٩٥
١١٢	الآياتان: ٩٦ و ٩٧
١١٣	الآيات: ٩٨ - ١٠٠
١١٤	الآيات: ١٠١ - ١٠٤
١١٦	الآياتان: ١٠٥ و ١٠٦
١١٧	الآيات: ١٠٧ - ١١١

سورة الكهف

١٢٢	الآيات: ٥ - ٦
١٢٤	الآيات: ٨ - ٩
١٢٥	الآيات: ١٢ - ١٣
١٢٧	الآيات: ١٦ - ١٣
١٢٩	الآلية: ١٧
١٣٠	الآلية: ١٨
١٣١	الآياتان: ١٩ و ٢٠
١٣٢	الآلية: ٢١
١٣٤	الآلية: ٢٢
١٣٥	الآياتان: ٢٣ و ٢٤
١٣٦	الآياتان: ٢٥ و ٢٦
١٣٧	الآياتان: ٢٧ و ٢٨
١٣٩	الآلية: ٢٩
١٤١	الآياتان: ٣٠ و ٣١
١٤٢	الآيات: ٣٢ - ٤١
١٤٤	الآياتان: ٤٣ و ٤٤
١٤٥	الآياتان: ٤٥ و ٤٦
١٤٨	الآيات: ٤٧ - ٤٩
١٥١	الآلية: ٥٠
١٥٣	الآيات: ٥١ - ٥٣
١٥٤	الآلية: ٥٤
١٥٥	الآيات: ٥٥ - ٥٩
١٥٦	الآيات: ٦٠ - ٦٥
١٦٣	الآيات: ٦٦ - ٧٠

١٦٤	الآيات: ٧٣-٧١
١٦٥	الآيات: ٧٦-٧٤
١٦٦	الآيات: ٨١-٧٧
١٦٧	الآية: ٨٢
١٧٠	الآيات: ٨٣ و ٨٤
١٧٢	الآيات: ٨٨-٨٥
١٧٤	الآيات: ٩١-٨٩
١٧٥	الآيات: ٩٦-٩٢
١٧٧	الآيات: ٩٩-٩٧
١٨٠	الآيات: ١٠٠-١٠٦
١٨٢	الآيات: ١٠٧-١٠٩
١٨٣	الآية: ١١٠

سورة مريم

١٨٧	الآيات: ٦-١
١٨٩	الآية: ٧
١٩٠	الآيات: ٩ و ٨
١٩١	الآيات: ١٥-١٠
١٩٣	الآيات: ٢١-١٦
١٩٦	الآيات: ٢٢ و ٢٣
١٩٨	الآيات: ٢٤-٢٦
٢٠٠	الآيات: ٢٧-٣٣
٢٠٤	الآيات: ٣٤-٣٧
٢٠٦	الآيات: ٣٨-٤٠
٢٠٨	الآيات: ٤١-٤٨
٢٠٩	الآيات: ٤٩ و ٥٠

الآيات: ٥١-٥٣	٢١٠
الآيات: ٥٤ و ٥٥	٢١١
الآيات: ٥٦ و ٥٧	٢١٣
الآية: ٥٨	٢١٤
الآيات: ٥٩ و ٦٠	٢١٥
الآيات: ٦١-٦٣	٢١٨
الآيات: ٦٤ و ٦٥	٢٢٠
الآيات: ٦٦-٧٠	٢٢٢
الآيات: ٧١ و ٧٢	٢٢٣
الآيات: ٧٣ و ٧٤	٢٢٧
الآية: ٧٥	٢٢٨
الآيات: ٧٦-٨٠	٢٢٩
الآيات: ٨١-٨٤	٢٣١
الآيات: ٨٥-٨٧	٢٣٢
الآيات: ٨٨-٩٥	٢٣٥
الآيات: ٩٦-٩٨	٢٣٦

سورة طه

الآيات: ١-٨	٢٤٠
الآيات: ٩ و ١٠	٢٤٣
الآيات: ١١-١٦	٢٤٤
الآيات: ١٧-٢١	٢٤٦
الآيات: ٢٢-٣٥	٢٤٧
الآيات: ٣٦-٤٠	٢٥٠
الآيات: ٤١-٤٤	٢٥٩
الآيات: ٤٥-٤٨	٢٦١

٢٦٢	الآيات: ٤٩_٥٢
٢٦٣	الآيات: ٥٣_٥٦
٢٦٤	الآيات: ٥٧_٦٤
٢٦٦	الآيات: ٦٥_٧٠
٢٦٧	الآيات: ٧١_٧٣
٢٦٨	الآيات: ٧٤_٧٦
٢٧٠	الآيات: ٧٧_٧٩
٢٧١	الآيات: ٨٠_٨٢
٢٧٢	الآيات: ٨٣_٨٩
٢٧٤	الآيات: ٩٠_٩٤
٢٧٥	الآيات: ٩٥_٩٨
٢٧٧	الآيات: ٩٩_١٠٤
٢٧٨	الآيات: ١٠٥_١٠٨
٢٧٩	الآيات: ١٠٩_١١٢
٢٨٠	الآيات: ١١٣_١١٤
٢٨١	الآيات: ١١٥_١٢٢
٢٨٣	الآيات: ١٢٣_١٢٦
٢٨٥	الآيات: ١٢٧_١٣٠
٢٨٧	الآيات: ١٣١ و ١٣٢
٢٨٩	الآيات: ١٣٣_١٣٥

سورة الأنبياء

٢٩٠	الآيات: ١_٦
٢٩٢	الآيات: ٧_٩
٢٩٣	الآيات: ١٠_١٥
٢٩٤	الآيات: ١٦_٢٠

الآيات: ٢١-٢٣	٢٩٥
الآيات: ٢٤-٢٩	٢٩٦
الآيات: ٣٠-٣٣	٢٩٧
الآيات: ٣٤ و ٣٥	٢٩٩
الآيات: ٣٦ و ٣٧	٣٠٠
الآيات: ٣٨-٤٣	٣٠١
الآيات: ٤٤-٤٧	٣٠٢
الآيات: ٤٨-٥٠	٣٠٤
الآيات: ٥١-٥٦	٣٠٥
الآيات: ٥٧-٦٣	٣٠٦
الآيات: ٦٤-٦٧	٣٠٧
الآيات: ٦٨-٧٠	٣٠٨
الآيات: ٧١-٧٥	٣١٠
الآيات: ٧٦-٨٢	٣١١
الآيات: ٨٣ و ٨٤	٣١٥
الآيات: ٨٥ و ٨٦	٣١٩
الآيات: ٨٧ و ٨٨	٣٢١
الآيات: ٨٩ و ٩٠	٣٢٤
الآلية: ٩١	٣٢٥
الآيات: ٩٢-٩٧	٣٢٦
الآيات: ٩٨-١٠٣	٣٢١
الآلية: ١٠٤	٣٢٥
الآيات: ١٠٥-١٠٧	٣٢٧
الآيات: ١٠٨-١١٢	٣٤٠

سورة الحج

٣٤١	الآيات: ١ و ٢
٣٤٦	الآيات: ٤ و ٣
٣٤٧	الآيات: ٧ - ٥
٣٥١	الآيات: ٨ - ١٣
٣٥٣	الآيات: ١٤ - ١٦
٣٥٤	الآيات: ١٧ و ١٨
٣٥٦	الآيات: ١٩ - ٢٢
٣٥٨	الآيات: ٢٤ و ٢٣
٣٥٩	الآلية: ٢٥
٣٦٣	الآيات: ٢٦ و ٢٧
٣٦٤	الآيات: ٢٨ و ٢٩
٣٦٨	الآيات: ٣٠ و ٣١
٣٧٠	الآيات: ٣٢ و ٣٣
٣٧٣	الآيات: ٣٤ و ٣٥
٣٧٤	الآلية: ٣٦
٣٧٨	الآلية: ٣٧
٣٨٠	الآيات: ٣٨ - ٤٠
٣٨٣	الآلية: ٤١
٣٨٤	الآيات: ٤٢ - ٤٦
٣٨٥	الآيات: ٤٧ و ٤٨
٣٨٧	الآيات: ٤٩ - ٥٤
٣٩٠	الآيات: ٥٥ - ٥٧
٣٩١	الآيات: ٥٨ - ٦٠
٣٩٣	الآيات: ٦١ - ٦٦

الآيات: ٦٧ - ٧٠	٣٩٥
الآيات: ٧١ و ٧٢	٣٩٦
الآيات: ٧٣ و ٧٤	٣٩٧
الآيات: ٧٥ - ٧٨	٣٩٨
سورة المؤمنون	
الآيات: ١١ - ١١	٤٠١
الآيات: ١٢ - ١٦	٤٠٦
الآلية: ١٧	٤٠٩
الآيات: ١٨ - ٢٢	٤١٠
الآيات: ٢٣ - ٣٠	٤١٢
الآيات: ٣١ - ٤٤	٤١٣
الآيات: ٤٥ - ٥٠	٤١٤
الآيات: ٥١ - ٥٦	٤١٥
الآيات: ٥٧ - ٦١	٤١٧
الآيات: ٦٢ - ٦٧	٤١٩
الآيات: ٦٨ - ٧٥	٤٢٠
الآيات: ٧٦ - ٨٣	٤٧٥
الآيات: ٨٤ - ٩٠	٤٢٥
الآيات: ٩١ و ٩٢	٤٢٧
الآيات: ٩٣ - ٩٨	٤٢٨
الآيات: ٩٩ و ١٠٠	٤٢٩
الآيات: ١٠١ - ١٠٤	٤٣١
الآيات: ١٠٥ - ١٠٧	٤٣٣
الآيات: ١٠٨ - ١١١	٤٣٤
الآيات: ١١٢ - ١١٦	٤٣٥
الآيات: ١١٧ و ١١٨	٤٣٦

